

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

فهم القرآن الحكيم

التفسير الواضح حسب ترتيب النزول

القسم الأول

محمد عابد الجابري

الإيداع القانوني رقم ، 2008/0480
ردمك 2 - 3083 - 0 - 9954
طبع بدار النشر المغربية-الدار البيضاء، المغرب
الطبعة الأولى ، 2008
© حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

فهم القرآن الحكيم
التفسير الواضح
حسب ترتيب النزول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

كيف نفهم القرآن؟

سؤال يستعيد، على مستوى آخر، السؤال الذي كنا طرحناه في مستهل مقدمة كتابنا الأخير "مدخل إلى القرآن الكريم" الذي خصصناه لـ "التعريف بالقرآن". كنا قد صغنا ذلك السؤال كما يلي: "هل يحتاج القرآن إلى تعريف؟" ومع أن هذا السؤال كان بمثابة تحدٍّ لأمر واقع، وهو اعتقاد معظم الناس بأن القرآن لا يحتاج إلى تعريف لكونه أشهر من أن يعرف به - عند قراء العربية على الأقل - فإن الاهتمام الذي أثاره ما كتبناه في ذلك "التعريف" قد كشف فعلاً عن الحاجة إلى استئناف القول في هذا الموضوع.

كان طرح السؤال حول "التعريف بالقرآن" ينطوي، كما قلنا، على نوع من التحدي لأمر واقع، وبالتالي كان يحتاج إلى نوع من المغامرة، أعني إلى الجراءة التي تفرضها الفلسفة على من ينتسب إلى حقولها، بوصفها "البحث عن الحقيقة". أما الإجابة عنه فقد كانت سهلة - على المؤلف - لأنه لم يجد نفسه مطالباً بالبحث عن حقيقة مجهولة أو ضائعة، بل كل ما وجد نفسه مطالباً به هو إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت من قبل، واستعادة مناقشات واجتهادات تنقل النظر إلى أبعد من سياق "العادة" المجمدة الرؤية، لتستحث الفكر المتقاعس على العمل لاكتساب رؤية جديدة أكثر استجابة لروح العصر.

أما السؤال الذي نستعيده هنا، كـ "ارتفاع" بسؤال "المدخل/التعريف"، فهو يقع على مستوى آخر. إنه لا ينطوي كسابقه على أي تحدٍّ لأي واقع، باعتبار أن "فهم القرآن" مهمة مطروحة في كل وقت ومطلوبة في كل زمان. وقد يكفي للتذكير بأن افتناعنا بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان يفرض علينا اكتساب فهم متجدد للقرآن بتجدد الأحوال في كل عصر. وإذن، فطرح السؤال بصيغة "كيف نفهم القرآن؟" لا ينطوي على أية مغامرة؛ لكن الإجابة عنه، على ضوء معطيات العصر الذي نعيش فيه، هي المغامرة الكبرى.

ذلك لأن سؤال "فهم القرآن" يستعيد، كما قلنا، سؤال "التعريف بالقرآن"، بكل حمولته وأفاقه. وهكذا فكما وجدنا أنفسنا مطالبين، في السؤال

الأول، بـ"إعادة طرح أسئلة سبق أن طرحت، واستعادة مناقشات واجتهادات" الخ، فإتنا في سؤال "الفهم" مطالبون كذلك بالمهمة ذاتها، وهي هنا أشق وأثقل بما لا يقاس. إتنا لن نتعامل مع القرآن كنص على بياض، نكتب على هوامشه وحواشيه ما تلهمنا به العبارة والمثل والقصة والوعد والوعيد الخ، وما يسعفنا به الخيال وتدفعنا إليه الميول والرغبات الخ، لا. إن المنهج الذي اتبعناه على مستوى "التعريف" يفرض نفسه علينا على مستوى "الفهم" كذلك.

لقد أوضحنا في "التعريف" كيف أن "القرآن" ليس هو مجرد كم من الصفحات ينظمها غلاف "المصحف"، بل هو نص اجتاز مسار الكون والتكوين خلال مسيرة تجاوزت عشرين سنة، ما بين ابتداء الوحي حتى وفاة متلقيه ومبلغه، صلوات الله وسلامه عليه؟ وإلى مثل هذا كان يطمح ما كنا نفكر في الكتابة عنه على مستوى الفهم. لقد كنا نطمح إلى أن نوضح كيف أن "فهم القرآن" ليس هو مجرد نظر في نص مكنت هوامشه وحواشيه بما لا يحصى من التفسيرات والتأويلات بل هو أيضا "فصل" هذا النص عن تلك الهوامش والحواشي، ليس من أجل الإلقاء بها في سلة المهملات، بل من أجل ربطها بزماتها ومكاتها، كي يتأتى لنا "الوصل" بيننا، نحن في عصرنا، وبين "النص" نفسه كما هو في أصالته الدائمة (1).

وما نقصد بـ"أصالة النص" ليس النص كما نزل، فهو معطى بكامل أصالته في "المصحف" الذي بين أيدينا، إذ "هو/هو" منذ أن جُمع في زمن الخليفة عثمان، بل المقصود بـ"الأصالة" هنا، على صعيد الفهم، هو هذا النص مجردا عن أنواع الفهم له، التي دونت في كتب التفسير باختلاف أنواعها واتجاهاتها. إن الأمر يتعلق هنا أساسا بعزل المضامين الإيديولوجية لتلك الأنواع من الفهم. أما المحتوى المعرفي في كتب التفسير فلأنها، في الجملة، يكرر بعضها بعضا فإنه يمكن الاستغناء عن كثير منها والاقتصار على المؤلفات المؤسسة: مثل التفسيرات التي ألفها بعض علماء اللغة، ويعاين لغوية الطابع مثل "مجاز القرآن" و"معاني القرآن"، والتفسيرين اللذين يمكن اعتبارهما بحق عدة التفسيرات اللاحقة لهما وهما "جامع البيان في تفسير القرآن"، الذي كتبه

1- بخصوص مفهوم "الفصل والوصل" كما نستعمله هنا، انظر كتابنا "نحن والتراث"، للمدخل العام فقر 4: ب- فصل المقروء عن القارئ... مشكلة الموضوعية. ج- وصل القارئ بالمقروء... مشكل الاستمرارية.

"العالم، الفقيه، المقرئ، المؤرخ، اللغوي، المفسر"، محمد بن جرير الطبري (225-310 هـ)، وتغلب فيه المرويات حتى إنه يكاد يستقصيها من جهة، و"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم جار الله محمد بن عمر بن محمد الزمخشري (467-538 هـ) من جهة أخرى، والذي يمكن وضعه على رأس التفسير "البينانية"، أعني التي اعتمدت المنهج البياني العربي. أما التفسير الأخرى التي لا يكرر بعضها بعضا كحلفات متفرعة عن سلسلة الطبري أو الزمخشري، فهي في الغالب تتحرك، بوضوح وسبق نية، في إطار مذهب من المذاهب التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي. ومع أننا لم نقص هذه من اهتمامنا إقصاء، فإننا قد تجنبنا صحبتها لما يغمرها من "مياه" إيديولوجية متدفقة.

وبعد، فعمل القارئ يتذكر أننا قد صرحنا في السطور الأولى من التقديم الذي صدرنا به "المدخل إلى القرآن الكريم" بأن هدفنا منه هو أن "يلقي بعض الأضواء على ما نعتقد أنه الخلفية التي توطر" ذلك الكتاب، فحسبنا، بل كررنا حكاية توالد وتتسلل الأجزاء الأربعة لكتابنا "تقد العقل العربي" منذ الإعلان عنه في "نحن والتراث" (1980) إلى صدور جزئه الأخير "العقل الأخلاقي العربي" (2001). وتشاء الأقدار أن يتكرر نفس التوالد والتتسلل مع "المدخل إلى القرآن" نفسه!

لقد كانت النية متجهة إلى كتابة جزء ثانٍ له، في "فهم القرآن" على غرار "التعريف بالقرآن". وكما نطلب مني "التعريف" الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة في الموضوع، ومعظمها تقع تحت الاسم الجامع "علوم القرآن"، فقد كان عليّ هنا الرجوع إلى جميع ما أمكنني الحصول عليه من المؤلفات السابقة التي لها علاقة بـ "فهم القرآن"، ويقع جلها تحت عنوان "التفسير". والتفسير كثيرة جدا: منها الطويل والوسيط والوجيز، ومنها السني والشيعي والصوفي، ومنها الذي يغلب عليه الاعتماد على المأثور ومنها الذي يغلب عليه الرأي، ومنها الذي يهيمن فيه المنظور الفقهي، ومنها الذي يستهوي صاحبه الجدل "الكلامي" (نسبة إلى علم الكلام)؛ كما أن منها من ليس تفسيراً للقرآن بالمعنى الاصطلاحي بل حديثاً تحت ظلاله، أو اجتهدا على ضوء مناره الخ، الخ.

لقد خرجت من مصاحبة هذه التفسير مدة من الزمن، مستعينا بالحاسوب وما يرتبط به من مكونات ووسائل تمكن مستعملها من الجولة في الكتب بسهولة، مهما كبر حجمها وتعددت مجلداتها، والقيام بعمليات البحث والضبط والتجميع والتأليف والتفريق والتصنيف في ثوان معدودات، أقول: خرجت من مصاحبة جميع التفسير المتوفرة، ككتب على الورق أو كنصوص على الأقراص أو على الانترنت، بنتيجة عامة وهامة: وهي أن كتابة الجزء الثاني الذي وعدت به في "التعريف بالقرآن"، ليكون موضوعه "فهم القرآن"، لن يرقى إلى مستوى الرؤى والآفاق التي طرحها هذا الأخير، ما لم يتجاوز مجرد الاختصار على جملة موضوعات في القرآن، إلى فهم للقرآن ككل، إلى تفسير.

لقد عمق هذا الشعور في نفسي "كلام" وجيز ولكنه عميق جدا، قرأته للشاطبي في "الموافقات" التي عدت إليها في إطار الجولة التي أشرت إليها قبل، "كلام" بدا لي كأنني أقرأه لأول مرة مع أنني مررت عليه مرارا، ولكني لم "أسمعه" بنفس القوة التي سمعته بها هذه المرة. أما نص هذا "الكلام" - الذي استهل به الشاطبي المسألة الحادية عشرة من المسائل التي تكلم فيها عن "الكتاب" بوصفه الدليل الأول في "الأدلة الشرعية"⁽²⁾ - فهو كما يلي، قال: "للمدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح"⁽³⁾، (والضمير يعود على "الفهم" في قوله : منزلاً في الفهم). ومع أنني كنت أكدت في "التعريف" على ضرورة الاهتمام بترتيب النزول، إلا أن ما سمعته من الشاطبي هذه المرة، وهو يتكلم عن "الكتاب"، قد ولد في شعورا عميقا بأن "فهم القرآن" يعني فهم "الكتاب". لقد تحدثت في "التعريف" عن "القرآن/الكتاب"⁽⁴⁾ وأكدت على أهمية فعل "القراءة" (التلاوة) في تسمية القرآن قرآنا، ولكنني لم أكن أعني بما يكفي من العمق "الحكمة" من إطلاق اسمين على مسمى واحد. أما الآن فقد غدا من السهل عليّ القول إننا نستطيع أن نتعامل مع أية سورة أو أية مجموعة من آيات القرآن المتلو، ولا نحتاج في التواصل

2- التي هي: القرآن السنة والإجماع والقياس، وتسمى أيضا أصول التشريع في الإسلام.

3- أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات ج3. ص406

4- الفصل السادس، خصوصا الفقرة رقم 4، وخلاصة الفصل.

معها سوى إلى مقرئ يجيد التلاوة. ذلك لأن معنى القرآن المتلو يكون "أصل انفجاره من القلب"، كما يقول الشاطبي في معرض كلامه عن الفهم الصوفي والباطني للقرآن، أما معنى القرآن المكتوب فيتطلب فهمه تتبع ترتيبه ككتاب، فيه السابق واللاحق، على أساس - ولا ضير في تكرار كلام الشاطبي - أن: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح" الفهم.

إن انبثاق "فهم الكتاب الحكيم" في العقل، يتطلب، من "الجهد الذهني"، ربما أكثر كثيرا مما يتطلبه "انفجار القرآن الكريم" في القلب من "فراغ الذهن". ذلك لأن الجهد المطلوب في عملية الفهم، بالنسبة لعملائنا هنا، جهد مضاعف: سيكون علينا في البداية التأكد من مصداقية أي ترتيب للنزول نأخذ به، وذلك يعني إعادة بناء الترتيب الذي تعطيه اللوائح المروية على أساس الأخذ بالاعتبار المرويات التي تتحدث عن تاريخ نزول هذه السورة أو تلك، أو عن مناسبات نزول بعض آياتها، سواء وافق ذلك ترتيب اللوائح أو خالفه. هذا فضلا عن أن إعادة النظر في ترتيب النزول يجب أن تنطلق أولا من الفصل في مسألة المكي والمدني من السور والآيات ... ومع أن المادة في هذا المجال موجودة بغزارة، في التفسير المطولة وكتب علوم القرآن وكتب الحديث وكتب التاريخ الخ، إلا أن كثيرا منها يطرح مشكلة التوافق مع السياق ومع مبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا"، وسنرى في صفحات هذا الكتاب، بأقسامه الثلاثة، أمثلة كثيرة؛ مزجة حقا!

لنقل إذن إن النتيجة العامة والعملية التي خرجت بها من مصاحبة التفسير الموجودة هي أن المكتبة العربية الإسلامية تفتقر إلى تفسير يستفيد في عملية "الفهم" من جميع التفسيرات السابقة ولكنه يعتمد ترتيب النزول⁽⁵⁾، ويسلك طريقة في "الإفهام" ألصق بالطريقة التي تعتمد اليوم في الكتابة مع

5- هناك محاولتان في هذا الموضوع: محاولة المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير الذي قام بترجمة معاني القرآن إلى الفرنسية (1947-1950) على أساس "ترتيب النزول" الذي وضعه المستشرق الألماني نلدر، وقد عدل عنه في الطبعة الثانية لكتابته فرجع إلى ترتيب المصحف، ثم محاولة الدكتور محمد عزة دروزة، "التفسير الحديث" 1961-1964. وقد تحدثنا عن هاتين المحاولتين وأبدينا رأينا فيهما في "المدخل إلى القرآن الكريم" (التعريف). الفصل العاشر: ثانيا، فقرة 2 و 3

الاستفادة مما يقدمه الحاسوب من إمكانيات على مستوى التنظيم والتصنيف واستعمال العلامات الخ.

كانت الكتابة إلى وقت قريب سجينة فقر هائل على مستوى "أدوات الإفهام"، أفقر كثيرا مما كان متوافرا على مستوى الكلام. كان المتكلم والخطيب والمجادل الخ، وما يزال، يستعين، في عملية الإفهام، بالإشارة بيده وعصاه ورأسه وحاجبيه، بابتسامته وعبوسه وضحكه وبكائه. كان جسمه كله مجندا في عملية الإرسال، وكان المتلقي يتلقى تلك الإشارات فتسد لديه ثغرات الصوت وتقطعه وارتجاجه... أما الكاتب فلم يكن يملك سوى أن يبدأ من أقصى نقطة في الورقة (على اليمين إن كانت اللغة تبدأ من اليمين، أو على اليسار إن كانت بالعكس)، راصاً الحروف والكلمات جنبا إلى جنب، حتى إذا انتهت الورقة انتقل إلى أخرى واضعا علامة يفهم منها ما يفهم من كلمة "يتبع"، ثم يستمر هكذا. وإذا ما هو شعر بأن ما سيكتب لا يشكل جزءا من الكلام الصامت الذي ينقله إلى "الخط" وضع كلمة "فصل"، إشعارا بأن ما سيخط في تلك اللحظة، منفصل عما مضى وعما سيأتي.

هذا الأسلوب في الخط والكتابة هو نفسه ما كان يجري به العمل في "التفسير". يبدأ المفسر -بعد البسملة- بكلمة من سورة يخطها، مميزة بعض التمييز عن كلامه هو، ثم يستمر في شرحها بإيجاز لا "يسمن ولا يغني من جوع" إن كان يكتب تفسيراً موجزاً؛ أما إن كان تفسيره من الطوال فهو يبدأ بذكر نوع "القراءة" أو القراءات التي قرئت بها الكلمة ثم يأتي بما قاله فيها أهل اللغة والنحو والصرف قبل أن ينتقل إلى إيراد مرويات ترافقها استطرادات الخ، ليتحول بعد ذلك إلى اللفظ التالي من ألفاظ السورة بعد أن يكون قد مر كم هائل من الكلام عن اللفظ السابق، وهكذا... بعض المفسرين يسلك طريقة مختلفة، طريقة "التفسير بالجملة" بدل "التفسير بالتبسيط"، فيورد عدة آيات أو سورة بكاملها من المفصل، ثم ينطلق في الشرح والتطبيق والافتباس والاستشهاد والرد. مفترضاً أن ألفاظ الآية أو السورة "محفوظة في صدر" القارئ -وقد كان الأمر كذلك لأن من ينتقل إلى "التفسير"، قراءة أو كتابة كان يحفظ القرآن في الأغلب الأعم. وغني عن البيان القول إن هذا الفقر الهائل الذي عانت منه الكتابة -عندنا وعند غيرنا- قد عمق الهوة بين الناس وبين ممارسة عملية

الفهم لنصوصهم الدينية، وذلك إلى درجة انتقلت معها قداسة النص الديني إلى ما كتب عليه. وأمام غياب الفهم وانتشار الأمية صار المقدس ليس هو النص مستقلاً عن المكتوب فيه، بل هو المكتوب فيه نفسه، تماماً كما أن الاحترام للشخص المتوفى ينتقل منه، ككائن حي، إلى قبره وضريحه.

وفي المقابل من ذلك كله، يجب استحضار ذلك المجهود الكبير الذي بذل بتقنيات عالية في تجهيز القراءة في المصحف. لقد كانت الكتابة العربية زمن النبي (ص) والخلفاء الراشدين تخط بدون نقط وبدون شكل وبدون ترقيم للآيات، حتى إن الفصل بين سورة وأخرى كان بكتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" بينها... ولكن لم يمر وقت طويل حتى صار المصحف يكتب بالنقط والشكل مع ترقيم الآيات، مجهزاً بعلامات خاصة بالقراءة والتلاوة والتجويد، وهكذا انتقل إلى كلمات المصحف ما كان يخزن في جهاز الصوت عند المقرئ، فصارت طريقة قراءة القرآن رموزاً مسجلة في النص، لا بد من مراعاتها عند التلاوة.

لكن هذا المجهود التقني الذي بذله المختصون في تلاوة القرآن منذ وقت طويل لم يبذل مثله في مجال "التفسير"، رغم تطور الكتابة وأدوات "الإفهام". نقصد بذلك ما نجهز به نصوصنا اليوم من علامات تعين على الفهم وتقوم في الكتابة مقام "علامات التلاوة" في المصحف وأيضاً مقام "إشارات" المتكلم والخطيب. من ذلك الرجوع إلى أول السطر عند اكتمال التعبير عن الفكرة والانتقال إلى فكرة جديدة، ووضع نقطة عند اكتمال الجملة، والفاصلة بين الكلمات عندما يتعلق الأمر بعبارة تعداد، أو للفصل بين أجزاء الجملة، للتمييز فيها بين ما هو أساسي وما هو فاضل، ووضع نقطة فاصلة بين جملتين مستقلتين ولكن مترابطتين، ووضع علامة للاستفهام وأخرى للتعجب، واستعمال المزدوجتين عند الاقتباس أو عند تسجيل نوع من التحفظ، والهلاليين للتفسير أو العزل وما أشبه، والمعقوفتين عند إضافة المحقق أو المقتبس كلمة أو عبارة إلى النص الأصلي، عند شعوره بسقوط تلك الكلمة أو العبارة...

بهذه العلامات يتم التغلب في الكتابة المعاصرة على كم هائل من الصعوبات التي كانت تعترض القارئ في الماضي، سواء في اللغات التي تحتاج الكتابة فيها إلى "الشكل" لإبانة المعنى أو في التي تكتب فيها علامات الشكل مع حروف الكلمات؛ فبتلك العلامات يتم التمييز في النص بين أجزاء الكلام المكتوب، مشكولاً أو غير مشكول.

إن استعمال "علامات الإفهام"، هذه، يشكل جزءاً أساسياً مما ندعيه من الوضوح لهذه المحاولة في التفسير، التي لم نتردد في تسميتها بـ "التفسير الواضح". ذلك أنه فضلاً عن دور تلك العلامات في عملية الإفهام، كما بينا أعلاه، فإنها تمكننا من جعل القارئ يرافق باستمرار نص القرآن وهو يقرأ، بين هلالين وبخط مختلف، معنى اللفظ أو العبارة من غير انتقال إلى خارج ذلك النص للبحث عن المعنى الذي قد لا يجده في التفسير المكتوبة بالطريقة القديمة، خاصة المطولة منها، إلا بمشقة؛ أعني بعد استعراض صفحة أو صفحات يعود بعدها إلى "مكانه" مشتت الذهن، تعب البصر. وقد تمكنا في الوقت نفسه من اعتبار تموجات المعنى، باستعمال علامات الفهم والإفهام، والحفاظ في الوقت نفسه على حدود الآيات بكتابة أرقامها بحجم مصغر فوق آخر حرف من الآية، وذلك كي لا تختلط بالأرقام التي تحيل إلى الهوامش والتي ميزناها هي الأخرى بوضعها بين هلالين مرفوعة بحجم مختلف.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عمدنا، توخياً لأكبر قدر من الوضوح، إلى تنظيم ما تورده التفاسير - من نقول ومعلومات واجتهادات متداخلاً متراكماً في الغالب - تنظيمياً مبنياً على طبيعة الموضوع. وهكذا وزعنا مادة "التفسير" في كل سورة إلى ثلاثة أقسام: تقديم، وهوامش، وتطبيق.

1- أما التقديم فقوامه عرض مختصر، صدرنا به كل سورة، خصصناه لأهم المرويات التي وردت حولها كسورة، أو حول بعض آياتها، مما يعتبر من "أسباب النزول" أو ما هو مجرد مرويات تعين على الفهم أو على تحديد تاريخ نزول السورة أو ظروف نزولها الخ، مع التخفيف من سلاسل السند إلى أقصى حد؛ إذ ما الفائدة من ذكر السند لغير المختص فيه؟ أما المختص فله مراجعه ومقاييسه. كما استغنيا عن ذكر المصدر، والجزء، ورقم الصفحة، والطبعة الخ، بالاختفاء بذكر مؤلف التفسير (مثل الطبري، الزمخشري، الرازي الخ)، لأن تفاسيرهم معروفة، ولأن الطريق إلى النص الذي نحيل إليه تقود إليه الآية ورقمها، مهما كانت الطبعة. وفي أحيان كثيرة نكتفي بعبارة "يقول المفسرون" وما في معناها لأن الأمر يتعلق برواية موجودة لدى معظمهم، والغالب ما يكفي فيها الرجوع إلى الطبري، فجل المفسرين، إن لم يكن جميعهم، عالمة عليه في المرويات.

2- أما الهوامش أسفل الصفحات فقد أدرجنا فيها الشروح أو التعليقات التي نحتاج من حين لآخر إلى تسجيلها لكونها تُطلع القارئ على رأي خاص بمفسر معين، أو على مرويات أو ملاحظات يتعدى إدراجها بين الهالين داخل النص، بسبب طولها أو عدم وجود علاقة مباشرة بينها وبين النص.

3- وكما صدرنا كل سورة بتقديم خاص بها، ختمنا تعاملنا معها بتطبيق نستعيد فيه أهم القضايا التي تناولتها في شكل خلاصة مركزة، مع إبداء الرأي في هذه المسألة أو تلك.

وقبل ذلك وبعده، لا بد من الإشارة إلى أننا ميزنا في تسلسل السور حسب ترتيب النزول بين مراحل، راعينا فيها التطابق، النسبي على الأقل، بين مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، وسيلمس القارئ بنفسه أن ما قمنا به في هذا المجال لا يعدو أن يكون مجرد وضع عناوين لكل مرحلة. وهكذا نتبين بكل وضوح أنه، مع أن القرآن نزل منجما وخلال أزيد من عشرين سنة، فإن تسلسل سورة -حسب ترتيب النزول- يباطنه تسلسل منطقي سرعان ما نكتشفه عندما ننتبه إلى الموضوع الذي تركز عليه هذه المجموعة من السور أو تلك في تسلسلها؛ وبالرجوع إلى وقائع السيرة نكتشف أن ذلك المنطق، الذي يباطن تسلسل السور داخل كل مجموعة، يتطابق في مضمونه مع تسلسل هذه الوقائع؛ الشيء الذي نتبين منه بوضوح أن مسار التنزيل مساوق فعلا لمسيرة الدعوة(6).

6- وهذا مصداقا لقوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كُنَّا نُرَىٰ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ، لَنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً؛ وَكَأَيُّ تَوَكُّفٍ بِمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا" (الفرقان 32-33). فالحكمة من تنزيله مفرقا هو تثبيت فؤاد النبي عليه السلام بالجواب في الحين وفي كل مرة على اعتراضات قريش واستهزاءاتهم وإحراجاتهم واعتداءاتهم. وهذا التنزيل المفرق قد جاء "مرتلا ترتيلاً" أي متتابعاً شيئاً فشيئاً، منضداً مرتباً. وهكذا فما من مثل يضربه مشركو مكة لتعزيز اعتراضاتهم وتقوية حججهم إلا ويأتي الرد عليه من القرآن بما هو أوضح بياناً للحق وأحسن تفسيراً، وهذا جعل مسار التنزيل مساوقاً أصلاً لوقائع السيرة النبوية. وهذه الآية نفسها نزلت رداً على قريش عندما استصغروا من شأن القرآن وقالوا ما هو إلا أقوال يأتيها محمد من حين لآخر. قالوا: فلو كان نبياً حقاً لجاء مجموعاً، مثل كتاب موسى، غافلين أو متغافلين عن أن التوراة كتبها موسى (بعدما أخذ الأنوار التي أعطاه الله) يحكي فيها قصة الخليفة بهدف الوصول إلى نشوء بني إسرائيل وتقلبات الأحوال والظروف بهم، وقصة شيوخهم الأولين، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب (واسمه الأصلي إسرائيل)، وقصة التحاق هذا الأخير بابنه يوسف في مصر حيث تكاثروا، ثم خروجهم منها بعد أربع مائة سنة =

وهكذا ميزنا في مسار التنزيل ومسيرة الدعوة، خلال العهد المكي، بين ست مراحل :

- المرحلة الأولى : في النبوة والروبية والألوهية.
- المرحلة الثانية: في البعث والجزاء ومشاهد القيامة.
- المرحلة الثالثة: في إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

وهذه المراحل الثلاثة هي التي تشكل محتوى هذا القسم الأول الذي يضم اثنتين وخمسين سورة : من سورة العلق ("اقرأ باسم ربك" وهي أول سورة نزلت)، إلى سورة يوسف التي ختمنا بها هذا القسم. أما السور الأخرى الباقية من القرآن المكي فتضمها المراحل، الرابعة والخامسة والسادسة، وهي موضوع القسم الثاني من الكتاب. أما القرآن المدني فسيستقل به القسم الثالث. وكما صدرنا كل مرحلة باستهلال، موجز في الغالب، ختمناها باستطراد استشرافي، طويل في الأغلب الأعم، قدمنا فيه ما يناسب المرحلة من بيانات إضافية تتعلق بموضوع من الموضوعات التي ركزت عليه سور المرحلة.

ولا بد من الإفصاح هنا عن مدى شعورنا بالرضى والتوفيق ببناء هذا التفسير على أساس ترتيب النزول، ليس فقط على مستوى ما عبرنا عنه في "التعريف بالقرآن" بمسار "الكون والتكوين"، ونعبر عنه هنا بـ "مسار التنزيل"، بل أيضا على مستوى مسيرة الدعوة المحمدية والمسيرة النبوة. والواقع أنه إذا كان من الضروري التعبير، في كلمات معدودة، عن جوهر ما دشنا القول فيه بهذا العمل، فنحن لا نتردد في ادعاء أننا نشعر بالتوفيق في "قراءة القرآن" بالسيرة وقراءة السيرة بالقرآن". ذلك أن هذا النوع من القراءة المزدوجة قد مكنتني من التعرف على حقيقة ذلك السر الذي أشرت إليه في نهاية خاتمة "المدخل إلى القرآن" عندما كتبت أقول : "وعلي أن أعترف الآن أن هناك سرا لم يستطع عقلي اكتناؤه حقيقته: إنه هذا الذي عبرنا عنه بـ "العلاقة الحميمة" بين الرسول محمد بن عبد الله وبين القرآن الحكيم".

بقيادة موسى الذي كلفه الله بذلك الخ. أما القرآن فهو كتاب دعوة إلى الله موجهة إلى قوم أعرضوا عنها وحاجوها وقاوموها فكان الرد عليه مفرقا تفرق رد فعلهم إزاءها الخ.

كلمة أخيرة بصدد أقسام هذا الكتاب : لقد كانت النية متجهة في الأصل إلى كتابة جزء ثانٍ لـ "المدخل" كما أعلننا عن ذلك، لكن عندما قಾದنا البحث إلى مشروع كتابة "تفسير"، حسب ترتيب النزول، بديلاً عنه، قررنا جعله جزأين: الأول في القرآن المكي ومحوره العقيدة والأخلاق، والثاني في القرآن المدني ومحوره الأحكام والتشريع للدولة. واشتغلنا على هذا الأساس. غير أن طول الجزء الأول الذي كان من المفترض أن يكون بين يدي القارئ الآن بكامله، جعلنا نفضل جعله قسمين الأول هو هذا الذي بين يدي القارئ، والثاني سيأتيه، إن شاء الله، بعد نحو شهرين أو ثلاثة. أما القسم الثالث الذي سيكون خاصاً بالقرآن المدني فأملنا أن يكون بين أيدي القراء مع نهاية السنة. عسى أن أكون دائماً عند حسن الظن. وما توفيقي إلا بالله.

الدار البيضاء فاتح يناير 2008
محمد عابد الجابري

المرحلة الأولى

النُّبُوَّة والرُّبُوبِيَّة والأُلُوْهِيَّة

استهلال

تتميز السور الأولى في لائحة ترتيب النزول بقصرها وقصر آياتها وأسلوبها الخاص؛ كما يتوجه الخطاب فيها أساساً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ويكاد مضمونها يختص به : إما بالحديث إليه أو عنه، وإما بالرد على خصومه المكذبين برسالته. ومن أبرز ما تتميز به هذه السور، بالنسبة لموضوعنا هنا، استعمال اسم الرب: "اقرأ اسم ربك" (العلق)، "وربك فكبر" (المدثر)، "سبح اسم ربك" (الأعلى)، "ابتغاء وجه ربه" (الليل)، "كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ" (الفيل)، "إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِمِرْصَادٍ" (الفجر)، "ما ودعك ربك وما قلى" (الضحى) الخ؛ والملاحظ أن اسم الجلالة (الله) لم يستعمل إلا ابتداء من سورة "الإخلاص" السورة الثانية والعشرين وما بعدها (حسب ترتيب النزول المعتمد، 19 حسب ترتيبنا)⁽¹⁾، أما قبل ذلك فالخطاب القرآني كان يتحرك على مستوى النبوة والربوبية. وسيتوسع بعد ذلك من خلال الاتصال والحوار، ثم الجدل، مع قریش لإبراز جانب الألوهية في الربوبية، لي طرح بعد ذلك اسم الرحمان كاسم من أسماء الله الحسنى.

النبوة والربوبية والألوهية ثلاثة محاور يتحرك فيها الخطاب القرآني فيما نطلق عليه هنا المرحلة الأولى من مسار الخطاب القرآني المكي بتساق مع وقائع السيرة النبوة، التي اتسمت خلال هذه المرحلة بنوع من "السرية"؛ كانت الدعوة المحمدية خلالها تقتصر أو تكاد على الاتصالات الفردية في إطار من الثقة بحميها الكتمان والتستر. أما عدد السور التي نزلت خلال هذه المرحلة فهو سبع وعشرون سورة، من سورة العلق (اقرأ باسم ربك) إلى سورة قریش، حسب ترتيب النزول المعتمد (27 حسب ترتيبنا).

تبتدئ هذه المجموعة بسورة "العلق" كما قلنا. وما نغنيه بـ "السورة" هنا، ليس السورة بكاملها بل الآيات الأولى منها فقط (وسنعينها). يصدق هذا على سورة العلق وسورة المدثر اللتين تحتلان المرتبة الأولى والثانية في لائحة ترتيب النزول، حسب أشهر الأقوال وأقواها. أما بقية هاتين السورتين فقد نزلت في مرحلة لاحقة.

1 - سنوضح فيما بعد الفارق بين الترتيبين.

وحفاظا على "وحدة السورة"، لكونها توقيفية، سنذكر هاتين السورتين مرتين : نشرح في المرة الأولى الآيات التي نزلت في هذه المرحلة، مرجنين بقيتها إلى المكان الذي نرى أنه أنسب، سواء بترجيح من مضمونها أو بتعزيز مما ورد في شأنهما من أخبار.

1- سورة العلق

- تقديم

تبدأ سورة "العلق" (1) بعبارة "اقرأ باسم ربك"، والمعنى: ابدأ القراءة بذكر "اسم ربك"، تيمنا وتبركا. وهذا يجري مجرى عادة العرب في التبرك بذكر واحد من آلهتهم. فكانوا يقولون باسم اللات، باسم العزى... وفي الحديث أنه عندما أخذ النبي عليه السلام يملي على علي بن أبي طالب نص وثيقة صلح الحديبية قائلا: "اكتب بسم الله الرحمن الرحيم"، اعترض ممثل قريش وقال: "ما نذري" ما بسم الله الرحمن الرحيم. ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. وتعني: باسمك يا الله؛ وقد احتفظ الإسلام بهذا التعبير، ففي القرآن: "دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ" (يونس 10)، وأيضا: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ الْآيَةَ (آل عمران 26). كان العرب يستعملون هذا التعبير لأنهم كانوا يعرفون الله، ويؤمنون به، ولكنهم كانوا يشركون معه وسطاء من الملائكة والكواكب والنجوم والأصنام، معتقدين أن هؤلاء الوسطاء يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم الخ.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"اقرأ باسم ربك الذي خلق¹: خلق الإنسان من علق²؛ اقرأ. وربك (هو) الأكرم³ الذي علم بالقلم⁴، علم الإنسان ما لم يعلم⁵."

بقية السورة (وسنعود إليها لاحقا)

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَقْنَى (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ

1- وقد سميت بهذا الاسم لورود كلمة "العلق" فيها. وبالمناسبة تنبه إلى أن أسماء السور لا تدل بالضرورة على موضوع السورة ولا على مضمونها، والغالب ما يكون السبب في حملها اسما معينا هو -فقط- ورود ذلك الاسم فيها.

إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنَ بِالْأَصَابَةِ (15) نَاصِيَةً كَآذِيبَةٍ خَاطِبَةٍ (16) فَلَيَدْعُو نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19).

- تعليق :

ما يلتفت النظر في هذه الآيات الخمس أنها تقرّر العقيدة الإسلامية من خلال التركيز على مبدأين اثنين: خلق-علم، وربطهما أولاً بمحور واحد هو الإنسان الشخص، والمقصود هنا هو محمد (ص) بالذات، ثم ربطهما ثانياً بمعطيات التجربة اليومية للإنسان المفهومة من قوله: "علم الإنسان بالقلم". والمعنى: تبرك يا محمد باسم ربك، واعلم أن هذا الرب الذي يوحى إليك هو الذي خلقك من دم علق برحم أمك، تحولت إليه نطفة من أبيك. واعلم كذلك أنه هو نفسه الذي علم بالقلم، وعلمك ما لم تكن تعلم.

وما يرجح لدينا هذا المعنى هو أن حديث القرآن عن الخلق قد ورد على ثلاث مستويات : (1) خلق الإنسان الشخص من علق، (2) خلق الإنسان النوع (آدم) من طين، (3) خلق الكون (السموات والأرض من دخان) كما سيرد ذلك مفصلاً. أما العلق فجمع علقه، وهي الدم الجامد، سميت بذلك لأنها تعلق لرتوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقه. ونحن نرى أنه لا معنى لاستنتاج القرطبي⁽²⁾ من كون الآية استعملت "العلق"، بالجمع، أن المراد هو "الإنسان الجمع"، يعني بني آدم. ذلك أنه لا معنى لمقولة "الإنسان الجمع". فالإنسان إما شخص مشار إليه (مفرداً أو جمعاً) وإما نوع (نوع الإنسان، أي مفهومه). وفي القرآن : الإنسان النوع الذي هو آدم قد خلقه الله من طين، أما الإنسان الشخص وهو متعدد (بنو آدم) فقد خلقه من علق. أما الإنسان الشخص الواحد غير المتعدد فلا وجود له. يشهد بالصحة لما قلناه قوله تعالى: "وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى". والخطاب هنا عن الإنسان الشخص، هو حسب الروايات، شخص معين وهو الوليد بن المغيرة "الذي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى" (النجم 33-46)، ومثل ذلك قوله: "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَتْنَى يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى" (القيامة 36-39)، فالخطاب فيه عن أبي جهل بن هشام.

2- سنقتصر على ذكر المفسرين بأسمائهم المشهورة مثل (القرطبي، الزمخشري، الرازي...)، وواضح أنه فيما يخص التفسير فالمرجع هو السورة ورقم الآية وبالتالي لا حاجة إلى ذكر رقم الصفحة ولا الطبعة.

وأما قوله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ" (المؤمنون 12-14)، فالمقصود به الإنسان الشخص كذلك، والمخاطب هنا متعدد، هم كفار قريش (وهم من سلالة آدم). أما عندما يتعلق الأمر بالبشرية جمعاء فالقرآن يستعمل في الغالب عبارة "بني آدم" مثل قوله تعالى: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ" (يس-60).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هنا هو التالي: كيف نفهم هذا الربط بين "الخلق من علقه"، و"التعليم بالقلم"؟ والجواب في نظرنا يجب أن يكون مقيدا بالمفكر فيه زمن النبوة، أعني معهود العرب آنذاك. وبناء عليه يمكن صياغة الجواب كما يلي: إنه كما خلق ربك الإنسان من قطعة من دم متجدد، جعل الكتابة والقراءة وسيلة لتعليمه. وهذه العلاقة بين "اقرأ" و"القلم"، بين القراءة والكتابة، يشرحها حديث النبي عليه السلام عن ابتداء نزول الوحي عليه، حيث قال: "جاءني جبريل، وأنا نائم (في رؤيا المنام)، بنمط (وعاء) من ديباج (ثوب فارسي مزركش) فيه كتاب، فقال: اقرأ! قال (النبي): ما أقرأ؟ (وفي رواية أخرى ماذا أقرأ، وفي أخرى ما أنا بقارئ؟)". إن قوله عليه السلام إن جبريل جاءه: "بنمط من ديباج فيه كتاب" يحتمل معنيين: إما أن جبريل أراد منه أن يقرأ في ذلك الكتاب (وقد سبق أن أثبتنا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة)⁽³⁾، وإما أن جبريل جاء يحمل إليه "كتابا"، أي الوحي الذي سيسمى أولا بـ "القرآن"، ثم بـ "الكتاب"⁽⁴⁾. وفي كلتا الحالتين يكون الوحي الذي سينزل على محمد (ص) هو المقصود بـ "علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم". كما قررنا أعلاه. وعلى هذا يكون الخطاب، في الآيات الخمس التي نحن بصددھا، موجها كله إليه وحده: اعلم يا محمد، أن ربك الذي خلقك من علق، هو الذي أكرمك بالوحي الذي سيصير كتابا، والذي ستعلم من خلاله ما لم تكن تعلم. هناك عدة آيات تسند هذا المعنى، منها قوله تعالى: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ". (البقرة-129)، وقوله: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" (النساء-113) الخ.

3 - انظر التعريف بالقرآن: الفصل الثالث. (من الآن فصاعدا سنحيل على "مدخل إلى القرآن" باسمه الخاص: "التعريف بالقرآن"، تجنباً للخط).

4 - نفس المرجع.

2- سورة المدثر

- تقديم

وردت هذه السورة في الرتبة الرابعة في لوائح ترتيب النزول مع أن معظم المفسرين والرواة يعتبرونها في الرتبة الثانية، أي مباشرة بعد سورة "العلق". ونحن نرجح أنها فعلاً ثاني سورة نزلت، أعني الآيات العشر الأولى منها على أكثر تقدير. وأنها السورة الأولى التي نزلت بعد سورة العلق، عقب انقطاع الوحي مدة من الزمن قدرها بعضهم بخمسة عشر يوماً، وقال آخرون إنها دامت سنتين، والمشهور أنها دامت أربعين يوماً⁽¹⁾. وخلال هذه المدة كان خبر اتصال جبريل بالنبي عليه السلام قد شاع في أوساط قريش، وقد اكتسب رد فعلهم نوعاً من السخرية غير جازح، في البداية، مراعاة منهم للعلاقات القبلية، التي كان لها دور كبير في المجتمع المكي آنذاك. يتجلى هذا من خلال ما يمكن اعتباره أول رد فعل تهكمي أثار احتجاجاً لم يكن الدافع إليه شيئاً آخر غير النعرة القبلية. يروى أن النبي (ص) مر على أبي جهل وأبي سفيان⁽²⁾ وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال: "هذا نبي بني عبد مناف!". فغضب أبو سفيان، وهو بعد خصماً للدعوة المحمدية، وقال مستكراً: "أتتكرون أن يكون لبني عبد مناف نبي؟"

1- تجد التفاصيل في التعريف بالقرآن: الفصل الرابع فقرة 3

2- أما أبو جهل فقد كان أحد رجالات قبيلة بني مخزوم المنافسة لبني عبد مناف (بنو هاشم وبنو أمية معاً)، وكان يكنى بـ"أبي الحكم" واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة، ونظراً لشدة خصومته للدعوة المحمدية كني بـ"أبي جهل" - وهو أخو الوليد بن المغيرة الذي كان عميد المخزوميين زمن الرسول، ومن كبار "الملأ من قريش" (خصوم الدعوة للمحمدية) ولكنه لم يكن في قساوة أخيه أبي جهل. وأما أبو سفيان فقد كان عميد بني أمية من أبناء عمومة النبي عليه السلام، وكان من خصوم الدعوة المحمدية، وزعيم قريش بعد وفاة أبي طالب عم النبي (ص). وقد انتهى به الأمر إلى أن فلّوض النبي عليه السلام بواسطة عمه العباس على الدخول إلى مكة ففتحت بدون حرب، وكان قد أسلم. وكان ابنه معاوية من كتاب الوحي لدى الرسول (ص)، ثم صار عاملاً على دمشق، ثم مؤسس الدولة الأموية بعد حربه مع علي بن ابن أبي طالب وانتزاع الخلافة عنه.

ومن جملة ما استهزأ به خصوم الدعوة المحمدية لما فتر الوحي قولهم: "لو كان من عند الله لتتابع"، فشق ذلك على الرسول عليه السلام فأخذ يتردد على جبل حراء والجبال المجاورة لعله يسعد بقاء جبريل ثانية. لكن جبريل أبطأ أكثر مما كان ينتظر، فحزن لذلك حزنا بليغا دفعه إلى الصعود إلى قمم الجبال ليلقي بنفسه من هناك على الأرض. لكنه كان بمجرد ما يصل قمة جبل يتبدى له جبريل ليقول: "يا محمد، إنك رسول الله حقا"، فيسكن لذلك جأشه وتقرُّ نفسه، فيرجع". وتكرر المشهد عدة مرات دون أن يصحبه نزول الوحي. وأخيرا قرر الرجوع إلى بيته، وهو في حالة من الفزع والخوف. وتضيف الرواية على لسان النبي (ص): "فقلت زملوني زملوني، فذرني (3)".

ولعل ورود كلمة "زملوني" في هذا الحديث هو ما جعل واضعي لوائح ترتيب النزول يصنفون سورة "المزمل" قبل المدثر، مضيفين إليها سورة "القلم". ونحن نرى أن سورتي المزمل والقلم لا تنتميان إلى هذه المرحلة المبكرة. ذلك أننا لو قارنا بين ما نزل من سورة المدثر، في هذه المرحلة، مع سورتي القلم والمزمل اللتين رتبنا الثانية والثالثة على التوالي في لوائح النزول، لتبين بسهولة أن ما نزل من هاتين السورتين لا يتناسب مع ظروف هذه المرحلة من النبوة ولا حتى مع ردود فعل خصومها. ذلك أن هاتين السورتين تتحدثان من موقف الرد على منكري النبوة المحمدية بمضمون لا يستقيم مع ما نزل قبلهما من آيات سورة "العلق". فنحن نقرأ في الآيات الأولى من سورة "القلم" قوله تعالى: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْزَأَ غَيْرَ مَمْنُونٍ، إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ، فَسَتَبْصِرُ وَبُصِيرُونَ، بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القلم 1-7). وأول ما يلاحظ هو أن استعمال القسم في فواتح السور لم يبدأ إلا في مرحلة لاحقة، عندما كانت قريش تتهم النبي عليه السلام بالجنون والكهانة والسحر الخ، كما أن توجيه التهديد والوعيد من جانب القرآن إلى قريش لم يبدأ هو الآخر إلا في مرحلة لاحقة.

3 - البخاري. باب التعبير. وقد تناقل مؤلفو التفاسير هذه الرواية. غير أن هناك روايات أخرى أقرب في نظرنا من حيث اللفظ إلى القول بأولوية المدثر، منها رواية جابر بن عبد الله، مفادها أن النبي عليه السلام قال وهو يحدث عن بداية الوحي: "فبينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فنوديت، فنظرت أألمى وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئا، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعبا فأتيت خديجة فقلت: دَبَّرُونِي فذرني" وفي إحدى الروايات إضافة "وصبوا علي ماء باردا".

ومثل سورة المزمل في ذلك مثل سورة القلم. فنحن نقرأ في مستهلها قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا، نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا، إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا، إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا، إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا، وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَدَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا، وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا" (المزمل 1-10). فقوله تعالى "رتل القرآن ترتيلاً" يقتضي أن يكون قد نزل منه ما يكفي لترتيبه طول الليل أو قسم منه، والحال أن كل ما كان قد نزل هو بضع آيات.

هذا على مستوى المضمون، أما على مستوى الروايات فالسورتان محل خلاف كبير : بعضهم يقول إنهما مكيتان جملة وتفصيلاً وبعضهم يقولون إنهما بالعكس مدينتان الخ. أما الرواية المنسوبة إلى ابن عباس حول سورة القلم فتوزعها كما يلي: "من أولها إلى قوله تعالى: "سَتَسِمُهُ عَلَى الْخَرْطُومِ": مكى. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" : مديني". ومن بعد ذلك إلى قوله: "يَكْتُبُونَ": مكى. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: "الصَّالِحِينَ" : مديني، وما بقي مكى" (القرطبي)! وهذا التجزئ المنسوب إلى ابن عباس يلغي السياق تماماً...

أما عن سورة المزمل فتذكر الروايات أن عائشة زوج النبي عليه السلام قالت : "إن الثوب الذي كان الرسول متزماً به حين خاطبته السورة (يأيها المزمل)" كان عبارة عن "مرط (كساء من صوف) طوله أربعة عشر ذراعاً، نصفه علي وأنا نائمة، ونصفه على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي". يقول القرطبي وهذا القول من عائشة دليل على أن السورة نزلت في المدينة لأن النبي إنما دخل عليها فيها، وليس في مكة". ومن جهة أخرى روي عن سعيد بن جبير أنه قال: "مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عشر سنين يقومون الليل، فنزل بعد عشر سنين: "إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِّ اللَّيْلِ" (المزمل الآية 20) فخفف الله عنهم". ومعنى ذلك أن السورة نزلت في العهد المكي، حوالي السنة العاشرة من النبوة.

كل هذه المعطيات تسمح بتعديل ترتبي هاتين السورتين، على لائحة ترتيب النزول، بوضعهما في المرحلة التي تناسب مضمونهما وما ورد عنهما من أخبار على لسان الصحابة. وبالتالي فالسورة التي تأتي بعد سورة العلق هي سورة المدثر.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

"يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ¹ (المدثر بشيابه المستلقي على الفراش)، قُمْ فَأَنْذِرْ² (بلغ ما يوحى إليك)، وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ³ (جاعلاً ربك أكبر من كل رب)، وَتَبَارَكَ فَطَهَّرْ⁴ (مما قد

يكون لصق بها من تراب أو غبار عندما كان يتنقل بين الجبال)، وَالرَّجَزَ (القلق والاضطراب) ⁽⁴⁾ فَاهْجُرْ⁵، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ⁶ (لا تستكثر ما تعاني منه فتمنن به)، وَلِكُرْبِكَ فَاصْبِرْ⁷ (وفي سبيل الله فاصبر على ما تلقى من المكارة والمتاعب). فَإِذَا نَفَخَ فِي النُّافُورِ⁸ (نفخ في الصور: صيحة القيامة)، فَذَلِكَ يَوْمُئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ⁹، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ¹⁰.

بقية السورة :

ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَيَّنَّ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كُلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَبِيدًا (16) سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَرْذَابَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَأَيُّ رِثَابٍ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ

4- كنا قد فسرنا "الرجز" في التعريف بالقرآن بـ"الأصنام" سيرا مع ما ارتآه معظم المفسرين. أما الآن وقد تتبعنا مضمون هذه الآيات حسب سياق نزولها وترتيبه، فقد اتضح لنا أن معنى "الرجز" في هذه الآية هو نفسه المعنى اللغوي الأصلي، أي "الاضطراب". قال في مقاييس اللغة : "رجز: الرأء والجيم والزاي، أصل يدل على اضطراب"، وفي لسان العرب: "وَالرَّجَزُ: أَنْ تَضْطَرِبَ رَجُلٌ الْبَعِيرُ أَوْ فَخْذَاهُ إِذَا أَرَادَ الْقِسَامَ... ثُمَّ أَضَافَ : قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: قَرِئَ وَالرَّجَزُ وَالرَّجَزُ، بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ، وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ، وَهُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يُؤْدِي إِلَى الْعَذَابِ". أما الطبري فقد ميز بينهما، فقال: "وَالرَّجَزُ فَاهْجُرْ : اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأه بعض قراء المدينة وعامة قراء الكوفة: «وَالرَّجَزُ» بكسر الراء، وقرأه بعض المكيين والمدنيين: وَالرَّجَزُ بضم الراء، فمن ضم الراء وجهه إلى الأوثان، وقال: معنى الكلام: والأوثان فاهجر عبادتها، وترك خدمتها، ومن كسر الراء وجهه إلى العذاب، وقال: معناه: والعذاب فاهجر، أي ما أوجب لك العذاب من الأعمال فاهجر". قلت: وهذا المعنى يتفق تماما مع ظروف نزول الآية، أعني انقطاع الوحي وما تعرض له الرسول عليه السلام من اضطراب وقلق. هذا من جهة ومن جهة أخرى ذهب المفسرون في معنى قوله تعالى: "وَيُثَابِكُ فَطَهَر" مذاهب شتى، وجلهم مع القول بأن المقصود الطهارة من المعاصي. أي لا تلبس ثيابك على معصية، ثم اختلفوا في "المعصية" (انظر الطبري والقرطبي). أما نحن فنرى أن المعنى الذي يعطيه السياق هو غسل الثياب التي على جسمه كما شرحنا في النص، باعتبار أنه جاء إلى بيته مضطربا من التجربة التي كانت له في الجبال المحيطة بمكة بسبب انقطاع الوحي، التجربة التي ذكرنا بها قبل وفصلنا القول فيها في التعريف بالقرآن. المعطيات السابقة. فقرة 3ب.

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَتْ (33) وَالصَّبْحَ إِذَا أَسْفَرَتْ (34) إِنَّهَا لَإِحْذَى الْكِبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقُمْ أَوْ يُتَّخَرْ (37) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (42) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ (44) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّوتَ الدِّينِ (46) حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ (47) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شِفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (48) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُغْرَضِينَ (49) كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (50) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (51) بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً (52) كَلَّا بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (53) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (54) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (55) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (56).

- تعليق :

ونعود إلى الآيات العشر الأولى من سورة المدثر التي تنتمي إلى أوائل ما نزل من القرآن. ولا شك أن القارئ قد لاحظ بنفسه الفرق بين مضمونها وأسلوبها وبين مضمون وأسلوب بقية آياتها التي سنعود إلى الكلام عنها لاحقاً. وكما سبق أن ذكرنا قبل، هناك من الرواة من يقول إن سورة المدثر كانت أول سورة نزلت، ولكن الاتجاه العام يجعلها بعد سورة العلق.

هناك تأويلات عدة للآيات العشر التي شرحنا تبتعد في نظرنا عن الإطار الذي نزلت فيه. من ذلك أن بعضهم يفسر "المدثر" بمعنى "اللباس لباس النبوة"، وبعضهم يفسر "وثيابك فطهر" بدعوته إلى "تطهير نفسه" الخـ مثل هذه التأويلات تعبر عن اتجاه صاحبها أكثر مما تعبر عن الحقيقة التاريخية. وإنما قلنا إنها لا تعبر عن الحقيقة التاريخية لأنها تبتعد عن الواقع الملموس الذي نزلت فيه، واقع انقطاع الوحي وحزن النبي (ص)، ثم استئنافه. إن عبارة "لباس النبوة" وكذا "طهارة النفس" من العبارات التي لم تكن تنتمي إلى المجال التداولي عند ابتداء نزول الوحي، إنها تعكس معطيات مجال آخر سيظهر فيما بعد مع تيارات التصوف وما أشبهه.

لقد استأنف الوحي لينتقل من "اقرأ باسم ربك" إلى "قم فأنذر"، من الإشعار بالنبوة إلى الأمر بالتبليغ. من مستوى البدء في عرض "العقيدة" إلى مستوى الشروع في "الدعوة" إليها. والمسألة التي يمكن أن تثار هنا هي اقتصار السورة على دعوته (ص) إلى "الإنذار"، بينما تقوم رسالته على التبشير والإنذار معاً، وقد وصف الله رسوله بأنه "بشير ونذير" في غير ما آية ؟!

الواقع أن معظم المفسرين قد تجاوزوا هذا السؤال، من الطبري والمفسرين الأوائل الذين نقل عنهم إلى الذين جاءوا من بعده، بمن فيهم الزمخشري والرازي

والقرطبي! أقصد إغفالهم لفت الانتباه إلى أن أول أمر حمله جبريل إلى النبي (ص)، بعد "اقرأ"، هو "الإذار" (قم فأنذر!). والإذار هو التخويف والتوعد بالسوء، أو على الأقل التحذير من الوقوع في مكروه. وهو عكس "التبشير". وقد أثار بعض المتأخرين هذه المسألة. ففي تفسير الألويسي: "ولم يقل هنا "وبشر" لأنه كان في ابتداء النبوة، والإذار هو الغالب إذ ذاك. أو هو اكتفاء بأن الإذار يلزمه التبشير". أما صاحب "أضواء البيان" فقد لاحظ أن الإذار قد يكون للكافرين، كما في قوله تعالى: "وَتُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لَّدَا" (مريم 97) : تخويفاً لهم، "وقد يكون للمؤمنين، لأنهم المنتفعون به كما في قوله: "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ" (يس-10)، وقد يكون للجميع أي لعامة الناس كما في قوله تعالى: "أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحِيَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا" (يونس-2). وأما المنذر به فهو ما يكون يوم القيامة". ثم أضاف بصدد إذار "من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب" : "إن إذاره صلى الله عليه وسلم محصور في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة [وقد جاء] هذا الحصر الإضافي لأنهم هم المنتفعون بالإذار، وغير المنتفع بالإذار كآته هو والذي لم ينذر سواء، بجامع عدم النفع في كل منهما". وهذا التأويل في نظري بعيد، ذلك أن "الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة" لم يكونوا موجودين حين نزول قوله تعالى "يأيها المدثر قم فأنذر"، فلم يكن قد آمن به آنذاك غير زوجته خديجة، وقد نضيف ابن عمه علي، وقد كان طفلاً، ومولاه زيد ابن حارثة. وعبارة "الذين يخشون ربهم بالغيب" معناها : المؤمنون الذين لم يطالبوا مقابل إيمانهم بأن يأتيهم الرسول بشيء ملموس يدل على نبوته على غرار معجزات الأنبياء السابقين. ومثل هذا الطلب والرد عليه أو استحضاره لم يكن من المفكر فيه ولا القابل للتفكير فيه أثناء نزول هذه الآيات.

على أن هذا الإشكال لا تطرحه صيغة "الحصر"، بل هو مطروح في آيات أخرى لا حصر فيها مثل قوله تعالى: "وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاكِيٌ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ" (الأنعام-51). وقوله: "يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي" (النحل-2). والظاهر من هذه الآيات ومن مثيلاتها أن المقصود بـ"الإذار" هو مجرد الإعلام والتبليغ، وهذا فيما يبدو- هو المعنى الأصلي للكلمة. ففي لسان العرب "وَأَنذَرَهُ بِالْأَمْرِ إِذْأَرَا وَنَذَرَا .. أعلمه". وأيضاً: "ويقال: أنذرت القوم سير العدو إليهم فنذروا أي أعلمتهم ذلك فعلموا وتحرزوا". ومع أن معنى التخويف والتحذير مفهوم من "الإذار" كما يشير إلى ذلك صاحب لسان العرب فإن هذا الأخير يؤكد في نهاية شرحه أن "أصل الإذار : الإعلام. يقال أنذرته، أنذره، إذاراً، إذا أعلمته. فإنا منذر

ونذير، أي معطً ومخوً ومحدً. والحق أن استحضار هذا المعنى، المتدرج من مجرد الإعلام، إلى التخويف والتحذير، هو الذي ترتفع معه الإشكالات التي يمكن أن تثار في هذا الصدد.

وعلى هذا فليس من الضروري أن يفهم هنا لفظ "أنذر" وما اشتق منه على أنه عكس "بشر" وما اشتق منه. ذلك أنه إذا كان "الإذار" يحيل في بادئ الرأي إلى ما هو شر، بينما يحيل "التبشير" إلى ما هو خير، فقد يحدث أن يستعمل فعل "بشّر" للإخبار بما هو شر، مثل قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (آل عمران 21)، وقوله: "وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (التوبة 3)، ونظيره قوله تعالى: "إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبِ" (يس-10).

وبهذا المعنى المزدوج خاطب القرآن النبي (ص) بقوله: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (الإسراء 105). والحصص هنا يدل على أن مهمته تنحصر في الإعلام والتبليغ، على الأقل في المرحلة المكية. يبقى أن نضيف أن القرآن قد اقتصر في أول الأمر على ربط الدعوة بـ"الإذار" فقال "قم فأنذر" ولم يقل مثلاً: "قم فبشر وأنذر". وما يفسر ذلك في نظرنا هو أن المخاطبين وهم أهل مكة كانوا جميعاً في موقع "الإذار" بوصفهم مشركين يعبدون الأصنام لم يسبق أن جاءهم رسول من قبل ولذلك وصفوا بـ"الأميين". وهذا المعنى قد صرح به القرآن في مرحلة لاحقة كما في قوله تعالى: "لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (القصص-46)، وقوله: "لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ" (يس-11).

3- سورة المسد:

- تقديم

رُبِّتْ سورة المسد، في لائحة الترتيب المعتمد، في الرتبة السادسة بعد سورة الفاتحة (الخامسة). وهناك اختلاف كبير بين المفسرين والرواة حول الفاتحة : من ذلك اختلافهم هل هي مكية أم مدنية؟ هناك من قال إن نصفها مكي والنصف الآخر مدني. ومنهم من يرى أنها دعاء وليست جزءا من القرآن، مستنديين في ذلك إلى كون عبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين (الفلق والناس) اعتقادا منه أنهما دعاءان تعوذ بهما النبي (ص)، وأنهما ليستا من القرآن". ولم ترد سورة الفاتحة كذلك في مصحف أبي بن كعب، وهو من كبار كتاب الوحي وكان على رأس اللجنة التي كلفها عثمان بجمع القرآن في مصحف واحد. (انظر ترتيب مصحف عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب في الإتيان للسيوطي). كما لم تدرج في ثلاث لوائح من لوائح ترتيب النزول هي: لائحة البيهقي عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن، ولائحة قال ابن الضريس إنها عن ابن عباس، ولائحة الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" وقد اعتمد فيها على "الثقات" كما قال. ويؤكد بعض العلماء، ومنهم الطبري في تفسيره، أنها نزلت عند فرض الصلاة، فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها باعتبار أن لا صلاة بدون الفاتحة. وقد فرضت الصلاة ليلة الإسراء. وتاريخ هذه الليلة مختلف فيه، بعضهم يجعله في السنة الخامسة للنبوة وجلهم يقول إنه حصل في التاسعة أو العاشرة للنبوة. وفي كلتا الحالتين فالفاتحة لا تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصدها هنا الآن. ولا بد أنها نزلت بعد سورة الإخلاص وبعد سورة الرحمن -على أقل تقدير- كما سنبين ذلك في حينه.

أما سورة المسد التي نحن بصدها فقد اختلف المفسرون والرواة حول تحديد تاريخ نزولها وسببه: هناك رواية تذكر أن أبا لهب ⁽¹⁾ قال للنبي عليه السلام: "ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال: "كما يُعطى المسلمون"، فقال: مالي عليهم فضل؟ قال: وأي شيء تبتغي؟ قال: "تبا لهذا من دين تبا، أن أكون أنا وهؤلاء (المسلمون وكانوا من الفقراء والموالي والعبيد) سواء! فأنزل الله: "تَبَّتْ يَدَا أَبِي

1- واسمه: اسمه: عبد العزى وهو عم النبي (ص).

لَهَبٌ" (الطبري وغيره). وفي رواية أخرى "أن امرأة أبي لهب كانت تلقى الشوك في طريق النبي (ص)، فنزلت تبث يدا أبي لهب" إلى قوله "وامراته حمالة الحطب". ومما يعزز هاتين الروایتين رواية تذكر -إذا صحت- أنه لما نزلت: "تَبَثْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ"، قيل لامرأة أبي لهب إن محمداً يهجوكم، قالت: علام يهجوني؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطباً (كما في السورة: "فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ")؟ فمكثت، ثم أتته (بعد أن أبطأ الوحي عليه أياماً)، فقالت: إن ربك فلاك وودعك، فأنزل الله: "وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ". ووفقاً لهذه الروايات الثلاث تكون هذه السورة قد نزلت في المرحلة التي نتحرك فيها فعلاً، وتكون الرتبة الثالثة، في ترتيب النزول، مناسبة لها. ويمكن لقائل أن يقول إن لهجتها الحادة ضد أبي لهب لا تناسب هذه المرحلة، وهذا اعتراض يمكن دفعه بكون الدعوة كانت في ذلك الوقت محدودة وسرية وأن طول المدة الفاصلة بين نزول سورة العلق وسورة المدثر، وهي مدة انقطاع الوحي لمدة يقدرها بعضهم بأزيد من سنتين سادت فيها الاتهامات والسخرية يمكن أن تبرر لهجة هذه السورة. وما يجري على هذه السورة لا يمكن تعميمه على سورتي المزمل والقلم -اللتين أخرنا ترتيبهما- لأن مضمون هاتين السورتين وشكل الخطاب فيهما وحجمهما الخ، كل ذلك يرجح نزولهما في مرحلة لاحقة كما سيوضح بعد.

نعم، يميل معظم المفسرين إلى اعتبار الرواية التي تقول إنه لما خاطب الله تعالى في سورة الشعراء رسوله الكريم قائلا: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"، بادر إلى الاستجابة فصعد الصفا ونادى قومه، وخطب فيهم فأخبرهم بأنه رسول الله. وعندما انتهى قال له أبو لهب -وكان من أشد خصوم الإسلام- "تَبَا لَكَ آلِهَذَا جَمْعَتَانَا؟" (2) فنزلت سورة المسد في موضع الرد عليه. أما نحن فنميل إلى مضمون الروايات السابقة، بمعنى أن هذه السورة هي من أوائل السور. أما سورة الشعراء التي تضم الآية السابقة ("وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ") فهي من السور الطوال التي نزلت في مرحلة متأخرة عن المرحلة التي نتحرك داخلها، وهي مصنفة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 46/47. ومن المحتمل جداً أن يكون النبي (ص) قد قرأ سورة المسد رداً على ما قاله أبو لهب، بعد أن كانت قد نزلت من قبل، وليس بمعنى أنها نزلت في تلك اللحظة. وإذا نحن أخذنا بعين الاعتبار قول الله تعالى في هذه السورة: "مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ" رجحت الرواية الأولى التي ورد فيها أن أبا لهب قد عيّر أتباع النبي (ص) بكونهم من الفقراء الخ.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
تَبَّتْ (خسرت) يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ¹، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ²،
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ³، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ⁴، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ⁵(3).

- تعليق

أبو لهب واسمه عبد العزى بن عبد المطلب (عم النبي) هو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن بالاسم من بين خصوم الدعوة المحمدية. كان ذا مال ونفوذ في الوسط المكي، وبالتالي عضوا بارزا في "الملأ من قريش" (كبراء ووجهاء وأغنياء). وهناك آخرون كانوا يؤذون النبي (ص) مثل أبي لهب بالأقوال والأفعال وقد رد القرآن عليهم ولكن دون ذكر أسمائهم، وقد احتفظت لنا كتب السيرة بأسمائهم وبما نزل فيهم من القرآن، وسنشير إلى بعض ذلك في حينه.

ومما يجدر ذكره هنا ما أورده ابن إسحق عن أبي لهب وكان أحد جيران الرسول عليه السلام. قال : كان من بين "النفر الذين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته : أبو لهب، والحكم بن العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي؛ وكانوا جيرانه، لم يُسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص: فكان أحدهم يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في بُرْمَتِهِ (قَدْر من حجر) إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرا يستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا طرحوا عليه ذلك الأذى ... يخرج به (ص) على العود، فيقف به (بالعود وعليه الأذى) على بابهِ، ثم يقول : يا بني عبد مناف، أي جوار هذا! ثم يَلْقِيهِ في الطريق".

على أن أبا لهب كان رغم عداوته الشديدة للرسول (ص) يراعي القرابة التي تربطه به، فهو عمه، وكان أبو طالب أخوه الذي يجير النبي ويحميه. وهكذا فعندما توفي أبو طالب في السنة العاشرة للنبوّة شددت قريش أذاها على الرسول

3- اختلفوا في معنى "حمالة الحطب" فقال بعضهم: "كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليدخل في قدمه إذا خرج إلى الصلاة". وقال آخرون: "قيل لها ذلك: لأنها كانت تحطب الكلام، وتمشي بالنميمة، وتغير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر" الخ. هذا والسورة كاملة، ليس لها بقية.

عليه السلام حتى إنه يروى عنه أنه كان يقول: "ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه — أي أشد الكراهة — حتى مات أبو طالب"، وأنه عليه السلام قال مستذكراً أبا طالب لما رأى قريشاً تهجموا عليه ذلك الهجوم، قائلاً: "يا عم ما أسرع ما وجدت فَقْدَكَ". ويضيف ابن إسحق: "ولما بلغ أبا لهب ذلك، قام بنصرته أياماً وقال له: 'يا محمد امض لما أردت وما كنت صابراً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه. لا، واللات والعزى، لا يوصل إليك حتى أموت'". غير أن هذا الوعد لم يدم طويلاً. ذلك أنه بمجرد ما علمت قريش به حتى سارع رجالها إلى أبي لهب وقالوا له: "أفارت دين عبد المطلب؟ (أبوه) فقال: 'ما فارت دين عبد المطلب، ولكن أمتع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد. قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم؟ ويضيف ابن إسحاق: فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إلى أن جاء أبو جهل (الد خصوم الرسول وهو من بني مخزوم منافسي عشيرة النبي) وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك (عبد المطلب؟ يعني: هل هو في الجنة أم في النار)، فلما سأل الرسول قائلاً: "يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تعم! ومن مات على مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار". فقال أبو لهب: لا برحت لك عدواً (لا أرد عنك أذى) وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار". فاشتد عليه هو وسائر قريش.

4- سورة التكوير

- تقديم

صنفت هذه السورة في لوائح ترتيب النزول في الرتبة السابعة، أي بعد العلق والمدثر، ثم القلم والمزمل والفاتحة والمسد. وقد تحدثنا عن القلم والمزمل والفاتحة ودواعي تأخير ترتيبها. أما هذه السورة، أعني سورة التكوير، فلم يرد عنها ما يشير إلى مناسبة نزولها ولا إلى أي خلاف حول ترتيبها. كل ما ذكرته مصادرنا لا يتعدى رواية تقول: "لما نزل قوله تعالى في هذه السورة: "لمن شاء منكم أن يستقيم"، قال أبو جهل بعدها: "ذاك إلينا، إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم"، فأنزل الله "وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين". وهذا نموذج من نماذج كثيرة من روايات "أسباب النزول"، حيث تقطع آية واحدة، وأحيانا جزء من آية، ليؤتى لها بسبب نزول يخصها بمفردها من غير اعتبار لما قبلها وما بعدها، ولا للسبب الذي تنتمي إليه. والحق أن النموذج الذي بين أيدينا هنا أخف من نماذج كثيرة، لأنه يتعلق بآخر آية من السورة. الشيء الذي يسمح بافتراض أن السورة كانت قد ختمت أصلا بقوله تعالى: "لمن شاء منكم أن يستقيم". ثم كان تعليق أبي جهل، ثم جاء الرد عليه. ولو فرضنا أن أبا جهل لم يتدخل لكانت السورة قد ختمت بهذه الآية. أعني قوله تعالى: "لمن شاء منكم أن يستقيم". لكن هذا لا يغير من الأمر شيئا، فقد وردت آيات بهذا المعنى، أي دون استدراك، مثل قوله تعالى: "تَذِيرًا لِلْبَشَرِ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ" (المدثر 36-37) وقوله: "كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ" (عبس 11-12)، وقوله: "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ" (الكهف 29). كما وردت آيات أخرى مصحوبة باستدراك مماثل للسابق كقوله تعالى: "كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ" (المدثر 56). وإذا فإحاط رواية تدخل أبي جهل هنا فضل وزيادة. ونحن إنما أشرنا هنا لأننا لا نستبعد أن تكون هذه الرواية وضعت تحت تأثير الخلاف الحاد الذي نشب بين المعتزلة من جهة وأهل السنة والأشاعرة من جهة أخرى حول مسألة الجبر والاختيار. أما هذه المسألة بذاتها فهي تتطلب قولا مفصلا سيأتي في حينه.

- نص السورة

1- إذا الشمس كورت ... علمت نفس ما أحضرت.

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا الشمس كورت¹ (أظلمت)، وإذا النجوم انكدرت² (تأثرت)، وإذا
الجبال سُيِّرَتْ³ (وقعت على الأرض)، وإذا العُشْبَارُ (الإبل) عَطِلَتْ⁴ (أهملت)،
وإذا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ⁵ (جمعت واختلطت)، وإذا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ⁶ (فجرت
وفاضت)، وإذا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ⁷ (مع أجسادها من جديد حين البعث)، وإذا
المُوءَدَّةُ (المدفونة حية) سُئِلَتْ⁸ (قُرئ سألَت)، بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ⁹، وإذا الصُّحُفُ
(سجل أعمال الناس) نُشِرَتْ¹⁰، وإذا السَّمَاءُ كُشِطَتْ¹¹ (طويت)، وإذا الْجَحِيمُ
سُعِّرَتْ¹² (أُحْميت)، وإذا الْجَنَّةُ أُرْقَتْ¹³ (قُرئت)، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ¹⁴ (ما
عملته في دنيا من خير أو شر وما سيكون مصيرها: الجنة أم النار. وهذا جواب
القسم)

2- إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم

فَلَا أُفْسِدُ بِالْخُنُوسِ¹⁵ (النجوم)، الْجَوَارِ الْكُنُوسِ¹⁶ (تجري في مداراتها
فتكنس-تختفي في النهار وتظهر في الليل)، وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ¹⁷ (أدبر)،
وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ¹⁸ (أقبل)، إِنَّهُ (أي القرآن) لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ¹⁹ (هو جبريل،
وهذا جواب القسم)، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ (الله) مَكِينٍ²⁰، مُطَاعٍ ثَمَّ (في
السماء: تطيعه الملائكة) أَمِينٍ²¹ (علي وحى الله). وَمَا صَاحِبُكُمْ (محمد)
بِمَجْنُونٍ²²، وَلَقَدْ رَآهُ (رأى جبريل) بِالتَّأْفُقِ الْمُبِينِ²³، وَمَا هُوَ (جبريل) عَلَى
الْغَيْبِ (الوحي الذي كلف بتبليغه إلى محمد) بِضَيِّينٍ²⁴ (ببخل به عليه)، وَمَا هُوَ
بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ²⁵ (مطروود من السماء فلا يستطيع استراق السمع)، فَأَيْنَ
تَذَاهِبُونَ²⁶ (بتكذيبكم هذا الوحي)؟ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ²⁷ : لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَقِيمَ²⁸، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ²⁹.

- تعليق

في هذه السورة قَسَمَانِ كما هو واضح: الأول قَسَمَ بالظواهر الكارثية التي
تدل على قيام القيامة -وتسمى أشرط الساعة- وجوابه "علمت نفس ما أحضرت" أي

أن كل نفس ستحاسب على ما جاءت به في سجل حسناتها وسيناتها، والمقصود إثبات البعث والحساب. أما القسم الثاني - والمقسم به هنا هو النجوم التي تجري في مداراتها، وما ينشأ عن ذلك من تعاقب الليل والنهار - وجواب القسم هو أن محمداً (ص) ليس بمجنون وأن القرآن ليس من تأثير الجن بل هو من عند الله : ذكر للعالمين يُريهم طريق الرشاد والاستقامة.

والجمع بين القسمين في هذه السورة يشير إلى أن الإفلات من العقاب والجحيم الذي أكده القسم الأول ممكن بسلوك الطريق المستقيم الذي هو التصديق بنبوة محمد والإيمان بما جاء في القرآن الذي يوحيه الله إليه بواسطة جبريل. أما مسألة القسم في القرآن فسنتناولها لاحقاً في تعليق خاص.

وإذا نحن ألقينا الآن نظرة إجمالية إلى الآيات السابقة من سورتي العلق والمدثر، فإننا سنتبين فيها بسهولة أنها أفصحت - مع ابتداء نبوة محمد عليه السلام - عن ركنين أساسيين من أركان العقيدة الإسلامية هما : الرب الخالق المعلم، والرسول الأمين المبلغ عنه (مع الرد على المكذبين)، وهو ما عبرنا عنه في عنوان هذه المرحلة بـ "النبوة والربوبية". أما السورة الحالية (التكوير) فتشكل نوعاً من الجسر بين السورتين السابقتين والسور الثلاث التالية لها (الأعلى، والليل، والفجر) من حيث إنها طرحت، من خلال القسم الذي استعملته في القسم الأول منها، مسألة البعث (والحساب والجزاء: الجنة أو النار)، وهو ركن آخر في العقيدة الإسلامية يطلق عليه في اصطلاح المتكلمين اسم "المعاد".

هناك مسألة أخرى يجب التنبيه إليها وردت في القسم الثاني من السورة التي نحن ضيوف عليها، هي مسألة "الرؤية" في قوله تعالى : وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ! فعلى من يعود الضمير هنا؟ وبعبارة أخرى: من رأى الرسول بالأفق المبين؟ هل جبريل أم الله؟ وكيف كانت هذه الرؤية : هل هي رؤية بصرية أم رؤيا منامية؟ لقد رجحنا في النص أن يكون الضمير يعود على جبريل. أما نوع الرؤية فسنعرض له لاحقاً.

5- سورة الأعلى

- تقديم

لم يرد حول هذه السورة وظروف نزولها ما يستحق الذكر، ولذلك سننتقل مباشرة إلى محتواها. في هذه السورة ثلاثة أقسام:

قسم ينتمي إلى محور "الربوبية" يتوجه فيه الخطاب إلى النبي عليه السلام، يطلب منه أن يعظم ربه الذي خلق الأشياء وقدر نظامها، وأرشد إلى طرق الاستقامة وجعل لكل شيء نهاية.

وقسم ينتمي إلى محور "النبوة" وفيه يطمئن ربه بأنه سيقرئه القرآن فلا ينسى منه إلا ما شاء الله، وأنه سيهديه للسبيل الأسهل لتبليغ رسالته، وأن عليه أن يذكر الناس بعظمة ربه ويبلغهم رسالته.

أما القسم الثالث فينتمي إلى محور "المعاد" وفيه بيان أن الناس إزاء النبوة سيكونون فريقين: فريق يخشى فيؤمن فيذكر اسم ربه ويدعوه، ومصيره الحياة الهينة الدائمة: الجنة. وفريق يكفر فيشقى، ومصيره نار جهنم. أما مشركو مكة فهم يفضلون الحياة الدنيا بينما الآخرة خير ولا تغنى. وهذا قد جاءت به الرسل من قبل وموجود في صحف إبراهيم وموسى.

وهكذا يتبين أن الغرض الذي تريد السورة تأكيده هو وقوع البعث والحساب، ثم المصير إما إلى الجنة وإما إلى النار. إذن ها هنا انتقال، دون انفصال أو انقطاع، من النبوة إلى الربوبية إلى المعاد. وسنلاحظ في كثير من السور هذا النوع من المزوجة بين هذه المحاور الثلاثة، وغالبا ما يستعمل القرآن المماثلة في البرهان عليها، كما في الفقرة الأولى من السورة، التي ربطت بين "خلق فسوى"، و"قدر فهدى"، و"أخرج المرعى" "فجعل غشاء أحوى" (يابسا، ميتا، ثم يؤتي بالمطر فيخرجه مرعى ثانية: البعث بعد الموت) ⁽¹⁾.

1- وهذا وفق السلسلة التي تتكرر في القرآن والتي تستعمل في العادة الاستدلال بالشاهد على الغائب لإثبات التوحيد وتنتهي صراحة أو ضمنا بالاستدلال عن طريق المماثلة على البعث والقيامة: المعاد. وسنشرح هذين المنهجين لاحقا

- نص السورة

1- خلق فسوى.. قدر فهدى. أخرج المرعى أخضر، ثم جعله يابسا!

بسم الله الرحمن الرحيم

"سَبِّحْ (عظم ونزه) اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى¹ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى² (خلق الأشياء فسوى خلقها)، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى³ (قدر نظام الأشياء وبين سبيل الخير وسبيل الشر)، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى⁴ (أخضر)، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى⁵ (يابسا أسود).

2- سنقرئك فلا تنسى... فذكر إن نفعت الذكرى...

سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى⁶ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى⁷؛ وَتُيسِّرُكَ لِلْيُسْرَى⁸ (لما هو أسهل) فَذَكَرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى⁹. سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى¹⁰، وَيَجْجِبُهَا الْأَشْقَى¹¹ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى¹² (الذي مصيره جهنم)، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا¹³ (لا هو حي ولا هو ميت).

3- قد أفلح من تركزى... والآخرة خير وأبقى!

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى¹⁴ (اتبع الطريق المستقيم)، وَتَكَرَّرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى¹⁵ (وجد الله ودعاه، وأنتم أيها المشركون لا تتركون) بَلْ تُؤْثِرُونَ (تفضلون) الْحَيَاةَ الدُّنْيَا¹⁶، وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى¹⁷. إِنَّ هَذَا (الذي ذكرنا حول مصير من يتركى ومن لا يتركى) لَفِي الصُّحُفِ (الكتب السماوية) الْأُولَى¹⁸، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى¹⁹ (لم يذكر عيسى لأنه لم يكن له كتاب).

- تعليق

فلا تنسى!

إن أكثر ما اختلف حوله المفسرون، في معاني آيات هذه السورة، هو قوله تعالى: "سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ". والمسألة تدور كلها حول نفي النسيان عن الرسول في التبليغ. بمعنى أن النسيان مطلقا ليس مما يدخل في عصمة الأنبياء (عند كثيرين من أهل السنة بخلاف الشيعة الذين يقول بعصمة الأنبياء والأئمة مطلقا : أنمتهم). أما أهل السنة فيجوزون أن تنسى الرسل في حدود أقل ما ينسب إلى البشر من النسيان. ولكن لا يمكن أن ينسب إليهم النسيان فيما كلفوا بتبليغه عن الله.

وعلى هذا الأساس اختلفوا في تفسير الآية المذكورة. ومركز الاختلاف هو قوله تعالى "إلا ما شاء الله". منهم من قال إن الرسول لا ينسى (من القرآن) "إلا ما شاء الله أن ينسى، فإنه ينسى ثم يتذكر بعد ذلك"، ويروون، لتأييد قولهم هذا خبرا يفيد أن الرسول قد ينسى ولكنه يتذكر ما ينسى فلا يكون نسيانه مطلقا. ومن هذا القبيل ما ذكر من أن النبي (ص) "أسقط آية في قراءته في الصلاة، فحسب أبي (جامع القرآن) أنها نسخت، فسأله، فقال: نسيته". ومنهم من قال : إن الرسول لا ينسى "إلا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإساء ههنا نسخه"، كما قال تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا" (البقرة 106)، فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلي به، فيصير ذلك سببا لنسيانه، وزواله عن الصدور". ومنهم من ارتأى: أن يكون معنى قوله "إلا ما شاء الله": القلة والندرة، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشرع، بل من الآداب والمنن، فإنه لو نسي شيئا من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإبه غير جائز". وهناك من خرج عن هذا النطاق فقال إن "معنى النسيان في هذا الموضع: الترك وقالوا: معنى الكلام: سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشيء منه، إلا ما شاء الله أن تترك العمل به، مما ننسخه". أما الطبري الذي أورد كثيرا من الأقوال في الموضوع فيقول: "والقول الذي هو أولى بالصواب عندي، قول من قال: معنى ذلك: فلا تنسى إلا أن نشاء نحن أن ننسيكه بنسخه ورفع، ويضيف: "وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن ذلك أظهر معانيه".

أما نحن فقد نؤيد الطبري في قوله "ذلك أظهر معانيه". ولكننا نرى أن هناك حاجة إلى التدقيق في النص. فمن جهة، قوله تعالى : "سَنَقْرُكَ فَلَا تَنْسَى"، غير ظاهر منه أن المفعول الثاني لـ "سنقرئك" هو القرآن. إن اللفظ الذي يستعمله القرآن بكثرة في هذا المجال هو الوحي: "أوحينا إليك". وعلى كل حال فالضمير في "سنقرئك" لا يعود بالضرورة على القرآن، ولا على شيء معين من أمور الشرع، فالباب مفتوح: فما قبل هذا القول (أي القسم الأول من السورة) يتعلق بـ "المعاد" كما أشرنا إلى ذلك في الشرح، أما ما بعده، أعني قوله : "إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَتُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" فمعناه أن الله يعلم ما تذكره ولم تنسه (أي ما تجهر به منه) كما يعلم "ما يَخْفَى"، أي ما لم تجهر به لنسيانك إياه. ويأتي قوله تعالى "وَيُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى" كإشارة إلى أن النسيان، وعدم النسيان، كلاهما يمكن أن يكون وسيلة للتيسير، حسب مقتضى الأحوال.

ما نريد تأكيده هنا هو ضرورة التفكير في أي الذكر الحكيم بعيدا عن الأفكار المسبقة، مثل فكرة العصمة التي اكتسبت طابعا مذهبيا سياسيا في الفكر الإسلامي :

لأهل السنة رأي، وللمعتزلة رأي، وللشيعة رأي وهكذا. والغالب ما يقول صاحب المذهب برأي في مسألة من المسائل، ليس لأنه عنصر في أصل مذهبه، بل لكون هذا الرأي يدفع به احتمال أن يؤيد به رأي خصمه.

يبقى القسم الثالث من السورة وهو نوع من التكملة والشرح للقسم الثاني على صعيد المضمون. لقد طلب تعالى من نبيه الكريم في القسم الثاني من السورة أن يذكر بالقرآن وأخبره أن الناس سيكونون فريقين إزاءه: فريق سيُقبل على القرآن و"يخشى" به، ولكن لم يبين جزاءه، وفريق سيعرض عنه وسيشقى وقد بين مصيره وهو جهنم التي "لا يموت فيها ولا يحيى". ويأتي القسم الثالث من السورة لبيان مصير الفريق الأول الذي يقبل على القرآن وتزكى، أي اتبع الطريق المستقيم وذكر اسم ربه وصلى.

لنختتم إذن بما ختمت به السورة، وهو أن الناس (والخطاب إلى قريش) يفضلون الحياة الدنيا على الأخرى مع أن هذه خير وأبقى، كما أوضحت ذلك "الصحف الأولى" أي الكتب السماوية منذ إبراهيم موسى. وهكذا تَختم السورة بالتذكير بـ "المعاد" بعد أن بدأت بالنبوة والربوبية. وتلك هي الأركان الرئيسية في العقيدة المحمدية.

6- سورة الليل

- تقديم

رتبت هذه السورة، في لوائح ترتيب النزول، مباشرة بعد السورة السابقة (الأعلى)، وكذلك الشأن في السور التالية، التي سنتناولها حسب رتبها في لائحة ترتيب النزول المعتمد⁽¹⁾، وإذا كان هناك تعديل فسنشير إليه في حينه.

تبدأ السورة بالقسم بظاهرة الاختلاف في الكون: فقد خلق الله الليل بظلامه، والنهار بنوره، كما خلق بني آدم نوعين: الذكور والإناث. وهذا الاختلاف الذي يعم ظواهر الكون وأنواع المخلوقات يتبدى أيضا في سلوك الإنسان وأعماله. فمنها أعمال تستهدف الخير وأخرى تستهدف شينا آخر. ومن هنا كان ما سيكون عليه الإنسان في الآخرة متوقفا على نوع سعيه وعمله، وبالتالي يكون هناك نوعان من الجزاء: الثواب (الجنة)، والعقاب (النار).

ووفق هذا المنظور الذي ترى الأشياء من خلاله "أزواجا" ينقسم الناس إلى أغنياء وفقراء. وكما أنه ليس ثمة انقطاع بين الليل وظلامه والنهار وضياهه فكذلك يجب أن لا يكون هناك انقطاع بين الفقراء والأغنياء، والعلاقة بينهما يجب تكون علاقة بذل وعطاء. ومن هنا كان السبيل المؤدي، في الدنيا، إلى الحياة الهينة في الآخرة هو البذل للفقراء والمحتاجين، أي جعل الحياة هينة عليهم، والتصديق بأن وعد الله للمحسنين وعد سيحقق. أما البخل وإهمال الفقراء والانصراف إلى طلب الغنى وعدم التصديق بوعد الله فذلك طريق الشقاوة، الطريق إلى النار.

1- "الترتيب المعتمد" هو الترتيب المعمول به في الأثر وغيره من المعاهد الإسلامية السنية. وهو المنقول عن أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي. وهو لا يختلف عن لائحة الجعبري ولاحة ابن الضريس ولاحة البيهقي ولاحة الزركشي إلا في ترتيب سور محدودة، ولا يرقى الاختلاف إلى أكثر من رتبة أو رتبتين. ويبدو أن مصدر جميع هذه اللوائح هي "دائرة ابن عباس"، أعني المحيطين به والآخذين منه. وكيفما كان الحال فترتيب سور القرآن مسألة اجتهاد. وإذا كان ترتيب المصحف قد تم على يد الصحابة زمن عثمان فصار نهائيا فإن ترتيب النزول بقي مفتوحا.

- نص السورة

1- إن سعيكم لشتى ... وكذلك المصير !

بسم الله الرحمن الرحيم
"وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى¹ (يغطي الأفق بظلمته)، وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى² (طلع وأضاء)، وَمَا خَلَقَ (الله من) الذَّكَرَ وَالْأُنثَى³، إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى⁴ (جواب القسم : عملكم ليس واحدا: هناك عمل المؤمن، وهناك عمل الكافر).

2- من أعطى من ماله ... ومن بخل واستغنى.

فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ (من ماله) وَاتَّقَى⁵؛ (ولم يعتد ولم يظلم)، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى⁶ (لم يكذب بوعده الله الحسن)، فَسْتَيْسِرُوهُ (نهينه) لِلْيُسْرَى⁷ (للمصير الأسهل). وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ (بماله) وَاسْتَفْتَى⁸ (استقل به واكتفى)، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى⁹ (بوعده الله الحسن)، فَسْتَيْسِرُوهُ لِلْعُسْرَى¹⁰ (للمصير الأصعب). وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى¹¹ (مات وكان مصيره جهنم).

3- النار للأشقي ... وسيتجنبها الأتقي الذي يؤتي ماله يتزكى.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى¹² (الإرشاد إلى طريق الخير) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى¹³ (الدنيا)، فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ¹⁴ (تتوهج)، لَا يَصْنَعُهَا (يحترق بها) إِلَّا الْأَشْقَى¹⁵ (الذي كَذَّبَ (بالقرآن) وَتَوَلَّى¹⁶ (أعرض عن العطاء). وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى¹⁷) (الذي يعمل بما يأمر به الله) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى¹⁸ (يتصدق من ماله، فيتطهر من ذنوبه). وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى¹⁹ (وهو يفعل ذلك ليس ردا لجميل أسدي إليه من أحد)، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى²⁰ (بل إنما يفعله طلبا لمرضاة الله)، وَكَسُوفَ يَرْضَى²¹ (وسوف ينالها).

- تعليق

نحن هنا، في هذه السورة، أمام خطاب واضح مباشر حول البعث والحساب (المعاد). وهي تشبه في تركيبها ونظمها سورة التكويد (أعلاه) : أولا من حيث إنها تؤسس لخطاب القرآن حول مسألة المعاد، وثانيا من حيث إنها تتناول - وهذا لأول

مرة- محورا آخر جديدا، يتعلق هذه المرة بالمسألة الاجتماعية : الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين.

لقد بدأت سورة التكوير بذكر الظواهر الكارثية التي تحدث عند قيام القيامة لتنتقل بعد ذلك إلى طرح مسألة الحساب والجزاء، ثم إلى محور النبوة الذي تنتظم حوله هذه المجموعة من السور القصيرة، لتؤكد على صحة نبوة محمد عليه السلام، من خلال بيان علاقته بالملاك جبريل الذي ينقل إليه الوحي.

أما هذه السورة (الليل) فتنتقل من القسم بتعاقب بعض الظواهر الطبيعية، عبر أنماط من الحركة، مختلفة متنوعة، إلى ربطها بنمط آخر من الحركة هو أفعال الإنسان، لا من حيث هي مجرد حركة بل من حيث هي أعمال هادفة يترتب عنها جزاء عند المعاد. وهذه الأعمال المنوه بها هنا ليست من قبيل العبادات الموجهة إلى الله، بل هي فعل اجتماعي موجه إلى التخفيف من الفقر والحرمان اللذين يعاني منهما كثير من الناس في معاشهم. وهكذا يمكن أن نسجل أن أول عبادة يقررها القرآن هي "التزكي"، أي التطهر بأداء مسؤولية الأمانة التي جعلها الله في عنق الإنسان، مسؤولية الغنى والثروة، وذلك بالبذل والعطاء للفقراء والمحتاجين.

7- سورة الفجر

- تقديم

تتألف هذه السورة من أربع فقرات تشكل سياقاً واحداً، توظف فيه ثلاثة عناصر أساسية، من العناصر التي يعتمدها الخطاب القرآني في البيان والإقناع:

(1) التنبيه إلى نظام الكون وأنه من الإتقان والاطراد بحيث يرتفع إلى الدرجة التي تجعل صاحب العقل المستدير يراه أهلاً لأن يقسم به. والقسم يكون بالأمور العظيمة كما هو معروف.

(2) التذكير بالعقاب الذي نزل باطراد كذلك على الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، والذين طغوا وأكثروا من الفساد، وكيف أن الله كان لهم بالمرصاد.

(3) التنبيه إلى سلوك الملأ من قريش -الذين كان الواحد منهم إذا ما اختبره ربه بالغنى والثروة فرح وقال "ربي أكرمني"، وأما إذا اختبره بالفقر والحاجة فهو يشتكي ويقول: "ربي أهاتني". وترد السورة بأن هذه الإهانة في الدنيا لا تأتيهم بدون سبب، بل هي جزاء لهم على بخلهم على الفقراء والمساكين وأكلهم أموال اليتامى وانشغالهم التام بجمع المال.

(4) هذا في الدنيا، أما عندما تقوم القيامة ويحين وقت الحساب ويؤتى بجهنم نستقبل أصحابها فحينئذ يستولي الندم على أولئك الذين غلب عليهم حب المال فيتذكرون الشره الذي تصرفوا به في الدنيا، ويتمنون لو أنهم قدموا في حياتهم ما ينفعهم في آخرتهم حيث لا ينوب أحد عن أحد في الحساب. أما الذين لم يستسلموا لشهوة المال ولم يتوانوا في فعل الخيرات فستأتي نفوسهم مطمئنة راضية بالثواب مرضية عند ربها، فتنضم إلى الذين وعدهم الله بالجنة، وتصير من أهلها.

- نص السورة:

1- قَسَمَ لِذِي حَجَرٍ ...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْفَجْرِ¹، وَكَيْالَ عَشْرِ²، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ³، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ⁴ (إذا ذهب)،
هَلْ (إن) فِي ذَلِكَ قَسَمَ لِذِي حَجَرٍ⁵ (لصاحب عقل: جواب القسم)

2- أقوام كذبوا رسلهم فأهلكوا...

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ⁶ (قوم النبي هود سكان مدينة) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ⁷، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ لَهَا⁸ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ⁸ (العربية)، وَثَمُودَ (قوم النبي صالح) الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ⁹ (وادي القرى، وصنعوا منها قصورهم)، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ¹⁰ (فرعون وأركان جيشه وكبراء دولته) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ¹¹، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ¹²، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ¹³ (عذاب السوط)، إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ صَادِقٌ¹⁴.

3- حشع الإنسان : أكل مال اليتيم وعدم الاهتمام بالفقراء...

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ (قريش)⁽¹⁾ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ¹⁵. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ¹⁶! كَلَّا! بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ¹⁷، وَكَأَ تَحَاضُّونَ (لا يحض بعضهم بعضا) عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ¹⁸، وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ (ميراث اليتامي) أَكْلًا لَمًّا¹⁹ (تلمونه لا تتركون لهم منه شيئا)، وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا²⁰.

4- البعث والحساب: الجنة أو النار

كَلَّا! إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا²¹، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا²²، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ: يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى²³! يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي²⁴ (ما ينبغي في آخرتي)؛ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ²⁵، وَكَأَ يُوْثِقُ وِثَاقَهُ²⁶. يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ²⁷ (التي لم تأكل مال الغير...): ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً²⁸، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي²⁹ (الراضيين) وَادْخُلِي جَنَّتِي³⁰.

- تعليق

الأشياء الخمسة المقسم بها هنا لابد أن تكون معروفة عند العرب قبل الإسلام. بعض المفسرين يقولون إن المقصود بها هو ما يجري فيها من مناسك الحج، وهذا لا يصح - من الناحية المبدئية - إلا إذا كانت هذه المناسك متطابقة مع ما

1 - ذلك ما يعطيه السياق على سبيل العموم. وروي أن المقصود أشخاص من قريش ذكروا أسماءهم. وعندما يذكر الإنسان في مثل هذا السياق فالمراد به في الغالب خصوم الدعوة المحمدية.

كان العرب يفعلونه قبل الإسلام. وجواب القسم هو : إن هذه المناسك -المفروض أنها موروثة من زمن إبراهيم عليه السلام- تستحق في نظر العاقل العارف بأصلها ومصدرها أن يقسم بها قسما عظيما. هذا التفسير كان سيكون مقبولا لو أن السورة نزلت بعد أن فرضت فريضة الحج بمضامينها الإسلامية. ولكن هذا غير وارد. وإنما ذهب المفسرون إلى هذا المنحى في التفسير لأنهم يتبعون ترتيب المصحف فيبدؤون بالبقرة متبعين القرآن المدني ليعودوا بعد ذلك للقَهْقَرَى مع القرآن المكي من أواخر ما نزل منه إلى أوائله. والسورة التي نحن بصدها من الأوائل. ولكنها عندما يأتي دورها في التفسير ضمن الأواخر فهي تفسر على ضوء ما مضى، ومنها تفهم مناسك الحج كما أقرها القرآن والسنة. وهذا النوع من القلب يطال كتب التفسير كلها، أعني أن عملية التفسير تتعامل مع القرآن مقلوبا. نعم ينتبه المفسر من حين لآخر إلى زمن نزول الآية، ولكن ذلك لا يحصل -في الغالب- إلا عندما يتعلق الأمر بآيات الأحكام؟ من أجل ما تقدم، وبسببه، لا نرى في تفسير الموضوعات الخمسة المقسم بها ما يبرر القسم بها، خصوصا ومناسك الحج في الجاهلية كانت مناسك وثنية قد اختلطت مع عبادة الأصنام، وبالتالي لم تكن قد اكتست بعد ما أضفاه عليها القرآن من خلقية إسلامية. ولذلك نرى أن الأنسب هو القول إن المقصود بالأنبياء المقسم بها هو تعاقبها كظواهر طبيعية تدل على خالقها وعلى بديع صنعه : تعاقب الليل والنهار، وتعاقب الشفق والوتر، وتعاقب "الليالي العشر" (المفترض أنها معروفة عند العرب). وهذا التعاقب يستحق أن يكون قسما عظيما، لأنه قانون يجري في الكون كما يجري في التاريخ : بيان ذلك تقرير السورة لما فعل الله بأقوام تعاقبت، كذبت رسلها وطغت : عاد، ثمود، فرعون... لقد كان الله لهم بالمرصاد، يراقبهم فعاقبهم بأن سلط عليهم سوط العذاب، كما في السورة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تأتي سورة الفجر هذه لتؤكد ما قررته السورة السابقة، من طريق آخر سيعرض هنا لأول مرة. لقد كان بيان القرآن معتمدا حتى الآن على التنبيه إلى الدرس الذي يجب استخلاصه من انتظام الظواهر الكونية كالشمس والنجوم والظلام والفجر، وتعاقب الليل والنهار الخ، لإقناع قريش بصدق نبوة محمد (ص) وبالبعث والجزاء. أما هنا فنحن أمام نوع آخر من البيان القرآني، نصادفه لأول مرة، هو الدعوة إلى استخلاص العبرة مما جرى للأقوام الماضية الذين كذبوا رسلهم وانشغلوا ببناء القصور ومارسوا الطغيان، وكانوا أكثر قوة من قريش كما يدل على ذلك ما بقي من آثارهم التي يعرفها تجار قريش معرفة جيدة لأنهم يمرون عليها في أسفارهم، ويتوارثون أخبارهم وقصصهم. وأخيرا لابد من الإشارة إلى أن هذه السورة ترتبط بالسورة السابقة، وبصورة مباشرة، بطرحها للمسألة

14- سورة الماعون

- تقديم

وهاهنا نص قرآني آخر اختلف المفسرون في شرحه لوجود مسافة بين مبناه ومعناه يعمرها ما تراكم في ذهن المفسر من تصورات تستمد وجودها ومفعولها من مراحل متأخرة عن زمن النص. إن الأمر يتعلق بقراءة نص بما لم يكن قد تقرر بعد. ومع أن جل المفسرين ينتبهون، وينبهون، إلى ضرورة الاستعانة بـ "أسباب النزول" إلا أن ميلهم إلى ربط كل آية بسبب نزول خاص، حتى ولو كانت هذه الآية مرتبطة بما قبلها مندرجة تحت سبب نزوله، قد أوقع الكثيرين منهم تحت طائلة النظرة التجزئية، التي كثيرا ما تؤدي إلى مآزق يصعب الخروج منها، كما هو الحال في تعاملهم مع السورة التالية.

- نص السورة

1- الذين يظلمون اليتيم ولا يحضون على طعام المسكين ...

بسم الله الرحمن الرحيم
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ¹ (هل عرفت يا محمد الذي يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه) ؟ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ² (إنه الذي يظلم اليتيم ويقهره)، وَلَمْ يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ³ (ولا يحث على إطعام المحتاج إلى الطعام).

2- ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون...

قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ⁴، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ⁵، الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ⁶، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ⁷.

- تعليق

يذهب معظم المفسرين إلى أن المقصود في هذه السورة، خصوصاً منها القسم رقم 2، هم المنافقون : فهم "الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ"، أي لا يحافظون على أوقات الصلاة بل يتشاغلون عنها، وإذا صلوا فعلوا ذلك بصورة تلفت انتباه الناس لهم ليروهم يصلون: "الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ". وإذا جاءهم فقير أو مسكين يطلب الصدقة، أو محتاج يطلب إئاء أو آلة للانتفاع بها، يمتنعون عن تلبية طلبه: "وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ". هؤلاء يعدّهم القرآن بـ "الويل" وهو واد في جهنم.

وواضح أن هذا التأويل لا يستقيم إلا بافتراض أن هذه السورة نزلت في المدينة، لأن الأوصاف المذكورة هي أوصاف المنافقين، فهم الذين جمعوا الأوصاف الثلاثة: ترك الصلاة، والرياء، والبخل بالمال". غير أن ظاهرة "المنافقين" لم تبرز إلا في المدينة وهذه السورة مكية بامتياز: إن أسلوبها وموقعها في لوائح ترتيب النزول (تقع ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة)، يجعلانها تنتمي إلى المرحلة التي نحن بصدددها، خصوصاً وهي ترتبط بنفس السياق الذي يجمع السور السابقة بانتماها، على مستوى الموضوع والأسلوب، إلى المسألة الاجتماعية كما طرحت لحد الآن (اليتيم، المسكين).

وبما أن قوله تعالى: "قويل للمصلين" لا يمكن أن يكون المقصود به -في نظر بعضهم- هم المؤمنون، قالوا إن القسم الأول من السورة (أرأيت الذي يكذب بالدين الخ) نزل بمكة والقسم الثاني (ويل للمصلين الخ...) نزل في المنافقين بالمدينة. وبالتالي خصوا كلا من القسمين بسبب نزول: قالوا عن القسم الأول: "كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين فأناه يتيم فسأله شيئاً ففرعه بعضاً فأنزل الله تعالى "أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدعُ اليتيم". وقالوا عن آيات القسم الثاني إنها "في المنافقين أشبه، وبهم أخلق" الخ. هذا بينما ذهب بعضهم إلى تفسير "الماعون" بفريضة الزكاة! (انظر: الطبري، القرطبي...).

أما نحن فنرى أن السورة كيان واحد لا يمكن الفصل فيه بين ما بعد قوله "قويل للمصلين" وبين ما قبله، وذلك لوجود فاء العطف التي تفيد الترتيب والتعقيب والمشاركة، كما تفيد علاقة السببية بين السابق واللاحق، بين المعطوف والمعطوف عليه، مثل "رمى الصياد الطائر فقتله". هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا شيء في السورة يصرف معنى الصلاة إلى المعنى الاصطلاحي الشرعي، خصوصاً والصلاة والزكاة لم تكونا معروفتين بهذا المعنى الشرعي في المرحلة التي نزلت فيها هذه السورة. كل ذلك يحملنا على اعتبار المعنى اللغوي وحده، أعني الزكاة بمعنى

الصدقة. أما الصلاة فيمكن أن يكون المقصود بها في السورة هو الدعاء أو العبادة على العموم أو الصلاة كما مورست في العهد المكي (مرتان في اليوم)، وبالتالي يكون قوله تعالى "فويل للمصلين" عبارة عن وعيد للمتعبدين الذين هم عن "عبادتهم" ساهون أي غافلون. والغفلة هنا لا تعني عدم أدائها في وقتها فحسب، بل تعني، بالأولى والأحرى، عدم مراعاة المضامين الاجتماعية في العبادة التي من بينها الرأفة باليتيم والحض على طعام المسكين والتواضع وعدم المراعاة وإبتغاء ما ينفع الناس الخ. هذا مع العلم أن "الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر" ("اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" (العنكبوت 45)، وبالتالي فالذين عن صلاتهم ساهون" يمكن تفسيره على ضوء هذه الآية بالذين يسهون عن اجتناب الفحشاء والمنكر. وهذه الآية مكية ولو أنها نزلت في مرحلة لاحقة فإنها تتحرك في مجال المفكر فيه في مكة، أعني قبل الهجرة وظهور فئة المنافقين.

15- سورة الكافرون

- تقديم

ذكر ابن إسحاق في "السيرة" أن رجلاً من كبار قريش اعترضوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يطوف بالكعبة فقالوا: "يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه".

وهذه الرواية، إن صحت، والغالب أنها صحيحة، تنسجم مع سياق السور السابقة فضلاً عن أنها تعكس فعلاً "عقلية" كبار قريش التجارية: لقد كانوا تجاراً وكانوا يمارسون ديانتهم بوصفها جزءاً من تجارتهم. فما كان يهمهم من الأصنام هو المنافع الاقتصادية التي كانوا يجنونها من حج القبائل العربية إلى مكة وتقديم الهدايا إلى أصنامها.

وكان الرسول يعرف ذلك، أعني أن ما يهم الملأ من قريش هو مصالحهم الاقتصادية، وأنهم لن يتخلوا عن أصنامهم ما دامت تلك المصالح مرتبطة بها، ولذلك استهدف هذه المصالح في غزواته عندما هاجر إلى المدينة.

هناك رواية أخرى يربطها المفسرون بأسباب نزول هذه السورة ومؤداها أن كبار قريش عرضوا على النبي عليه السلام المال والملك والتزويج الخ، قيل أن يعرضوا عليه "المشاركة" في العبادة.

وهذه الرواية لا تستقيم مع المرحلة التي رتبت ضمنها هذه السورة. ذاك أنها تذكر أنهم طلبوا كمقابل أن "يكف عن شتم آلهتهم"! والرسول عليه السلام لم يكن قد بدأ بعد في التعرض لآلهتهم، فهذه السورة خالية من ذلك كالسور السابقة، وإنما سيبدأ في التعرض إلى أصنامهم في مرحلة لاحقة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ¹: لَّا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ² (الآن)، وَكَأَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ³ (الآن). وَكَأَ أَنَا عَابِدٌ (في المستقبل) مَا عَبَدْتُمْ⁴، وَكَأَ أَنتُمْ عَابِدُونَ (في المستقبل) مَا أَعْبُدُ⁵. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ⁶ (لا مجال للمساومة).

- تعليق

واضح أن هذه السورة لا تتعرض لأصنام قريش لا بالمدح ولا بالذم. كل ما تقرره هو أن الرسول يرفض بشكل قاطع أن يعبد ما تعبد قريش من أصنام، تماماً كما يعرف أنها لن تعبد هي ما يعبد هو. ذلك أن "الحل الوسط" الذي طرحته عليه قريش مغشوش من أساسه، بمعنى أن قريشا هي التي ستستفيد منه وحدها. فإذا عبد الرسول ما تعبد قريش فمعنى ذلك أن عليه أن يتخلى عن دينه الذي لا يعترف بإله آخر غير الله. أما إذا عبدت هي "الله" مع الحفاظ على عبادتها لأصنامها الذين تعتبرهم شفعاء إلى الله، فهي لن تخسر شيئاً. بل ستحافظ على دينها كما كان. لأن دينها لا يستغني عن الله وإنما يضع معه شركاء.

هذا المنطق التجاري المكشوف أرادت قريش أن تمرره بحمل النبي على تبني موقفها الانتهازي، عندما قالت له: "فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد، كنا قد أخذنا بحدظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه". ما يهم قريش، هو ما سيكسبون في الدنيا بواسطة الدين. ولذلك جاء الرفض قاطعاً، رفض ما تعبد قريش في الحاضر والمستقبل. وقد حاول النبي عليه السلام استمالتهم من هذا الجانب في مناسبة أخرى -سننتحدث عنها في حينه- وذلك عندما حاولوا مفاوضته عند عمه أبي طالب، فأكثروا من الإغراءات المادية، فرفض. ولما طلبوا منه أن يقول لهم ما يريده منهم -إحراجاً له- رد عليهم بقوله: إنها "كلمة واحدة" تملكون بها العرب والعجم، يقصد: "شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ففهموا... وانصرفوا يائسين.

1- يميزون في الكفر بين جحود النعمة، وجحود الوعدانية أو النبوة وهذا هو المقصود هنا.

16- سورة الفيل

- تقديم

تتصل هذه السورة بالتي سبقتها؛ ذلك أن العرض الذي قدمه الملأ من قريش للرسول عليه السلام في السورة السابقة، والذي كان الدافع إليه الحفاظ على مصالحهم الاقتصادية، يبرر تذكيرهم بقضية لم يكن قد مر عليها وقت طويل، وهو ما تعرضت له مكة من هجوم صاحب الحبشة بهدف استتباعها والسيطرة عليها بوصفها موقعا استراتيجيا اقتصاديا دوليا، وأن الذي أنقذها ليس أصنامهم بل التدخل الإلهي، كما تشرح السورة.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ¹؟ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ²
(أفسد كيدهم: هدم الكعبة)، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ³ (متتابعة تأتيهم من كل
جهة)، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ⁴ (من طين. قيل: إذا أصاب أحدهم خرج به
الجذري)، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ⁵؟ (كُتِبَ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ فَصَارَ رَوْثًا تَدُوسُهُ
بِأَقْدَامِهَا).

- تعليق :

حملة أبرهة على مكة

لفهم عبارات هذه السورة نورد هنا ملخصا لقصة "أصحاب الفيل"، كما احتفظت بها ذاكرة القرشيين وهي التي خاطبتها هذه السورة :

كانت لمكة أهمية خاصة قبل الإسلام، فضلا عن أنها كانت من أهم المركز الدينية في الجزيرة العربية، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، كانت أيضا مركزا تجاريا إقليميا وموقعا استراتيجيا بالغ الأهمية مما جعلها تتعرض لمحاولات غزو من القوى الكبرى قبل الإسلام. وعندما قامت الدعوة المحمدية كانت ذكرى الحملة التي تعرضت

لها مكة من طرف أبرهة، عامل ملك الحبشة على اليمن، ما تزال حية في مخيال قريش. لقد وقعت في نفس السنة التي ولد فيها محمد (ص)، وهي السنة المعروفة بـ "عام الفيل (570 ميلادية). ومع أن الحملة كانت ترمي أساسا إلى التخلص من تحكم مكة في التجارة الدولية بين اليمن والشام، بنقلها إلى يد اليمنيين، وبالتالي إلى الحبشة حليفة بيزنطة، فإن تحقيق هذا كان يتطلب القضاء عليها كمرکز ديني. ومن هنا استهدفت حملة أبرهة هدم الكعبة وتحويل حج العرب إلى "القليس" (الكنيس، الكنيسة؟) وهو معبد أقامه أبرهة في اليمن.

اتجه أبرهة وجيشه إلى مكة ومعه الفيل، "ففسكر خارجها. ولما علمت قريش بما يريد بعثت إليه كبيرها يومئذ وهو عبد المطلب جد النبي محمد (ص) مصحوبا بسيد بني بكر وبني هذيل لمفاوضته : "فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة (المنطقة المحاذية للبحر من مكة إلى اليمن) على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم... وانصرف عبد المطلب إلى قريش فاخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعاب الجبال (المواضع الخفية بين الجبال)... فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيله وعبى جيشه". غير أن الحملة فشلت : أصيب أبرهة في جسده، وفر هو وجيشه وعادوا إلى صنعاء حيث مات. قال ابن إسحاق الذي اعتمدناه في هذا الملخص: "حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: أن أول ما رُويت الحصبة والجذري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رُوي بها مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعُشْر ذلك العام".

17- سورة الفلق

- تقديم

قيل: إن سبب نزول المَعْوَذَتَيْن (سورة الفلق وسورة الناس) أن قريشا كلفوا أحد المشهورين عندهم بـ "الإصابة بالعين" أن يصيب النبي(ص) بعينه فنزلت السورتان. وإذا صح لجوء قريش إلى ذلك، فإنه سيكون بمثابة رد فعل منهم إزاء رفض النبي عليه السلام عرضهم السابق. وقد سميت هاتان السورتان بـ "المعوذتين" لكون النبي قد تعوذ بهما حسب بعض الروايات. أما قول بعضهم إن سبب نزولهما مرتبط -كما زعموا- بما تعرض له النبي (ص) من سحر من طرف اليهود في المدينة فيقتضي أن تكونا مدنيتين، وهذا بعيد لأن حجم السورتين وأسلوبهما يدلان على مكيتهما، هذا فضلا عن ورودهما في لوائح ترتيب النزول في نفس الرتبة (19-20) الشيء الذي يعني أنهما من أوائل القرآن المكي. هذا واشتهر عن عبد الله بن مسعود أنه كان ينكر أن تكون هاتان السورتان من القرآن، وأنه قال: "إنما أمر رسول الله أن يتعوذ بهما، ولم يؤمر بأنهما من القرآن". وقد ردَّ عليه بأن الصحابة كانوا يقرءونهما في الصلاة مما يدل على أنهما من القرآن وليستا مجرد دعاء. كما روى أن النبي قرأهما في صلاته.

- نص السورة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ أَعُوذُ (أَلْجَأُ وَأَحْتَمِي) بِرَبِّ الْفَلَقِ¹ (الصباح، فلق النهار)، مِنْ شَرِّ مَا
خَلَقَ²، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ³ (الليل إذا أظلم)، وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ⁴
("الساحرات اللاتي ينفثن في عقد الخيط)، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ⁴.

تعليق : السحر

لن نعلق هنا على حقيقة السحر من منظور الفكر العلمي المعاصر، بل نفضل أن ننقل هنا للقارئ وجهة نظر فقهية في السحر مما كتبه القرطبي في تفسيره.

والقرطبي فقيه من متشددى أهل السنة، وتفسيره محكوم بنظرته الفقهية. قال: "قيل: السحر أصله التمويه بالحيل والتخايل، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني فيُخِيلُ للمسحور أنها بخلاف ما هي به، كالذي يرى السراب من بعيد فيُخِيلُ إليه أنه ماء، وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثاً يُخِيلُ إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه. وقيل: هو مشتق من سَحَرَتِ الصبي إذا خدعته، وكذلك إذا علته. والتسحير مثله (...). وقوله تعالى: "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ" (الشعراء 153). يقال: المُسَحَّرُ الذي خلق ذا سحر؛ ويقال من المعلنين أي ممن يأكل الطعام ويشرب الشراب. وقيل: أصله الخفاء، فإن الساحر يفعله في خفية. وقيل: أصله الصَّرف؛ يقال: ما سَحَرَك عن كذا، أي ما صرفك عنه؛ فالسحر مصروف عن جهته. وقيل: أصله الاستمالة؛ وكل من استمالك فقد سحرك. وقيل في قوله تعالى: "لَقَالُوا إِنَّمَا سَكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" (الحجر 15) أي سحرنا، فازلنا بالتخييل عن معرفتنا. وقال الجوهرى: السحر الأخذ؛ وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر. وقد سحره يسحره سحراً. والساحر: العالم. وسحره أيضاً بمعنى خدعه. وقال ابن مسعود: كنا نسمي السحر في الجاهلية العضة.. والعضة عند العرب: شدة البهت وتمويه الكذب" (...).

واختلف هل له حقيقة أم لا؛ فذكر الغزوي الحنفي في عيون المعاني له: أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل له، وعند الشافعي وسوسة وأمراض. قال: وعندنا أصله طَلَسْم (حرز) يبني على تأثير خصائص الكواكب؛ كتأثير الشمس في زنبق عصي (سحرة) فرعون، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا له ما عَمُرَ.

قلت: وعندنا (القرطبي: أهل السنة) أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء، على ما يأتي. وأضاف: "ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة. وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له، وإنما هو تمويه وتخيل وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به، وأنه ضَرْب من الخفة والشغوة؛ كما قال تعالى: "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى" (طه 66) ولم يقل تسعى على الحقيقة، ولكن قال يُخِيلُ إِلَيْهِ". وقال أيضاً: "قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ" (الأعراف 116). وهذا لا حجة فيه؛ لأننا لا ننكر أن يكون التخيل وغيره من جملة السحر، ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه، ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس، فدل على أن له حقيقة. وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون: "قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ

عظيم". وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع، ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة (٩) المعتزلة ومخالفتهم "أهل الحق"!.. ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان وتكلم الناس فيه، ولم يَبْذُ من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله. وروى سفيان عن أبي الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال: عَلِمَ السحر في قرية من قرى مصر يقال لها: "الفرما" فمن كَذَبَ به فهو كافر، مكذِب لله ورسوله، منكر لما عَلِمَ مشاهدة وعياناً".

وأضاف: "قال علماؤنا: لا يُنكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات مما ليس في مقدور البشر من مرض وتفريق وزوال عقل وتعويج عضو، إلى غير ذلك مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد. قالوا: ولا يبعد في السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يتولج في الكوآت والخوحدات والانتصاب على رأس قسبة، والجزي على خيط مستدق، والطيران في الهواء والمشي على الماء وركوب كلب وغير ذلك. ومع ذلك فلا يكون السحر موجباً لذلك، ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً، ولا يكون الساحر مستقلاً به، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر؛ كما يخلق الشيع عند الأكل، والرّي عند شرب الماء. روى سفيان عن عمار الذهبي أن ساحراً كان عند الوليد بن عُقبة يمشي على الحبل، ويدخل في اسنّ الحمار ويخرج من فيه؛ فاشتمل له جُنْدُب على السيف فقتله. (...) أجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إزال الجراد والقمل والضفادع وقلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجماء (التي لا تتكلم)، وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم السلام. فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر. قال القاضي أبو بكر بن الطيّب: وإنما معنا ذلك بالإجماع ولولاه لأجزناه".

ويواصل القرطبي: "في الفرق بين السحر والمعجزة: قال علماؤنا السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد. والمعجزة لا يمكن الله أحداً أن يأتي بمثلها وبمعارضتها. ثم الساحر لم يدع النبوة فالذي يصدر منه متميز عن المعجزة، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدّي بها. واختلف الفقهاء في حكم الساحر المسلم والذمي؛ فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يُقتل ولا يُستتاب ولا تُقبل توبته، لأنه أمر يستسير به كالزندق والزاني، ولأن الله تعالى سمّى السحر كفراً بقوله: "وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا

هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (البقرة 102) ... وهو (قتل الساحر) قول أحمد بن حنبل وأبي ثور وإسحق والشافعي وأبي حنيفة. ورؤي قتل الساحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين. ورؤي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "حَدَّثَ الساحر ضَرْبَهُ بالسيف"، خرَّجه الترمذي وليس بالقوي (...). قال ابن المنذر: وإذا أقرَّ الرجل أنه سحر بكلام يكون كفراً وجب قتله إن لم يتب، وكذلك لو ثبتت به عليه بيِّنة ووصفت البيِّنة كلاماً يكون كفراً. وإن كان الكلام الذي ذكر أنه سحر به ليس بكفر لم يجز قتله، فإن كان أحدث في المسحور جنابة توجب القصاص اقتُص منه إن كان عمْد ذلك؛ وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك. (القرطبي في تفسيره لقوله تعالى "وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ" (البقرة 102)).

وبعد، فكيف نفهم هذا الاختلاف في وجهة نظر القرطبي: تارة ينفي وجود السحر ويورد مواقف فقهية بوجوب قتل الساحر، وتارة يقول بوجود السحر ويهاجم نفاته ومنكريه! الجواب هو: أن أصل هذا التناقض في موقف القرطبي ومن ذهب مذهب الأشاعرة عموماً يرجع إلى المسألة التي عبر عنها المعتزلة بـ "خلق الأفعال"، أي إثبات القدرة للإنسان على إثبات أفعاله بحرية وإرادة، وهدفهم من ذلك إثبات المسؤولية، وبالتالي سرقات الوعد والوعيد. وهذه مسائل سنوضحها لاحقاً، كل في المكان المناسب له.

18- سورة الناس

- تقديم

في السورة السابقة كان العياذ بـ "رب الفلق"، والفلق كما قلنا هو الصبح، والصبح يفيد طلوع النهار: نهار الحقيقة، نهار العدل والحق! والعياذ كان من الشر، شر المخلوقات : من الإنسان والشیطان والهوام إلى شر الظلام إذا عم الكون، ومنه الظلمة في القمر حين الكسوف، إلى شر الساحرات، إلى شر الحساد... وإذن فالتركيز هناك في سورة الفلق كان على ما منه كان العياذ والهروب، أي من الشر بكلمة واحدة. أما هنا في سورة الناس فالتركيز واقع على الذي وقع العياذ به، أي اللجوء إليه، وهو: رب الناس، ملك الناس، إله الناس. والمتعوذ منه هو وسواس الشيطان، شيطان الإنس وشیطان الجن. كان اللجوء في سورة الفلق إلى "رب الفلق"، الرب الذي يفلق ظلام الليل ويأتي بالنهار، الرب الذي يأتي بالفرج إلى المنعم عليه، الرب الذي يربي ويرعى ... أما هنا فاللجوء إلى رب الناس، ملك الناس، إله الناس. الرب هنا هو الملك، الإله، القادر على كل شيء، على قهر وسوسة الإنسان ووسوسة الشيطان.

هذا إذا نظرنا إلى سياق السورة من خلال التي سبقتها. أما إذا نظرنا إليها من خلال السورة التي بعدها فإننا سنتبين شيئا آخر: إنه لفظ "الله" الذي سيبرز كاسم آخر للرب كما سنرى.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ¹، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ³، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَنَّاسِ⁴ (من طبعه أنه يختفي) الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ⁵، مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ⁶ (شيطان الجن وشیطان الإنس).

- تعليق :

الوسواس

وقع التركيز في السورة السابقة على السحر، أما هنا فالتركيز على الوسواس. وكما فعلنا في التعليق السابق فلن ننقل رأي الفكر المعاصر في الوسواس، ولا حكم الدين فيه كما يقرره الفقهاء، فالوسواس ليس فيه حكم فقهي لأنه ليس من أفعال الإنسان الإرادية بل هو ظاهرة بشرية. ولذلك رأينا أنه من الأنسب في هذه المسألة إطلاع القارئ على تحليل الفكر النظري "العلمي الفلسفي الديني"، كما كان في أوج الحضارة العربية الإسلامية. يتعلق الأمر أساساً بوجهة نظر "متكلمين متفلسفين" أشعريين هما الفخر الرازي (صاحب التفسير) وأبو حامد الغزالي (صاحب إحياء علوم الدين).

الوسوسة من الشيطان. هذا ما يقرره القرآن. يبقى "الكلام" في 'كيف يقوم الشيطان بالوسوسة' في نفس الإنسان. قال الرازي: "ذكروا أنه (الشيطان) يغوص في باطن الإنسان ويضع رأسه على حبة قلبه، ويلقي إليه الوسوسة. واحتجوا عليه بما روي من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، ألا فضيقوا مجاريه بالجوع". وقال عليه السلام: "لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات".

ثم يضيف الرازي: "ومن الناس من قال: هذه الأخبار لا بد من تأويلها، لأنه يمتنع حملها على ظواهرها، واحتج عليه بوجوه: الأول: أن نفوذ الشياطين في بواطن الناس محال؛ لأنه يلزم إما اتساع تلك المجاري أو تداخل تلك الأجسام. الثاني: ما ذكرنا من أن العداوة الشديدة حاصلة بينه وبين أهل الدين. فلو قدر على هذا النفوذ فلم لا يخصصهم بمزيد الضرر؟ الثالث: أن الشيطان مخلوق من النار (قصة إبليس في القرآن)، فلو دخل في داخل البدن لصار كأنه نفذ النار في داخل البدن، ومعلوم أنه لا يحس بذلك. الرابع: أن الشياطين يحبون المعاصي وأنواع الكفر والفسق، ثم إنا نتضرع بأعظم الوجوه إليهم ليظهروا أنواع الفسق فلا نجد منه أثراً ولا فائدة، وبالجمله فلا نرى لا من عداوتهم ضرراً ولا من صداقتهم نفعاً".

ذلك ما احتج به منكر وسوسة الشيطان. "وأجاب مثبتوها عن السؤال الأول: بأنه على القول بأنها نفوس مجردة فالسؤال زائل، وعلى القول بأنها أجسام لطيفة كالضوء والهواء فالسؤال أيضاً زائل، وعن الثاني: لا يبعد أن يقال: إن الله وملائكته يمنعونهم عن إيذاء علماء البشر، وعن الثالث: أنه لما جاز أن يقول الله

تعالى لنار إبراهيم "قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ" (الأنبياء: 69) فلم لا يجوز مثله هنا؟ وعن الرابع: إن الشياطين مختارون، ولعلهم يفعلون بعض القباح دون بعض".

ذلك تحليل للمسألة من زاوية ما ورد في الأخبار (الأحاديث). أما من ناحية "الرأي" فالرازي يورد أولاً ما قاله الغزالي في هذا الشأن ثم يدلي فيه برأيه. قال: "قال (الغزالي): القلب مثل قبة لها أبواب تنصب إليها الأحوال من كل باب، أو مثل هدف ترمى إليه السهام من كل جانب، أو مثل مرآة منصوبة تجتاز عليها الأشخاص، فتتراءى فيها صورة بعد صورة، أو مثل حوض تنصب إليه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة. واعلم أن مداخل هذه الآثار متجددة في القلب ساعة فساعة: إما من الظاهر كالحواس الخمس، وإما من البواطن كالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة في مزاج الإنسان؛ فإنه إذا أدرك بالحواس شيئاً حصل منه أثر في القلب، وكذا إذا هاجت الشهوة أو الغضب حصل من تلك الأحوال آثار في القلب، وأما إذا منع الإنسان عن الإدراكات الظاهرة فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى، وينتقل الخيال من شيء إلى شيء، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال، فالقلب دائماً في التغير والتأثر من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هي الخواطر، وأعني بالخواطر ما يعرض فيه من الأفكار والأذكار، وأعني بها إدراكات وعلوم إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر. وإنما تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بالخيال بعد أن كان القلب غافلاً عنها. فالخواطر هي المحركات للإرادات، والإرادات محركة للأعضاء. ثم هذه الخواطر المحركة لهذه الإرادات تنقسم إلى ما يدعو إلى الشر، أعني إلى ما يضر في العاقبة، وإلى ما ينفع، أعني ما ينفع في العاقبة، فهما خاطران مختلفان، فافتقرا إلى اسمين مختلفين: فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً، والمذموم يسمى وسواساً. ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر أحوال حادثة فلا بد لها من سبب، والتسلسل محال، فلا بد من انتهاء الكل إلى واجب الوجود" (الله). قال الرازي "وهذا ملخص كلام الشيخ الغزالي بعد حذف التطويلات منه".

بعد هذا ينتقل الرازي إلى تحقيق الكلام فيما ذكره الغزالي "فيذكر ست مقدمات "منطقية" لا حاجة لنا بها هنا، خصوصاً وهو يعود فيلخص نتائجها فيما يلي، قال: "إذا عرفت هذا فاعلم أن نفاة الشيطان ونفاة الوسوسة قالوا: ثبت أن المصدر القريب للأفعال الحيوانية هو هذه القوى المذكورة في العضلات والأوتار، فثبت أن تلك القوى لا تصير مصادر للفعل والترك إلا عند انضمام الميل والإرادة إليها، وثبت أن تلك الإرادة من لوازم حصول الشعور بكون ذلك الشيء لذياً أو مؤلماً، وثبت أن حصول ذلك الشعور لا بد وأن يكون بخلق الله تعالى ابتداءً أو بواسطة مراتب، شأن

كل واحد منها في استلزام ما بعده على الوجه الذي قررناه، وثبت أن كل واحد من هذه المراتب ترتب على ما قبله، أو لازم لزوماً ذاتياً واجباً، فإنه إذا أحس بالشيء وعرف كونه ملائماً مال طبعه إليه، وإذا مال طبعه إليه تحركت القوة إلى الطلب، فإذا حصلت هذه المراتب حصل الفعل لا محالة، فلو قدرنا شيطاناً من الخارج وفرضنا أنه حصلت له وسوسة كانت تلك الوسوسة عديمة الأثر؛ لأنه إذا حصلت تلك المراتب المذكورة حصل الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فإن لم يحصل مجموع تلك المراتب امتنع حصول الفعل سواء حصل هذا الشيطان أو لم يحصل. فعلمنا أن القول بوجود الشيطان وبوجود الوسوسة قول باطل، بل الحق أن نقول: إن اتفق حصول هذه المراتب في الطرف النافع سميناهم بالإلهام، وإن اتفق حصولها في الطرف الضار سميناهم بالوسوسة، هذا تمام الكلام في تقرير الإشكال" وهذا رأي نفاة الوسواس والشياطين.

"والجواب (على الرأي السابق، رأي نفاة الوسوسة والشياطين) هو (يقول الرازي): "إن كل ما ذكرتموه حق وصدق، إلا أنه لا يبعد أن يكون الإنسان غافلاً عن الشيء، فإذا ذكره الشيطان ذلك الشيء تذكره، ثم عند التذكر يترتب الميل عليه، ويترتب الفعل على حصول ذلك الميل، فالذي أتى به الشيطان الخارجي ليس إلا ذلك التذكر، وإليه الإشارة بقوله تعالى حاكياً عن إبليس أنه قال: "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي" (إبراهيم: 22). إلا أنه بقي لقاتل أن يقول: فالإنسان إما قدم على المعصية بتذكير الشيطان، فالشيطان إن كان إقدامه على المعصية بتذكير شيطان آخر لازم تسلسل الشياطين، وإن كان عمل ذلك الشيطان ليس لأجل شيطان آخر، ثبت أن ذلك الشيطان الأول إما أقدم على ما أقدم عليه لحصول ذلك الاعتقاد في قلبه، ولا بد لذلك الاعتقاد الحادث من سبب، وما ذلك إلا الله سبحانه وتعالى. وعند هذا يظهر أن الكل من الله تعالى، فهذا غاية الكلام في هذا البحث الدقيق العميق" (الرازي في سياق تفسيره لسورة الفاتحة. ج 1 ص 27)

هذا ولا بد من الإشارة إلى أنه باستثناء ما ورد من تدخل الشيطان وما له علاقة بالقرآن والحديث فيما ذكر، أقول باستثناء ذلك فإن ما ذكره الغزالي والرازي مأخوذ من شروح الفارابي وابن سينا على نظرية النفس عند كل من أفلاطون وأرسطو. وإن فالأساس العلمي لما ذكر هو علم النفس الأرسطي أما الباقي فمن الشراح والمفسرين. لقد حلل أرسطو النفس البشرية تحليلاً خالياً من أي رغبة، غير الرغبة في المعرفة، ففرق في النفس بين النفس الشهوانية والغضبية والعاقلة والنزوعية الخ مما بسطنا القول فيه في "بنية العقل العربي" و"العقل الأخلاقي العربي": الجزء الثاني والرابع من كتابنا "نقد العقل العربي".

19- سورة الإخلاص

- تقديم:

تدشن هذه السورة الانتقال من استعمال لفظ "الرب" كاسم للإله الذي تبشر به الدعوة المحمدية إلى استعمال اسم آخر هو "الله" مع الاحتفاظ بالأول⁽¹⁾. وتقول أشهر رواية في موضوع "سبب نزول" سورة "قل هو الله أحد": إن أناساً من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: "انسب لنا ربك!" فنزلت: "قل هو الله أحد إلى آخرها". وعلى هذا تكون هذه السورة مكية، وقد رتبت في لوائح ترتيب النزول في رتبة 22 أو قريباً منها (وفي ترتيبنا تقع في رتبة 19 بسبب تأجيل سور المزمل والقلم والفاتحة، وهذا يهم السور السابقة كلها).

هناك روايات أخرى تفيد أن سورة الإخلاص نزلت بالمدينة، فقد ذكروا "أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة (أخا لبيد) أتيا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عامر: "إلأم تدعوننا" (يا محمد)؟ قال: "إلى الله"، قال: "صفه لنا: أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ (ومن هذه المواد كانوا يصنعون ألهمهم) فنزلت هذه السورة". وفي رواية أخرى أن اليهود سألوه، فقالوا له: "هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟" فأنزلت جواباً لهم (الطبري).

1- أما عبارة "باسم الله"، ومعناها "أبدأ بتسمية الله وذكّره قبل كل شيء"، فقد خرت هي الأخرى في الخطاب القرآني. من ذلك قوله تعالى: "فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين" (الأنعام 118)، وقوله: "اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها" (هود 41). والمعنى "متبركين" باسمه. وقد تدب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل؛ كالأكل والشرب والنحر والجماع والطهارة وركوب البحر، إلى غير ذلك من الأفعال (القرطبي)، وفي الحديث: "كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر". أما البسملة (باسم الله الرحمن الرحيم) فقد اختلف المفسرون في شأنها: هل هي جزء من كل سورة أم أنها مجرد فاصلة بين السور وضعت زمن جمع القرآن على عهد عثمان، وعلى هذا الرأي تكون آية فقط هي قصة سليمان بسورة النمل وذلك في مطلع رسالته إلى بلقيس ملكة سبأ، حيث نقرأ: "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ" (النمل 30-31). وابتداء سورة العلق بقوله تعالى: "اقرأ باسم ربك" يمكن الاستناد إليه لتعزيز موقف القائلين بأن البسملة ليست جزءاً من كل سورة، لأنها إذا اعتبرت كذلك فستكون تكراراً لقوله "اقرأ باسم ربك" لأن المعنى واحد والقصد واحد وهو التبرك.

ونحن نرى أن الروايات التي تفيد أن هذه السورة نزلت في المدينة وليس في مكة لا تستقيم مع ورود اسم "الله" في القرآن المكي مرات عديدة، هي من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى، وبالتالي فمن المستبعد أن يسأل النبي عنه في المدينة. ثم إن اسم الله كان معروفاً عند العرب وكانوا يؤمنون به، والفرق بين معتقدهم فيه وبين الإسلام أنهم كانوا يجعلون له شركاء من الملائكة والأصنام. أما اليهود فلا يعقل أن يسألوه ذلك السؤال المنسوب إليهم لأنه مردود عليهم. على أن سؤال "من خلق الله" كان مطروحا خارج اليهود⁽²⁾.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ¹ (لا أحد يشاركه في الألوهية)، **اللَّهُ الصَّمَدُ²** (المصمت، لا جوف له كالأصنام)⁽³⁾، **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ³** (ليس هو كآلهة العرب التي يجعلونها بنات الله)، **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ⁴** (لا يماثله أو يكافئه أحد فيما خلق).

- تعليق:

أفاض المفسرون القول في كلمات هذه السورة. فن كلمة "قل" إلى "كفؤا أحد"، مواقف مختلفة متنوعة بعضها يكرر بعض الخ. فبخصوص كلمة "قل" التي هي أول كلمة في السورة كما هي مدونة في المصحف، هناك من يثبتها ومن يحذفها : فقد روي أن أبي وابن مسعود قرءا السورة بغير "قل" هكذا: "هُوَ إِلَهُ أَحَدٌ..."، وروي أن النبي قرأ "الله أحد" بغير "قل هو". وهناك من قرأ: "قل هو الله الواحد".

2- في رواية عن أبي هريرة قال: "قال رسول الله تعالى حتى تقولوا هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فوالله إني لجالس يوما إذ قال لي رجل من أهل العراق هذا الله خلقنا فمن خلق الله، قال أبو هريرة فجعلت أصبعي في أذني ثم صحت صدق رسول الله، الله الواحد الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. وبإسناد عن عائشة قالت قال رسول الله إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول من خلقك؟ فيقول من خلق السموات والأرض؟ فيقول الله، فيقول من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فليقل آمَنَ بالله ورسوله".

3- كان العرب يصنعون أصنامهم مجوفة يدعونها للتبرك بها فتجيبهم من أجوافها كما يزعمون! من ذلك ما روى عن عبد الله بن ساعدة السهلي أنه قال: كنا نعبد صنما يقال له سَوراع، وكانت لي غنم فجزيت فسقتُها إليه وأذنيْتُها منه أرجو بركته، فسمعت مناديا من جوف الصنم يقول...

واختلفوا في "أحد" هل هو بالتثنية أم بغيره. وعلق الرازي على هذا الاختلاف فقال: "اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة **قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ** من **قُلْ** وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ **قُلْ** في سورة: **تَبَّتْ يَدَا**، وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، وأضاف: **فمن أثبت قُلْ** قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكي كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لنلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام. بمعنى أن إثبات **قُلْ** لازم لأن النبي (ص) ليس في مقدوره تعديل أو تغيير نظم الكلام في القرآن لأنه وحى كله، معنى ولفظاً. أما عدم إثباتها فمن أجل أن لا يتوهم السامع أن النبي لم يكن يعرف أن **الله أحد**... قبل نزول هذه السورة".

واختلفوا في معنى **"الصمد"** فقال بعضهم هو **"السيد الذي يُصمد إليه في النوازل والحوادث"**. وقال آخرون هو **"الدائم الباقي"**، ومنهم من قال: **"الصمد"** هو السيد الذي قد انتهى سؤدده في أنواع الشرف والسؤدد، وآخرون قالوا: **"إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد"**. ومنهم من قال: **"إنه المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب"**. وآخر قال: **"إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد"**. وآخر قال: **"إنه الكامل الذي لا غيب فيه"**. وغيره قال: **"الصمد معناه لا يقبل التغيير في ذاته"**.

وفي معنى **"أحد"** قال بعضهم **"الأحد والواحد سواء"**، وقال غيره **"الأحد الذي لا يدخل في العدد، والواحد يدخل في العدد، لأنك تقول للواحد ثانياً، وبمعنى آخر: الأحد يستوعب جنسه والواحد لا يستوعبه لأنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان ولا أكثر فالأحد أبلغ من الواحد"**.

وأما قوله **"لم يلد ولم يولد"** فقد انصرفت الشروح إلى أنه ليس أبا لابن، ولا ابناً لأب، كما تقول المسيحية. وكذلك قوله **"ولم يكن له كفواً أحد"** اتفقوا على أنه بمعنى **"ليس كمثل شيء"**.

أما نحن فقد فضلنا استقاء المعنى من نفس ما كان يعتقده مشركو مكة زمن النبي من معتقدات أضافوها إلى اعتقادهم في الله. وبعبارة أخرى فضلنا فهم السورة من موقع أن الإسلام يشترك مع قريش في الاعتراف بالله ولكنه ينفي عن فكرة الله كل ما أضافوه لها. وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالإيجاب باستعمال لفظ **"الحنيف"** الذي جاء مقروناً في أغلب الأحيان بسلب **"الشريك"**، مثل قوله تعالى: **"وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"** (يونس 105).

20- الفاتحة

- تقديم

لسورة الفاتحة أسماء متعددة أشهرها: فاتحة الكتاب على غرار "مقدمة الكتاب"، ويقال إن الرسول (ص) هو الذي سماها بهذا الاسم، ووضعها في مكانها كأول سورة تقرأ في الكتاب/القرآن. وقد روي عن النبي أنه سماها كذلك باسم "أم القرآن" أو "أم الكتاب" بمعنى "مبدؤه ومفتتحه"، وقيل إنه سماها أيضا بـ"السبع المثاني" بمعنى أنها سبع آيات تتكرر في الصلاة، إذ تقرأ في كل ركعة⁽¹⁾. واختلفوا في مكان نزولها: أفي مكة أم المدينة؟ معظمهم قال إنها مكية، وأنها نزلت عند فرض الصلاة فقرأ المسلمون بها في الصلاة عند فرضها⁽²⁾. وقال آخرون إنها مدنية، بينما ذهب بعضهم إلى أنها نزلت مرتين : مرة في مكة ومرة في المدينة. وهناك من قال إنها ليست من القرآن، فعبد الله بن مسعود لم يثبتها في مصحفه، كما لم يثبت المعوذتين، لكونه اعتبرهما دعاء كان النبي يتعوذ به. لكن الذي عليه جمهور المفسرين أنها نزلت في مكة. وقد رتب الخامسة في ترتيب النزول المعتمد وترتيب جابر بن زيد؛ أما الزركشي فقد رتبها السادسة والثمانين قبل البقرة، على غرار ترتيبها في المصحف. ولم ترتب في لائحة البيهقي ولا في لائحة ابن الضريس. ونحن قد رتبناها حسب مضمونها، بعد سورة الإخلاص. ذلك لأنه لما كانت هذه الأخيرة قد نزلت، كما رأينا، جوابا على سؤال قريش للنبي عليه السلام : "انسب لنا ربك"، فإن سورة الفاتحة هي أقرب السور إلى تكملة جواب "قل هو الله أحد" من حيث إنها تدشن مثل سورة الإخلاص استعمال لفظ الجلالة "الله" إلى جانب اسم "الرب"، وقد بينت أن الاسمين هما لمسمى واحد: "الحمد لله رب العالمين". وواضح أن هذا الترتيب لا ينال من كونها فاتحة الكتاب حسب ترتيب المصحف، وعملا بهذه السنة صدرنا بها هذا الكتاب. وقد ذهب جمهور القراء والمفسرين إلى أنها سبع آيات، "ولم يشذ عن ذلك إلا الحسن البصري فقال: هي ثمان آيات، وإلا الحسين الجعفي فقال: هي ست =

1- سنعود إلى هذه المسألة في مرحلة لاحقة.

2 - ومعلوم أن الصلاة فرضت في مكة وكانت ركعتين في الصباح وركعتين في المساء.

آيات، وقال آخرون هي: تسع آيات. والذين قالوا هي سبع آيات يتعين عليهم القول حينئذ بأن البسملة ليست من الفاتحة. ومن عدّ البسملة آية أدمج الآيتين الأخيرتين، كما في المصحف الذي اعتمدنا.

ويخلص الزمخشري موقف الفقهاء في الموضوع فيقول: "قرأء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدىء بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرأء مكة والكوفة وفقهاؤها على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها. وقالوا: قد أثبتتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا "أمين". فلو لا أنها من القرآن لما أثبتوها".

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم¹، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ² (الله ملك المخلوقات بجميع أنواعها، كل نوع عالم). الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ³ (3)، مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ⁴ (القاضي يوم القيامة) (4). إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ⁵، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ⁶، (وهو صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ⁷ (معظم الرواة على أن "المغضوب عليهم" و"الضالين" أنهم اليهود والنصارى على التوالي) (5).

3- من جملة ما يستدل به على كون البسملة ليست آية من الفاتحة أنها لو كانت كذلك لكان ورود عبارة "الرحمن الرحيم" هنا تكرر.

4- قال الزمخشري: قرئ: مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ، ومالك وملك بتخفيف اللام. وقرأ أبو حنيفة: مَلَكُ يَوْمِ الدِّينِ، بلفظ الفعل ونصب اليوم، وقرأ أبو هريرة: مالك بالنصب. وقرأ غيره: ملك، وهو نصب على المدح؛ ومنهم من قرأ: مَالِكُ، بالرفع. وملك هو الاختيار (اختيار الزمخشري)، لأنه قراءة أهل الحرمين، ولقوله: "لَمَنَ الْمَلَكُ الْيَوْمَ" (غافر: 16)، ولقوله: "مَلِكِ النَّاسِ" (الناس: 2)، ولأن الملك يعم، والمَلِكُ يخص. ويوم الدين: يوم الجزاء.

5- يقول الزمخشري معللاً كون المغضوب عليهم "هم اليهود لقوله عز وجل: "مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ" (المائدة: 60) والضمير يعود على اليهود). والضالين: هم النصارى؛ لقوله تعالى: "فَذُضِّلُوا مِنْ قَبْلِ" (المائدة: 77) والضمير يعود عليهم). ومعنى غَضِبَ اللَّهُ: "هو إرادة الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم".

- تعليق :

اهتم معظم المفسرين بذكر فضائل بعض السور والآيات ورووا في ذلك أحاديث وأخباراً، من ذلك سورة الفاتحة وسورة الإخلاص الخ. غير أن فريقاً من أئمة الدين لا يرون مبرراً لتفضيل بعض القرآن على بعض. وفيما يلي نورد ما ذكره القرطبي عن وجهة نظر هذا الفريق. قال: "اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنی على بعض؛ فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض؛ لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها. ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، وجماعة من الفقهاء. وروى عنه عن مالك. قال يحيى بن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ؛ وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردّد دون غيرها. وقال عن مالك في قول الله تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (البقرة: 106) قال: محكمة مكان منسوخة. وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك. واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يشعر بنقص المفضول؛ والذاتية في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه".

21- سورة الرحمان

- تقديم

صنفت سورة الرحمان في لوائح ترتيب النزول مع القرآن المدني، بناء على القول إنها مدنية. غير أن هذا القول يتناقض مع روايات عديدة تثبت وتؤكد أن هذه السورة نزلت في مكة، وعلى هذا الرأي جمهور الصحابة والتابعين. ففي رواية عن عروة بن الزبير قال: "أول من جهر بالقرآن بمكة (بعد النبي صلى الله عليه وسلم) أبى مسعود؛ وذلك أن الصحابة قالوا: "ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يُسمِعُهُمْ؟ فقال أبى مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه⁽¹⁾، فأبى، ثم قام عند المقام (مقام إبراهيم) فقال: "يسمى الله الرَّحْمَنُ الرَّحِيمَ، الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ"، ثم تمالى رافعاً بها صوته وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: "ما يقول أبى أم عبد؟" قالوا: "هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه"، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه". وتلتقى مع هذه الرواية رواية عن أسماء بنت أبي بكر ورد فيها أنها قالت: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يسمعون يقرأ: "فبأي آلاء ربكما تكذبان. وهناك رواية ثالثة تقول إن سورة الرحمان "نزلت جواباً لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر وهو رحمان اليمامة؛ يعنون مسيلمة الحنفي، فأنزل الله تعالى: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ".

وإذا أخذنا بهذه المعطيات فإنه سيكون من المبرر تماماً القول إن أول صورة من صور الانتقال من "المرحلة السرية" في الدعوة إلى مرحلة الجهر قد بدأت

1- كان عبد الله بن مسعود حليفاً لبني زهرة وقد أسلم في وقت مبكر قبل عمر ابن الخطاب، وربما كان من العشر الأوائل الذين أسلموا: "أسلم بمكة قديماً، وهاجر الهجرة، وشهد بذراً والمشاهد كلها مع رسول الله. وهو صاحب نعل رسول الله. كان يلبسه إياها إذا قام، فإذا جلس أدخلها في ذراعِهِ". توفي حوالي سنة 32هـ وعمره يزيد عن اثنين وستين.

بسورة الرحمان، وأن أول صحابي تلا القرآن جهرة في المسجد الحرام وكبراء قريش في نواديها بالكعبة يسمعون هو عبد الله بن مسعود. وبما أن هناك روايات تفيد أن أول سورة قرأها الرسول عليه السلام في المسجد جهرة هي سورة النجم - كما سنرى وكان ذلك بعد قراءة "الرحمان" من طرف عبد الله بن مسعود- وبما أن رقم ترتيب سورة النجم في لوائح ترتيب النزول يتحرك بين 21 و 23 فإن رتبة سورة الرحمان ستكون قبل رتبة سورة النجم ولذلك وضعناها هنا في الرتبة 21.

- نص السورة

1- مقدمة: الرحمان ... علم القرآن .. علم البيان!

بسم الله الرحمن الرحيم
الرَّحْمَانُ¹، عِلْمٌ (محمدا) الْقُرْآنُ²، خَلَقَ الْإِنْسَانَ³، عِلْمُهُ الْبَيَانُ⁴ (النطق والتعبير).

2- الكون قائم على التوازن .. فلا تخسروا الميزان!

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ⁵ (يجريان بحركات محسوبة منتظمة)، وَالنَّجْمُ (النبات الذي لا ساق له) وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ⁶ (بتمايلها مع الريح: وهنا مقابلة بين الشمس والقمر في السماء، والنجم والشجر في الأرض)⁷ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا (إلى أعلى) وَوَضَعَ الْمِيزَانَ⁸ (في الأرض، كأنه معلق في السماء)، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ⁹ (لا تخلوا الوزن في البيع والشراء وغيره)، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ (بالعدل) وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ⁹ (بالزيادة أو النقصان).

3- الأرض وما ينبت فيها خلقهما للكائنات الحية، فهل تنكرون ذلك؟

وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ¹⁰ (كل ما فيه نفس، للكائنات الحية) (2)، فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ¹¹ (وعاء في وسط جريد النخلة فيه حبات التمر قبل نضجها)، وَالْحَبُّ (كحبة الشعير) ذُو الْعَصْفِ (الساق والأوراق وما يصير منهما

2- ربما تكون هذه الكلمة معربة من "أنیما" anima التي تعني باللاتينية واليونانية "النفس"، أو مبدأ الحياة" أي ما يجعل موجودا ما ينتمي إلى "الكائنات الحية". وما زال هذا المعنى حاضرا في اللغات الأوروبية.

تَبْنَا نَعَصِفُ بِهِ الرِّيحَ) وَالرِّيحَانُ¹² (النبات الذي لا يؤكل لكن له رائحة طيبة)،
فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ¹³ (تلك نعم من ربكم، فأيتها يمكنكم تكذيبها)؟ (3).
خَلَقَ الْإِنْسَانَ (آدم) مِنْ صَلْصَالٍ (طين يابس) كَالْفَخَّارِ¹⁴، وَخَلَقَ الْجَانَّ

3- اختلف المفسرون في تفسير خطاب التثنية هنا : بعضهم صرف المعنى إلى الإنس والجن، مع أن التثنية لم تذكر قبل. يقول الطبري في هذا الصدد: "فإن قال لنا قائل: وكيف قيل: فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فخطاب اثنين، وإنما ذكر في أول الكلام واحداً، وهو الإنسان؟ قيل: عاد بالخطاب في قوله: فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ إلى الإنسان والجان، ويدل على أن ذلك كذلك فيما بعد هذا من الكلام، وهو قوله: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ. وقد اعترض فريق على هذا التأويل بكون الضمائر في العربية تعود على ما قبلها وليس على ما بعدها". من أجل هذا ذهب آخرون إلى اعتبار التثنية هنا جارية على عادة العرب في مخاطبة المفرد بصيغة المثنى أو بصيغة الجمع، مثل قولهم: خَلِيلِي وَصَاحِبِي، وَفَقَا وَأَسْعِدَا، وقد ورد ذلك في آيات أخرى من الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى " وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ، أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (ق. 23-25) وذلك بناء على أنه خطاب منه تعالى للسائل والشهيد بناء على أنهما اثنان لا واحد جامع للوصفين أو للملكين من خزنة النار. أما الزمخشري فقد اكتفى بالقول "والخطاب في رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" (الآية الآية بعد 31) للتثنية بدلالة الأنام عليهما" في الآية التالية وقوله: "سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ" باعتبار أن الثقلين هما الإنس والجن، لكن الملاحظ أن أنه أغفل كون الخطاب موجها لهما بصيغة الجمع إذ استعمل لفظ "لكم" وليس "لكما". وقد ذهب الرازي في تفسير التثنية هنا مذهباً آخر فقال: "التكذيب قد يكون بالقلب دون اللسان، كما في المنافقين، وقد يكون باللسان دون القلب كما في المعاندين وقد يكون بهما جميعاً، فالكذب لا يخرج عن أن يكون باللسان أو بالقلب فكأنه تعالى قال: يا أيها القلب واللسان فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فإن النعم بلغت حداً لا يمكن المعاند أن يستمر على تكذيبها! ونحو نرى أن المسألة هنا ربما يجب النظر إليها من زاوية نظم الكلام. ذلك أن حرفي الفاصلة في آيات السورة، ابتداء من "الرحمان علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان... " هما الألف والنون (أن)، وهما بمثابة القافية في الشعر. فافتضى نظم الكلام استعمال نفس الحرفين في مخاطبة الإنسان في قوله تعالى "فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، ولو استعمل المفرد لاختل ميزان الكلام، خصوصاً وهذه العبارة تتكرر، وتكرارها عنصر أساسي في البناء الذي شيدت عليه السورة. على أن في السياق ما يفيد أن المخاطب هم قريش لكون عبارة "فَبَإِي آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" جاء بعدها خطاب بلفظ الجمع (سنفرغ لكم أيها الثقلان أي المثقلون بالمعاصي والذنوب، بالكفر والشرك الخ)، أضف إلى ذلك أن من خصائص الخطاب القرآني استعمال الأزواج : السماء والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الذكر والأنثى الخ، ونادراً ما يذكر أحد الأزواج دون أن يذكر بعده الزوج الثاني المقابل له، والمقابل لـ"إنس" هنا هو "الجن". وهذه مسألة سنخصصها بقول لاحقاً. وعلى أساس هذه الخاصية القرآنية يمكن القول إن ذكر الإنس اقتضى ذكر زوج له وهو الجن، لا أن الخطاب موجه إلى الجن أصالة، بل هو موجه إلى قريش.

(إيليس) مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ¹⁵ (خليط أظهر شيء فيه: النار)، فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ¹⁶. رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ¹⁷ (مشرق الشمس والقمر ومغربهما)، فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ¹⁸.

4- بالتوازن تستقر البحار ويتكون اللؤلؤ والمرجان وتحري السفن.

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَنْفِقَانِ¹⁹ (أطلقهما بدون حواجز، فهما يلتقيان)، بَيِّنُهُمَا بَرْزَخٌ (فاصل) لَّا يَبْغِيَانِ²⁰ (لا يعدو أحدهما على الآخر). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ²¹. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ²² (4). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ²³. وَكَهَ الْجَوَارِي (السفن) الْمُنَشَّاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ²⁴، فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ²⁵.

5- بفساد التوازن تقوم الساعة وينفى كل شيء .. ويبقى الله وحده.

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ²⁶، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ²⁷ (5). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ²⁸. يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ²⁹ (6)، فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ³⁰. سَتَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ³¹ (من في السماوات والأرض) (7). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ³². يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا (أَنْ تَهْرَبُوا مِنْ قَضَائِي) مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَّا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ³³ (ومن أين لكم بهذا السلطان؟). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ³⁴. يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ (لَهَب) مِنْ نَارٍ وَتَحَاسُّ (دخان) قُلُوبًا تَنْتَصِرَانِ³⁵ (فلا

4- ربما تكون الإشارة هنا إلى نهر الفرات (بحر حلو) ومصبه في الخليج العربي (بحر مالح)، يرجع ذلك ذكر اللؤلؤ والمرجان...

5- وجه ربك: الزمخشري: "والوجه يعبر به عن الجملة والذات، ومساكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان". وقد كان هذا الموضوع مجال خلاف كبير بين المعتزلة القائلين بالتنزيه المطلق وأهل السنة الصفاتية وغيرهم من الفرق المشبهة والمجسمة. وسنخصص هذا الموضوع بقول مفصل لاحقاً.

6- الزمخشري: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تلاها فقليل له: وما ذلك الشأن؟ فقال: "من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويرفع قوما ويضع آخرين".

7- الخطاب هنا جاء بالجمع "ستفرغ لكم". والسياق المباشر يقتضي ما ذكرنا: ويمكن أن يكون المقصود الإنس والجن أو هما وغيرهما، ممن يسألون السؤال المذكور (يسأله من في السماوات والأرض). على أن في قوله: "يا معشر الجن والإنس" الخ تخصيص.

تستطيعان الاختراق، والهروب من المصير، من جهنم). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ³⁶.

6- حينئذ تنشق السماء وتتكشف الذنوب، والمصير الجنة أو النار.

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ (عند قيام الساعة) فَكَانَتْ وَرْدَةً (حمرًا) كَالدَّهَانِ³⁷ (جلد أحمر). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ³⁸. فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ³⁹ (لأن ذنوبهم كتبت يوم اقترفت). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁴⁰. يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ (بسواد وجوههم) فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ⁴¹ (يؤخذ كل منهم من الرأس والرجلين ويلقى به في جهنم). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁴². (يقال لهم) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ⁴³. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا (جهنم) وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ⁴⁴ (ماء حار بلغ شدة حره). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁴⁵. وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ (مقامه عند ربه) جَنَّاتٍ⁴⁶ (بساتين). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁴⁷. ذَوَاتَى أَفْنَانٍ⁴⁸ (أشجار كثيفة). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁴⁹. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ⁵⁰. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁵¹. فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ⁵². فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁵³. مُتَكِنِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (ديباج)، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ⁵⁴ (ثمار أشجار البساتين قريبة متدلّية). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁵⁵. فِيهِنَّ (في الفُرُش) قَاصِرَاتِ الطُّرْفِ (نساء يقصرن النظر على أزواجهن) لَمْ يَطْمِئْنَهُنَّ (لم يجامعهن) إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ⁵⁶. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁵⁷. كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ⁵⁸. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁵⁹. هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ⁶⁰ (جزاء من أحسن في الدنيا هو أن يحسن إليه في الآخرة). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶¹. وَمِنْ دُونِهِمَا (أسفل الجنّتين المذكورتين) جَنَّاتٍ (أخريان). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶². فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶³. مُدْهَمَمَاتٍ⁶⁴ (مخضرتان). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶⁵. فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ⁶⁶ (فوارتان). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶⁷. فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرَمَانٌ⁶⁸. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁶⁹. فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ (نساء) حِسَانٌ⁷⁰. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁷¹. حُورٌ (بياض أعينهن ناصع، وسوداها شديد) مَقْصُورَاتٍ فِي الْخِيَامِ⁷² (مستورات فيها). فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁷³. لَمْ يَطْمِئْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ⁷⁴. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁷⁵. مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ (فضول الفرش) خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ (ثياب منقوشة تبسط) حِسَانٍ⁷⁶. فَبَإَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ⁷⁷.

7- خاتمة: تبارك اسم ربك ...

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ⁷⁸.

- تعليق

لنسجل بدئ ذي بدء التشابه بين هذه السورة وبين الآيات الخمس الأولى التي كانت أول ما نزل من القرآن (انظر سورة العلق رقم 1). فلك الآيات تبتدئ بفكرتين: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" من جهة، و"علم الإنسان ما لم يعلم" من جهة أخرى. وتأتي سورة الرحمان لتعبر عن الفكرتين بطريقة أخرى: "الرحمان علم القرآن" (لمحمد عليه السلام، كما في: "علم بالقلم")، و"خلق الإنسان علمه البيان" (خلق محمدا وعلمه ما لم يكن يعلم، أي القرآن وبيانه). وابتداء من هذه السورة ستستقر بنية السور فتبتدئ بمقدمة وتنتهي بخاتمة تستعيد المقدمة كما هو واضح هنا في هذه السورة. أما أسلوبها فهو نموذج في البلاغة والبيان، كما أن استعمال الفاصلة "أن" قد أضفى عليها وضعا بيانيا خاصة.

بعد المقدمة تنتقل السورة إلى أغراضها التي سنتعرف عليها بعد أن نشير إلى أنها استعادت في آخرها فكرة "اقرأ باسم ربك" بصيغة أخرى مناسبة حيث نقرأ قوله تعالى: تَبَارَكَ (علا) اسْمُ رَبِّكَ (الرحمان) ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ".

يمكن أن نضيف إلى الشبه بين سورة العلق وسورة الرحمان شبيها آخر بين هذه من جهة وسورة الإخلاص من جهة أخرى، وذلك من حيث أن كلتيهما تجيبان عن سؤالين ذي مضمون واحد: "فقوله تعالى: قل هو الله أحد..." كان جوابا عن طلب قريش من النبي عليه السلام، الذي كان يتكلم باسم "الرب" وحده، أن ينسب ربه، فجاء الجواب بـ "قل هو الله أحد..."، فصار الرسول عليه السلام يبلغ عن الله ويتوجه إليه بالدعاء إلى أن سمعه أحد رجال قريش يدعو الله بـ اسم "الرحمان" فسألوه: "وما الرحمان"، فكان الجواب: "الرحمان علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" الخ. إذن، فالرب الذي خلق وعلم (هناك في سورة العلق) هو نفسه الرحمان الذي خلق وعلم (هنا في سورة الرحمان).

بعد هذا تنتقل السورة إلى التعريف بـ الرحمان بقول مفصل: الرحمان هو الذي خلق الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والعشب والشجر الخ ورتبها ترتيبا منتظما بحيث يخدم الواحد منها الباقي ولا يتعارض معه ولا يتصادم؛ والرحمان هو الذي جعل الأرض وما عليها من خيرات لفائدة الإنسان. ومن هنا الاستفهام الإنكاري الموجه لخصوم الدعوة المحمدية الذين أنكروا على النبي عليه السلام الدعاء باسم

"الرحمان" بعد أن اعتادوا منه الدعاء باسم الله. إن عبارة "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟" التي تتكرر مع ذكر أصناف النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، واستعمال التثنية هنا مكان المفرد فيه إشعار بأن اسم الله واسم الرحمان هما لذات واحدة. كما بينت آية أخرى هي قوله تعالى: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" (الإسراء 110).

22- سورة النجم

- تقديم

يمكن اعتبار سورة النجم أول سورة -حسب ترتيب النزول المعتمد- تعرض فيها عليه السلام للأصنام، ورتبتها في ذلك الترتيب 23، وقد نزلت حوالي السنة الخامسة للنبوّة. وحسب رواية عبد الله بن مسعود فهذه أول سورة قرأها النبي عليه السلام بمكة وقريش يستمعون.

على أن أهمية سورة النجم تتمثل بالنسبة لعملنا هذا ليس فقط في كونها أول سورة قرأها الرسول عليه على مسامع قريش، مما يجعلها تسجل بداية مرحلة الجهر في الدعوة المحمدية⁽¹⁾ بل تتمثل أهميتها كذلك في كونها تعرض للأركان الأساسية في العقيدة الإسلامية (النبوّة، التوحيد، المعاد)، الأركان التي يعترض عليها كفار قريش ويمنعون في التصديق بها، والتي سيتوالى الجدل حولها معهم إلى أن تم فتح مكة؛ وتتمثل أهميتها كذلك في كونها طرحت لأول مرة وبعبارات قوية واضحة، وردت بالقصد الأول، قضية أساسية في العقيدة الإسلامية، سيحتد الجدل حولها مباشرة إثر الفتنة الكبرى (الحرب بين علي ومعاوية)، جدال سرعان ما سيفضي إلى قيام "علم الكلام" (وموضوعه الجدل بين المسلمين حول قضايا العقيد). هذه القضية التي طرحت لأول مرة (حسب ترتيب النزول) هي تلك التي ستتسمى في علم الكلام بـ "مسألة المشيئة"، وهي المعروفة في الفكر الفلسفي بقضية الجبر والاختيار. وسنفرد لها قولاً خاصاً.

يدور الخطاب في سورة النجم، إذن، حول المسائل الأربعة التالية:

1- التأكيد على نبوة محمد (ص) وعلى أن القرآن وحي من الله إليه بواسطة جبريل، والرد على المكذابين.

2- التأكيد على وحدانية الله ونفي الشريك عنه، والتعرض للأصنام. في ثلاثة أمور: أولاً لقد رأى النبي عليه السلام مشهد جبريل وهو ينقل إليه الوحي، فماذا رأى مشركو قريش في أصنامهم التي تمثل "الملائكة": ألتهتهم؟ هم يتمنون شفاعة

1- راجع ما قلناه في هذا الموضوع في التعريف بالقرآن. الفصل العاشر: ثانياً.

الملائكة؟ كلا، لا أحد يشفع إلا بإذن الله. سموا الملائكة تسمية الأنثى فجعلوها بنات الله! كيف يعبدونها وهم لا يرحبون بالمولود إذا جاءهم أنثى.

3- التأكيد على وجود حياة أخرى بعد الممات يكون فيها الثواب والعقاب على ما قدم الإنسان في الدنيا من الأعمال.

4- التأكيد على أن كل ما يحدث فبمشيئة الله يحدث، مع التذكير بما آلت إليه مصائر الأقوام الذين كذبوا رسلهم فدمر الله مدنهم واثمى وجودهم ولم يبق إلا بقايا آثارهم وأخبارهم.

- نص السورة

1- مقدمة: ما ضل صاحبكم وما غوى، وهذا مشهد تلقى الوحي!

بسم الله الرحمن الرحيم
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ¹ (تحرك في السماء نحو الأفق)، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى² (ما حاد صاحبكم محمد-عن الحق)، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ³ (وما ينطق محمد بهذا القرآن عن هواه)، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ⁴، عَلَّمَهُ (لمحمد) شَدِيدُ الْقُوَىٰ⁵ (جبريل)، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ⁶ (صاحب قوة استوى مرتفعاً)، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ⁷، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ⁸ (اقترب جبريل وتدلى نحو محمد)، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ⁹ (على مسافة ذراع أو ذراعين منه)، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ¹⁰ (فأبلغ جبريل إلى محمد ما أوحى الله إليه).

2- هذا مشهد تلقى الوحي؟ أخبرونا عما ترون في أصمكم!

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ¹¹ (لم يشك في حقيقة الذي رآه بقلبه). أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ¹² (أفتجادلونه في ذلك؟)، وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ¹³ (رأى جبريل مرة أخرى)، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ¹⁴ (شجرة الأنوار في السماء العلا)، عِنْدَهَا (هناك حيث) جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ¹⁵ (مآل المؤمنين)، إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ¹⁶ (من الأنوار)، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ¹⁷ (ما انحرف بصر محمد ولا تجاوز حدوده)، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ¹⁸. أَفَرَأَيْتُمْ (أخبرونا أنتم يا قريش عما ترون في) اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ¹⁹، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ²⁰؟ (آلهتكم التي تعبدونها بنات الله)! أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ²¹ (تفضلون الذكور وتخصون الله بالإناث)، تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَاحِبُكُمْ²² (غير عادلة)، (آلهتكم تلك) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ، وَلَقَدْ

جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى²³ (مع أن الحق جاءهم مع القرآن). أم لِلنَّاسِ مَا تَمَنَّى²⁴ (هل تتال قريش ما تتمنى من شفاعة الأصنام؟ لا...) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى (الدنيا)²⁵. وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى²⁶. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْآثْنَى²⁷ (بينما الملائكة جمع ملك، وهو مذكر)، وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً²⁸.

3- ذلك مبلغهم من العلم، وسيعرفون الحقيقة يوم الجزاء...

فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا²⁹، ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى³⁰. وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى³¹: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ (الكفر) وَالْفَوَاحِشَ (الزنا) إِلَّا اللَّمَمَ⁽²⁾، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ، فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى³².

4- لا تزر وازرة وزر أخرى... ليس للناس إلا ما سعى...

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى³³ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى³⁴ (3) (ثم توقف عن العطاء)، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى³⁵ (4)، أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى³⁶ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى³⁷: أَلَا تَرَى وَاِزْرَةً وَإِزْرَةً أُخْرَى³⁸ (لا أحد يتوب عن أحد في تحمل

2- "قال المفسرون "اللمم ما دون الوطء: من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة": وفي البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة: فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه". والمعنى: "أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج، وغيره له حظ من الإثم. (عن القرطبي).

3- ذكر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين، وكان قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم على دينه، فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، ففعل، فأعطاه أياماً ثم بخل وتوقف. وقيل: "نزلت في عثمان بن عفان كان يتصدق وينفق في الخير فقال له أخوه من الرضاة عبد الله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك أن لا يبقى لك شيئاً. فقال عثمان: إن لي ذنوباً وخطايا، وإنني أطلب بما أصنع رضا الله وأرجو عفوّه. فقال له عبد الله: أعطني نافتك برحمتها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلها، فأعطاه وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة.

4 - أيعلم الغيب هذا الذي وعده صاحبه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة، فصدقه ووثق به؟

مسؤولية فعله)، وَأَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى³⁹ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى⁴⁰، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى⁴¹، وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى⁴². وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى⁴³، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا⁴⁴، وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى⁴⁵ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى⁴⁶، وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَى⁴⁷. وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى⁴⁸ (أغنى الأغنياء ومنحهم أملاكهم وقنياتهم). وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى⁴⁹ (نجم كان يعبد بعض العرب في الجاهلية). وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى⁵⁰ (5) (قوم النبي هود)، وَتَمُودَ (قوم النبي صالح) فَمَا أَبْقَى⁵¹، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى⁵²، وَالْمُؤْتَفِكَةَ (قرى قوم لوط) أَهْوَى⁵³ (خسف بها الأرض)، فَغَشَّاهَا مَا عَشَى⁵⁴ (علاها ركام الهمد من حجارة وغيرها)! فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَ تَتَمَارَى⁵⁵ (ترتاب وتتشك يا ابن آدم)؟ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى⁵⁶ (ورد في الصحف الأولى)، أُرِفْتُ النَّارَ؟⁵⁷ (اقتربت الساعة)، لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ⁵⁸ (الله وحده يعلم).

5- خاتمة: أفمن هذا الحديث تعجبون..؟

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ (القرآن) تَعْجَبُونَ⁵⁹، وَتَضْحَكُونَ وَلَكُمْ تَبْكَوْنَ⁶⁰، وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ⁶¹ (لاهن غافلون). فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا⁶².

- تعليق

مما يتصل بموضوع هذه السورة ما يعرف بقصة "الغرائيق"⁽⁶⁾ وذلك في سياق تعرضها لأصنام قريش، اللات والعزى ومناة، وهي أهم الأصنام عندهم، وكانوا يقولون إنها "بنات الله" وبالتالي يرجون شفاعتها. وقد أورد كثير من المؤرخين، وفي مقدمتهم الطبري في تاريخه وتفسيره وابن سعد في طبقاته، روايات عن هذه القصة تختلف في بعض ألفاظها ولكنها ذات مضمون واحد تقريباً. وفيما يلي الرواية التي ذكرها الطبري في تاريخه. تقول الرواية: "لما رأى رسول الله تولى قومه عنه، وشق عليه ما يرى من مبادعتهم ما جاءهم به من الله، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وكان يسره -مع حبه قومه وحرصه عليهم- أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه⁽⁷⁾ فأنزل الله

5 - يميزون بين عاد الأولى التي أهلكت بريح صرصر وبين بقية منهم لم تهلك.

6- الغرائيق جمع غُرُوق، وهو طائر أبيض من طيور الماء؛ مثل الكراكي.

7- في ابن سعد: "رأى الرسول (ص) من قومه كفا عنه فتمنى ...

عز وجل سورة "والنجم إذ هوى"، فلما انتهى إلى قوله "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى" ألقى الشيطان⁽⁸⁾ على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه فقال: "تلك الغرائق العلا وإن شفاعتهن لترتجى"⁽⁹⁾. فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له ... فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون ... وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم ... ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون: قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر"⁽¹⁰⁾.

ويقول المفسرون والمهتمون بأسباب النزول إنه نزلت بعد ذلك آيات في عتاب النبي عليه السلام على ما فعل، منها قوله تعالى: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً، ولولا أن ثبثناك لقد كذت تركن إليهم شيئا قليلاً، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً (الإسراء 73-75)". وبعضهم يقول إن الآية التي نزلت في الموضوع هي قوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم. وإن الظالمين لفي شقاق بعيد (الحج 52-53)". لكن مؤرخين ومفسرين آخرين يشككون في هذه الروايات ويطعنون في روايتها. ونحن، من جانبنا، نرى أن قصة الغرائق هذه مختلفة تماماً. ذلك لأن سورة النجم لا بد أن تكون قد نزلت قبل الهجرة إلى الحبشة، لأن هذه الهجرة إنما كانت بسبب اضطهاد قريش للمسلمين بعد أن أخذ النبي (ص) يتهم على آلهتهم، هذا في حين أن القصة المذكورة مبنية على كون سورة النجم نزلت بعد الهجرة إلى الحبشة، وبالتالي فالمفروض أنها سبقتها سور فيها تعرض لآلهة قريش، وهذا ما لم يحدث، فالسور التي سبقتها -حسب ترتيب النزول- ليس فيها مثل هذا التعرض. فهذا هنا إذن تناقض داخلي في الرواية التي نتحدث عن الموضوع. وفضلاً عن ذلك فإن سورة النجم وحدة متكاملة قوية اللهجة تنبئ عن موقف قوة وليس عن موقف

8- ومن هنا اسم رواية سليمان رشدي: "الآيات الشيطانية".

9- في رواية أخرى: "تلك الغرائق العلى، وشفاعتهن ترجى، مثلهن لا ينسى"، وفي أخرى: "إن تلك الغرائق العلى، منها الشفاعة لترجى"، وفي أخرى "شفاعتهن ترتضى". الطبري تفسير آية 52 سورة الحج.

10- جاء في الرواية التي ذكرها ابن سعد أنهم قد قالوا: قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده. وأما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك!

ضعف. وحتى لو فرضنا أنه ورد معها القول بأن "شفاعتهم لترتجى"، فيمكن أن يحمل ذلك على أن هذا القول وصف لواقع حال، أي حكاية لمعتقدات قريش، مع تعجب واستهزاء! أما القول بأن مشركي مكة قد سجدوا مع النبي (ص) عندما بلغ موضع السجدة في قراءته للسورة، فإنه إن صح لا يدل بالضرورة على أنهم فعلوا ذلك استجابة للقرآن، فهم كانوا يسجدون لأصنامهم. على أن قضية سجود قريش فيها نظر! ذلك أن موضع السجدة يقع في خاتمة السورة أي بعد أن تعرضت إلى آلهتهم بالطعن والهجوم وبعد أن أنكرت شفاعتها وبعد أن أسهبت في النقد والتفريع لبعض رجال قريش، وكل ذلك لا يتفق مع القول إن قريشا سجدت مع النبي (ص).

أما المناسبة التي حيكت حولها هذه القصة، وهي رجوع بعض المسلمين من الحبشة بعد أن وصلهم خبر هذه القصة وما قيل من أن قريشا تصالحت مع الرسول بعد أن ذكر آلهتهم بخير واعترف لها بالشفاعة، فيمكن أن يكون لذلك - لرجوع بعض المسلمين من الحبشة - أسباب أخرى تلاقى مع سورة النجم إذ لا يعقل أن يعود المسلمون المهاجرون بعد شهرين فقط لمجرد سماعهم إشاعة تقول بحدوث مصالحة بين النبي (ص) وقريش، خصوصا وقد كانوا في الحبشة في وضع مريح. أما السبب الذي جعل فريقا من المهاجرين إلى الحبشة يعودون إلى مكة بعد شهرين فقط من هجرتهم فلا بد أن يكون شيئا أكبر من مجرد إشاعة بحدوث المصالحة بين محمد (ص) وقريش. ويمكن أن يكون السبب الفعلي في رجوعهم هو خوفهم على أنفسهم من الثورة التي كانت قد نشبت ضد النجاشي ملك الحبشة، ويمكن أن يكون السبب شيئا آخر.

أما ما ورد من روايات حول ارتباط الآيات أعلاه (الإسراء 73-75، الحج 52-53)، بهذه القصة فلا دليل عليه، خصوصا ورواة "أسباب النزول" يذكرون لها مناسبات متعددة.

23- سورة عبس

- تقديم

روي من جهات متعددة أن هذه السورة نزلت عتابا للرسول عليه السلام على موقفه من رجل أعمى جاء يطلب منه أن يقرنه القرآن. أما الرجل فهو ابن أم كلثوم الأعمى، ابن خالة خديجة زوجته، جاء النبي في وقت كان مشغولا فيه بالحديث إلى أحد كبار قريش يحاول استمالته "فجعل رسول الله (ص) يعرض عنه (عن الأعمى) ويقبل على الآخر فيقول له : أترى بما أقول بأسا ؟

وكما جرت عادة رواة أسباب النزول في التماس سبب نزول لكل آية فقد أضيفت إلى الرواية المذكور رواية أخرى تقول إن قوله تعالى في هذه السورة: "قتل الإنسان ما أكفره" نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم. أما قوله "لكل أمريء منهم يومئذ شأن يغنيه". فقول إنه نزل عندما سألت عائشة النبي قائلة : "أنحشر عراة" قال: نعم. قالت: واسوأته!"

ومهما كان من أمر صحة هذه الروايات فهي، كسائر روايات أسباب النزول، تعكس في هذه المرحلة، جوانب من واقع الدعوة المحمدية، وعلاقتها بقريش. إنها علاقات تبدو سلمية في الغالب، إما علاقات حوار يحاول كل طرف فيه استمالة الطرف الآخر، وإما ردود أفعال "سلمية" من قبيل التعجب أو الاستفسار أو اتخاذ موقف مضاد ولكن دون عدوان في الغالب. هذا يعني أنه لم يكن الصدام قد بدأ بعد، فالرسول لم يبدأ بعد في التعرض لأصنام قريش وما ورد في سورة النجم لا يرقى إلى مستوى الشجب والإبطال، خصوصا وقد ورد في سياق شرح ظاهرة النبوة وليس في سياق شجب الشرك. وما نريد إبرازه هو أن القرآن قد اقتصر، طوال هذه المرحلة الأولى من مسار التنزيل بارتباطها مع وقائع السيرة، على طرح قضايا العقيدة (النبوة والتوحيد والمعاد) طرعا مخففا من دون المس بالأصنام ولا انتقاد للشرك بالصورة التي تستثير قريش وتؤدي إلى القطيعة كما سيحدث لاحقا. ومع أن لهجة بعض السور السابقة كانت ترتفع لتمارس نقدا لاذعا، أحيانا ضمنيا وأحيانا صريحا، من خلال طرح تساؤلات كما في سورتي الرحمان والنجم، فإنه يمكن القول إجمالا إن الاستمرارية هي السائدة، بمعنى أنه لم تكن ثمة بعد قطيعة. وفي هذا الإطار تندرج السورة التي نحن ضيوف عليها الآن؛

1- تبدأ السورة بعتاب النبي (ص) عتابا جاء في صورة استفسار: انشغلت برجل من الأغنياء تريد استمالته، وما يضريك أن لا يتطهر من كفره؟ أما من جاءك يطلب القرآن وهو يخشى الله فقد صرفته منشغلا بذلك الرجل الغني! لا تعد إلى فعل مثل ذلك؟ هذه تذكرة، فلتكن عبرة لك ولغيرك! إنها تذكرة مكتوبة بأيد ملائكة بررة في صحف مكرمة في السماء.

2- بعد هذا العتاب الموجه إلى النبي تتجه السورة إلى بيان حقيقة ذلك الرجل الغني المعتد بنفسه الذي لم يستجب للرسول: إنه مجرد بشر خلقه الله من نطفة ثم هيا له سبيل الخروج من بطن أمه والعمل في الحياة حتى كبر فأعطاه أموالا وبنين، لكن نهايته ستكون: القبر. وهكذا سيبعث، وسجله خال مما أوصى الله به من النفقة والإحسان إلى الفقراء الخ. ألا ينظر هذا الإنسان إلى سنة الله في الكون، إلى الكيفية التي أجرى بها ظواهر الطبيعة وشؤون الإنسان؟ لينظر مثلا إلى طعامه الذي يلتذ به! إنه لم يأت به عفو ولا من دون تخطيط وتدبير. لقد كان لابد من مطر ينزل من السماء، ولابد من شق الأرض وجريتها، ولا بد من نباتات وأشجار تنتج غذاء للإنسان، وأيضا غذاء للأنعام التي يتغذى الإنسان وعليها يسافر للتجارة وغيرها.

3- غير أن جميع هذه المشاغل الدنيوية ستفقد كل قيمتها حين يأتي الإعلان بقيام القيامة. حينها سينصرف كل إنسان إلى نفسه وحدها لا يهتم بولده ولا بأبيه ... ولا بمن كانوا له في الدنيا ندماء. سينقسم الناس حينئذ إلى صنفين: فريق وجوههم مشرقة، مستبشرة خيرا، وفريق وجوههم كالحة عابسة مظلمة، ومن هؤلاء ذلك الرجل الذي كنت تريد استمالته فأعرض وفضل البقاء على كفره وفجوره.

- نص السورة

1- مقدمة: تعرض عن الفقير الأعمى.. وتنشغل بمن استغنى!

بسم الله الرحمن الرحيم
عَبَسَ (الرسول) وَتَوَلَّى¹ (بسبب) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى² (يطلب معرفة الدين)! وَمَا يَذْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي³ (يتطهر من ذنوب الكفر) (1) أَوْ يَذَّكَّرُ (يتعظ) فَتَتَفَعَّلَ الذَّكَرَى⁴؟ أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى⁵ (صاحب الغنى والمال) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى⁶

1- لنلاحظ أن لفظ "مسلم" و "مؤمن" لم يستعملا بعد، فلا زال فعل "تزكى" يقوم مقامهما.

(تستقبله وتتصت إليه!) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ⁷ (ماذا عليك إن لم يسلم، إنما عليك البلاغ؟) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى⁸ وَهُوَ يَخْشَى⁹ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى¹⁰ (تتشاغل)؟!

2- هذا الذي تريد استمالاته معاند كافر، لا يرى نعم الله عليه!

كَلَّا (لا تعد إلى مثل هذا السلوك) إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ¹¹: فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ¹²؛ (وقد سبق التنبيه إلى مثل هذه الأمور) فِي صُحُفٍ (رسالات سماوية) مُكَرَّمَةٍ¹³ مَرْفُوعَةٍ -مُطَهَّرَةٍ¹⁴ - بِأَيْدِي سَفَرَةٍ¹⁵ كِرَامٍ بَرَرَةٍ¹⁶ (ملائكة تنقل الوحي إلى الرسل). قِيلَ لِلنَّاسِ (هذا الذي تريد استمالاته) مَا أَكْفَرَهُ¹⁷ (ما أشد عناده وكفره)! مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ¹⁸ (الله؟) مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ¹⁹ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ²⁰ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ²¹ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ²² (أحياء بعد موته). كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ²³ (لم يقم في حياته بما أمره الله، من ترك الشرك وعبادة الأصنام! وهو لا يؤمن بالبعث مع أن أطوار الحياة تقتضيه، وللتأكد من ذلك) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ²⁴ (كيف مر بأطوار): أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا²⁵ (أنزلنا المطر)، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا²⁶ (لتخرج البذور)، فَاتَّبَعْنَاهَا حَبًّا²⁷ وَعِنَبًا وَقَضْبًا²⁸ (وأغصانا) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا²⁹ وَحَدَائِقَ غُلَبًا³⁰ (كثيرة الأشجار) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا³¹ (وكلاً)، مَتَاعًا (منفعة) لَكُمْ وَلِئَعْلَمَكُمُ³² (والبقية مفهومة: ثم موت يليه خلق جديد: تخرجون من القبر كالنبات تخرج بذوره من الأرض، ثم تتجهون إلى الحساب).

3- خاتمة: سيندم عندما تقوم الساعة ويكون الجزاء ...

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاحَةُ³³ (صيحة القيامة)، يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرءُ مِنْ أَخِيهِ³⁴ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ³⁵ وَصَلَاتِيهِ وَبَيْنِيهِ³⁶، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ³⁷ (يشغله عن غيره: جواب إذا). وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ مُنْقَرَةٌ³⁸ (مشرقة) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْدِرَةٌ³⁹، وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ⁴⁰ (غبار)، تَرَاهَا قَتَرَةٌ⁴¹ (تغشاهما ظلمة). أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ⁴².

- تعليق

موضوع السورة يخص ليس الدعوة بالذات بل ما يمكن التعبير عنه بأخلاقية الدعوة. الرسول مكلف بالتبليغ للناس جميعا وبالتالي هي أحسن. والدعوة تدعو إلى العدل والمساواة، فعلى المكلف بها أن يطبق العدل والمساواة مع جميع الناس عند ممارستها. فلا تفضيل للفتي على الفقير. نعم قد يكون وزن الغني إذا أسلم أكبر من وزن الفقير، ولكن مبدأ المساواة يقتضي التعامل مع الناس بدون تمييز. خصوصا ولا

أحد يعلم هل سيلبي الغني الدعوة أم سيرفض وماذا سيكون منه من بعد، خصوصا ومن مبادئ الدعوة إنصاف الفقراء، لأن لهم في أموال الأغنياء حقوق. ذلك لأن أموالهم لم يصنعوها من لا شيء، لم يهيئوا لها الأسباب بل الله هو الذي فعل ذلك. وكمثال على هذا وجود الإنسان ذاته: فقد خلقه من نقطة ثم دبر أمره عبر أطوار حياته الخ، ويسر له السبل... ولكن ما ينساه الإنسان هو أن هناك نهاية هي الموت، وأن بعد هذه النهاية بعث وحساب وعقاب.

وهكذا فمن خلال هذا المثل تعرض السورة لأركان العقيدة: (1) النبوة بالحرص على ربطها بالعدل والمساواة، أي المسألة الاجتماعية، وذلك بطرح ظاهرة الغنى وما عليه تقوم من أسباب. (2) التوحيد ببيان أن أسباب الغنى هي من الله فهو الخالق وهو المدبر عبر سلسلة الأسباب. (3) بعد ذلك تستحضر السورة مسألة المعاد كخاتمة.

وهكذا يتبين كيف أن السورة تشكل وحدة نصية: فالعتاب ليس من أجل العتاب بل من أجل التأسيس للعقيدة: شجب الاستغناء والاستعلاء، الاهتمام بالمستضعفين. الله هو الذي هيأ الأسباب للغنى، تماما كما أجرى نظام الطبيعة لفائدة الإنسان (المطر، النبات...)، وأخيرا البعث والحساب: إما السعادة (الجنة) وإما الشقاء (النار).

24- سورة الشمس

- تقديم

مباشرة بعد الدرس الذي أعطته سورة عبس من خلال نمطين من البشر: رجل استغنى ولم يستجب للدعوة، ورجل جاء يسعى إليها، تأتي سورة الشمس لتؤكد هذا الانقسام في الطبيعة نفسها: ضياء النهار وظلمة الليل، وارتفاع السماء وانخفاض الأرض، والنفس الفاجرة، والنفس التقية، والسعادة لمن طهرها، والشقاء لمن تركها على هواها. كان الانتقال في سورة عبس من ذات الإنسان (خلقه ومساره) إلى عالمه الخارجي المباشر (غذائه ومسار تكوينه ونضجه)، أما هنا، مع سورة التكوير، فالانتقال سيكون من نظام الطبيعة وثنائيتها إلى سير التاريخ ومعارجه. وهكذا، فكما أن الطبيعة نهار وليل الخ، فكذلك صيرورة التاريخ: أنبياء وأقوام مكذبون : قوم ثمود طغوا فجاءهم النبي صالح يريد هدايتهم فطلبوا منه آية (علامة، معجز) فقال لهم هذه الناقة التي منها تغتذون اقتسموا معها الماء: يوم لكم ويوم لها وستعطيكم ما يكفيكم من الحليب، فكذبوه، وجاء أشقى رجل فيهم فعقرها برضاهم، فكان العقاب أن أهلكهم الله جميعا، ولا لوم في ذلك على نبيهم صالح، وإنما هو جزاء على ما اقترفوا من ذنوب (سترد تفاصيل القصة في سور أخرى)

- نص السورة

1- القسم بنظام الطبيعة...

بسم الله الرحمن الرحيم
وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا¹، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا²، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا³ (أظهر الشمس) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا⁴ (سترها) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا⁵ (وبناها ورفيعها) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا⁶ (وبسطها)، وَالنَّفْسِ وَمَا سَوَّاهَا⁷ (وتسوية طبيعتها وخلقها) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا⁸، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا⁹ (سعد من طهرها) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا¹⁰ (أهملها وتركها على هواها).

2- ثمود: نظام التاريخ المقدس

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (الرسل) بِطَغْوَاهَا¹¹ (بطغيانها، جواب القسم)، إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا¹² (ليعقر الناقة)، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (صالح هذه) نَاقَةُ اللَّهِ⁽¹⁾ وَسُقْيَاهَا¹³ (ذروها وموردها، يوم لكم ويوم لها، تعطيكُم فيه الحليب بدل الماء)، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ (أهلكهم) بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا¹⁴ (سوى الدمدمة فيهم فهلكوا جميعا)، وَلَمَّا يَخَافُ عَقْبَاهَا¹⁵ (تلك عاقبة تكذيبهم رسولهم، ولا لوم على صالح فقد أذرهم).

- تعليق

هذه أول سورة (حسب ترتيب النزول) ذكرت فيها فصول من وقائع القصص القرآني. ففي هذه السورة نجد بعض التفاصيل عن قصة ثمود في سياق يستعيد نفس القضايا التي أبرزناها في سورة الفجر (رقم 7) : جشع الإنسان، البعث والحساب؟ ومع أن المؤلفين في أسباب النزول وكذلك المفسرون لا يذكرون مرويات حول هذه السورة فإن في مرويات أخرى ما يلقي بعض الضوء على ظروف نزولها. فقد روي أن النبي (ص) سئل عن المقصود بـ "أشقاها" في قوله تعالى في هذه السورة "إِذْ أَنْبَعَثَ أَشْقَاهَا" فأجاب عليه السلام : "أَنْبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ عَارِمٌ، مَنِيْعٌ فِي رَهْطِهِ، مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ". وفي رواية ذكرها الطبري أن عظماء المستهزئين بالنبي (ص) كانوا خمسة نفر من قومه، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم يأتي على رأسهم الأسود بن المطلب أبو زَمْعَةَ من بني أسد بن عبد الغزي بن قصي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني -يقول الطبري- "قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: "اللهم أعم بصره، وأثكله وكذّه". إذن يمكن القول إن سورة الشمس لها علاقة بواحد من كبار قريش هو المذكور قبل، تماما مثلما أن السورة التي قبلها لها علاقة، ليس فقط بالأعمى ابن أم كلثوم، بل أيضا وفي الدرجة الأولى بعضو آخر من كبار قريش هو عتبة بن أبي لهب، الذي كان النبي يحاول استمالة. وإذن فالسورتان متصلتان مضمونا وسياقا.

وهكذا فبعد أن نزلت سورة النجم من الأصنام أي قدرة على الشفاعة لمن يعبدها تمهيدا لشجب الشرك الذي يمارس من خلالها، وبعد العتاب الذي وجهه

1- سترد قصة هذه الناقة مفصلة في سورة أخرى، مع بيان مناسبة تسميتها بهذا الاسم. انظر أيضا التعريف بالقرآن: قسم القصص. المرحلة الثانية. فقرة 3-ب

الخطاب الإلهي إلى الرسول عليه السلام بسبب طمعه في استمالة أحد أغنياء قريش على حساب الاستجابة الفورية لأحد الفقراء، وبعد التذكير بالبعث و الحساب والجزاء الخ، تأتي سورة الشمس لتتعرض ضمناً لأحد كبار قريش الذين مارسوا الطغيان على الرسول وصحبه مشبهة إياه بطغاة قوم ثمود، لافتة نظر تجار قريش إلى مساكن هؤلاء القوم -المهدمة- والتي يمرون عليها في أسفارها إلى الشام. وقصة هؤلاء القوم هي من قصص "أهل القرى" التي افتتح الله بها قصص القرآن، وهي غير موجودة لا في التوراة ولا في الإنجيل، ولكن العرب يتناقلونها جيلاً بعد جيل، فهي أقرب من غيرها إلى موروثهم الحاضر في مخيالهم التاريخي الشعبي. وثمود هم سكان مدينة الحجر⁽²⁾، وقد سميت بها سورة في القرآن كما سنرى لاحقاً.

2- انظر معلومات معاصرة حول مدينة الحجر في: التعريف بالقرآن . القصص المكي.
المرحلة الأولى. هامش رقم 2

25- البروج

- تقديم

ومن قصة قوم ثمود الذين حدثتنا عنهم سورة الشمس باقتضاب، تنتقل بنا السورة التالية لها (سورة البروج) من شمال الجزيرة إلى جنوبها، من قصة "ثاقفة الله" إلى قصة "أصحاب الأخدود". وقد وردت قصة هؤلاء في كتب التفسير بصيغ مختلفة. وأقرب رواية إلى ظروف نزول هذه السورة، وإلى ما نكرناه في السورتين السابقتين، رواية أوردها الطبري منسوبة إلى النبي (ص)، سنوردها في "التعليق" أسفله، لما تحمله من مغزى.

بدأت السورة بمقدمة مناسبة للقصة: القسم بالسماء ذات البروج وهي تبدو للنناظر وكأن فيها حفرا وأخاديد، وبيوم القيامة حيث يشهد الشهود (من الناس أو الملائكة) على المشهود عليهم، مؤمنين ومشركين، فيختلف وضع الناس في ذلك المشهد كما يختلف مشهد السماء ببروجها وأخاديدها. ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى هدفها لتقرر أن من يفتن المؤمنين اليوم (كفار قریش) سيكون مصيرهم كمن فتنوا المؤمنين بالأمس: جهنم. أما المؤمنون اليوم (المسلمون) فمصيرهم الجنة كالمؤمنين بالأمس (نصارى اليمى). وكما هو واضح فالقرآن يسوي هنا بين المؤمنين بالنصرانية وبين المؤمنين بالإسلام، باعتبار أنهم جميعا يؤمنون بالله. وقد سبق من قبل التأكيد على أن ما يقرره القرآن موجود في صحف إبراهيم وموسى. وتأتى الخاتمة لتؤكد للمكذبين بأن هذا الذي قصه القرآن قصة يعرفونها، وليست مما يستطيعون تكذيبه.

- نص السورة

1- مقدمة: قسم مناسب للمشاهد...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ¹ (منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجاً حسب علم الفلك القديم)، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ² (يوم القيامة، الموعود للفصل،

للجزاء ثوابا وعقابا)، وشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ³ (شاهد يشهد على ما فعل الناس ومشهود يسمع حسابه!).

2- بحرقون المؤمنين ويتفرجون ...

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ⁴ (لعنوا، لقد حفروا حفرة : جواب القسم) النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ⁵ (أشعلوا فيها النار)، إِذْ هُمْ (بجانبيها) عَلَيْهَا قُعُودٌ⁶ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ⁽¹⁾ شُهُودٌ⁷ (وأخذوا يلقون فيها المؤمنين ويتفرجون)، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ⁸ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ⁹.

3- بطش ربك شديد لمن بقي على عناده .. وإلا فهو الغفور الودود
إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ¹⁰ (2). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ¹¹. إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ¹² (انتقام ربك يا محمد من قريش سيكون شديداً)، إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ¹³ (سيعيد عليهم ما بدأه مع أصحاب الأخدود)، وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ¹⁴، (لمن تزكى منهم)، نُوَ الْعَرْشِ الْمَجِيدُ¹⁵، فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ¹⁶.

4- خاتمة: أقوام الرسل كذبوا، وقريش تكذب القرآن! إنه محفوظ.
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ¹⁷ (الذين جندوا لمحاربة رسل الله)، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ¹⁸. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ¹⁹ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ²⁰ (الكفار في الحاضر كما في الماضي يكذبون أنبياءهم، وعلم الله محيط بما يقولون). بَلِ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ²¹ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ²² (وهذا رد مباشر على قريش التي كذبت برسالة محمد : فالقرآن الذي يكذبون به هو عالي المنزلة وهو مصان ومكون في اللوح المحفوظ من طرف الملائكة في السماء).

- 1- هنا بدأ استعمال لفظ "المؤمنين" مع الفعل "يؤمنوا" وكانت المرة الأولى التي استعمل فيها هذا الفعل -حسب ترتيب النزول- في سورة "العصر" (إلا الذين آمنوا).
- 2- هذا تنبيه لقريش إلى أنهم إذا أخذوا يفتنون المؤمنين فسيكون مصيرهم هو نفس المصير الذي لقيه أمثالهم في الماضي والذين لم يعد في إمكانهم الاستفادة من التوبة بعد أن ماتوا على كفرهم. وإن في إمكان قريش أن يتجنبوا نفس المصير إذا هم تابوا الآن قبل أن يفوت الأوان. وإذا هم استجابوا وتابوا الآن فإن الله سيقبل منهم : فهو الغفور الودود.

- تعليق

إن أحسن صياغة لمضمون قصة "أصحاب الأخدود" الصياغة التالية التي رواها الطبري في تفسيره منسوبة إلى النبي عليه السلام، وقد جاء فيها قوله عليه السلام : "كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر، فأتى الساحر الملك، فقال: قد كبرت سنني، ودنا أجلي، فادفع لي غلاماً أعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً يعلمه السحر، فكان الغلام يختلف إلى الساحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فكان الغلام إذا مر بالراهب قعد إليه، فسمع من كلامه، فأعجب بكلامه فكان الغلام إذا أتى الساحر ضربته وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله قعد عند الراهب يسمع كلامه، فإذا رجع إلى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال له الراهب: إذا قال لك الساحر: ما حبسك؟ قل حبستي أهلي، وإذا قال أهلك: ما حبسك؟ قل حبستي الساحر. فبينما هو كذلك إذ مر في طريق، وإذا دابة عظيمة في الطريق قد حبست الناس لا تدعهم يجوزون! فقال الغلام: الآن أعلم: (هل) أمر الساحر أَرْضَى عند الله أم أمر الراهب؟ فأخذ حجراً، وقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاني أرمي بحجري هذا فيقتلها (الدابة) ويمر الناس. فرماها فقتلها، وجاز الناس فبلغ ذلك الراهب. وأتاه الغلام فقال الراهب للغلام: إنك خير مني، وإن ابتليت فلا تدلن علي. وكان الغلام، يبريء الأكمة والأبرص، وسائر الأدواء. وكان للملك جليس فعمي، فقيل له: إن هاهنا غلاماً يبريء الأكمة والأبرص وسائر الأدواء، فلو آتيته؟ فاتخذ له هدايا ثم أتاه فقال : يا غلام إن أبرأتني فهذه الهدايا كلها لك، فقال: ما أنا بطبيب يشفيك، ولكن الله يشفي، فإذا آمنت دعوت الله أن يشفيك، فأمن الأعشى، فدعا (الغلام) الله فشفاه. ففعد الأعشى إلى الملك كما كان يفعد، فقال له الملك: أليس كنت أعشى؟ قال: نعم قال: فمن شفاك؟ قال: ربي قال: ولك ربٌ غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فأخذه بالعذاب وقال: لتدللنني على من علمك هذا، فدل على الغلام، فدعا الغلام، فقال له: ارجع عن دينك، فأبى الغلام فأخذه بالعذاب فدل على الراهب، فأخذ الراهب، فقال: ارجع عن دينك فأبى. فوضع المنشار على هامته فشقه حتى بلغ الأرض، وأخذ الأعشى فقال: لترجعن أو لأقتلنك فأبى الأعشى، فوضع المنشار على هامته، فشقه حتى بلغ الأرض. ثم قال للغلام: لترجعن أو لأقتلنك فأبى. فقال (لجنده): أذهبوا به حتى تبلغوا به ذروة الجبل، فإن رجع عن دينه، وإلا فذهبوه (بحرجوه مع الجبل). فلما بلغوا به ذروة الجبل فوقعوا فماتوا كلهم. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: أين أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. قال: فذهبوا به فاحملوه في قرقر (سفينة عظيمة)، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه. فذهبوا به، فلما توسطوا به البحر قال الغلام: اللهم اكفنيهم، فاتكفات بهم السفينة. وجاء الغلام =

يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ فَقَالَ الْمَلِكُ: أَيْنَ أَصْحَابُكَ؟ فَقَالَ: دَعَوْتُ اللَّهَ فَكَفَانِيهِمْ،
 قَالَ: لَا أَقْتُلَنَّكَ، قَالَ: مَا أَنْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَصْنَعَ مَا أَمَرُكَ: أَجْمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ،
 ثُمَّ اصْلُبْنِي، ثُمَّ خَذْ سَهْمًا مِنْ كِبَانَتِي فَأَرْمِنِي وَقُلْ: بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَإِنَّكَ سَتَقْتُلُنِي.
 قَالَ: فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ قَالَ: وَصَلْبُهُ وَأَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِبَانَتِهِ، فَوَضَعَهُ فِي كَبِدِ
 الْقَوْسِ، ثُمَّ رَمَى، فَقَالَ: بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ، فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صَدْعِ الْغُلَامِ، فَوَضَعَ يَدَهُ
 هَكَذَا عَلَى صَدْعِهِ، وَمَاتَ الْغُلَامُ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ! فَقَالُوا لِلْمَلِكِ: مَا
 صَنَعْتَ؟ الَّذِي كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَقَعَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكِّ (حديد المحراث)
 فَأَخَذَتْ، وَخَذَ الْأَخْذُودَ وَضَرَمَ فِيهِ النَّيِّرَانَ، وَأَخَذَهُمْ وَقَالَ: إِنْ رَجَعُوا وَإِلَّا فَأَلْقُوهُمْ فِي
 النَّارِ، فَكَانُوا يُلْقُونَهُمْ فِي النَّارِ، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا. فَلَمَّا ذَهَبَتْ تَقْتَحِمُ وَجَدَتْ
 حَرَّ النَّارِ، فَتَكَصَّتْ، فَقَالَ لَهَا صَبِيُّهَا يَا أُمَاهُ، إِمْضِي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ، فَاقْتَحِمْتَ فِي
النَّارِ».

26- سورة التين

- تقديم

يتوقف فهم معاني هذه السورة والقصد منها على فهم العلاقة بين العناصر الأربعة التي وقع القسم بها في مستهلها: التين، الزيتون، طور سينين، والبلد الأمين. والإشكال الذي يطرح نفسه على مستوى القسم بهذه العناصر ذو شقين: أحدهما معنى "التين والزيتون"، والثاني علاقتهما بالعنصرين الآخرين (طور سينين، والبلد الأمين). أما طور سينين (أي جبل سينين أو سيناء) فمعروف. إنه الجبل الذي كلم الله فيه موسى في جزيرة سيناء. والبلد الأمين معروف كذلك وهو مكة المكرمة. كل ذلك معروف على مستوى معهود العرب زمن نزول هذه السورة. وكما قلنا، وكرنا القول، فالقرآن لا يخاطب العرب، ولا يعقل أن يخاطبهم، إلا بما يفهمون، أي بما يقع على مستوى معهودهم.

يبقى "التين والزيتون" وهما معروفان لدى العرب على مستوى المعنى اللغوي: التين: ثمر معروف، والزيتون ثمر معروف كذلك. لكن الذي ليس معروفا هو العلاقة بينهما وبين "طور سينين والبلد الأمين".

ذهب المفسرون في هذه المسألة مذاهب شتى، وأقرب الأقوال إلى سياق السورة قول القائل: "التين هو الجبل الذي عليه دمشق، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس". وأبين منه ما ذكر من أن الأمر يتعلق بجبلين من الأرض المقدسة، "يقال لهما بالسريانية طور تينا، وطور زيتا، لأنهما منبتا التين والزيتون؛ فكانت تسمى عليه بمنابت الأنبياء: فجبل التين بفلسطين وهو لعيسى عليه السلام. وجبل الزيتون وهو بالشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل⁽¹⁾. وطور سينين (سيناء) مبعث موسى عليه السلام، والبلد الأمين" (مكة) مبعث محمد صلى الله عليه وسلم. وإذن فعناصر القسم رموز للأنبياء الأربعة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وأيضا تأكيد لوحدة رسالاتهم.

1- قال في معجم البلدان: "طُورُ زَيْتَا علم مرتجل لجبل بقرب رأس عين عند قنطرة الخابور على رأسه شجر زَيْتُون عذري يسقيه المطر ولذلك سُمِّيَ طُورُ زَيْتَا."

- نص السورة

1- أقسم بمواطن الأنبياء أن البعث والحزاء حق ...

وَالَّذِينَ وَالزَّيُّنُونَ¹، وَطُورِ سِينِينَ²، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ³، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ⁴ (جواب القسم: خلقنا الإنسان في أحسن صورة)، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ⁵ (جعلنا مصيره جهنم، باستثناء الذين آمنوا)⁽²⁾، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ⁶ (غير مقطوع).

2- فما الذي يحمل الإنسان بعد هذا على التكذيب بهما؟

فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ⁷ (بالحساب: والثواب والعقاب)؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ⁸! (يجازي الإنسان يوم القيامة حسب عمله).

- تعليق

بهذه السورة تنتهي المجموعة الأولى من السور القصار التي يبتدئ الخطاب فيها بالقسم بالأمور الطبيعية كمقدمة عامة تقرر الأساس العقدي الذي يبنى عليه موضوع السورة. وكما أبرزنا في السور السابقة فإن فهم بنية القسم، تتوقف على استحضار العلاقات التي تربط بين عناصره، خاصة بين القسم وجوابه، بين المقدمة العامة التي يعبر عنها القسم بهذه الصيغة أو تلك، وبين مضمون جوابه. إنه بدون الربط بين القسم وجوابه لا يمكن فهم القصد من الخطاب الذي يعبر عنهما، سواء كان هذا الخطاب سورة كاملة أو جزءا منها.

اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى " ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ"، بعضهم قال: المقصود: "أرذل العمر"، وآخرون قالوا المقصود: "جهنم". وفي كلتا الحالتين يبقى الاستثناء في قوله "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون" يحتاج إلى توضيح. فعلى القول الأول: يطرح السؤال: ألا ينتهي "الذين آمنوا" الخ هم أيضا إلى أرذل العمر؟ أما على القول الثاني فإذا كان "الذين آمنوا" يردون هم أيضا إلى "أرذل العمر" فما معنى تخصيصهم بـ، "أجر غير ممنون"؟

2 - نظيره قوله تعالى: "وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" (انظر قبله: سورة العصر رقم 10).

ونحن نرى أن هذه الإشكالات لا تطرح إلا إذا فهم لفظ "الإنسان" في السورة على أنه نوع الإنسان. أما إذ خصصناه بشخص بعينه كما هو الحال في سورة الشمس وسورة عبس فإن اللبس سيزول. والواقع أن ظروف نزول هذه المجموعة من السور التي تبدأ بأول ما نزل وهي سورة العلق، ظروف واحدة، والمخاطب فيها واحد بعينه: إما النبي عليه السلام لتسليته وتثبيت فؤاده إزاء استهزاء مشركي قريش ... وإما للرد على هؤلاء كجماعة أو كأفراد أو لامتداح المؤمنين الذي دخلوا في الإسلام وتعرضوا لما يستلزم تسليتهم. والغالب ما يقع التلميح في كل سورة إلى شخص معين من هؤلاء وأولئك بدون ذكر اسمه. علينا إذن أن نوجه تفكيرنا هنا إلى أحد رجال قريش ممن يمكن أن ينطبق عليهم مضمون السورة. وفي هذا الإطار يخطر بالبال الوليد بن المغيرة أحد كبار زعماء قريش الذي نزلت فيه آيات عديدة (دون أن تذكر اسمه) والذي ورد اسمه في قائمة من سجد بعد قراءة الرسول لسورة النجم، وقد قيل عنه إنه لم يستطع السجود لأنه كان شيخا كبيرا "فرفع ترابا إلى جبهته فسجد عليه". فهذا الرجل تنطبق عليه الآيات التي نحن بصددنا: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ" بمعنى أرذل العمر. ولكي لا يلتبس الأمر على الناس فيحملون لفظ "الإنسان" على النوع الإنساني، مؤمنين وكافرين، ولفظ "ردناه أسفل سافلين" على جهنم، جاء الاستثناء ليبين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قبل شيخوختهم وأثناءها "لهم أجر" وهذا الأجر "غير ممنون" أي غير مقطوع بسبب الدخول في حالة "أرذل العمر" التي يفقد الإنسان فيها تماسكه العقلي ويصبح غير مكلف لأن تمام الصحة العقلية شرط في التكليف. وبما أن الوليد بن المغيرة، أو من هو في مثل حاله، لا يدخل في "الذين آمنوا وعملوا الصالحات" فهو لا يدخل في الاستثناء، وبالتالي لا إشكال في صرف معنى "أسفل سافلين" إلى جهنم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أثار المفسرون مسألة المقسم به في أقسام القرآن، من زاوية أن المقسم به يجب أن يكون شريفا يستحق القسم به، وظهرت آراء تتساءل كيف يقسم الله بمخلوقاته، ومنها ما هو خال من أي شرف يؤهله لذلك، مثل التين والزيتون والليل والنجوم والأقراص الخ؟

والواقع أن الداعي إلى مثل هذا السؤال هو الوقوف عند الألفاظ وحدها، ذلك أن السياق يوضح أن القسم ليس بهذه الأشياء منعزلة، بل هو قسم بالنظام الذي ينظم هذه الأشياء، والذي هو مظهر من مظاهر نظام الكون كله. والغالب ما يكون الغرض من القسم إبراز كيف أن ترابط الظواهر الكونية وتسلسلها عبر مراحل وأطوار تنطلق من بداية السلسلة (الخلق) لتنتهي إلى آخرها المحتوم (الفناء)، هو - أعني الغرض من القسم - إثبات إمكانية إيجاد هذه الأشياء من جديد، والغرض العام

الذي يقف وراء ذلك هو البرهنة بالمماثلة على أن أطوار حياة الإنسان مماثلة لأطوار الظواهر الكونية كلها: خلق من نطفة في أحسن صورة: وهل هناك ما هو أجمل وأظهر من صورة الصبي؟ ثم بعدها يأتي الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة ثم أرذل العمر، ثم موت فبعث فعقاب أو ثواب ينتهيان بالخلود في الجنة أو في النار. تلك هي سنة رب العالمين أي القانون العام الذي أجرى عليه العوالم كلها: عالم الطبيعة الجامدة وعالم النبات والحيوان وعالم الإنسان... يبقى السؤال: لماذا هذه الأطوار، وخصوصا بالنسبة للإنسان؟ والبحث في هذا السؤال موضوعه تفصيل القول في المآل... ولم يحن وقته بعد.

27- سورة قريش

- تقديم

هذه هي المرة الوحيدة التي ذكر فيها القرآن "قريش" بالاسم، فما معنى قريش؟ في لسان العرب: "الْقَرْشُ: السَّجْمُ والكسْبُ والضم من ههنا وههنا، يُضْم بعضُه إلى بعض... ومنه: قُرَيْشٌ، لَتَجْمَعُهُمْ إلى الحَرَمِ، أو لأنهم كانوا يَتَقَرَّشُونَ البِيعَاتِ، فَيَشْتَرُونَهَا". وفي معجم البلدان: "وقيل: سميت قريش قريشاً لتقرشها إلى مكة من حواليلها. وقيل سميت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع".

عنصران اثنان تتحدد بهما قريش:

- أولهما: الإقامة في مكة وهي قلب الحَرَمِ. وتمنَع التقاليد العربية منذ القدم الإغارة عليها أو الحرب داخلها أو القيام فيها بأي نوع من أنواع الظلم والجور؛ ومن هنا اسم "البلد الأمين" الذي أطلقه عليها القرآن في السورة السابقة⁽¹⁾. وقد ورد اسمها في القرآن المكي باسم "أم القرى" وهو من أسمائها، وذلك في قوله تعالى: "وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا" (الأنعام 92). أما في القرآن المدني فقد وردت مرتين: مرة باسمها الشائع "مكة": يقول تعالى: "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ" (الفتح 24)، ومرة باسم "بكة" في قوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي

1- مما عزز الأمن والأمان في مكة إحلف الفضول الذي حضره النبي عليه السلام وكان شاباً، وسببه أن أحد التجار اليمنيين قدم ذات مرة إلى مكة وباع سلعة إلى العاصي بن وائل، زعيم بني سهم، فابطأ هذا الأخير في دفع الثمن إليه وماطله كثيراً حتى ينس، فجاء اليمني إلى مكة وعرض ظلامته على رجال قريش، فوقف إلى جانبه بنو هاشم (وهاشم زوجته من بني النجار من يشرب وهم من اليمن) ومعهم بنو المطلب وبنو زهرة وبنو تيم وبنو الحارث بن فهر الذين عقدوا إثر ذلك حلفاً بينهم: "تعافدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلّمته، فسمت قريش ذلك الحلف: "حلف الفضول". وكان هذا الحلف نوعاً من تطوير لحلف سابق سمي بحلف المطيبين. انظر كتابنا: العقل السياسي العربي. الفصل الثاني. ف 1

بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ"، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" (آل عمران 96-97).

- وثاني العنصرين اللذين تتحدد بهما قريش هو التجارة. فعلا، كان أهل مكة "أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع". وهذا واضح من استعمال الخطاب القرآني لعبارات ومفردات من عالم التجارة والمال. ففي القرآن المكي نقرأ قوله تعالى: "فَافْرَعُوا مَا تَيْسَّرَ مِنْهُ (من القرآن) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا" (المزمل 20). وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ" (فاطر 29). وقد استمر القرآن المدني في توظيف المفردات التجارية مثل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (الصف 10-11). إن اعتبار لغة الخطاب، من هذا المنظور، يرفع كثيرا من التأويلات والشكوك التي شغلت المفسرين في محاولتهم تفسير الآيات الأربع التي تتألف منها سورة قريش.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم
لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ^١، إِيْلَافِهِمْ (اعتيادهم) رِحْلَةَ الشَّتَاءِ^٢ (للتجارة إلى اليمن) وَالصَّيْفِ^٣ (إلى الشام شمالاً)، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ^٤ (الكعبة)، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ (بالتجارة) وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ^٥ (تحريم الاعتداء والسرقة والغزو الخ احتراما لهذا البيت).

- تعليق

ومما استعصى على المفسرين فهمه حرف "اللام" في "إيلاف"، ثم حرف الفاء الرابطة بين الآيتين (2-3). لقد ذهب كثير منهم إلى ربط بداية هذه السورة بنهاية سورة الفيل (رقم 16) بناء على أنهما تشكلان سورة واحدة - كما ذكرت ذلك بعض الروايات- أو بناء على أنهما سورتان اثنتان متصلتان بحيث يكون قوله تعالى في أول سورة قريش "إيلاف قريش" بيانا للسبب الذي من أجله دمرت الطير الأيايل - التي سلبها الله علي أصحاب الفيل - المهاجمين لمكة، كما ورد في آخر سورة الفيل: "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ" (الفيل 5). وبذلك يكون المعنى: "أهلكت أصحاب الفيل من

أجل إيلاف قريش، أي لكي تتمكن قريش من مواصلة رحلتها للتجارة : رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام". قال صاحب الكشف: "وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصحّ إلا به". وبذلك تكون "الفاء" في "فليعبدوا" في معنى الشرط بمعنى : "أن نعم الله عليهم لا تحصي، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة" (الكشاف). وإلى جانب هذا التأويل الذي يبدو معقولاً ولكن على حساب الجمع بين سورة الفيل وسورة قريش (2)، هناك تأويلات عديدة أضعف كثيراً من هذه مثل تلك التي تعتبر اللام هنا حرف تعجب...

أما التأويل الذي نرجحه نحن فهو التالي: من أجل إيلاف قريش ... فليعبدوا ... بمعنى أن هناك عملية "تقديم وتأخير" (لتعبد قريش... لإيلافها) وهذا النوع من "التقديم والتأخير" كثير في القرآن. والمعنى: إن على قريش أن تعترف بنعم الله عليها فتعبده وتؤمن برسوله : وهذه النعم صنفان: أنعم عليها أولاً بالسكنى في مكة هذا "البلد الأمين"، الذي يأمنون فيه من الخوف، لوجود الكعبة "بيت الله" فيه، مما جعل منه أحد الأمكنة الثلاثة المقدسة، بعد طور تينا (القدس: مهد عيسى) وطور سيناء (الذي كلم الله فيه موسى). وأنعم عليها ثانياً بكون موقع هذا البلد قد مكنهم من القيام برحلتين على مستوى التجارة الدولية: واحدة في الشتاء إلى اليمن، والثانية في الصيف إلى الشام، وبذلك آمنهم من جوع.

2- هذا الجمع لا يستقيم إلا على أساس ترتيب المصحف حيث وردت سورة الفيل وبعدها سورة قريش مباشرة. أما على ترتيب النزول فالمسافة بينهما واسعة: رتبة سورة الفيل تتحرك في اللوائح ما بين 17 و 19 بينما تتحرك رتبة سورة قريش ما بين 28 و 29! وإذن فهذا التأويل لا يستقيم.

الاستطراد والاستشراف.

الرب، الله، الرحمان

سبعة وعشرون سورة مرت حسب "ترتيب النزول" الذي اعتمدنا فيه مرجعيات ثلاث: (1) لوائح ترتيب النزول المتوفرة. (2) ما ورد من أخبار ومرويات حول أسباب نزول هذه السورة أو تلك، هذه الآية أو تلك. (3) ما استفدناه من السور نفسها، من آياتها وسياقاتها، ووجوه اتصال بعضها مع بعض. لقد قطعنا الآن المرحلة الأولى من مراحل التنزيل، وبالتالي من مسار الدعوة المحمدية، قرآنا منجما وسيرة نبوية.

ولكي نجعل القارئ يشعر معنا بأهمية هذه المرحلة لن نحتاج إلى تكرار ما كان حاضرا معنا خلال أحركنا على مسارها، وليس العهد ببعيد، ولذلك سنحاول القيام بنوع من الاستطراد أو الاستشراف نحو ما لم يحضر بعد. إن قراءنا، والمسلمين منهم خاصة، يعرفون، ولو بالاسم وحده، أهم "مفردات" الخطاب الديني الإسلامي، أعني المصطلحات والفاهيم، العقيدة منها والفقهية. وبما أن القرآن المكي هو أساسا كتاب عقيدة وأخلاق، وبما أننا الآن في نهاية مرحلة بدأ فيها تشكل العقيدة حسب سنة القرآن في التدرج، فإن سؤال الحضور والغياب الذي سنطرحه لا ينبغي أن يتجاوز الآن هذا النطاق.

الرب ...

أبرزنا في الاستهلال الذي صدرنا به هذه المرحلة أن الخطاب فيها يدور حول ثلاثة محاور: الرب، الله، الرحمان. ونستطيع الآن أن نلاحظ أن من الأسماء التي لم تكن حاضرة بشكل محوري: لفظ "المسلمون" ولفظ "المؤمنون". وهذه الملاحظة تطرح سؤالا، لا يخلو من أهمية على مستوى الربط بين التنزيل ووقائع السيرة، هذا السؤال هو: كيف سمى القرآن أتباع الدعوة المحمدية في هذه المرحلة؟ إذا نحن عدنا إلى السور التي سبقت فإن المعنى الذي سيعبر عنه لاحقا بلفظ "مسلم" و"مؤمن" قد تم التعبير عنه فيما سبق بلفظ "من تزكى". وقد استعمل هذا الفعل مرارا كما رأينا ولكنه لم يستعمل كـ "اسم" وإنما استعملت بدله عبارة "من تزكى"، كما استعمل لفظ

"الآتقى" كمقابل لـ "الأشقى". أما لفظ "الكافرون" فمع أنه سميت به سورة خاصة، فلم يستعمل مقابله بعد، أعني : "المؤمنون".

سنقف عند هذه الملاحظات في ما يتعلق بالألفاظ الأخيرة، وسنخصص هذا الاستطراد الاستشراقي للفظ "الرب" الذي تم التعبير عنه أيضاً، باسم "الله"، ثم باسم الرحمان.

لفظ الرب في اللغة هو مِنْ "رَبَّهٖ يَرْبُّهٖ رَبًّا: مَلَكَهٗ". يقال: "طالَتْ مَرْبَّتُهُمُ النَّاسَ وَرَبَابَتُهُمْ أَيْ مَمْلَكَتُهُمْ". والعبادُ مَرْبُوبُونَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَيْ مَمْلُوكُونَ. "وَرَبَّيْتُ الْقَوْمَ: سُسْتُهُمْ أَيْ كُنْتُ فَوْقَهُمْ" ... ويقال: وَرَبَّادُ تَرْبِيَةٍ: أَحْسَنُ الْقِيَامِ عَلَيْهِ، كَانَ ابْنُهُ أَوْ لَمْ يَكُنْ (لسان العرب).

هذا في اللغة. أما في القرآن فقد ورد اسم "الرب" مرات كثيرة (ربي، ربك، ربكم الخ)، كما ورد في قصص الأنبياء والرسول بنفس المعنى والصيغ (1). ولفظ "الرب من صفات الفعل، (فهو كما رأينا من فعل "رَبَّهٖ يَرْبُّهٖ رَبًّا: مَلَكَهٗ")، وهو يطلق على "السيد والمدير والمالك والمنعم والقيم" الخ، وبصفة عامة "رب كل شيء: ماله ومستحقه". فيقال مضافاً: رب الدار، ورب البيت، وربات الحجال (قبة العروس)، ولكنه لا يطلق غير مضاف (هكذا: الرب) إلا على الله. ومؤنث الرب: الربة. وكان هذا الاسم يطلق على الصخرة التي كان أهل ثقيف يعبدونها، واسمها اللات (أصلها "اللاة"، وقد فتحت التاء تجنباً للخلط مع "الله"). وكان لها بيت يضاهنون به الكعبة. هذا كما يجمع الرب على "أرباب"، وفي الإسلام يختص الله بلفظ "رب الأرباب". ومع أن هذا الاسم لم يرد في القرآن فهو شائع في الحديث والتفسير الخ. أما "الرب الأعلى" فقد ورد في قوله تعالى: "سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" (الأعلى 1)، وفي قوله: "إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى" (الليل 20)، كما ورد حكاية عن فرعون: "فَقَالَ (فرعون) أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى" (النازعات 24).

ورد لفظ "الرب" بصيغته المختلفة في القرآن (ربك، ربي، ربكم، ربه، ربهم، رب العالمين...) 767 مرة. لكن في السور الأولى، حسب ترتيب النزول، يكاد الخطاب باسم الرب ينحصر -كما رأينا- في الرسول عليه السلام. فممنذ "اقرأ باسم ربك" إلى

1 - وفي هذا الإطار نشير إلى أن لفظ "الرب" ورد في التوراة منفرداً لأول مرة في الإصحاح الرابع من سفر التكوين (ت-د: الترجمة الدولية) هكذا: "وَعَاشَرَ آدَمَ حَوَاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقتنيتُ رجلاً من عند الرب». أما قبل ذلك فكان اللفظ المستعمل هو "الرب الإله". أما (ت-ب: الترجمة البيروتية) فتارة تستعمل اسم الله، وتارة اسم "الرب" وتارة لفظ "الرب الإله". وسنشرح فيما بعد الاعتبارات التي تقف وراء هذا الاختلاف.

"قل هو الله أحد"، والرب هنا هو رب محمد عليه السلام، بمعنى أنه مربيه ومعلمه والمدير لأمره وراعيه الخ. وبمعنى آخر منذ ابتداء الوحي وهو خاضع لتربية ربانية خاصة.

من جملة ما انصب عليه فعل "التربية الربانية" تعليمه كيفية تلقي الوحي وكيفية تقبل أن يكون نبيا رسولا، والاطمئنان إلى أن ذلك حق وأنه ليس من قبيل الشعر ولا من وسوسة الشيطان أو تأثير الجنون، وأن غياب حامل الوحي إليه (جبريل) لبعض الوقت لا يعني أن ربه تركه وتخلي عنه. وكيف يتخلى عنه وهو الذي رعاه منذ طفولته، يتما، فقيرا، تائها في الطريق..! كان هذا الخطاب، خطاب التربية والرعاية، يتجدد كلما جد جديد. يدعو إلى الصبر إزاء استهزاء قريش وإذابتهم له ولأصحابه، ويؤكد له غير ما مرة أن "بعد العسر يسرا". وأن النصر سيكون حليفه في النهاية.

وعندما كبرت الجماعة الإسلامية وأخذت الدعوة في الانتشار والتوسع، وبدأ الوحي يوجهه نحو آفاق جديدة، نبهه إلى ثقل المهمة التي اختاردها لها، وأنها تتطلب الصبر الجميل، وأن الله سيكون معه يرعاها ويوجهه⁽²⁾. وفي الوقت نفسه أخذ خطاب الرب يوسع من مجاله ليشمل محمدا عليه السلام والمؤمنين برسالته، يواسيهم ويضرب لهم الأمثال ويقص عليهم ما جرى للأقوام الماضية الذين كذبوا برسولهم، ومن ثم يدعوهم إلى استخلاص العبرة من ذلك. وبالدخول في مجال تاريخ الأنبياء والرسل أصبح القرآن، الذي كان ينزل مفرقا ليقراء على الناس على مكث، ينمو ويتطور ليصبح كتابا موجها للأمة (العرب) ليحولهم هم أيضا إلى "أهل كتاب" بعد أن عاشوا أمة أمية لا كتاب لها. ويتلقى الرسول من ربه خطابا يشعره بهذا التطور الذي سيسجل خطوة جديدة على مسار الدعوة، ويدعوه إلى عدم الدهشة والاستغراب من أن يكون القرآن كتابا في نفس الوقت. قال تعالى "المص"، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا - نزل إليكم من ربكم وكنا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون" (الأعراف 1-3).

ومباشرة تشرع السورة في بيان أن هذا الرب الذي يخاطب محمدا وأصحابه هو أيضا رب جميع الأنبياء والمرسلين السابقين. ثم تتوالى سور القرآن المكية منها والمدنية لتؤكد أن الرب الذي خاطب محمدا أول مرة بـ "اقرأ باسم ربك" هو "رب" الناس أجمعين، "رب السماوات والأرض"، "رب العرش العظيم". وأنه كما يرعى

2- "إِنَّا سَتَلْقَىٰ عَلَيْهِ قَوْلًا ثَقِيلًا" (المزمل 5)، "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (الطور 48-49) الخ.

محمدا ودعوته قد فعل الشيء نفسه مع أنبياء ورسل سابقين، منهم من قص عليه أخبارهم وشرح له تجاريهم، ومنهم من لم يقصص عليه. وأنه كما يعاني هو، أعنى محمدا عليه السلام، من قومه، من تكذيبهم وسخريتهم وأذاهم، عانى أولئك الأنبياء والرسل من أقوامهم ما يماثل ذلك أو أشد، وبالتالي فحالهم ليست فريدة ولا استثناء، بل هي مظهر من سنة الله على أرضه، سنته التي تحكم حركات الظواهر الطبيعية كما تحكم تحركات التاريخ البشري بما في ذلك تحركات الأنبياء والرسل: "سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح 23). ولقد كان من الطبيعي تماما أن يعتري النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ما يعتري البشر -وهو واحد منهم- من أحوال نفسية وتمنيات من هذا النوع أو ذاك. وكان من الطبيعي كذلك أن ينتابه الأسى والأسف، من حين لآخر، بسبب إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، خاصة منهم أولئك الذين كان لهم شأن قبلي أو اقتصادي والذين يفترض الإنسان أنهم إذا أسلموا تبعهم الناس، فيكون في ذلك اختصار للصعوبات والمشاق التي تعترض بإصرار طريق الدعوة.

كانت هذه المشاعر مبررة، على كل حال، من إنسان يعيش وضعا بشريا، يتمتع فيه أناس بالمال والسعة بينما يعاني آخرون من ضيق العيش. وقد حدث للرسول عليه السلام أن عانى من هذه الوضعية وما يتبعها من حزن وإحساس بالضيق، عندما شاهد ما كانت تتمتع به قريش من زينة وما كان يعانيه هو من ضيق العيش... فجاء خطاب الرب يواسيه ويبين له أن تغيير الوضعية محكوم بكلمة (=قرار) سيقته من ربه الذي قدر لكل شيء أجلا مسمى، وأن مصير خصومه سيكون كمصير الأمم الماضية التي كذبت رسلها وضيق عليهم. يقول تعالى: "أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (للمشركين) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (العقول). وَلَوْنَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بأن عين لكل أمر أجلا) لَكَانَ لَزَامًا (هلاكمهم الآن، لكن سبقت كلمة ربك) وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (لذلك)، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (رجالا ونساء) مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَهُمْ فِيهِ، وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَبَاقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى" (طه 128-132).

لكن توالي الشدائد وإصرار قريش على العناد وكثرة تدخلاتهم من أجل حل وسط (وهم تجار مستعدون دائما لحل وسط)، جعل النبي عليه السلام يأسف لعدم استجابتهم وأحيانا يخطر له أن يجرب استمالتهم بوعده من الوعود. لكن ربه كان

حاضرا دائما بثبته، وأحيانا يحذره ويعاتبه: "وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ" (يونس 109). وهكذا فعندما طلبت منه قريش أن يبعد عنه من سموهم بـ "الأراذل" أي الفقراء والموالي حتي يمكن أن يجلسوا معه، جاء القرآن بالأمر التالي: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الكهف 52). وفي نفس المعنى خاطبه ربه: "وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا، وَقُلْ: (هذا هو) الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ، فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ". (الكهف 29). وأيضا: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (الروم 60)، "وَاصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" (نوح 127). وكان قد سبق له أن تلقى عتابا بسبب موقفه من رجل أعمى، ابن خال خديجة زوجته، عندما جاء يطلب أن يستقبله بينما كان منشغلا ببعض كبار قريش. كما رأينا في سورة "عيس".

ولاشك أن الرسول (ص) كان يحس في بعض الأحيان، إزاء إصرار قومه على الإعراض عن دعوته، بما يشبه الشعور بالفشل في المهمة، وفي هذه الحال يأتيه الوحي ليذكره بحدود مهمته، فهو ليس مكلفا بإجبارهم علي الإيمان وإنما المطلوب منه أن يذكرهم بالقرآن: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ" (ق - 45). وإذا كانوا قد أغفلوا باب الاستجابة وصاروا كالأموات لا يسمعون فليس على الرسول أن يسمع الموتى: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ، إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ" (فاطر 22 - 23). وإذا كانوا قد اتخذوا موقف الذي لا يرى ولا يسمع فالواجب أن يعرض عنهم: "وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ" (النمل 81).

على أن منهم من يستمعون إليه ولكن بأذانهم فقط إنهم لا يستعملون عقولهم ولا يتدبرون ما يسمعون: "وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ! أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ؟ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَْىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ" (يونس 42-43). ثم إن حرصه على أن يؤمنوا، وقلقه من إعراضهم عنه، شيء أراد الله، فليس علي النبي أن يحاول عبثا إكراههم علي الإيمان: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا! أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟" (يونس 99)، "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنِ ضَلَّ فَلِنَافْسِهِ يَضِلَّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ

عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ". (الزمر 41)، "فَذَكَّرْنَا إِيَّاهُ أَنْتَ مُذَكَّرٌ، لَسْنَا عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطِرٍ" (الغاشية 21-22).

وكانت قريش قد تحدوا النبي عليه السلام : "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا" (الإسراء 90-91)، فآثر ذلك في نفسه تأثيرا كبيرا، فجاء القرآن يواسيه ويثبتته، قال تعالى: "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ مُهِلِكٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا! إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزًا" (ترابا لا نبات فيه. الكهف 6-8) وحدث "أن قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخمونه، ويسودونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس، وأنت سيدنا الخ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون، ثم صرفه الله من ذلك"، وفي هذا نزلت هذه الآية : "وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا، وَلَوْ أَن تَبَيَّنَّاكَ لَفَعَدْنَاكَ لَنُنْزِلَنَّ إِلَيْهِمْ سُبْحًا فَتَبْيِضَ الْوَجْهُاءُ، وَصُبْحًا الْمُمَاتِ ثُمَّ لَأُتِجِدَ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 73-74). وعندما عازمت قريش على إخراجهم من مكة جاءه الأمر من ربه بالهجرة، وقيل في ذلك نزل قوله تعالى: "وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ (مكة) لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ (وراءك) إِلَّا قَلِيلًا. سَنَةَ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَئِنْ كُنَّا لَنَظُنُّكَ كَاذِبًا" (الإسراء 75-77). تلك هي عناصر من "التربية الربانية" التي تلقاها محمد بن عبد الله في دعوته الناس إلى الإسلام: تربية تمارس على المكلف بالدعوة نوعا من النقد الذاتي البناء لا ينتهي. وما يميز هذه التربية هو غياب العنف غيابا تاما عن أفقها. إن شعارها : الصبر والمثابرة ومحاسبة النفس والسير وفق سنة الحياة التي هي سنة الله التي خلقت من قبل ولا يمكن تغييرها: "فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر 43). خطاب الرب خطاب أخلاق، خطاب سلم وسلام.

على أن خطاب "الرب" لم يكن مخصوصا بمحمد عليه الصلاة والسلام، بل لقد أخذت دائرة المخاطبين به تتسع مع انتشار الدعوة ليصبح "رب الناس" جميعا، المؤمنين منهم وغير المؤمنين. ومع أن المرء قد يتوقع أن خطاب الرب إلى المؤمنين سيكون إيجابيا واعدائيا، وأن خطابه إلى غير المؤمنين من كفار قريش وغيرهم سيكون متوعدا دائما، فإن استقراء القرآن يكذب هذا التوقع. ذلك أنه يمكن القول، بصورة عامة، إن جميع ما ورد في القرآن مقترنا بـ "الرب"، أو محيلا إليه، قد جاء كله في عبارات تحمل معنى إيجابيا، ولم يقترن اسم "الرب" بما هو سلبي إلا نادرا كما في قوله: "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دُكًّا دُكًّا، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا، وَجِيءَ

يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (الفجر 21-23)، وقوله: "فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمِّمُوا عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا" (الشمس 14)، وقوله "إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ" (البروج 12)، وقوله: "قَالَ (هود) قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ (قوم عاد) مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ" (الأعراف 71). وغني عن البيان القول إنه حتى في هذه الحالات النادرة يتعلق الأمر بـ "الإخبار"، من دون وعيد أو تهديد صريحين.

وهناك آيات ورد فيها اسم "الرب" في موقف إيجابي وبعده يأتي اسم "الله" في موقف يشعر بالشدّة، مثل قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا، يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" (البقرة 26)، وقوله: "وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (البقرة 149). وقوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ (تتوسلون به في الطلب من بعضكم بعضا) وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء 1).

أما فيما عدا ذلك فالسائد هو المعنى الإيجابي بإطلاق، من ذلك قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ" (النجم 32). وقوله: "وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 153). وإذا كان الموقف يقتضي الشدة واللين، فاللين يأتي لاحقا ليكون هو المصير. من ذلك قوله تعالى في عدة آيات: "وَأَنَّ رَبَّكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ (الشديد) الرَّحِيمِ (الشعراء 9)، وقوله "إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (الأعراف 167). أما الدعاء فهو يتضمن -في سياق التوجه إلى "الرب"- الاعتراف بالضعف والذنب كما يعترف كل من يرجو خيرا ممن يوجه إليه الدعاء: "رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا، وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة 286).

ونعود فنلخص ما سبق في كلمات، فنقول: إن لفظ "الرب" من أسماء الأفعال لا من أسماء الذات. وكونه من أسماء الأفعال وأن معناه الاشتقاقى يعود بنا إلى الفعل التربوي، فعل المربي، فإن معناه في القرآن الكريم ينصرف -حتى في حال دلالتيه على ما يفيد الشدة- إلى ما يفيد الرعاية والإنعام وحسن التدبير وأيضا التنبيه إلى مكان الخطأ والضرر.

الله ...

تحدثنا عن معنى لفظ "الرب" الذي استعمله القرآن في السور السابقة وقلنا عنه إنه من أسماء الأفعال، ولذلك اقترن بفعلي "خلق" و "علم" في سورة "اقرأ باسم ربك الذي خلق من علق"، "الذي علم بالقلم". أما اسم "الله" فهو من أسماء الذات وأصله "الإله". يقول أهل اللغة "هو نظير لفظ "الناس" الذي أصله "الأناس": حذفت الهمزة وعوض عنها حرف التعريف، ولذلك قيل في النداء: يا الله بالقطع، كما يقال: يا إله. و"الإله من أسماء الأجناس كالرجل والفرس، اسم يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق، كما أن النجم اسم لكل كوكب ثم غلب على الثريا، وكذلك السنة على عام الفحط، والبيت على الكعبة، والكتاب على كتاب سيبويه". وأما لفظ "الله" بحذف الهمزة فمختص بالمعبود بالحق، لم يطلق على غيره. ومن هذا الاسم اشتق: تآله، وآله، واستأله. كما قيل: استنوق، واستحجر، في الاشتقاق من الناقة والحجر. فهو إذن اسم وليس صفة. يقول الزمخشري: "ألا تراك تصفه ولا تصف به، لا تقول: شيء إله، كما لا تقول: شيء رجل. وتقول: إله واحد صمد، كما تقول: رجل كريم خير. وأيضاً فإن صفاته تعالى لا بد لها من موصوف تجري عليه، فلو جعلتها كلها صفات بقيت غير جارية على اسم موصوف بها وهذا محال". ويضيف: "فإن قلت: هل لهذا الاسم اشتقاق؟ قلت: معنى الاشتقاق أن ينتظم الصيغتين فصاعداً معنى واحداً، وصيغة هذا الاسم صيغة قولهم: آله، إذا تحير، ومن أخواته: دله، وعليه، ينتظمهما معنى التحير والدهشة، وذلك أن الأوهام تتحير في معرفة المعبود وتدهش الفطن، ولذلك كثر الضلال، وفشا الباطل، وقلَّ النظر الصحيح. فإن قلت: هل تفخم لاه (لام الله)؟ قلت: نعم قد ذكر الزجاج أن تفخيمها سنة، وعلى ذلك العرب كلهم، وإطباقهم عليه (موافقتهم) دليل أنهم ورثوه كابراً عن كابر".

هذا التعدد في بيان أصل لفظ "الله" في لغة العرب، أعني عدم استقرار لغويهم على جذر واحد واضح للكلمة، دفع بعضهم إلى البحث له عن أصل ما، في اللغات الأجنبية، فقال بعضهم إن أصله من السريانية "لاها"، حيث أطلق هذا اللفظ علماً على الله فعرب بحذف الألف وإدخال اللام عليه. وهناك من رجع بأصله إلى كلمة "إلوهيم" بالعبرانية وهي جمع "إلو" أو "إلوه"، وتطلق على اسم الجلالة: الله. وقد عرض الأستاذ المرحوم محمد تقي الدين الهلالي لهذا الموضوع في مقال له بعنوان "ما وقع في القرآن بغير لغة العرب" ورد فيه ما يلي، قال: "ومن ذلك المعركة الكبرى التي خاضها علماء العربية في لفظ الجلالة "الله" أهو مرتجل أم مشتق؟ وإن كان مشتقاً فهل اشتقاقه من "آله" أو من "وله" أو من "لاه"، وما هو أصله على كل من هذه الأوجه؟ وماذا جرى عليه من الحذف والإدغام حتى بلغ صورته التي هو عليها؟"

وأضاف: "ومن تعلم شيئا من اللغات السامية، أخوات اللغة العربية، لا ينقضي عجه من الخائضين في تلك المعركة، ويرى جهودهم ضائعة ويحكم يقينا أن الاسم الكريم مرتجل بلا مرية، وهو بعيد كل البعد من الاشتقاق، فبات ثابت بهذا اللفظ في جميع اللغات السامية ففي السريانية "ألاها" والشرقيون منهم ينطقون به "ألاهو" وهو كذلك في الآشورية، بفتح الهمزة في اللغات الثلاث. وبالعبرانية "ألوهيم".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك جدل حول لفظ "ألوهيم" بالعبرانية؛ فقد ورد في التوراة هكذا على صيغة الجمع (المفرد : أيلو، والجمع ألوهيم)، الشيء الذي دفع بعض علماء المسيحية إلى القول إن التثنية ليس خاصا بالمسيحية بل هو أصل أصيل في التوراة. وحسب المختصين في الموضوع هناك تصوران للألوهية في التوراة. الأول يعبر عنه بـ"ألوهيم" (الإله، أو الله)، والثاني يعبر عنه بالاسم المفرد "يهوه". ألوهيم (الإله) يدل على معنى الألوهية عند جميع الشعوب السامية تقريبا، الشيء الذي يعكس الاستمرارية بين "إله الأمم" (إله القبائل والشعوب غير اليهودية) وبين إله بني إسرائيل. وعندما كشف الرب عن اسمه لموسى فإن هذا اللفظ الذي كان مستعملا عند الفينيقيين وغيرهم قبل العبرانيين، لم يعد له من معنى خاص إلا بالنسبة لبني إسرائيل الذين خاضوا تجربة "القرب من الله" عندما كلم الله موسى تكليما. "فعندما جرى اللقاء بين الله وموسى في شجرة العليقة وتم تكليفه بإخراج بني إسرائيل من مصر" : "13 قَالَ مُوسَى لِلَّهِ: حِينَئِذٍ أَقْبِلْ عَلَيَّ يَا إِسْرَائِيلَ وَأَقُولْ لَهُمْ: إِنَّ إِلَهَ آبَائِكُمْ قَدْ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، وَسَأَلُونِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَآذَا أَقُولُ لَهُمْ؟" 14 فَأَجَابَهُ اللَّهُ: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهِ» (ومعناه أنا الكائن الدائم). وأضاف: "هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: 'أَهْيَهِ' (أنا الكائن)، هُوَ الَّذِي أُرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ" (الخروج 3، 13-15، د-ت)، ومن هنا اسم "يهوه" ومعناه "الذي هو"، أي الإله القومي لبني إسرائيل. واحتراما منهم لهذه التجربة تجنبوا النطق بهذا الاسم عند أدائهم لشعائهم في بيعهم، واستعملوا بدله اسم "أدوناي" أي "السيد، المولى" Seigneur، أو "ألوهيم"، وهذا في التوراة خاصة، وذلك عندما يأتي اسم "الرب" مباشرة قبل اسم "يهوه" في عبارة "الرب يهوه" (الرب الإله)، الذي أصبح عندهم إلها كونيا. ومن هنا اتخذ يهوه عندهم -على صعيد الاشتقاق اللغوي- معنى "الموجود" أو "الصيرورة"، ومن ثم "الموجد" أو "الخالق".

هذا، وقد انعكس هذا الطابع "الجمعي" للفظ "ألوهيم" في الترجمات العربية للتوراة. ففي (ت-د) ورد التعبير عن ألوهيم بلفظين "الرب الإله" وأحيانا يضاف إليهما لفظ ثالث كما في النصوص التالية: "4 هَذَا وَصَفَ مَبْدَأِي لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَوْمَ خَلَقَهَا الرَّبُّ إِلَهُهُ (التكوين 2). "22 فَأَجَابَهُ أَبْرَامُ: 'لَقَدْ أَقْسَمْتُ بِالرَّبِّ إِلَهِ الْعَلِيِّ، مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ'. (التكوين 14). "33 وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ شَجَرًا أَتْلً فِي بَنَرِ سَبْعٍ،

وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِ السَّرْمَدِيِّ، 34 وَمَكَثَ إِبرَاهِيمُ فِي بِلَادِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ فَتَرَةً طَوِيلَةً (التكوين 21). "17لأنَّ الرَّبَّ إِلَهُكَ هُوَ إِلَهُ الْآلِهَةِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ، إِلَهُ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ الْمَهِيْبِ" (التثنية).

أما في القرآن الكريم فقد ورد جواب الله على سؤال موسى على ثلاث صيغ: "إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا" (طه 14)، و"إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (القصص 30)، و"يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (النمل 9). (بخصوص هذا اللقاء راجع التعريف بالقرآن: القصص في القرآن المكي. 3- المرحلة الثانية. قصة موسى وفرعون. د- في سورة القصص).

كان ذلك ملخصاً عن مفهوم الإله في اليهودية، أما في المسيحية فالأمر يختلف، إذ يؤمن المسيحيون بالتثليث أي يتصورون الله "ثالث ثلاثة": الآب والابن والروح القدس، بمعنى أن هذه الألقاب الثلاثة عبارة عن ثلاث خواص جوهرية لإله واحد ورب واحد. وهذه الوحدة بين هذه الألقاب هي عندهم أسراراً كشفها الله، وطريق التسليم بها هو الإيمان، أما العقل البشري فقاصر عن إدراكها، وهل يمكن للمخلوق أن يدرك ذات الخالق؟! ومن هنا اعتقاد المسيحية في أن حقيقة الله لا يعرفها إلا من أراد الله أن يكشفها له.

- الرحمان... الرحيم

سبق القول إن لفظ "الرحمان" هو ثالث الأسماء التي سمي الله به نفسه: لقد تعرفنا على معنى الرب، وعلى ما قيل في اسم الجلالة (الله)، فلننقل الآن في اسم "الرحمان" الذي ورد لأول مرة في سورة الفاتحة⁽³⁾ في قوله تعالى "الرحمان الرحيم". كان العرب قبل الإسلام يعرفون اسم الجلالة (الله) بشهادة القرآن في آيات عديدة مثل قوله تعالى: "وَكُنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" (لقمان 25)، لكن يبدو أن اسم "الرحمان" لم يكن ضمن قاموسهم الديني، أو على الأقل لم يكونوا يعترفون به بوصفه كذلك. ذلك ما يستفاد من عدة آيات منها قوله تعالى: "كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُو عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ! قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ" (الرعد 30)، وقوله: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا" (الفرقان 60).

3- هذا صحيح بقطع النظر عن الترتيب الذي اخترناه، لأن رتبة الفاتحة في ترتيب النزول المعتمد هي الخامسة.

بوسع المرء أن يفترض أن قریشا كانت تعرف لفظ الرحمان بوصفه مشتقاً من "رحم یرحم فهو رحمان"، كـ "غضب یغضب فهو غضبان" الخ، وأنها إنما كانت تعترض على المسمى بهذا الاسم في الخطاب القرآني بوصفه "الله"، وبالتالي فالإله الذي یوحى إلى الرسول عليه السلام ليس هو الله في نظر قریش، ولذلك قالوا: "إنما یعلمه صاحب "رحمان الیمامة"، أي الإله الذي كان مدعی النبوة في شرق الجزيرة مسیلمة الحنفي يدعو إليه باسم "الرحمان". وهذا الاعتراض على "رحمان الیمامة" من طرف قریش یمکن النظر إليه على أنه من مظاهر التنافس التاريخي بين "ربیعة" (قبائل شرق الجزيرة) و"مضر" (قبائل غرب الجزيرة). ومما یزکی هذا الافتراض ما رواه الطبري وغيره من "أن النبی صلی الله علیه وسلم كان یتهجّد یمکة ذات ليلة، یقول في سجوده: "یا رَحْمَنُ یا رَحِیمُ"، فسمعه رجل من المشركين، فلما أصبح قال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة (یعنون النبی علیه السلام)⁽⁴⁾، يدعو اللیلة الرحمن الذي بالیمامة".

هناك من اللغويين القدامى من (عتبر اسم "الرحمان" معرباً من العبرانية. ذكر القرطبي عن ابن الأتباري عن المبرد "أن الرحمن اسم عبراني نقل إلى العربية. قال: وأصله بالخاء المعجمة، أبدلت خاؤه حاء مهملة عند أكثر العرب كشأن التغير في التعريب". وأضاف القرطبي: قال أبو إسحق الزجاج نقلاً عن أحمد بن يحيى: "الرحيم" عربي، و"الرحمان" عبراني، فلهذا جُمع بينهما" (الرحمان الرحيم)!

وقد ناقش المرحوم محمد تقي الدين الهلالي في المقال المشار إليها آنفاً هذا الرأي فكتب یقول: "الرحمن كلمة عربية خالصة من الرحمة بزيادة الألف والنون كظمان وعطشان، وكانت العرب تعرفه وتفهم معناه وقد سموا به مسیلمة الكذاب فكانوا يدعونهم (رحمان الیمامة) ولكنهم لجهلهم لم يكونوا یعلمون أنه من أسماء الله". وأضاف: "ومن أعجب العجب قولهم (اللغويين) إنه عبراني وإن أصله بالخاء المعجمة، والخاء المعجمة لا وجود لها في العبرانية استقلالاً، وإنما تنطق الكاف بها إذا جاءت قبلها حركة مثل (هبراخا) البركة ومثل باروخ، أي مبارك. ومعناه (یعني

4- هناك عدة روايات في السبب الذي من أجله كانوا یكنون رسول الله بابن أبي كبشة، ذكر منها صاحب لسان العرب ما يلي، قال: "أصله أن أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قریشاً في عبادة الأوثان وعبد الشجرى العجور، فسَمّی المشركون سيدنا رسول الله، ابن أبي كبشة لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى، تشبیهاً به، كما خالفهم أبو كبشة إلى عبادة الشجرى". وقال آخرون: أبو كبشة كنية وهب بن عبد مناف جد سيدنا رسول الله، من قبل أمه، فنسب إليه لأنه كان نَزَعَ إليه في الشبه، وقيل: إنما قيل له ابن أبي كبشة لأن أبا كبشة كان زوج المرأة التي أرضعته".

الرحمان) بالعبرانية هو معناه بالعربية، إلا أنه في اللغة العبرانية، صفة عامة لكل من في قلبه رحمة ليس خاصا بالله تعالى. إذن فهو من الكلمات المشتركة بين العبرانية والعربية، وهي كثيرة تعد بالآلاف. والكلمات الأربع التي في البسملة كلها مشتركة بين اللغتين، فالاسم (شم) بإبدال السين شيئا وذلك كثير في العبرانية، والله (الوهم) والرحمن لفظه بالعبرانية كلفظه بالعربية إلا أداة التعريف فإنها بالعبرانية (هارحمان) والرحيم بالعبرانية (هارحوم). وهذه الكلمات الكثيرة المشتركة بين اللغات السامية هي أصلية في كل واحدة منها، لا يقال إن إحداهن أخذتها من الأخرى".

هذا عن اسم "الرحمان"، أما عن الفرق بينه وبين لفظ "الرحيم" فقد أكد جميع المفسرين أن لفظ "الرحمان" يستقي معناه الشرعي من قوله تعالى: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (الأعراف-156) ولذلك "لا يطلق الرحمن إلا على الله تعالى من حيث إن معناه لا يصح إلا له". أما الرحيم فيستعمل فيه وفي غيره، وأن معناه هو "مَن كثرت رحمته". قال تعالى: "إن الله غفور رحيم" (كثير المغفرة كثير الرحمة- البقرة 182)، وقال في صفة النبي صلى الله عليه وسلم: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، غَزِيْرٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُمْ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة-128)

والذي يبدو لي من هذا الذي أوردناه، وأيضاً من استقراء أي الذكر الحكيم، هو أن "الرحمان" اسم للذات بينما الرحيم اسم للفعل. ومع أن كليهما من صيغ المبالغة لكن جهة المبالغة تختلف فيهما: فالمبالغة في فعلان، مثل غضبان وعطشان، تفيد الامتلاء والغلبة، امتلاء الذات بتلك الصفة إلى الدرجة التي تجعل منها جزءاً من ماهيتها. أما مبالغة فعل كرحيم وكريم فتفيد الكثرة والتكرار-تكرار فعل الرحمة والكرم. فهي إذن من صفات الفعل.

الرحمان اسم ذات ولا يطلق إلا على الله تعالى، فكيف نرتب علاقته مع اسم الجلالة "الله" وهو أيضاً اسم ذات؟ يجيب الفخر الرازي عن هذا السؤال في مستهل تفسيره لسورة الرحمان فيقول: "إن الفرق بين اسم "الله" واسم "الرحمان" كالفرق بين الاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول، كما في قولنا: عمر الفاروق، وعلي المرتضى، وموسى الرضا، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعروفة لهم، التي كانت لهم وصفاً، وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارق الوصف يقال له ذلك كالعالم. فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصاً بأولئك".

هذا وقد ورد لفظ "الرحمان" في القرآن 48 مرة منفرداً بمعنى الرب، الله، كما في الآيات التالية: "إِنَّمَا تَنْذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ". "قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَكْذِبُونَ". "أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرْذِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون". "قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ" (يس 11 و 52). كما ورد مقترباً بـ "الرحيم" في البسمللة والفاتحة وفي قوله تعالى: "حم، تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" (فصلت 1-3)، وفي قوله: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (الحشر 22) الخ.

أما لفظ "الرحيم" فلم يرد منفرداً في أية آية بل يسبقه دوماً اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته، مثل "الغَرِيزُ الرَّحِيمُ" (يس-5) وقد تكرر، و"الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (القصص 16)، و"التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" (البقرة 37) تكرر. والْبَرُّ (اللطيف) الرَّحِيمُ (الطور 28)، و"الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" (سبا 2) (5).

الرحمة ...

وأما لفظ "الرَّحْمَةُ" فيدل في اللغة: على "الرَّقَّةَ والتَّعَطُّفَ، والسرَّحمةً مثله، وتَرَاخَمَ الْقَوْمُ: رَحِمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. والرَّحْمَةُ: السِّمْفَرَةُ". أما في القرآن فيقول عنه صاحب مفردات القرآن (الراغب الإصبهاني): والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو: رحم الله فلاناً. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلا الإحسان المجرد دون الرقة، وعلى هذا روي أن الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف. قال رسول الله (ص): "قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته"، فذلك إشارة إلى ما تقدم، وهو أن الرحمة منطقية على معنيين: الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة، وتفرَّد بالإحسان، فصار كما أن لفظ الرحم من الرحمة، فمعناه الموجود في الناس من المعنى الموجود لله تعالى، فتناسب معناهما تناسب لفظيهما ... وقال

5- هنا ورد "الرحيم"، أولاً، على غير العادة وذلك في قوله تعالى: "يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ". ولم أطلع على مفسر انتبه إلى هذا القلب سوى الفخر الرازي الذي فسر هذه الآيات كما يلي: "قدم ما يلج في الأرض على ما ينزل من السماء، لأن الحبة تبذر أولاً ثم تسقى ثانياً". وقال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ومرتبته النفوس الزكية وهذا لأن كلمة "إلى" للغاية" وأضاف الرازي "قال: "هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ": رحيم بالإنزال حيث ينزل الرزق من السماء، غفور عندما تعرج إليه الأرواح والأعمال، فرحم أولاً بالإنزال وغفر ثانياً عند العروج". وإن فقله "الرحيم الغفور" بدل "الغفور الرحيم" قد جاء متناغماً مع ما سبق.

تعالى في صفة النبي (ص): "قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم (شديد عليه ما تلاقونه من مكروه)، حريص عليكم، بالمؤمنين رءوف رحيم" (التوبة-128). وقيل: إن الله تعالى: هو رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين، وعلى هذا قال: "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون" (الأعراف-156)، تنبيها إلى أنها في الدنيا عامة للمؤمنين والكافرين؛ وفي الآخرة مختصة بالمؤمنين". بعبارة أخرى: إن الرحمان بوصفه اسم ذات، بوصفه ماهية وجودا، فمعنى الرحمة فيه وهو الإحسان، لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة، وأما الرحيم فيما أنه اسم فعل فهو خاص بالجزاء : رحيم بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ثوابا لهم، ولكنه غير رحيم بالكافرين في الآخرة لأنهم رفضوا الإيمان في الدنيا فحرّموا من ثوابه في الآخرة. وهذا هو معنى الاستثناء في الآية : "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون". سيكتبها : ستكون ملازمة لهم كمالزمة الأمور الحتمية، لأنهم استحقوها بتقواهم. أما الذين لا يتقون، فهم يرفضهم التقوى يرفضون المغفرة والرحمة.

هذا المعنى يجب استحضاره لأنه هو الذي يعطي معنى للعقاب الإلهي في الدنيا والآخرة. الله رحمان رحيم بالنسبة للذين يقبلون الرحمة، ويعملون من أجلها هي والمغفرة، أما الذين يرفضون الاستجابة لمتطلبات الرحمة : لا يؤمنون بأن الله رحمان رحيم ولا يمارسون الرحمة في الدنيا على مستواهم واستطاعتهم وفق مبدأ : "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، فهؤلاء قد رفضوا بناء أية علاقة مع رحمة الله وبالتالي سيحرمون منها. هنا تنسحب الرحمة لأنها فقدت موجبها ولا يبقى إلا الجزاء على الأفعال والنوايا. والجزاء لمن رفض الرحمة وامتنع عن اتباع سبيلها هو العقاب.

هنا سنحل محل صفة الرحمة صفات أخرى، صفات القوة والبطش والانتقام. وستكرر، مكان عبارات "الرب الودود"، و"الرب الغفور ذو الرحمة"، و"الغفور الرحيم"، و"اللطيف بعباده" الخ، عبارات أخرى: "القوي العزيز"، "شديد العذاب"، "عزيز ذو انتقام"، "المهيمن العزيز الجبار المتكبر" الخ. إنها مفردات خطاب ستسود في المرحلة التالية من تطور الدعوة المحمدية، مرحلة الرد على المشركين ومقاومة سخرياتهم واستهزاءاتهم، مرحلة الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

المرحلة الثانية

البعث الجزاء ومشاهد القيامة

استهلال

ينتقل بنا خطاب القرآن المكي، في هذه المرحلة:

- 1- صعيد الموضوع: من التركيز على محور التوحيد (النبوة والربوبية والألوهية) إلى التركيز على محور البعث والجزاء.
 - 2- أما على صعيد أسلوب الخطاب ومنهجيته فالانتقال سيكون من تأكيد نبوة محمد عليه السلام وتسليته وتثبيت فؤاده من جهة، ومن إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته بالدعوة إلى تأمل نظام الكون ككل، من جهة أخرى، إلى تأكيد البعث ورسم مشاهد متنوعة لقيام الساعة وما يتلوها من حساب فتواب أو عقاب. إن الأمر يتعلق بالانتقال من خطاب التسلية والتثبيت والتعامل مع قريش بأسلوب "إياك أعني واسمعي يا جارة"، إلى خطاب الوعد والوعيد وتحميل المسؤولية.
- بعبارة أخرى: إذا كان الحديث عن النبوة والربوبية والألوهية والحياة الأخرى، حاضرا باستمرار في القرآن ككل، فإن ما تتميز به سور هذه المرحلة الثانية من مسار التنزيل وتطور الدعوة، هو أنها ستهتم بشكل لافت للنظر بموضوع المعاد. أما لماذا الانتقال إلى التركيز على هذا الموضوع، فذلك ما سيتبين خلال تتبعنا للمسيرة القرآنية خلال هذه المرحلة.

28- سورة القارعة

تقديم

قيل : القارعة والواقعة والحاقة معناها: القيامة. وهي أسماء لسور. لم يرد أي شيء حول هذه السورة، سوى ترتيبها على لوائح النزول في رتبة 29 عند بعضهم ر 30 عن آخرين، وهي في الحالتين تلي سورة قريش. وكل ما يمكن قوله كتقديم لها هو أنها اقتصررت على تعريف القيامة مبرزة هولها وبيان المصير بعد الحساب، إما إلى الجنة وإما إلى النار. فهي إذن بمثابة مدخل لموضوع هذه المرحلة.

- نص السورة

1- قيام القيام حادثة مهولة، شديدة الهول.

بسم الله الرحمن الرحيم
الْقَارِعَةُ¹ مَا الْقَارِعَةُ² (قيام الساعة)؟ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ³ (ما أعظمها وأشدّها فهي تفرع النفوس بأهوالها، هي) : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ⁴ (المفرق المتراحم)، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ⁵ (كالصوف المفتت).

2- يلي ذلك الثواب والعقاب:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ⁶ (كثرت حسناته)، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ⁷. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ⁸ (قلّت حسناته وكثرت سيئاته)، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ⁹ (مصيره جهنم)⁽¹⁾. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ¹⁰ (ما هي؟ هي:) نَارٌ حَامِيَةٌ¹¹.

- تعليق

تتميز هذه السورة بكونها خاصة بالتعريف بموضوع واحد هو يوم "قيام الساعة" مبرزة هول مشهده من خلال تشبيه حالة الإنسان خلاله بالفراش المنتشر

1- قيل: كان الرجل إذا وقع في أمر شديد، قالوا: هوت أمه.

الذي يتحرك على غير هدى من جهة، وتشبيه حالة الجبال بالصوف المفتت. ثم تنتقل السورة من لحظة البداية إلى لحظة النهاية وهي المصير النهائي بعد الحساب، ولا شيء غير ذلك. والسور التالية لهذه ستفصل القول فيما أوجزته هذه السورة.

وفي تشبيه بليغ، مليء بالدلالة يصور الرسول عليه السلام موقفه -وقد جاءه القرآن لينذر ويبشر بهدف تجنيب الناس الوقوع في الهاوية (النار الحامية) عند قيام الساعة- كما يلي: قال: "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجُنَادُ² (صغار الجراد) وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذِيهُنَّ عَنْهَا. وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ. وَأَنْتُمْ تَقْلَتُونَ مِنْ يَدِي" (رواه مسلم).

29- سورة الزلزلة

- تقديم

صنفت هذه السورة في المصحف مع السور المدنية (رتبة 93). لكن معظم المصادر وكثير من المفسرين يعتبرونها مكية (ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وجابر وعطاء والضحاك... والبغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري الخ). ونحن قد رجحنا هذا الرأي باعتبار موضوع السورة وأسلوبها، وقد وضعناها في هذا الموقع للشبه الكبير بينها وبين السورة السابقة. ولا بد من التنبيه إلى أن التعديلات البسيطة التي نجريها من حين لآخر على لائحة ترتيب النزول المعتمد نلتزم فيها ما ورد من روايات تفرض هذا التعديل.

ومهما يكن وسواء عملنا بهذه التعديلات أو لم نعمل بها، فمسار ترتيب النزول يبقى هو هو، وبالتالي فالانتقال من مجموعة السور السابقة إلى هذه المجموعة وإلى التي ستلونها، واختصاص كل مجموعة بمحور معين هو ما يعطيه ترتيب النزول في جميع اللوائح.

وبعبارة أخرى فإذا كان القارئ قد لاحظ وجود نوع من المنطق الداخلي في تتابع السور، غير ترتيب النزول المروي، فإن هذا المنطق ليس من عندنا، ولا هو من عند واضعي لوائح ترتيب النزول الذين اعتمدوا في عملهم على المرويات، بل هو منطق داخلي لعملية نزول القرآن منجما حسب مقتضى الأحوال. دليل ذلك أن واضعي ترتيب النزول صنفوا هذه السورة مع القرآن المدني مع أن وضعها المنطقي يفرض وضعها مع القرآن المكي وفي الرتبة التي حددناها لها -تقريبا.

- نص السورة

1- مشهد قيام الساعة

بسم الله الرحمن الرحيم
إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا² (ما في جوفها والمقصود: من في القبور)، وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا³ (ما الذي جرى بها)، يَوْمَئِذٍ

تُحَدَّثُ أَخْبَارَهَا⁴، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا⁵ (أمرها أن تتحرك وتترزّل، كمظهر من مظاهر قيام الساعة).

2- الجزء

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ (يُخْرَجُ) النَّاسُ أَشْتَاتًا (متفرقين) لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ⁶ (ليحاسبوا)، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ⁷ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ⁸.

تعليق

أثار المفسرون نقاشا واسعا حول معنى قوله تعالى: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ". والإشكال المطروح هو التالي: هل يعم هذا القول المؤمن والكافر سواء بسواء؟ فإذا كان مفهوما أن المؤمن سيُثاب في الآخرة على كل عمل قام به في الدنيا فهل سيعاقب في الآخرة على كل ذرة شر قام بها؟ وإذا كان مفهوما أن الكافر سيعاقب يوم القيامة على كل ذرة من أعمال الشر قام بها في الدنيا فهل سيثاب يوم القيامة على ما فعل من خير في الدنيا؟ منهم من قال: "ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرا ولا شرا في الدنيا، إلا أنه الله إياه : فأما المؤمن فيُريه حسناته وسيناته، فيغفر الله له سيناته. وأما الكافر فيُرى حسناته، ويعذبه بسيناته". ومنهم من قال: "من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يَر ثوابه في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا، وليس له عنده خير، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، من مؤمن، يَر عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده، حتى يخرج من الدنيا وليس عنده شيء".

ويروون في ذلك حديثا للنبي عليه السلام مفاده "أن أبا بكر رضي الله عنه كان يأكل مع النبي (ص)، فنزلت هذه الآية: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" فرفع أبو بكر يده من الطعام، وقال: يا رسول الله إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: "يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا ممّا تَكْرَهُ فَمُتَأَقِّلْ (جمع مثقال) ذَرَّ الشَّرِّ، وَيَذْخِرْ لَكَ اللَّهُ مَتَأَقِّلِ الْخَيْرِ حَتَّى يَتَوَفَّاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ". ومعنى هذا أن سينات المؤمن يقع الاقتصاص منها في الدنيا، بما يلحقه من مكاره، أما حسناته فتبقى محفوظة إلى يوم القيامة. وفي رواية أخرى أن جواب النبي كان كما يلي: "لَوْ لَا أَنْكُمْ تُخْطِئُونَ وَتُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، لَخَلَقَ اللَّهُ أُمَّةً يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ". ويرون تصديق ذلك في قوله تعالى: "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ" (الشورى 30). كما يروون عن عائشة أنها قالت: "قلت: يا

رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

ويعلق الطبري على هذه "الأخبار" التي أوردتها بقوله: "فهذه الأخبار عن رسول الله (ص) تنبئ عن أن المؤمن إنما يرى عقوبة سيئاته في الدنيا، وثواب حسناته في الآخرة، وأن الكافر يرى ثواب حسناته في الدنيا، وعقوبة سيئاته في الآخرة، وأن الكافر لا ينفعه في الآخرة ما سلف له من إحسان في الدنيا مع كفره".

وهناك من حاول رفع الإشكال بالقول: إن حسنات الكافر تقلل من كفره، كما أن سيئات المؤمن تقلل من إيمانه"، "فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية". وبالعكس من هذا هناك من ارتأى تخصيص الآية بالقول: "فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره".

ونحن نرى أن أقرب الروايات إلى سياق السورة ومضمونها وعلاقتها بالسور السابقة هي رواية مقاتل بن سليمان التي ورد فيها: "نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل (يرى قليلاً) أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة، ويقول ما هذا بشيء، وإنما نؤجّر على ما نُعطي؛ وكان الآخر يتهاون بالذنوب اليسير، ويقول: لا شيء على من قام بهذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر، ولهذا قال عليه السلام: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

(تفسير مقاتل بن سليمان).

30- سورة القيامة

- تقديم

ذكر المفسرون والمؤلفون في أسباب النزول أكثر من رواية حول بعض آيات هذه السورة. منها أن قوله تعالى "أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ" قد نزل في عمر بن ربيعة وذلك أنه أتى النبي (ص) فقال: حدثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أمرها وحالتها؟ فأخبره النبي (ص) بذلك. فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أومن به! أو يجمع الله هذه العظام؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية. ومنها أن قوله: "أولى لك فأولى" نزل في أبي جهل. تقول الرواية كان أبو جهل، "يتمطى" (يتبختر) في مشيته، فأمسكه النبي عليه السلام ذات يوم وأخذه بمجامع ثيابه فقال له: "أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى"، فرد أبو جهل قائلاً: "يا محمد ما تستطيع أنت وربك في شينا، إني لأعز من مشى بين جبلتيها" (جبلي مكة). . وعنه أيضا قال: لما نزلت عليها تسعة عشر قال أبو جهل لقريش: تكلتكم أمهاتكم يخبركم ابن أبي كبشة أن خزنة جهنم تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم؟ ومهما يكن من اختلاف هذه الروايات فإن سياق السورة متصل بسياق التي قبلها والتي نزلت هي الأخرى في أشخاص من زعماء قريش.

- نص السورة

1- مقدمة: يوم القيامة، "قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بَنَاتَهُ؟"

بسم الله الرحمن الرحيم
لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ¹ (النفي لتأكيد الإثبات: يوم الحساب)، وَلَآ أَقْسِمُ
بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ² (التي تحاسب صاحبها)! أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ³
(حين البعث؟) بَلَى، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّي بَنَاتَهُ⁴ (أجزاءه الصغيرة. والسؤال وجوابه جواب القسم)

2- مشهد آخر من مشاهد القيامة

بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَهُ أَمَامَهُ⁵ (أَنْ يَواصِلَ تَكْذِيبَ الْبَعْثِ فِيمَضِيِّ فِيهِ فَجْورُهُ) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟⁶ (اسْتَهْزَاءً وَإِنْكَاراً، وَالْجَوَابُ:) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصِيرُ⁷ (نُهِتَ)، وَخَسَفَ الْقَمَرُ⁸، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ⁹ (ذَهَبَ ضَوْؤُهُمَا مَعاً)، يَقُولُ (هَذَا) الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ: أَيْنَ الْمَقَرُّ¹⁰ (مِنْ هَذَا الظُّلَامِ، مِنْ قِيَامِ السَّاعَةِ).

3- الحساب كائن، لا مجال للإنكار أو الاعتذار

كَلَّا، لَمْ يَزَلْ¹¹ (لَا مُلْجَأً)، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ¹² (الْمَأْبَى): يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ¹³؛ بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ¹⁴ (هُوَ نَفْسُهُ يَعْرِفُ مَا فَعَلَ)، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ¹⁵ (حَتَّى وَلَوْ التَّمَسَّ لِنَفْسِهِ أَعْذَارًا، يَقَالُ لَهُ وَهُوَ يَعْتَذِرُ وَيَتَلَعَّمُ حِينَ يَنْبَأُ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ): لَمْ تَحْرُكْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَفْجَلْ بِهِ¹⁶، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ¹⁷ (وَقِرَاءَتَهُ عَلَيْكَ)، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ¹⁸، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ¹⁹(¹): (يَقَالُ لَهُ فِي هَذَا الْبَيَانِ) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ²⁰، وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ²¹!

1- جل المفسرين على أن هاتين الآيات (16-19) عبارة عن جملة اعتراضية، ويفسرونها على ضوء روايات متعددة بنيت على هذه الآيات، ومفادها أن النبي كان يحرك لسانه أثناء نزول الوحي عليه، مكرراً ما ينزل خوف نسيانه، وأنه ربما كان يفعل الشيء نفسه أثناء نزول هذه السورة فجاءت الآية "لَمْ تَحْرُكْ بِهِ لِسَانُكَ لَتَفْجَلْ بِهِ..."، كجملة اعتراضية تطلب منه أن يمسك عن ذلك. ثم تواصلت السورة مستمرة في سياقها الأصلي. غير أن هذا التأويل الذي أخذنا به في (التعريف بالقرآن الكريم) محل نظر: فالمفروض أن النبي عليه السلام كان يأمر بوضع كل آية في سورة يسميها لكتاب الوحي، ثم إنه كان يراجع القرآن حتى لا يكون هناك قلق في عباراته، كما هو الحال هنا مع هذه "الجملة الاعتراضية". من أجل ذلك نرجح رأي القفال كما ذكره الفخر الرازي في تفسيره. قال: "إن قوله: "لَمْ تَحْرُكْ بِهِ لِسَانُكَ" ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: "يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ" (القيامة: 13)، فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله وذلك بأن يعرض عليه كتابه فيقال له: "اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا" (الإسراء: 14)، فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدة الخوف وسرعة القراءة، فيقال له لا تحرك به لسانك لتعجل به، فإنه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجتمع عملك عليك وأن نقرأه عليك، فإذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بآتك فعلت ذلك، ثم إن علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته". وأضاف القفال: "فهذا وجه حسن، ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به". ونحن نرجح هذا التفسير ليس فقط لأنه يعالج قلق العبارة الذي تحدثه مثل هذه "الجملة الاعتراضية"، بل أيضاً لأنه يحافظ على وحدة السياق بين السابق واللاحق، بين قوله: "ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ" وقوله: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ" ... فالبيان الذي سيعطى لهم هو أنهم كانوا يحبون الدنيا ويفضلونها على الآخرة...

4- فرحون وخائفون ... جزاء على سلوكهم

وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ²²، إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ²³ (2)، وَوَجُودَ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٌ²⁴ (كالحلة من شدة الخوف)، تَنْظُرُ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ²⁵ (أن يكون مصيرها داهية عظيمة). كُلًّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي²⁶ (إِذَا بَلَغَ النَّفْسَ أَعْلَى الْحَجَرَةِ وَبَدَأَتِ الْحَشْرَةَ)، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ²⁷ (هل هناك من يكتب رقية لعلاج)، وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ²⁸ (وتيقن أنه الموت)، وَالتَّتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ²⁹ (ساقا رجله، تيقن أنه)، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ³⁰ (يساق إلى الحساب، وسيتبين أنه): فَلَا صَدَقَ (لِمَ يَكُنْ يَصْدُقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ) وَلَمَّا صَلَّى³¹ (ولم يكن يدعو الله)، وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى³² (كذب بالقرآن وأعرض عنه)، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى³³ (يتبختر. هذا الرجل نقول له): أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى³⁴، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى³⁵ (ويل له، ثم ويل له).

5- خاتمة: الذي خلقه أول مرة ... يعيده إلى الحياة بعد

الممات

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى³⁶ (أن يهمل، فلا يحاسب)، أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْنَى³⁷، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى³⁸ (خلق الله منها الجنين وسوى تكوينه)، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى³⁹، أَلَيْسَ ذَلِكَ (الله الذي فعل هذا) بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى⁴⁰؟ (أليس من خلق الإنسان أول مرة بقادر على أن يحييه بعد موته).

- تعليق:

مسألة الرؤية

قوله تعالى: "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" (أي أن أهل الجنة ستكون وجوههم يوم القيامة "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ")، موضوع اختلاف كبير بين المعتزلة وأهل السنة بما فيهم الأشاعرة. ذلك أن نظرية التوحيد عند المعتزلة تقتضي نفي الصفات، أي عدم وصف الله بصفة زائدة عن ذاته، لأن ذلك يقتضي أن يكون موصوفا بها منذ الأزل، إذ لا يلحقه التغير من أي وجه، واتصافه بها منذ الأزل معناه أنها قديمة مثله، وهذا يؤدي إلى تعدد القدماء وهو الشرك بعينه.

2 - تأويل هذه الآية موضوع خلاف بين المعتزلة من الأشاعرة وغيرهم. انظر التعليق.

ولذلك قالوا صفات الله هي عين ذاته، وذاته ليست جسمية وبالتالي لا يمكن أن تكون موضوعاً للرؤية البصرية. ومن هنا قالوا بضرورة تأويل قوله تعالى "إلى ربها ناظرة" تأويلاً ينزهه عن أن يكون موضوعاً للرؤية البصرية التي هي خاصة بالمحسوسات، فقالوا: إن معنى "ناظرة" هو: منتظرة، بمعنى تنتظر ثواب ربها. وهذه المسألة تسمى في علم الكلام بـ"مسألة الرؤية". وقد عرض الرازي المتكلم الأشعري لهذه المسألة فسرده حجج المعتزلة ثم رد عليها. نلتعرف على ذلك أولاً ثم نقول رأينا في الموضوع. يمكن تلخيص ما قاله الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية كما يلي، قال:

"اعلم أن جمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فيعترضون على ذلك بحجج من الاستعمال اللغوي وبأخرى من التأويل: فعلى المستوى الأول قالوا: النظر المقرون بحرف "إلى" ليس اسماً للرؤية، بل لمقدمة الرؤية، وهي تقلاب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، ونظر العين بالنسبة إلى الرؤية كنظر القلب بالنسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنسبة إلى السماع.

قالوا: والذي يدل على أن النظر ليس اسماً للرؤية: قوله تعالى: "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" (الأعراف 198): أثبت النظر حال عدم الرؤية، فدل على أن النظر غير الرؤية. ثم إن النظر يوصف بما لا توصف به الرؤية، يقال: نظر إليه نظراً شزراً، ونظر غضبان، ونظر راض، وكل ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدل على هذه الأحوال، ولا توصف الرؤية بشيء من ذلك، فلا يقال: رآه شزراً، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض. كما يقال انظر إليه حتى تراه، ونظرت إليه فرأيت، وهذا يفيد كون الرؤية غاية للنظر، وذلك يوجب الفرق بين النظر والرؤية. يقال أيضاً: دور فلان متناظرة، أي متقابلة، فسمى النظر حاصل ههنا، ومسمى الرؤية غير حاصل. وبناء على ذلك يكون قوله تعالى: "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" معناه عند المعتزلة: أنها تنظر إلى ربها خاصة، ولا تنظر إلى غيره. ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في موقف القيامة، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم لأنهم الآمنون الذين "لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (يونس 62). فلما دلت الآية على أن النظر ليس إلا إلى الله، ودل العقل على أنهم يرون غير الله، علمت أن المراد من النظر إلى الله ليس هو الرؤية. يؤيد ذلك قوله تعالى: "وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (آل عمران 77) ولو قال: لا يراهم كفي، فلما نفى النظر، ولم ينف الرؤية دل على المغايرة، فثبت بهذه الوجود، أن النظر المذكور في هذه الآية ليس هو الرؤية". ذلك ما يستدل به المعتزلة من المنقول لإثبات رأيهم.

أما ما يثبتون به المسألة نفسها على مستوى التأويل، مستوى المعقول :
فيعرضه الرازي قائلا: "هو من وجهين الأول:

أن يكون الناظر بمعنى المنتظر، أي أولئك الأقوام ينتظرون ثواب الله، كقوله تعالى: "فَنَظَرِيَّةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" (النمل 35) أي منتظرة، وقوله: "وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ" (البقرة 280) أي في انتظار المسيرة.

الوجه الثاني لاستدلال المعتزلة عقليا: أن يضرر المضاف، والمعنى : إلى ثواب ربها نازلة.

والوجه الثالث من التأويل: أن يكون معنى: "إِلَى رَبِّهَا نَظَرَةٌ" أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: "اعبد الله كأنك تراه"، فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه.

يرد الرازي على هذه الحجج بحجج أخرى:
الأولى: ما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام وهو قوله: "أَنْتَظِرُ إِلَيْكَ" (الأعراف 143) فلو كان النظر عبارة عن تقلب الحدقة إلى جانب المرئي، لاقتضت الآية أن موسى عليه السلام أثبت لله تعالى وجهة ومكانا وذلك محال.
الثانية: أنه جعل النظر أمراً مرتباً على الإرادة فيكون النظر متأخراً عن الإرادة، وتقلب الحدقة غير متأخر عن الإرادة، فوجب أن يكون النظر عبارة عن تقلب الحدقة إلى جانب المرئي.

الحجة الثالثة: إذا سلمنا أن النظر عبارة عن تقلب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، فإنه لما تعذر حمله على حقيقته وجب حمله على مسببه وهو الرؤية، إطلاقاً لاسم السبب على المسبب، وحمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار، لأن تقلب الحدقة كالسبب للرؤية، ولا تعلق بينه وبين الانتظار، فكان حمله على الرؤية أولى من حمله على الانتظار. ومع أن النظر الوارد بمعنى الانتظار كثير في القرآن، لكنه لم يقرن البتة بحرف "إلى" كقوله تعالى: "انظُرْنَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ" (الحديد 13) وقوله: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ" (الأعراف 53) وقوله: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ" (البقرة: 210).

ويضيف الرازي: والذي ندعيه أن النظر المقرون بحرف إلى، المُعْدَى إلى الوجوه، ليس إلا بمعنى الرؤية أو بالمعنى الذي يستعقب الرؤية ظاهر، فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعا للاشتراك... أما القول بأن المقصود هو انتظار ثواب ربها فهذا ترك للظاهر.

ذلك هو "كلام" المعتزلة والأشاعرة في مسألة الرؤية. أما نحن فنرى أن الذي أدى إلى الانسياق مع هذا النوع من "الكلام" هو الانغلاق في الألفاظ وإهمال السياق. ذلك أن قوله تعالى : "وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ"، ليس قولاً مستقلاً معزولاً، بل هو مرتبط بما بعده أعني قوله : "وَجُودَ يَوْمَئِذٍ بِأَسِرَةٍ، تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ": فلفظ "ناضرة" يقابله لفظ "بأسرة" أي ضده (وهو كالحة)، كما أن لفظ "ناظرة" يقابله لفظ "فاقرة" بمعنى: عقاب. وغني عن البيان القول :إن انتظار العقاب ضده انتظار الثواب. وإذن فالسياق التقابلي يقتضي أن يكون مقابل "أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ" (العقاب) هو "إلى ربها ناظرة": "تنتظر ثواب ربها". وهناك من المعتزلة من اقترح قراءة عبارة "إلى ربها ناظرة" هكذا: "آلاء ربها ناظرة"، أي تنتظر نعم ربها! ولكن الانتقال من "إلى" إلى "آلاء" يصعب تبريره، حتى ولو استحضرنا اختلاف القراءات، وعدم التنقيط في الكتابة العربية.

31- سورة الهمزة

- تقديم

ذكر المفسرون أن سورة "الهمزة" هذه قد نزلت في واحد -أو أكثر- من زعماء قريش ممن كانوا يقومون بحرب نفسية -بتعبيرنا المعاصر- على النبي وأصحابه، بغية إفساد العلاقات بينهم وزرع الشك في نفوس بعضهم ضد بعض. وربما كان هؤلاء المحاربون للدعوة المحمدية يؤجرون من يقوم بنشر دعايات من هذا القبيل، لورود الإشارة إلى المال مباشرة بعد ذكر الهمزة للهمزة. وممن ذكر من هؤلاء أمية بن خلف. ففي السيرة لابن إسحاق : "كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله (ص) همزه ولمزه، فأنزل الله "ويل لكل همزة لمزة"، السورة كلها".

- نص السورة

1- وعيد للذين يحايون الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ (مغتَاب للناس) لُمَزَةٍ¹ (يعيب الناس)، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ²، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ³ (في الدنيا).

2- من مشاهد جهنم

كُلًّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ⁴ (سيقذف به يوم القيامة في نار جهنم)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ⁵! (تهويل)، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ⁶، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُتُوحَةِ⁷ (تستغرق الجسم كله حتى القلوب)، إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ⁸ (مغلقة)، فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ⁹ (مسندة بأعمدة: محكمة الإغلاق).

- تعليق

هذه السورة من سور هذه المرحلة بامتياز: ترد على شخص آذى النبي عليه السلام، انطلاقاً من مبدأ "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ"، وهو المبدأ الذي يحكم يوم الحساب. والهمز واللمز من أعمال السوء ولكن ثقلهما بالقياس إلى الكبائر، كالقتل مثلا، أشبه بثقل الذرة. لكن بما أن الهمز واللمز كان بقصد إيذاء النبي (ص) ومحاربة الدعوة فقد جاء العقاب في مستوى هذا القصد: "تار الله الموقدة" : جهنم.

32- سورة المرسلات

- تقديم

في البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : "بينما نحن مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة "وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا"، فَبَته لِيَتْلُوها وإني لأَتْلُها من فيه -وإن فاه لِرطب بها- إذ خرجت علينا حية! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: افْتَلُوها فابْتَدَرناها فسبقتنا فدخلت جحرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وَقِيَّتْ شَرَكُكُمْ كما وَقِيَّتْ شَرها. ومع أن هذا الخبر لا يتصل بمضمون السورة فإن تحديد مكان نزولها من طرف ابن مسعود يفيد أن ذلك حدث عندما كان النبي عليه السلام مختبئاً في منى مع بعض الصحابة. ولا يستبعد أن يكون ذلك قد حدث في هذه المرحلة التي بدأ يشتد فيها ضغط قريش على الرسول (ص). وهناك من المفسرين من قال إن آيات منها نزلت في المدينة، فعن مقاتل أنه قال : نزل قوله تعالى : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ" (الآية 48) في شأن وفد ثقيف حين أسلموا بعد غزوة هوازن وأتوا المدينة فأمرهم النبي بالصلاة، فقالوا: لا نَجْسِبِي (من جب سئم الناقة : قطعه) فأتها مسبة علينا. فقال لهم: لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود". وهذا ليست له علاقة مباشرة بنزول الآية، فالمقصود بالركوع في السورة هو الصلاة مطلقاً، وجواب النبي مستقل عن نزول السورة، ولا يتناقض مع كون السورة نزلت في مكة. والضمير في "وإذا قيل لهم" يعود هو والضمائر السابقة له على المشركين المكذبيين.

- نص السورة

1- مقدمة: إن ما توعدون به لواقع ...

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا¹ (الملائكة تحمل المعرفة: الوحي)، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا² (سريعة الحركة)، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا³ (تنشر أجنحتها)، فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا⁴ (تفرق بين الناس قاصدة الرسول)، فَالْمُنْفِيَاتِ نِفْثًا⁵ (القرآن)، عَذْرًا أَوْ نَذْرًا⁶ (إعذاراً أو

إنذاراً)، إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ⁷ (جواب القسم: أقسم بالوحي، وهو ينزل من السماء، بأن الحساب والعقاب واقع على المكذبين لا محالة، وذلك عند قيام الساعة التي سيكون مشهدها كالتالي).

2- كيف سيقع ما توعدون به ...

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ⁸ (ذهب ضياؤها)، وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ⁹ (شقت وصدعت)، وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ¹⁰ (فكانت فتاتاً)، وَإِذَا الرُّسُلُ وَقَّتْ¹¹ (بلغ ميقاتها الذي كانت تنتظره)، لَأَيُّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ¹² (لليوم الذي حدد أجلاً لاجتماعها للإدلاء بشهادتها)، لِيَوْمِ الْفَصْلِ¹³ (وهو يوم الحساب والجزاء)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ¹⁴! وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ¹⁵ (أكبر السوء ينزل يومئذ بالمكذبين بالبعث وبالرسالات: جواب الشرط).

3- الهلاك الذي كان مصير الأولين سيكون مصير قريش ...

أَلَمْ نَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ¹⁶ (الذين كذبوا رسلهم)، ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ¹⁷ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ¹⁸ (المشركين): وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ¹⁹. أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ²⁰ (نطفة ضعيفة)، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ²¹ (رحم المرأة)، إِلَى قَدَرٍ (وقت) مَّعْلُومٍ²²، فَفَقَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ²³ (حددنا وقت ميلاده ونحن القادرون على تقديره سلفاً)، وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ²⁴ (بأن الله هو الخالق). أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا²⁵ (وعاء)، أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا²⁶ (منازل للأحياء وقبوراً للأموات)، وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ (جبالاً ثابتات فيها)، وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فَرَاتًا²⁷ (عذبا من عيونها، وتلك كلها أدلة على وجود الله)، وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ²⁸ (بهذه النعم).

4- والويل بالمكذبين بجهنم

(عندما تقوم الساعة يقال لهؤلاء المكذبين) انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ²⁹ (إلى الحساب والعقاب)، انطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُنَاجٍ شَعْبٍ³⁰ (دخان جهنم المتشعب)، لَا ظَلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ³¹ (لا يقي لا من الحرارة ولا من الاحتراق)، إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ³² (خشب كان يقطع في الجاهلية ذراعاً وأقل أو أكثر، يُعَمَدُ به)، كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ³³ (قطع من النحاس)، وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ³⁴ (بالبعث). "هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ"³⁵ (لا يستطيعون الكلام من هول المشهد)، وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ³⁶، وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ³⁷ (بهذا اليوم). هَذَا يَوْمٌ

الْفَصْلُ جَمْعًاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ³⁸ (الذين قصصنا أحوالهم) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِي³⁹،
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ⁴⁰.

5- والويل للمكذبين بحنة النعيم

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ⁴¹ (ظلال أشجار وعيون أنهار)، وَقَوَائِكَ مِمَّا
يَشْتَهُونَ⁴²، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁴³، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ⁴⁴،
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ⁴⁵ (بما أخبرت به رسلي من نعيم الجنة).

6- خاتمة: والويل لكم أيها المكذبون برسالة محمد.

كُلُوا وَشَرَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ⁴⁶ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ⁴⁷. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
ارْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ⁴⁸ (لا يأتَمرون بأوامر الله)، وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ⁴⁹. فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ⁵⁰؟ (بعد هذا الذي سبق: حديث هذا القرآن).

- تعليق

واضح أن هذه السورة تنتمي بموضوعها وسياقها إلى السور السابقة وإن
كانت تتميز بلهجتها الحادة ضد المكذبين وتكرار الوعيد لهم "ويل للمكذبين". كما
تشارك مع السور السابقة في التمهيد لموضوعها بالقسم: قسم بالوحي وهو ينزل إلى
الرسول من السماء ليؤكد أن البعث الذي يكذب به مشركو مكة ووقع لا محالة؛ يلي
ذلك القسم رسم مشهد لقيام الساعة يؤكد أن المصير الذي حل بالأقوام الماضية التي
كذبت رسلها سيحل بالمكذبين بالرسول محمد (ص)، والله قادر على ذلك : فهو الذي
خلق الإنسان ورعاه في جميع أطوار حياته، وهو الذي خلق الأرض وجعلها منازل
للأحياء وقبوراً للأموات، وجعل فيها جبالات تحفظ توازنها وعيوناً من الماء العذب
يشرب منها الأحياء، وعندما تقوم القيامة ويتم الحساب ينقسم المبعوثون إلى فريقين،
فريق يدفع به نحو النار وفريق يقاد نحو الجنة.

هذا وقد اختلف المفسرون في الأشياء المقسم بها في هذه السورة. فريق
فسر "المرسلات" وما تلاها من الأوصاف المرتبطة بها تفسيراً حسياً فقال إن
المقصود بها "الرياح" الخ. وفريق فسرهما تفسيراً معنوياً فقال إن المقصود هم
"الملائكة". وقد رجحنا الرأي الأخير لأن قوله "فَالْمُفْقِيَاتِ ذِكْرًا، عَذْرًا أَوْ نُذْرًا" لا
يستقيم معناه بدون تكلف تأويل- إذا صرف لغير الملائكة. أما كلمة "عرفاً" فقد
فسرها بعضهم بعرف الفرس وبعضهم بـ "أمر الله ونهيه"، وقد اخترنا هذا الأخير،
باعتبار أن من معاني العرف في اللغة : المعرفة. وإذن فالمرسلات عرفاً: معاذ
الملائكة المرسلات بالمعرفة أي بالوحي.

33- سورة ق

- تقديم

لم يرد شيء حول مناسبة نزول هذه السورة، أما خطابها فيدور حول الموضوعات التالية: إنكار قريش للبعث بعد الموت وإبطال حجتهم: قالوا كيف يمكن أن نحيا من جديد بعد أن نكون قد متنا وتحولت أجسامنا إلى تراب؟ ويأتي الرد عليهم بأن الله يعلم ما يأكل التراب منهم بعد الموت، ولديه كتاب فيه كل شيء مكتوب ومحفوظ لا يفنى ولا يزول، بما في ذلك مقدار أجسامهم وشكلها الخ. هذا ما أخبرهم به في القرآن، ولكنهم عاندوا فكذبوه وأبوا الاعتراف بالبعث، مع أنهم يعترفون بالله وبكونه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض. فهم في الحقيقة في حيرة من الأمر: يعترفون بأن الله هو خالقهم في الدنيا، ولا يعترفون بأنه سيعيد خلقهم في الآخرة.

وتعود السورة فتنبهم إلى أن خروجهم من قبورهم بعد الموت ليوم الحساب ليس بأصعب من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات النبات الذي يحصدون، والشجر الذي من ثماره يقطفون، رزقا لهم، منه غذاؤهم. وكما جرت العادة في هذه السور، بل في القرآن كله، يأتي التذكير بالصيرورة التاريخية ليكمل شهادة نظام الطبيعة. وهكذا فكما أجرى الله الأشياء على سنة ونظام على مستوى الطبيعة فعل الشيء نفسه على مستوى مجرى حياة البشر: خلق الإنسان وبين له طريق الصواب وطريق الخطأ، وتركه يختار ويعمل إلى أن يحين وقت الحساب، فحينئذ يُبعث ليجزى خيرا إن كان الخير غالبا على ميزان أعماله، وشرأ إن كان الشر أغلب. أما المكذبون بالرسول، أولئك الذي كادوا لهم وعملوا على تصفيتهم، فقد جاءهم العقاب في الدنيا قبل الآخرة.

بعد ذلك تعود السورة إلى تفصيل القول في مشهد للبعث والحساب والجزاء، منطلقاً من تسجيل أفعال الناس في سجلات محفوظة، يؤتى بها يوم القيامة ليحاسبوا على أساسها: كل فرد يصطحبه الشيطان الذي وسوس له فأغراه في الدنيا ليتبرأ منه في الآخرة، ومعهما ثالث هو الملاك الحفيظ (المسجل) لأعمال الشخص المحاسب. بعد ذلك يصدر الحكم فيلقى بذلك الشخص إما في جهنم وإما تفتح أمامه أبواب الجنة.

وتختتم السورة بتوجيه الخطاب إلى الرسول عليه السلام توصيه بالصبر وتضرب له مثلاً بالله الذي خلق السماوات والأرض وما بينها في ستة أيام دون أن يشعر بالتعب ولا بالإعياء، فعلى الرسول أن يقتدي بالله، فلا ينبغي له أن يستسلم. وعليه أن ينتبه إلى أن شق الأرض وإخراج الموتى أحياء كما خلقهم أول مرة أسهل من خلق السماوات والأرض، عليه إذن أن ينتظر ويواصل أداء رسالته بصبر وثبات، فليس له أن يجبر أحداً على الإيمان بالقوة، وإنما عليه أن يواصل مهمته، مهمة الإنذار والتبشير اعتماداً على القرآن وما فيه من وعد ووعد.

- نص السورة

1- مقدمة: قریش تنكر البعث ...

بسم الله الرحمن الرحيم
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ¹ (عالي القدر. وجواب القسم مضمر: لتبعثن!) بَلْ عَجِبُوا (قریش) أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ (هو محمد) فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا (الذي ينذرنا به محمد من البعث والقيامة) شَيْءٌ عَجِيبٌ!² أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ³ (نأ، مسافة طويلة بين تحولنا إلى تراب بعد الموت وبين رجوعنا أحياء بعد ذلك؟ والجواب:)

2- أفلم ينظروا إلى خلق السماء والأرض ...

فَذَعَلْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ (ما يأكله التراب من أجسامهم بعد الموت) وَعَدَدْنَا كِتَابَ حَقِيقَةٍ⁴ (كل شيء فيه محفوظ؛ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ (الذي في القرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ (ينذرهم بالبعث) فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ⁵ (ملتبس مختلط). أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ⁶ (من صدع أو فتوق!) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ (جبالا تجعلها راسية هادئة) وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ⁷ (حسن!) تَبْصِيرَةً (تنبیها) وَذِكْرَى (عبرة) لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ⁸ (مجيب). وَزَلَّلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ⁹ (القمح والشعير)، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ (طوال) لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ¹⁰ (هو ثمرها قبل أن يخرج من غلافه ويكون كالأسنان منضداً بعضه إزاء بعض) -رِزْقًا لِلْعِبَادِ- وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا (أرضاً قاحلة)، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ¹¹ (كذلك نخرجكم من قبوركم).

3- أقوام كذبت الرسل فحق عليهم الوعيد

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، وَأَصْحَابُ الرَّسِّ (=البئر: قوم دسوا نبيهم في بئر) وَتَمُودُ¹²، وَعَادٌ، وَفِرْعَوْنُ، وَإِخْوَانُ لُوطٍ¹³، وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ (الشجر الكثيف، بجانب مدين)، وَقَوْمُ ثَبَعٍ (رجل من اليمن كان قومه يعبدون الأوثان، فصلح أمره هو)، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ¹⁴ (أن يكون مصيرهم جهنم). أَفَعَيَّنَا (أتعينا وعجزنا) بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ (في الدنيا)؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ (حيرة) مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ¹⁵ (في الآخرة).

4- أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ : مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ¹⁶: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ (ملكان) عَنِ الْيَمِينِ (يتلقى الحسنات ويكتبها) وَعَنِ الشَّمَالِ (يتلقى السيئات، كل منهما) قَعِيدٌ¹⁷ (راصد)! مَا يَلْفِظُ (الإنسان) مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْنَهُ رَقِيبٌ عَنِيدٌ¹⁸ (مقتدر). وَجَاءَتْ (ستأتي) سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ (بانقضاء أجله فيقال له): ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ¹⁹ (تهرب، أيها الإنسان). وَنَفِخَ فِي الصُّورِ (فقامت القيامة) ذَلِكَ يَوْمَ (تنفيذ) الْوَعِيدِ²⁰، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ (سائقها: شيطانها) وَشَهِيدٌ²¹ (يشهد عليها بما فعلت، هناك يقول الله له)، لَقَدْ كُنْتَ (أيها الإنسان) فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ (سجل أعمالك) فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ²² (حاد لا يكل: أنت ترى جيدا ما فعلت من سيئات). وَقَالَ قَرِينُهُ (سائقه - شيطانه - الذي كان يسوقه إلى طريق الضلال: ربي) هَذَا مَا لَدِيَّ عَنِيدٌ²³ (ما لدي عنه محفوظ. قال الله للقرين/السائق وللشاهد): أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ²⁴ : مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ²⁵، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ! فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ²⁶. قَالَ قَرِينُهُ (شيطانه) رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ²⁷. قَالَ (الله) لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ (أيها المشركون أنتم والموكلون بكم)، وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ²⁸ (سبق أن أذنتكم) ! مَا يُبْدِلُ الْفَوَلُ لَدِيَّ! وَمَا أَنَا بِظَنَّامٍ لِلْعَنِيدِ²⁹. يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ³⁰! وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ³¹ (قربت منهم)، هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ: لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٌ³² (لكل منكم حفيظ سجل أعماله، ويقال لهم). مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانََ الْغَيْبَ (قبل يوم القيامة) وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ³³ (مخلص)، (يقال لهم) انْخَلَوْهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ³⁴. لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ³⁵. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (أمة) هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ

بَطْشًا فَتَقَبَّوْا فِي الْبِلَادِ (بحثوا) هَلْ مِنْ مَحِيصٍ³⁶ (مُنْجٍ مِنَ الْهَلَاكِ)! إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (استمع لما أخبرنا به) وَهُوَ شَهِيدٌ³⁷ (واع متفهم).

5- خاتمة: الله خلق السماوات، ولم يتعب فلا يتعبك ما

يقولون ...

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ³⁸ (إعياء)، فَاصْبِرْ (يا محمد) عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ³⁹، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ⁴⁰ (بعد الغروب)⁽¹⁾. وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ⁴¹، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ (صيحة القيامة) بِالْحَقِّ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ⁴² (خروج أهل القبور). إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ⁴³، يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ⁴⁴ (نجمعهم بسهولة) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ (بمتسلط)! فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ⁴⁵.

- تعليق :

القسم بالحروف

تبتدئ هذه السور بالقسم: "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيد". والافتتاح بالقسم شيء ورد في السور المكية خاصة، وهو أنواع : أقسام بأسماء بعض الظواهر الكونية مثل الضحى، العصر، الشمس، الليل، الفجر، البروج، الطارق (النجم الثاقب)؛ وأقسام بأسماء بعض النباتات والأشجار مثل والتين والزيتون؛ أو بعض الحيوانات مثل العاديات (الخيول) والصفافات والنازعات والمرسلات والذاريات (عند من يعتبرها حيوانات)؛ وأقسام ببعض حروف الهجاء، مثل ق، ص، ن الخ. كما استعمل القرآن بعض الحروف كفواتح للسور. ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل لسور أربعة عشر حرفاً، تكرر بعضها ليرتفع عدد فواتح السور بالحروف إلى تسع وعشرين سورة، أغلبها سور مكية. فواتح بعض السور وردت بحرف واحد مثل ق، ص، وبعضها بحرفين مثل حم، طس، وبعضها بثلاثة أحرف مثل الم، الر، وبعضها

1 - ذكروا أن الصلاة كانت في مكة مرتين في اليوم : قبل غروب الشمس (أي العصر) وقبل طلوعها (أي الصبح).

بأربعة أحرف مثل المر، المص، وبعضها بخمسة أحرف وهي سورة كهيعص، وسورة حم عسق.

وقد ذهب المفسرون ومصادرهم كل مذهب في محاولة "الكشف" عن سر هذه الحروف التي وردت في فواتح السور، فكان منهم من قال: إنها فواتح سور، واكتفى بذلك؛ وكان منهم من قال: ذلك سر لا يعلمه إلا الله. وفي الطرف المقابل لهؤلاء نجد كثيرين اعتبروها رموزاً ففتحوا لأنفسهم مجالات للتخمين لا حصر لها ولا حد. لكن "التفسير الرمزي" كيفما كان نوعه سرعان ما يتضح فشله، لأن ما قد ينطبق على حرف أو حرفين يصعب تطبيقه على ثلاثة أحرف أو أربعة أو خمسة. وبمعنى آخر: إنه ليست هناك قاعدة "كلية" يمكن أن تنطبق على الحروف التي وردت كفواتح للسور.

ولعل أقرب ما قيل في هذه الحروف إلى الصواب هو أنها استعملت للتنبيه، تنبيه السامع وجلب اهتمامه، وأن العرب كانت تفعل ذلك، وأنه كان من عادتهم. ومما يرجح هذا أن الصحابة سألوا النبي (ص) عن كثير من الأشياء في القرآن ولكن لم يرد عنهم أنهم سألوا عن معنى هذه الحروف مع تكرارها وورودها على رأس كثير من السور. وأيضاً لو لم يكن ذلك من معهود العرب لأكره خصوم الدعوة المحمدية من قريش، وهم كانوا يبحثون عن كل ما يمكن أن يطعنوا به في القرآن. وفي هذا الصدد قال القاضي أبو بكر بن العربي: "لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم، بل تلا عليهم "حم فصلت" و"ص" وغيرهما فلم ينكروا ذلك مع تشوفهم إلى عشرة وحرصهم على زلة".

34- سورة البلد

- تقديم

من القَسَم بالقيامة والنفس اللوامة والقرآن المجيد ننتقل إلى القسم بمكة. لقد عالجت سورة "ق" مسألة البعث بتفصيل، وهي ترد على منكره من قريش جملة، دون تخصيص. وتأتي هذه السورة -البلد- لترد على شخص معين، يبدو منه أنه يخشى أن يكون ما يقوله محمد (ص) بشأن البعث والحساب صحيحا، فيريد أن يتوب عما صدر منه من أفعال منهي عنها ويتدارك أخرى مطلوبة، ولكنه لا يفعل ذلك بصدق وإخلاص. كان هذا الرجل من كبار أغنياء قريش ووجهاتهم، كان ذا مال وبنين. كان يظهر أنه يتصدق على الفقراء بينما هو في الواقع بخيل بماله، فكان قلبه يتأرجح ما بين الخوف من البعث والحساب والعقاب، وما بين حبه للمال وحرصه على جمعه.

لنقرأ السورة أولا، ثم نعود بعد إلى شرح حال هذا الرجل في التعليق.

- نص السورة

1- مقدمة: الإنسان في كبد!

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ¹ (مكة)⁽¹⁾، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ² (جملة اعتراضية)⁽²⁾،
وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ³ (3)، لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ⁴ (في مشاققة مع نفسه : جواب

1- سبق القسم بـ"هذا البلد الأمين" (مكة) في سورة التين أعلاه (رقم 26)

2- ذهب معظم المفسرين إلى القول إن المعنى هو : "أنت به (بهذا البلد) حلال لك تقتل فيه من أردت، وأسّر من أردت. حجّتهم في ذلك : اللغة، يقال "هو" حلّ، وهو حلال، وهو حرم، وهو حرام (الطبري). وهذا الرأي لا يستقيم، لأن السورة مكية وأن القول بأن مكة حلال للنبي عليه السلام يفعل فيها ما يشاء من الأسر والقتل الخ، لا معنى له قبل فتحها. ومن =

القسم): أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ؟⁵ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا⁶ (كثيرا في الكفارات، وهذا كذب)! أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ؟⁷ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ⁸، وَكَلَامًا وَسَفْتَيْنِ⁹، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ¹⁰ (طريق الخير وطريق الشر، ويوم القيامة ستنتطق جوارحه بما فعل).

2- اجتياز العقبة: تحرير رقبة

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ¹¹ (4) (لم يجتزها ولن يفعل)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ¹² (هل تعرفها؟ إنها)، فَكَّ رَقَبَةً¹³ (تحرير عبد)، أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْنَغَةٍ¹⁴ (يوم مجاعة)، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ¹⁵ (من الأقارب)، أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ¹⁶ (لا يملك إلا التراب)، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ¹⁷.

3- خاتمة: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ¹⁸ (الميامين)، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ¹⁹ (المشؤمين)، عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ²⁰ (مطبقة).

- تعليق

ركزت السورة كما رأينا على المسألة الاجتماعية، مع التفافة في خاتمتها إلى مسألة المعاد. ولعل هذه السور تركيزا على قضية العبيد والفقراء

أجل هذا قال بعضهم إن السورة مدنية، لكن وقع الاتفاق على أنها مكية. ونحن نميل مع الرأي القائل إن معنى "أنت حل بهذا البلد" هو "أنت مقيم فيه"، من الحل والترحال، مع أن هذا الرأي يقول عنه خصومه لا سند له من اللغة، إذ لا وجود في كتب اللغة لـ "الحل" بالكسر، بمعنى الإقامة، وإنما معناه من الحلال ضد الحرام. وإذا سلمنا بهذا فإن أقرب المعاني إلى مضمون السياق هو القول : إن عبارة "وأنت حل بهذا البلد" جملة اعتراضية، بمعنى وأنت مستباح الآن من طرف المشركين، يؤذونك، في هذا البلد الذي يحرم فيه الظلم...

3- اعتبر بعضهم "ما" حرف نفى ففسروا الآية بالقول : "الوالد: الذي يلد، وما ولد: العاقر الذي لا يولد له". ونحن لا نرى مبررا لصرف المعنى إلى العاقر. فالأصل هو المعنى= الظاهر أي عملية التناسل، وهي خلق متجدد. والمعنى المناسب للفظ "الوالد" في السياق هو إبراهيم باتي هذه المدينة، وبالتالي يكون "ما ولد" هو ذريته ابتداء من إسماعيل إلى محمد (ص).

4 - كثير من المفسرين قالوا إن المقصود بـ "العقبة" هي القيامة. وهي لم تقم بعد!؟ إن العقبة المعنية هنا لا تحتاج إلى تأويل إذ هي مشروحة بقوله: فك رقبة الخ أي: الكفارة.

والمساكين، وكانوا هم مادة الإسلام في هذه المرحلة من الدعوة. لقد جعلت السورة من هذه القضية السبيل الوحيد إلى "افتحام العقبة"، إلى النجاة، مع شرط الإيمان وما يستلزمه من التواصي بالصبر والمرحمة. النجاة في الدنيا بالعيش بضمير مرتاح، والنجاة في الآخرة بالاتضمام إلى صف الميامين، الذين وعدهم الله بالجنة والنعيم.

والواقع أن هذه السورة هي من السور التي تبدو للمستمع والقارئ واضحة المعنى بسيطة المبنى، ولكن ما أن يأخذ المرء في محاولة تحصيل معاني آياتها وتبين معقولة سياقها حتى يكتشف أن الأمر ليس بالسهولة التي تصور أول مرة. ولا شك أنه يندعش، إذا هو رجع إلى كتب التفسير، من تعدد التأويلات لكل لفظ من ألفاظها تقريبا، وهو تعدد تقف وراءه صعوبة اكتشاف معقولة العلاقة التي تربط بين الألفاظ والعبارات، أعني وجوه الاتصال فيما بينها.

من أجل ذلك كان لابد من "قراءة" هذه السور على ضوء ما قيل في سبب نزولها. ومع أن المفسرين الكبار يهتمون بذكر أسباب النزول، ويحاولون استقصاءها، إلا أن اهتمامهم باستقصاء معاني الألفاظ، كما يفعل أصحاب المعاجم، وذكر جميع التأويلات والافتراضات، دع عنك الميول المذهبية العقدية، كل ذلك يصرفهم، في معظم الأحوال، عن التركيز على فهم الألفاظ والعبارات داخل سياق السورة المدروسة، وفي إطار المرحلة التي تنتمي إليها هذه السورة من مراحل تدرج النزول.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشعر المرء إزاء هذه السورة، بما سبق أن نوهنا به، وهو أن كثيرا من الروايات التي تتحدث عن أسباب النزول تشي هي نفسها بما يطعن في صدقها، حتى أنها تبدو وكأنها إنما حيك من أجل "تفسير" لفظ أو عبارة. من ذلك مثلا الرواية التي تقول إن هذه السورة نزلت : "في رجل من بني جُمَحْ كان يقال له أَبُو الْأَشْدِين، وكان يأخذ الأديم العُكَاظِيَّ (جلد من عكاظ) فيجعله تحت قدميه، فيقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق الجلد ولا تزول قدماه!" وتضيف الرواية : "وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم..." وتروى هذه الحكاية كسبب نزول لسورة أخرى. وقيل نزلت في رجل من خصوم الدعوة المحمدية اسمه الأشد بن كلدة كان يقول إنه انفق أمواله في إيذاء محمد، وصرف الناس عنه... وقيل نزلت في رجل كان كلما ارتكب ذنبا جاء رسول الله وسأله ما عليه أن يفعل ليغفر الله له، فكان جواب النبي في كل مرة أن عليه أن يكفر بما يستوجب ذنبه من الكفارات، ولما كثر عليه ذلك قال مشتكيا: "لقد أهلك ما لا لبدا في الكفارات والتبعات منذ أطعت محمدا".

ومع أن الرواية الأخيرة يمكن الطعن فيها بسبب أن "الكفارات" لم تكن قد نزلت بعد، فإنه من الممكن أخذ "الكفارة" هنا بمعناها العام الذي ورد من قبل في سورة الفجر، أعني إتيان المال من أجل التزكية والتطهر : "الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى" (الفجر 18)، وفي هذه الحالة تكون هذه الرواية، في نظرنا، أولى بالقبول لأنها تنسجم إلى حد كبير مع منطوق ومفهوم آيات السورة. فالرجل الذي تتحدث عنه هذه السورة كان في "كبد"، كان في مُشاقّة مع نفسه، لم يستطع كبح جماح نفسه عن المعاصي، وكان يعتقد أن ماله قد جعل منه رجلاً قويا لا يقدر عليه أحد، فكان يأتي المعصية بعد الأخرى ثم يذهب يطلب الفتوى من النبي (ص) لدى كل ذنب فيأمره النبي بالكفارة، ثم يدعي أنه فعل ذلك، وهو كاذب يعتقد أنه غير مراقب. هذا في حين أن جميع أعضاء جسمه -تقول السورة- ستشهد عليه يوم القيامة: عينيه، شفتيه، عقله الذي يميز به بين طريق الخير وطريق الشر، وهو بكذبه اختار طريق الشر، وعقله شاهد عليه.

هذا الرجل يواصل ارتكاب الذنوب وفي نفس الوقت لا يتطهر منها ولا يستطيع التوبة والالتزام بها، يريد أن يتخلص من الذنب ولكنه لا يسترخص ما به يمكن محو الذنب. وهذه "عقبة"، أو كما نقول اليوم تناقض وجداني وأزمة نفسية. ولا يمكن اجتيازها إلا بالكفارة فهي وحدها تمحو الذنوب. والكفارة هنا أحد أمور: عتق عبد، أو إطعام يتيم من أقاربه، أو مسكين بلغ به الفقر أن صار ملتصقا بالتراب. ولكن الكفارة لا تكفي وحدها، فهي لا تؤدي وظيفتها إلا بالتوبة، أي بالتعهد بعدم الرجوع إلى ارتكاب تلك الذنوب... إلا إذا صار صاحبها من المؤمنين الذين يصبرون فلا ينساقون مع شهواتهم، والذين يتعاونون فيرحم بعضهم بعضا. هؤلاء هم الذين مصيرهم الجنة، أما غيرهم ممن لا يفعل ذلك فمصيرهم جهنم.

34م- سورة العلق (بقية)

- تقديم

سبق أن تحدثنا عن الآيات الأولى، من سورتي العلق والمدثر، التي كانت أول ما نزل منهما حسب ترتيب النزول، وكنا قد أخرجنا الكلام عن الآيات الباقيات فيهما، وهي القسم الأكبر منهما، إلى الرتبة التي تناسبها بناء على المرحلة التي ينتمي إليها مضمونها والتطورات التي عرفتھا الدعوة المحمدية. وهذا التأخير لا يعني الفصل بين أجزاء السورة الواحدة، فترتيب الآيات داخل السور توقيفي باتفاق الأغلبية من المفسرين والمؤلفين في علوم القرآن. غير أن هذا لا يغير شيئاً من واقع أن القرآن قد نزل منجماً، بشهادة القرآن نفسه⁽¹⁾؛ وهذا يعني أن فهم القرآن يتطلب استحضار هذه الخاصية. وإذا كان من غير الممكن تطبيق ذلك على جميع السور، فإن التمييز في السورتين المذكورتين بين الآيات التي كانت أول ما نزل، باتفاق المفسرين، وبين الآيات التالية لها، إجراء منهجي ضروري في الفهم الذي يطمح إلى مصاحبة القرآن كما نزل يتساق مع وقائع كفاح الرسول (ص) ومسار دعوته. وحفاظاً على وحدة كل من السورتين سنعرض هنا لنصوصهما كاملة كما هي في المصحف - وقد فعلنا الشيء نفسه عند تناولنا لآياتهما الأولى.

لقد أبرزنا في الآيات الخمس الأولى، من سورة العلق، مسألتين أساسيتين: الأولى هي أن الخطاب الإلهي ورد فيها باسم "الرب" ("اقرأ بسم ربك")، وكما رأينا فقد استمر استعمال هذا الاسم وحده إلى أن نزلت سورة الإخلاص جواباً على طلب قریش من النبي أن "ينسب ربه". أما المسألة الثانية فهي أن الآيات الخمس المذكورة قد رسمت ملامح العقيدة الإسلامية من خلال "الخلق من علق، والتعليم بالقلم". والمقصود خلق الإنسان وبالتحديد محمد عليه السلام، إشارة إلى أن ربه الذي خلقه هو نفسه الذي يعلمه "ما لم يعلم"، أي القرآن. أما القسم الثاني من السورة وهو الذي سنعرض له الآن فالخطاب فيه موجه إلى أحد خصوم الدعوة المحمدية، بأسلوب

1- انظر التعريف بالقرآن الفصل السادس فقرة 5-ب

ومضمون يرتفعان إلى مستوى الرتبة التي وضعناه فيها هنا على مستوى الجدل مع المكذبين من قريش.

- نص السورة

أ- القسم الأول من السورة وقد شرحناه سابقا (سورة العلق رقم 1)

بسم الله الرحمن الرحيم
أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، افْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" (1-5).

ب- القسم الثاني

1- طغيان أبي جهل...

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ (أبو جهل) لَيَطْغَىٰ⁶ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ⁷ (طغيان أبي جهل راجع إلى اعتزازه بثروته)، إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ⁸ (هو ينسى أن المآب في النهاية إلى الله حيث لا ينفعه ماله). أَرَأَيْتَ (يا للعجب) الَّذِي يَنْهَىٰ⁹ عَبْدًا (محمدا) إِذَا صَلَّىٰ¹⁰! (2) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ (هذا المصلي: محمد) عَلَىٰ الْهُدَىٰ¹¹ (على الطريق المستقيم) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ¹² (بالعمل الصالح)!

2- لا تطعه...

أَرَأَيْتَ (يا محمد) إِنْ كَذَّبَ (أبو جهل بالقرآن) وَتَوَلَّىٰ¹³ (وأعرض عن الدعوة) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ¹⁴ (وأن أعماله تسجل عليه)! كَلَّا لَنْ يَنْتَهَىٰ (إن لم يجعل حدا لإذايته) نَسْفَعُنْ بِالنَّاصِيَةِ¹⁵ (سنأخذه يوم القيامة من مقدمة رأسه ونلقي به في جهنم) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِنَةٍ¹⁶ (ذلك الرأس المملوء كذبا وضلالا، وحينئذ) فَلْيَذْغُ نَادِيَهُ¹⁷ (أتباعه ومناصريه)، سَتَذْغُ الزَّبَانِيَةُ¹⁸ (الملائكة خزنة جهنم). كَلَّا (أعرض عنه وواصل صلاتك)، لَأَن تَطِغَهُ، وَأَسْجُدَ وَاقْتَرِبَ¹⁹ (من الله).

2- يتعلق الأمر بالصلاة كما كانت قبل فرض الصلوات الخمس عند الإسراء.

- تعليق

واضح أن الفرق كبير بين آيات القسم الأول التي نزلت من هذه السورة عند بداية الوحي وبين هذه الآيات، سواء على صعيد الأسلوب أو على صعيد المضمون. ففي القسم الأول كان الخطاب إلى النبي (ص) لأول مرة يبلغه ابتداء الرسالة ("اقرأ باسم ربك")، أما في القسم الثاني فالخطاب إلى عدو للنبي ومكذب برسالته. ويتفق معظم المفسرين على أن المعنى هنا هو أبو جهل بن هشام، وهو من زعماء بني مخزوم المنافسين للهاشميين. وكان هذا الرجل من بين الذين آذوا النبي عليه السلام. كان ينهى الرسول عن الصلاة في المسجد الحرام، وكان الرسول يقاوم هذا الطغيان ويرد عليه بالقرآن. ومن المرويات في هذا الموضوع أن أبا جهل سأل أصحابه: "هل يُعْفَر محمد وجهه (يضعه فوق التراب: يسجد) بين أظهركم؟ فقل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب (أحكه على الأرض)، فأنزل الله "كلا إن الإنسان ليطغى" الآيات. وفي رواية أخرى أن الرسول (ص) كان يصلي فجاءه أبو جهل فنهاه، فأنزل الله "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى" إلى قوله كاذبة خاطئة". وفي أخرى أنه وجد النبي يصلي فقال له: ألم أنك عن هذا؟ فزجره النبي، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله فليدع ناديه سندع الزبانية". وواضح أن هذه الروايات المجزأة تتعلق بحادثة واحدة رويت فالتقط منها كل واحد من الرواة المذكورين العبارة التي ذكرها، وهي في مجموعها رد على أبي جهل.

34م2- سورة المدثر (بقية)

- تقديم:

كان سبب نزول القسم الأول من هذه السورة هو انقطاع الوحي وحزن النبي (ص) على ذلك (انظر المدثر رقم 2)، فجاءت آيات ذلك القسم لتواسيه ولتثبت فؤاده بالتأكيد على استمرار مهمته كرسول، وأن عليه أن يقوم فينذر... أما سبب نزول هذا القسم الثاني من السورة فشيء آخر. يقول ابن إسحاق: ثم إن الوليد بن المغيرة (زعيم بني مخزوم وكبيرهم) اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سين فيهم، وقد حضر الموسم (الموسم السنوي الذي يقام في مكة وتحضره القبائل العربية) فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (نبوة محمد عليه السلام)، فأجبعوا فيه رأياً واحداً (تجيبون به على من يسألكم من مرتادي السوق)، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً؛ قالوا: فأت يا أبا عبد شمس (اقترح علينا) فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن! قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (كلام) الكاهن ولا سجع. قالوا: فنقول: مجنون! قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر! قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه وبمبسطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر! قال: ما هو بساحر. لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: واللّه إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق (كالنخل) وإن فرعه نجاة (حلو كالتمر)، وما أنتم بقائلين من هذا (الذي اقترحتم) شيئاً إلا عرّف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر: جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. فنفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم، ولا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه (من النبي)، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: "ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا..." (يعني الآيات التي ندرجها في القسم الثاني أسفله):

- نص السورة

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبِّكَ فَكْبِّرْ، وَتَبَارَكَ فَطَهَّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَنَا تَمَنُّنٌ تَسْتَكْبِرُ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّافُورِ، فَذَلِكَ يَوْمُنَا يَوْمَ عَصِيرٍ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ. (1-10).

القسم الثاني

1- رد على الوليد بن المغيرة في قوله عن القرآن: سحر يؤثر!

ذَرْتِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا¹¹ (خرج من بطن أمه لا ولد له ولا مال)، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا¹² (جعلت بعد ذلك ثروة كبيرة)، وَبَيَّنَّ شُهُودًا¹³ (وبنين حاضرين معه في مكة وعددهم عشرة)، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا¹⁴ (جعلت حياته هادئة)، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ¹⁵! كَلَّا، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا حُجُبًا) عَنِيْدًا¹⁶، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا¹⁷ (سأصيبه بمشاق). إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ¹⁸ (لما تداولوا في أمر محمد)، فَقَتِلَ (عليه اللعنة) كَيْفَ قَدَرُ¹⁹، ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَرُ²⁰؟!، ثُمَّ نَظَرَ²¹، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ²² (واسود وجهه) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ²³، فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلًا سِحْرٌ يُؤْثَرُ²⁴ (من المأثور: موروث عن السحرة)، إِنَّ هَذَا إِلًا قَوْلُ الْبَشَرِ²⁵ (ليس وحيا إلهيا). (انتظر يا محمد) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ²⁶ (سأدخله جهنم)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ²⁷! لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ²⁸، لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ²⁹ (تحرق جلودهم)، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ³⁰ (حراسا من الملائكة).

2- رد على استهزائهم بعدد حراس جهنم!

- وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ (حراسها) إِلَّا مَلَائِكَةً، وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا، لَيْسَتِ بَيْنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَبَيْنَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَلَيَقُولِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ: مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا؟ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ، وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ³¹ (1).

1- يبدو واضحا أن هذه الجملة الطويلة هي جملة اعتراضية بمعنى أنها بين كلام متصل. ذلك أنها جواب على اعتراض قريش على الآية السابقة لها حين استصغروا عدد حراس جهنم (تسعة عشر). فلما انتهى الجواب رجع القول إلى ما قبله، أي إلى الفقرة الأولى=،

3- الجزاء واعترافات أصحاب جهنم...

كَلَّا وَالْقَمَر³²، وَاللَّيْلُ إِذَا أَدْبَرَ³³ (أظلم)، وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ³⁴ (أضاء) إِنَّهَا (أي سقر: جواب القسم) لِبَاحْذَى الْكِبَرِ³⁵ (الأمور العظيمة)، نَذِيرًا لِلْبَشَرِ³⁶، لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ³⁷ (2). (وبالتالي فـ) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ³⁸ (كل نفس أُلقي بها في جهنم مسجونة فيها مقيدة)، إِنَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ³⁹ (المؤمنون فهم) فِي جَنَاتٍ يَتَسَاءَلُونَ⁴⁰، عَنِ الْمُجْرِمِينَ⁴¹: (يسألونهم) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَفَرِ⁴²؟. قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ⁴³، وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ⁴⁴، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ⁴⁵ (نكذب محمداً)، وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيَّوْمَ الدِّينِ⁴⁶ (بيوم القيامة والجزاء)، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ⁴⁷ (البعث والحساب)، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ⁴⁸ (شفاعة الأصنام التي كانوا يعتقدون في شفاعتها).

4- خاتمة: لماذا هم عن القرآن، معرضين: يريد كل منهم قرآنا!

فَمَا لَهُمْ (لماذا هم) عَنِ التَّذَكُّرَةِ (التي تقوم بها يا محمد) مُعْرِضِينَ⁴⁹، كَانَتْهُمْ حُمْرٌ (وحش) مُسْتَنْفَرَةٌ⁵⁰ (قارة) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ⁵¹ (من رمي الرماة؟) بَلْ (السبب هو أنه) يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنْتَشِرَةً⁵² (3)، كَلَّا بَلْ نَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ⁵³. كَلَّا إِنَّهُ (القرآن) تَذَكُّرَةٌ⁵⁴ (وليس بسحر)؟ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ⁵⁵ (اتبعه واتعظ به)، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى (أهل أن يتقوا عقابه) وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ⁵⁶ (أهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته).

- تعليق

يتألف هذا المقطع من سورة المدثر من أربع فقرات، الأولى في الرد على الوليد بن المغيرة في وصفه القرآن بأنه "سحر يؤثر" (انظر التقديم) وتتوعده بجهنم (سقر)، والثانية في الرد على المستهزئين الذي سخروا من كون حفظة جهنم تسعة

وبالتالي فالضمير في "إنها لإحدى الكبر"، في الفقرة الثالثة، يعود إلى "سقر" في الفقرة الأولى. وقد أمر الرسول بوضع الجملة الاعتراضية حينما نزلت في مكانها الحالي بالمصحف حتى يكون الرد عليهم في الحين. انظر التعليق.

2- نظير قوله: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ" (الكهف 29)

3- نظير قولهم: "لَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ..." (الإسراء 93).

عشر من الملائكة، كما ورد في آخر الفقرة الأولى. وتأتي الفقرة الثالثة لتكمل الفقرة الأولى فترسم مشهداً للجنة والنار يعترف فيه أصحاب النار لأصحاب الجنة أنهم لم يكونوا في الدنيا من المصلين ولم يكونوا يطعمون المسكين، وأنهم كانوا بالعكس من ذلك يكذبون بيوم الدين الخ، وأما الفقرة الرابعة فتجيب عن سؤال: لماذا يعرضون عن القرآن؟ وتجيب بأنهم يريدون أن يؤتى كل منهم بكتاب خاص به، وهم يطالبون بهذا استهزاء لأنهم لا يخافون الآخرة، وتختتم بأن القرآن كتاب منزل من عند الله فمن شاء آمن به ومن شاء كفر، وهم قد اختاروا الضلال والعناد ولذلك فإن الله لن يشاء لهم الإسلام فهم ليسوا أهلاً له، والله يشاء الإسلام للمتقين الذي يطلبون منه المغفرة.

ومما يجدر التوقف عنده هنا هو ورود الفقرة الثانية على شكل جملة اعتراضية طويلة، تفصل بين الفقرة الأولى والثالثة. قال المفسرون: روي أنه لما نزل قوله تعالى: "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" (المدثر: 30) قال أبو جهل لقريش: "تكلتكم أمهاتكم! قال ابن أبي كيشة (يعني الرسول عليه السلام): إن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الجمع العظيم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كعدة الجمحي وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر واكفوني أنتم اثنين! فلما قال أبو جهل وأبو الأشد ذلك، قال المسلمون ويحكم! لا تقاس الملائكة بالحدادين، فجرز هذا مثلاً في كل شينين لا يسوئ بينهما، والمعنى لا تقاس الملائكة بالسجانين والحدادين، والسجان (هنا) هو الذي يحبس النار. فأنزل الله تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً" الآية. وعلى هذا فالآية 31 التي تشكل فقرة مستقلة (الفقرة الثانية)، والتي هي غير متناسبة الطول والأسلوب لا مع ما قبلها ولا ما بعدها، قد نزلت بمناسبة ما ذكر كسبب نزول لها، وبالتالي فهي آية أضافها الرسول عليه السلام عندما نزلت إلى أصل السورة رداً على استغراب قريش أن يكون عدد خزنة جهنم تسعة عشر وعلى استهزائهم بذلك. ومن هنا كان من الضروري ربط الفقرة الثالثة بالأولى وبالتالي جعل الضمير في "إِنَّهَا لَأَحْذَى الْكَبِيرِ" يعود على سقر.

35 - سورة القلم

- تقديم

رتبت سورة القلم في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول بعد سورة العلق مباشرة؛ وهذا يتناقض مع ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن سورة المدثر هي التي نزلت الثانية، بعد انقطاع الوحي لمدة، كما بينا ذلك في التقديم الذي صدرنا به سورة المدثر. والمرجع في ذلك حديث عائشة التي قالت: أول ما نزل من القرآن "أقرأ باسم ربك" ثم فتر الوحي ثم نزلت سورة المدثر. وهذا يؤيده قول الصحابي الكبير جابر بن عبد الله، فقد سئل عن أول ما نزل من القرآن فأجاب السائل: "لا أذكره إلا ما حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «جَاورَتْ بِحِرَاءَ فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبِطْتُ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا، فَتَنَظَّرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، وَتَنَظَّرْتُ خَلْفِي فَلَمْ أَرِ شَيْئًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ شَيْئًا، فَاتَيْتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَبِّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا، فَنَزَلَتْ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. وواضح أن الأمر يتعلق باستئناف الوحي بعد انقطاعه.

أما سورة القلم فلم يرد بشأنها ما يؤكد كونها الثانية أو الثالثة أو ... وما تردد في الروايات الخاصة بها هو كون آيات منها نزلت في المدينة. والآيات التي قالوا إنها مدنية لا سند لهم فيها إلا كونها تحتل أن تكون أسباب نزولها أموراً حدثت في المدينة، وهذا على ما جرت عليه عادتهم في البحث عن أسباب لنزول هذه الآية أو تلك من خلال استعراض الوقائع لا العكس. وهكذا يذكر القرطبي نقلاً عن الماوردي أن ابن عباس وقتادة قالوا عن سورة القلم: "أولها مكي، إلى قوله: "عَلَى الْخُرُطُومِ" (الآية 16)، ومن قوله: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ إِلَى قَوْلِهِ "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (17-33) مدني، ومن قوله: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتَبُونَ" (34-47) مكي، ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصَّالِحِينَ" مدني، ومن قوله: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا" (51) إلى آخر السورة مكي!

هذا التجزئ لآيات السورة بين المكي والمدني لا يستقيم مع وحدة السياق فيها كما سنرى. أما صاحب "الإتقان" فقد ذكر نقلاً عن السخاوي: "أن المدني منها من قوله: "إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ" إلى "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" ومن قوله: "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ" إلى قوله: "مِنَ الصَّالِحِينَ" فلم يجعل قوله: "إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ" إلى قوله: "فَهُمْ يَكْتَبُونَ" مدنياً خلافاً لما نسبته الماوردي إلى ابن عباس.

أما نحن فنرى أن هناك مبررات معقولة للقول إن السورة كلها نزلت بمكة وأنها نزلت في مرحلة متأخرة نسبياً، وقد اخترنا لها هذا المكان، أعني الرتبة 35، للاعتبارات التالية:

1- إن ابتداء السورة بالقسم بحرف (النون أو غيره) عملية بدأت متأخرة (سورة ق، التي رتبناها الرابعة والثلاثين، وقد رتبنا في لوائح النزول كلها إما الثالثة والثلاثين وإما الرابعة والثلاثين). ومن المستبعد جداً أن تكون "ن والقلم" قد نزلت ثانية أو ثالثة. نعم كان يمكن أن نعتبر الآيات السبع منها ضمن مجموعة الآيات التي نزلت أولاً (كما هو الحال في سورتي العلق والمدثر) لولا أن تلك الآيات، فضلاً عن كونها تبدأ بالقسم وبحرف ن، تردُّ بلهجة قوية على الذين اتهموا النبي عليه السلام بالجنون عندما ذاع خبر نبوته، لهجة لا يتسق مع روح وأسلوب السور التي نزلت في المرحلة الأولى، مرحلة "اقرأ باسم ربك"، "ما ودعك ربك" و"ألم نشرح لك صدرك" الخ.

2- أما الآيات التي تلي الآيات السبع الأولى منها (من سورة القلم) فهي تنسجم تماماً مع سور المرحلة التي نتحرك فيها الآن، خصوصاً ابتداء من سورة الهمزة رقم 32. ذلك أنها ترد على أكثر من واحد من زعماء قريش الذين كانوا يؤذون الرسول عليه السلام، وقد سمى المفسرون منهم الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، وقالوا هو المقصود بـ"الزئيم" في هذه السورة كما سيأتي، كما ذكروا الوليد بن المغيرة وقالوا هو المقصود بكونه صاحب المال والبنين، كما أشاروا إلى الأسود بن عبد يغوث ... المهم في الأمر هو أن هذه السورة تنتمي إلى الجو العام الذي أخذت فيها العلاقات بين الرسول والملا من قريش تدخل في مرحلة من التوتر المتزايد. لقد أخذ زعماء قريش يضيّقون ذراعاً بالدعوة المحمدية في هذه المرحلة وبدأ صبرهم ينفذ. ولولا وقوف عميد بني هاشم آنذاك، أبو طالب، مع الرسول لذهبت قريش بعيداً في محاربتها للدعوة المحمدية في هذا الوقت بالذات، ولذلك نراهم يحاولون حمله على التخلي عن دعوته، متوعدين تارة مظهرين استعدادهم لاتباعه تارة، إذا هو وافق على أن يلين لهم مقابل أن يلينون له، فجاء القرآن يوصي الرسول عليه السلام برفض المساومة وعدم الاهتمام بالوعود الكاذبة.

وفي هذا الإطار تشير السورة إلى قصتين : واحدة تقارن بين موقف قريش وموقف "أصحاب الجنة"، مشيرة إلى أن مصير ثروات قريش يمكن أن يسلب الله عليها القحط والجفاف أو غيرهما فيصيبها ما أصاب مزرعة "أصحاب الجنة" التي التهمت النيران محصولها في ليلة اليوم الذي حددوه لجمع غلتها. أما القصة الثانية فهي موجهة إلى النبي نفسه، درساً وعبرة. ذلك أن قوم يونس قد أعرضوا عن

دعوته وكذبوه فضاق بهم ذرعا ولم يصبر فدعا عليهم بالهلاك وتركهم فاراً بنفسه. فركب سفينة ناويا السفر بعيدا، فكان مصيره أن التهمه الحوت ليرمي به في الشاطئ.... وبين القصتين تهديد ووعد للمكذبين من قريش بالقيامة والحساب.

- نص السورة

1- مقدمة: إنك لعلی خلق عظیم ... ستبصر ویبصرون ...

بسم الله الرحمن الرحيم
ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ¹ (ما يكتبون) مَا أَنْتَ، بِنِعْمَةِ رَبِّكَ (مثل قولنا بحمد الله)، بِمَجْنُونٍ² (جواب القسم)، وَإِنْ لَكَ تَأْجِرًا (مقابل أداء الرسالة) غَيْرَ مَمْنُونٍ³ (غير منقوص)، وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ⁴ (كان معروفا عند قومه بحسن الخلق حتى لقبوه بالأمين). فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ⁵، بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ⁶ (1). إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ⁷.

2- وَكَأَ تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ ... مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَيْمٍ

فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ⁸ وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُ (تلين لهم) فَيَذْنُونُ⁹ (فيلينون لك). وَكَأَ تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ مَّهِينٍ¹⁰ (كثير الحلف بالباطل) هَمَّاز (عياب) مَشَاءَ بَنِمِيمٍ¹¹ (يسعى بالنميمة) مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَيْمٍ¹² عَتَلُ (جاف غليظ) بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمٍ¹³ (فاجش لئيم) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ¹⁴، إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ¹⁵ سَنَسِمْهُ عَلَى الْخَرْطُومِ¹⁶ (سنجعل على أنفه علامة تبقى طول حياته كما في الجمل).

3- أَرَادُوا أَنْ يَحْنُوا زُرْعَهُمْ بَاكِرًا كَيْلًا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مَسْكِنٌ فَاحْتَرَقَتْ!

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ (اختبرنا قريش بالقحط والجوع) كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ (أصحاب مزرعة باليمن) : إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ¹⁷ (ليجنونها باكرا حتى لا يطعم منها فقير) وَكَأَيَّ سَنَتْنُونَ¹⁸ (لم يقولوا إن شاء الله). فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ (نار أحرقتها) وَهُمْ نَائِمُونَ¹⁹ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ²⁰ (رمادا). فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ²¹ (في الصباح) أَنْ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ²²

1 - اختلفوا في تفسير لفظ "بأيكم المفتون"، بسبب حرف الباء (بأيكم). وأقرب الأقوال إلى الفهم القول بأن "المفتون" هنا مصدر بمعنى الفتون، أي الجنون، قالوا: والمصادر تجيء على المفعول نحو المعقود والميسور بمعنى العقد واليسر، يقال: ليس له معقود رأي أي عقد رأي. وعلى هذا يكون "بأيكم المفتون معناه: بأيكم الجنون: أيكم هو المجنون".

(عازمين على جنیه). فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ²³ (يتسارون) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينَ²⁴. وَغَدَا عَلَى حَرْدٍ (سوء قصدهم) قَادِرِينَ²⁵ (على تنفيذه). فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ²⁶، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ²⁷ (من غلة حرثنا)! قَالَ أَوْسَطُهُمْ (أفضلهم) أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْكَأ (هلا) تَسْبَحُونَ²⁸! قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ²⁹، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ³⁰ : قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ³¹ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ³². كَذَلِكَ الْعَذَابُ (من فقدان زرعهم)! وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ³³. إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ³⁴.

4- أنجعل المسلمين كالمجرمين؟

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ (المؤمنين بالدعوة المحمدية) كَالْمُجْرِمِينَ³⁵ (المكذبين)⁽²⁾؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ³⁶ ! أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ (من عند الله) فِيهِ تَدْرُسُونَ³⁷ (تقروون) إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ³⁸ (أن تختاروا على هواكم)؟ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ (عهود ومواثيق) عَلَيْنَا بِالْغَةِ (صارمة تلزمنا) إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ³⁹ (أن فيها أنكم تقضون حسب رغبتكم)؟ سَلِّمُوا (يا محمد) أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ⁴⁰ (يكفل لهم أن يحدث ما زعموا من ذلك)؟ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ (آلهة شركاء مع الله) فَلَيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ⁴¹! يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ (يوم القيامة، يوم الشدة والمحنة) وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ⁴² (لنخشب ظهورهم): خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (منحنية ذليلة) تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ (تتعبههم المهانة)، وَقَدْ كَانُوا (في الدنيا) يُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ⁴³ (فكانوا يمتنعون).

5- خاتمة: اصبر ولا تكن كصاحب الحوت!

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ (القرآن، لا تشغل بالك بهم واترك أمرهم إلينا)! سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ⁴⁴ وأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ⁴⁵. (لماذا لا يستجيبون؟) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ⁴⁶ (هل تطلب منهم أجرا وتقل عليهم أدائهم)؟ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ⁴⁷ (يعلمون علم الغد)؟ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ (مستعجلا) كَصَاحِبِ الْحُوتِ (النبي يونس) إِذْ نَادَى (دعا ربه أن ينقذه من داخل بطن الحوت) وَهُوَ مَكْظُومٌ⁴⁸ (وهو حزين مهموم).

2- قيل كانت قريش تجادل المسلمين في شأن المصير في الآخرة ويقولون "إن كان ما تذكرون حقاً فإن لنا في الآخرة أكثر مما لكم"، فجاءت هذه الآية في الرد عليهم.

لَوْلَا أَنْ تَذَرَكَهُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَنَبَذَ (لَتَرَكَ) بِالْعَوَاءِ (عندما ألقاه البحر على الأرض) وَهُوَ مَذْمُومٌ⁴⁹. فَاجْتَنَبَاهُ (اخْتَارَهُ) رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ⁵⁰ (3). وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزِقُّوكَ بِأَبْصَارِهِمْ (يصرعونك حنقا) لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ (القرآن) وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ⁵¹. وَمَا هُوَ (القرآن) إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ⁵².

- تعليق :

المسلمون ...

نلاحظ أولا أن هذه أول مرة يستعمل فيها القرآن لفظ "مسلم" (أَفْجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ³⁵)... يمكن أن يقال إن ترتيب السورة من وضعكم، وأن هذه السورة في الرتبة الثانية في لوائح ترتيب النزول المروية (وهي كلها عن ابن

3- لا تذكر هذه السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة يونس مع قومه غير ما ورد أعلاه. والقصة مذكورة في التوراة واسم يونس هناك "يوان". وقد أورد القرطبي ملخصا عنها فقال : "إن قوم يونس كانوا بنيونى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام فأبوا وامتنعوا. ولما ينس من إيمانهم قال لهم إن الدمار سيحل بمدنيتكم خلال ثلاثة أيام. فقال قومه: هو رجل لا يكذب فلننرقبه، فإن أقام معنا فلا شيء علينا، وإن ارتحل عنا فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتأبوا ودعوا الله أن يغفر لهم. أما يونس فكان قد التحق بسفينة فارا، فتقلت بمن فيها فاتفقوا على التخفيف من وزنها بإلقاء واحد منهم في البحر، وعملوا القرعة فجاءت في يونس، فألقوا به في البحر فالتقطه حوت كبير، ثم قذفه فحملة الموج إلى شاطئ البحر. وعاد ربه فكلفه بتبليغ الرسالة إلى أهل نينوى الذين كانوا يعبدون الأصنام فلما ذهب إليهم وجدهم قد أسلموا، فغضب وقال لربه لماذا لم تجعلهم مؤمنين في المرة الأولى. ثم قال لربه (والنص ننقله من التوراة): "قَوَالَانِ دَعَانِي أَيُّهَا الرَّبُّ الْفَطْ أَنْفَاسِي لِأَنَّهُ خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ أَحْيَا". 44 فقال الرب: «أأنت محق في غضبك؟» 55 فخرج يوان (يونس) من نينوى وجلس شرقي المدينة... 66 فأعد الرب الإله يقطينة نمت وارتفعت حتى ظلت رأس يوان لتقيه من شدة الحر فلا يؤذيه. فابتهج يوان باليقطينة ابتهاجا عظيما. 77 ولكن في فجر اليوم التالي أعد الله دودة قرضت اليقطينة فجفت. 88 فلما أشرق الشمس، أرسل الله ريحا شرقية جارة لفحت رأس يوان، فأصابه الإغواء وتمنى لنفسه الموت قائلا: «خير لي أن أمت من أن أظل حيا». 99 فقال الله ليوان: «أأنت محق في غضبك من أجل اليقطينة؟» فأجاب: «أنا محق في غضبي حتى الموت». 10 فقال الرب: «لقد أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب في تسميتها وتربيتها. هذه اليقطينة التي ترعرت في ليلة وذوت في ليلة، 11 أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يقيم فيها أكثر من مئة وعشرين ألف شخص ممن لا يفرقون بين يمينهم وشمالهم، فضلا عما فيها من بهائم كثيرة؟» (التوراة. سفر يوان).

عباس). وهذا في الحقيقة يزكي ترتيبنا، لأنه سواء وضعنا هذه السورة قبل هذه الرتبة أو بعدها فإنها في الحالتين معا لا يمكن أن تكون الثانية. ذلك أن القرآن يشهد بعضه لبعض. وشهادة القرآن هنا بصواب اختيارنا يمكن إبرازها كما يلي: إن المرة الأولى، غير هذه، التي ورد فيها فعل "أسلم" وما اشتق منه : إسلام، مسلم، مسلمون، هي في سورة الأعراف المرتبة إما الثامنة والثلاثين وإما التاسعة والثلاثين في لوائح ترتيب النزول وذلك عند قوله تعالى: "وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّفْنَا مُسْلِمِينَ (الأعراف 126) (وذلك في حكاية جواب السحرة عن فرعون بعد أن اتهمهم بالتواطؤ مع موسى عندما فشل سحرهم أمام عصاه). ثم ورد اللفظ نفسه في سورة الجن وسورة النمل وسورة الأنعام، ورتب هذه السور في لوائح ترتيب النزول وردت بعد الرتبة التي وضعنا فيها هذه السورة (القلم). وحتى إذا وضعنا هذه السورة في الرتبة الثانية فإن تكرار فعل أسلم وما اشتق منه (مسلمون الإسلام الخ) لن نجده إلى في هذه السور المتأخرة النزول. وإذا نحن بحثنا عن السبب في تأخر استعمال هذا اللفظ في القرآن وجدناه معقولا تماما. فاصطلاح "الإسلام" يعني الاستسلام والخضوع ويكتسي في الحقل الدلالي العربي الخضوع لسلطة جماعة أو دولة. وهكذا لم يبدأ استعمال هذا اللفظ في القرآن إلا بعد أن صار من كانت تدعوهم قريش "أتباع محمد" جماعة يجمعها كونها أتباع رئيس معين هو النبي عليه السلام من جهة وانفصالها عن قريش من جهة أخرى. وهكذا فعندما لم تكن هذه الجماعة قائمة كان الذي يستجيب للدعوة المحمدية يوصف بلفظ "تركى"، "من تركى"، وهذا اللفظ يدل على عمل فردي، وأتباع الرسول عليه السلام بدؤوا ينتظمون حوله فردا فردا. ثم بعد ذلك بدأ وصف هؤلاء بـ "الذين آمنوا" (سورة العصر المرتبة 12، 13) ثم "المؤمنين" (البروج المرتبة 25، 26، 27). ليأتي بعد ذلك لفظ الإسلام الذي سيكثر استعماله مع توسع دائرة المؤمنين وانتظامهم في جماعة "روحية" في مكة ثم في دولة في المدينة.

القلم ...

بعد هذا لننتقل إلى القسم : "ن والقلم" ؟

سبق أن تكلمنا عن القسم بالحروف في سورة ق (رقم 33)، ويبقى علينا هنا أن نقول في "القلم"، فالقسم هنا "ن والقلم" له شأن خاص من حيث الارتباط الذي يمكن إقامته بين حرف النون و"القلم". فعلا ذهب المفسرون في تفسير هذا الحرف مذاهب بعيدة عن السياق، غير مراعين علاقة هذه السورة بالتي قبلها. فمنهم من اعتبر أن "ن" حرف من الحروف المقطعة الواردة في أوائل بعض السور (ق، ص، يس، طه الخ)، وأخذوا في فك ما يرمز إليه على غرار ما فعلوا مع بقية فواتح

السور فقال بعضهم إنه "تون الرحمان"، وقال آخرون إن المقصود هو السمكة أو الحوت، وخصصه بعضهم بـ "حوت يونس" عليه السلام، وقال آخرون إنه الحوت الذي بُسِطَ على ظهره الأرض يوم خلق الله السماوات من الماء. ومنهم من قال : "النون" هي الدواة عموماً، وخصصها بعضهم بـ "الدواة" التي كُتِبَ بها "القلم" كل ما كان وسيكون.

أما "القلم" فمع أنهم جميعاً يفسرونه بأداة الكتابة، فإن معظمهم مثل ابن عباس، وغيره ممن نقل عنه أو نقل عن مصادره، فسرّه بما روجّهه الفلسفة الدينية الهرمسية من أنه "أول ما خلق الله"، ويعنون به العقل الأول في سلسلة العقول السماوية، يليه في هذه السلسلة العقل الثاني وهو عندهم "الروح" المحفوظ. ويكاد ما ينسب إلى ابن عباس في هذا الصدد يتطابق مع هذا التصور، فقد نسب إليه قوله : "أول ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء، فخلق منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون (الحوت)، فتحرّكت الأرض فمادت، فأثبتت بالجبّال، فإن الجبال لتفخر على الأرض".

ومن العوامل التي سهلت الترويج لهذا المعنى الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة في موضوع "الجبر والاختيار". لقد بنى المعتزلة مذهبهم على مبدئين: العدل والتوحيد. ويقصدون "العدل الإلهي"، بمعنى أن الله عادل سيجري وعده ووعدته يوم القيامة على الناس ضرورة وبدون تمييز، لأنه وعد بذلك في القرآن. وكان الدافع إلى هذا ما كان الأمويون يروجونه من أن الله لن يعاقبهم يوم القيامة على ما فعلوا من اغتصاب الخلافة والعسف في الحكم الخ، مبررين ذلك بأنه كان قضاء وقدرًا من الله، وأنهم بالتالي إنما نفذوا إرادة الله وما كان مقرراً في سابق علمه.

وفي هذا الإطار فسر بعضهم "القلم" في السورة التي نحن بصدها بكونه "القلم الذي خلقه الله، تعالى ذكره، فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة"، كما نسب إلى النبي عليه السلام حديث في هذا المعنى بصيغ مختلفة، أقصرها : "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْعَقْلَ قَالَ لَهُ: أَقْبِلْ . فَأَقْبَلَ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْبِرْ فَأَنْبَرَ . فَقَالَ : مَا خَلَقْتَ خَلْقًا أَشْرَفَ مِنْكَ، فَبِكَ آخِذٌ، وَبِكَ أُعْطِي". وقد انتقل هذا المعنى إلى الباطنية فوظفته فرق من الشيعة والباطنية منها بكيفية خاصة (الإسماعيلية) كما وظفه المتصوفة المتفلسفة، هؤلاء الذين غرّفوا جميعاً من الفلسفة الهرمسية والتيارات الغنوصية القديمة خدمة لأغراضهم المذهبية السياسية وفي مقدمتها القول بـ "الجبر" (4).

بعيدا عن هذه التأويلات الإيديولوجية لنقل مع القائلين إن المقصود بـ "القلم" هو القلم كما يعرفه جميع الناس: أداة الكتابة وهو ما يدخل في معهود العرب زمن النبوة. أما حرف "ن" فمثله مثل الحروف الأخرى التي وردت في أوائل بعض السور سواء قبل القسم مثل "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ" و"ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" و"يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ"، و"حم والكتاب المبين"، أو بدون قسم مثل (حم تنزيل الكتاب) و(الم ذلك الكتاب)، وقد سبق أن قلنا رأينا في هذا الموضوع (انظر سورة ق).

36- سورة الطارق

- تقديم

ذكروا أن أبا طالب "أتى النبي (ص) بخبز ولبن، فبينما هو جالس إذ انحط نجم فامتلاً ما ثمَّ ناراً، ففرغ أبو طالب وقال: أي شيء هذا؟ فقال (النبي): هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله؛ فعجب أبو طالب فأُنزل الله تعالى: "والسما والطارق". وفي رواية أخرى ما يفهم منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة المدثر، أعني القسم الثاني منها. فقد ذكروا أن قوله تعالى في هذه السورة "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ" (الطارق 5) نزل في "أبي الأشد الذي كان يقوم على الأديم (الجلد) فيقول: يا معشر قريش من أزالني عنه فله كذا، ويقول إن محمدا يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر فأنا أكفيكم وحدي عشرة واكفوني أنتم تسعة"، كما رأينا في سورة المدثر⁽¹⁾. وسورة الطارق مكية بالاتفاق.

وقد روي أيضا عن خالد بن أبي جبَل العَدَواني من أنه قال: "أبصرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشرق ثَقِيف وهو قائم على قوس أو عصاً حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول: "والسما والطارق" حتى ختمها، قال: "فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام". لكن هذا لا يعني أنها نزلت في ذلك الحين، فزيارة النبي عليه السلام للطائف المشار إليها هنا تمت سنة عشرة للنبوة، بعد الحصار. ومن الممكن أن يكون الرسول قد قرأ سورة الطارق بعد أن كانت قد نزلت قبل ذلك بمدة طويلة، أي قبل الحصار خصوصا، ورتبتها 36 في لوائح النزول تقتضي ذلك، وهي تندرج في سياق السور التي نتحرك بينها والتي تؤكد البعث بعد الموت، وما يتبعه من حساب وجزاء، كما تؤكد صدق نبوة محمد (ص)، وهذا هو نفسه موضوع سورة الطارق.

1- وهذا في سورة المدثر رقم 34م2، آية 30.

- نص السورة

1- مقدمة: كل نفس عليها حافظ يسجل ما عملت من خير أو غيره.

بسم الله الرحمن الرحيم
وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ¹ (يطرق الباب ليلاً)، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ² (تهويل: إنه) النَّجْمُ الثَّاقِبُ³ (المتوهج، كأنه يتقرب السماء، يرمى به الشياطين عند محاولتهم استراق السمع منها) (2)، إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا (إلا وعليها) حَافِظٌ⁴ (جواب القسم: مثله مثل النجم الثاقب: يتقرب دائرة أسرار النفس، فيخصي عليها ما تكسب من خير أو شرٍّ وما توسوس لها به الشياطين).

2- لينظر الإنسان مم خلق... إن الله على رجهه لقادر.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ (المكذب بالبعث المدعي للقوة على التخلص من حراس جهنم) مِمَّ خُلِقَ⁵! خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ⁶ (متدفق)، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ⁷ (قيل: من الظهر والأضلاع التي تحته) (3). إِنَّهُ (الله) عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ⁸ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ⁹ (هنا تقديم وتأخير: قادر على بعثه يوم تبلى السرائر) (4)، فَمَا لَهُ

2 - قالوا: كانت الشياطين تسترق السمع من حديث الملائكة في السماء. ومن استعمال الشياطين كان المنجمون والكهنة يدعون معرفة الغيب. فلما بعث النبي محمد عليه السلام وضعت السماء تحت الحراسة الشديدة، فكل محاولة من الشياطين صارت تقذف بنجم ثاقب كالرمح فيفرون، والمقصود من هذا التصوير هو بيان بطلان التنجيم والكهانة بعد نبوة محمد. وأن اتهام قريش للنبي عليه السلام بالكهانة اتهام باطل لأن استراق الشياطين للسمع قد وضع له حد. ولم يبق إلا الوحي الذي ينقله جبريل إلى الرسول.

3- والغالب أن هذا التفسير القديم لمصدر المني مستقى من الملاحظة عند الممارسة الجنسية التي تشكل جزءاً من معهود العرب التجريبي، وبه خاطبهم القرآن. أما العلم القديم فكان يرى: "أن المني إنما يتولد من فضلة الهضم الرابع، ويفصل عن جميع أجزاء البدن حتى يأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته، فيصير مستعداً لأن يتولد منه مثل تلك الأعضاء، ولذلك فإن المفرط في الجماع يستولي الضعف على جميع أعضائه، ومعظم أجزاء المني إنما يتربى في الدماغ، والدليل عليه أن صورته يشبه الدماغ، ولأن الكثير منه يظهر الضعف أولاً في عينيه، أما مستقر المني فهو أوعية المني، وهي عروق ملتف بعضها ببعض عند البيضتين".

4- ذهب جل المفسرين إن لم يكن كلهم إلى أن المقصود بـ"السرائر" هنا "ما أسرّ في القلوب من العقائد والنيات وغيرها، وما أخفى من الأعمال وبلاؤها". وواضح أن هذا =

مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ¹⁰ (لا قوة له في نفسه ولا من عشيرته تمنعه من المصير إلى العذاب).

3- خاتمة: إنه لقول فصل ما هو بالهزل... أمهل الكافرين قليلا..

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ¹¹ (السحاب يرجع بالمطر)، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ¹² (الشق يخرج منه النبات)، إِنَّهُ (القرآن، البعث، الجنة والنار...) لَقَوْلٌ فَصْلٌ¹³ ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ¹⁴. إِنَّهُمْ (المكذبون) يَكِيدُونَ كَيْدًا¹⁵ (يتآمرون)، وَأَكِيدُ كَيْدًا¹⁶ (وأنا أدبر الأمر من ورائهم) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُويًا¹⁷.

- تعليق

كانت قريش، كما قلنا، تنكر البعث والحساب، حجتها في ذلك استحالة عودة الموتى إلى الحياة بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، وبالتالي عدم إمكان محاسبة الناس على أعمالهم بعد الموت. وهذه السورة تؤكد العكس. فمن جهة تؤكد أن جميع أعمال الإنسان في الدنيا مسجلة ومحسية من طرف كائن ملائكي "حافظ" ملازم لكل إنسان، وعلى أساس هذا السجل سيتم حسابه يوم القيامة. ومن جهة أخرى ترد على الذين يقولون باستحالة بعث الموتى بعد أن يكونوا قد تحولوا إلى تراب، ترد عليهم هنا كما في السور السابقة، بأن من خلق الإنسان أول مرة من "سائل منوي"، قادر على أن يعيده من جديد يوم القيامة دونما حاجة إلى المنى، يوم تبلى سرائره، أي أعضاء جسمه التي تفرز المنى عند الجماع. وحينئذ لن يجد في نفسه ولا في أقاربه وأشياعه قوة ولا نصيرا يدفع عنه ما يستحق من عقاب.. لأنه خلق مفرد جديد لا علاقة له بالنسب الذي أصله الحياة الجنسية المشتركة.

ومع هذه التأكيدات وما يرافقها من حجج على إثبات البعث والجزاء، تأبى قريش إلا أن تستمر في موقفها، موقف التكذيب والاستهزاء والكيد للدعوة=

لا يستقيم مع السياق: فالكلام هنا عن القوة البدنية التي افتخر بها الشخص المذكور في التقديم، يزكي ذلك قوله تعالى "فما له من قوة ولا ناصر". ولذلك فنحن نرجح أن معنى السرائر هنا هو ما ذكره صاحب القاموس المحيط، قال: "السريـر: ج. أسرار وسرائر، والجماع، والذكر، والنكاح، والإفصاح به، والزنا، وفرج المرأة، ومستهل الشهر أو آخره أو وسطه، والأصل، والأرض الكريمة، وجوف كل شيء ولبـه، ومخض النسب وأفضله". والمعنى المناسب للسياق هو ما ذكره مما يتعلق بـ "المنى" الجماع، الذكر، فرج المرأة (الخ): تبلى السائر: تبلى الأعضاء البدنية المفردة للمنى. والمعنى العام: إذا كان الله قد خلق الإنسان من منى فهو قادر على خلقه من جديد يوم القيامة بدون منى ولا جماع الخ.

المحمدية. وهذا ما ترد عليه السورة في الفقرة الثالثة حيث القسم بالسحاب الذي يأتي بالمطر ليشق صلابة الأرض فيجعلها رطبة مما يسمح بخروج النبات، ثم يرجع -أي المطر- في أوقات أخرى ليسقي هذا النبات ليتمكن من النمو وإعطاء ثمره، مما يدل على أن هناك غائية تحكم تكرار مثل هذه الظواهر، وأن هذه الغائية هي سنة الله وهي تَعْمُ سائر المخلوقات ... وهذا يدل على أن ما سبق تقريره من بعث وحساب وعقاب، أمور لا تختلف عن خروج النبات من جديد بعد الحصاد. فالإتيان بالسحاب والمطر والزرع ثم الحصاد وعودة النبات من جديد أمور ملموسة تشكل ما يطلق عليه العلم القديم "الدورة الطبيعية". وهكذا فكما أن هذه الأشياء جدية حقيقية، وليست من قبيل الهزل، لأن الإنسان يعرفها ويعيش بفضلها، فذلك أمور البعث والحساب، أمور حقيقية وليست بالهزلية، وبناء عليه فهي تدخل في تلك "الدورة الطبيعية".

وتختم السورة بوعيد موجه للمكذابين بما سبق تقريره، وعيد ينبه إلى أن قدرة الله أكبر من قدرتهم وبالتالي فما سيصيبهم من عقاب جراء أعمالهم أكبر مما يستطيعون إلحاقه من أضرار بالدعوة المحمدية، ولذلك فهي تدعو النبي إلى الصبر وعدم استعجال العقاب لهم. فالله يستدرجهم ويمهلهم ويمنحهم الوقت لقيام الحجة عليهم. (قارن سورة القلم أعلاه).

هذا والمناسبة، بين المقسم به وهو "السماء والطارق، النجم الثاقب" وبين المضمون الذي يراد أن يؤكد القسم، -وهو أن لكل إنسان ملاك يسجل أعماله ويحفظها، كمانة- أعني المناسبة- فيما تشير إليه الفقرة الأولى من أن "الحافظ" الذي يلزم كل إنسان يسجل أعماله هو كـ "النجم الثاقب" الذي يحافظ على أسرار السماء.

أما القسم الثاني (الفقرة الثالثة) وموضوعه السحاب الذي يأتي بالمطر ويعود ليسقي الزرع الخ، فوجه المناسبة بينه وبين جواب القسم ("إنه لقول فصل") واضح مما قدمنا. فالقسم هنا لتقرير أن جدية ما سبق من تأكيد البعث والحساب، كجدية ما تروونه من سحاب ومطر يأتيان في أوقاتها المطلوبة.

37- سورة القمر

- تقديم

اهتم كثير من المفسرين بتتبع روايات "انشقاق القمر"، لدى تفسيرهم الآية التي افتتحت بها هذه السورة: "اقتربت الساعة وانشق القمر". فذهب معظمهم إلى أن الانشقاق حدث فعلا في مكة. وهناك من قال إن رؤية انشقاق القمر لم تكن عامة، ولا يكفي في إثبات وقوعه أن يراه بعض الناس في مكة، دون غيرها من الأقطار والآفاق. وقال آخرون إن انشقاق القمر هو، حسب القرآن، مظهر من مظاهر قيام الساعة، وبما أن الساعة لم تقم بعد فإن الآية يجب أن تفهم كما يلي: "اقتربت الساعة وسينشق القمر". ومنهم من قال إن الانشقاق الذي رآه بعض الناس في مكة كان عبارة كسوف، بناء على ما روي عن ابن عباس من أنه قال: "كسف القمر" (1) على عهد رسول الله، فقالوا: سحر القمر فنزلت "اقتربت الساعة" الآية. وهذا المعنى، أي قولهم "سحر القمر"، قد يجد ما يعضده في قوله تعالى حكاية لرد فعلهم: "وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ". (2) أما الرواية التي تقول: طلبت قريش من النبي معجزة، وذلك بأن ينشق القمر ويروونه بأعينهم، فلا تؤخذ بعين الاعتبار لأن القرآن كرر مرارا أنه لا فائدة في مثل هذه المعجزات مادام قد كذب بها أقوام أنبياء سابقين، وأن المعجزة الحقيقة التي جاء بها الرسول محمد عليه السلام هي القرآن، وهذا ما تقرره السورة.

- نص السورة

1- كذبوا بقرب قيام الساعة... فأتركهم فسوف يرونها!

بسم الله الرحمن الرحيم
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ¹، وَإِنْ يَرَوْا آيَةً (من آيات الله الكونية)
يُغْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ² (ذاك عمل من عمل السحرة وسيمر كما مر

1- وفي الاصطلاح الحديث: الكسوف للشمس والخسوف للقمر.

2- تعبر العامة عن خسوف القمر بما يفيد أنه سحر (أصيب القمر به الخ)، فيخرج الأطفال حاملين أواني من نحاس يدقون عليها (كالدفوف) تنبيهًا للقمر وطردها للسحر الذي أصيب به.

سحر السابقين)، وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ³ (هم مستقرون على التكذيب وإتباع الهوى). وَلَقَدْ جَاءَهُمْ (في القرآن) مِنَ الْأَنْبَاءِ (عن هلاك الأقوام الماضية) مَا فِيهِ مَرْجَرٌ⁴ (إبداع لهم): حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ (فيها عبر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا)، فَمَا تَعْنِ النَّذْرُ⁵؟ (فما الفائدة في مواصلة الإنذار بالمعجزات؟)، فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ (فالإتيان بالمعجزات لا يفيد فيهم، ستراهم) يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكَرَهُ (قيام الساعة)، خَشَعًا أَبْصَارَهُمْ (ذليلة أبصارهم)، يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ (من القبور) كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ⁷، مُهْطِعِينَ (مسرعين) إِلَى الدَّاعِي! يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ⁸.

2- من الأنبياء التي جاءتهم ... إغراق قوم نوح ...

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ⁹ (فجزروه وآذوه)، فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ¹⁰ (انصرني وعاقبهم)، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ¹¹ (متدفق)، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا (يتدفق منها الماء) فَالْتَقَى الْمَاءُ (مَاءَ الْمَطَرِ وَمَاءَ الْأَرْضِ) عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُيِّرَ¹² (على مستوى مقدر مرسوم)، وَحَمَلْنَاهُ (نوح) عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَذُسرْ¹³ (على سفينة مصنوعة من ألواح ومسامير)، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا (بتقديرنا ومراقبتنا وتركنا الباقي)، جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا¹⁴ (على كفرهم بنوح). وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً (عبرة لمن بعدهم) فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ¹⁵؟ (من متذكر معتبر)، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرٍ¹⁶؟ (قد عرفت كيف كان عذابي وإنذاري لهم). وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ (سهلناه) لِلذِّكْرِ (لأخذ العبرة من أخبار الماضين) فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ¹⁷ (متعظ).

3- ومن الأنبياء التي جاءتهم ... إهلاك قوم عاد.

كَذَّبَتْ عَادٌ (نبيهم هوداً) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرٍ¹⁸؟ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا (لصوتها صرير شديد) فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مُسْتَمِرٍّ¹⁹ (يوم شر وشؤم)، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ²⁰ (تقتلع الناس ثم ترمي على الأرض بأجسامهم وقد نزع منها رؤوسهم، كأنهم أجسام نخل منقلب)، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرٍ²¹! وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ²².

4- ومن الأنبياء التي جاءتهم ... إهلاك قوم ثمود

كَذَّبَتْ ثَمُودُ (نبيهم صالحاً) بِالنَّذْرِ²³ (التي أنذرهم بها)، فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ! إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٌ وَسُعْرٌ²⁴ (ضلال وعناء قالوا): أَوْلَقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ

مِنْ بَيْنِنَا (أَيُّكُنْ قَدْ خَصَّ بِالوَحْيِ دُونِنَا ؟) بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ²⁵ (متكبر متجبر). سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ²⁶، إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ (التي طلبوها من نبيهم صالح آية وحجة على نبوته)، فِتْنَةً لَهُمْ (ابتلاء واختبار، وقلنا له:) فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ²⁷ (راقب واصبر)، وَبَنَتْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ (يوم لهم ويوم لها) كُلَّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ²⁸ (يحضره من هو له: في اليوم الذي لها تشرب الماء كله، وفي اليوم الذي لهم، لا تشرب هي وهم يشربون الماء وتسقيهم اللبن)، فَتَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ (أحد رجالهم وطلبوا منه عقرها) فَتَعَاطَى فَقَعْرٌ²⁹ (فتناول الناقة بسلاحه فعقرها)، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَتَذَرُ³⁰؟ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً (نفخة الصور) فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ³¹ (كهشيم حظيرة الغنم). وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ³².

5- وَمِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ إِهْلَاكٌ قَوْمَ لُوطَ

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ³³ (التي جاءهم بها)، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا (حجارة) إِلَّا آلَ لُوطٍ (الذين صدقوه واتبعوه) نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ³⁴ (في وقت السحر بين أول الليل وآخره)، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا. كَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ شَكَرَ³⁵. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ³⁶ (لم يصدقوه)، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ (أرادوا اغتصاب ضيوفه، وكانوا ملائكة، وهم كانوا يحسبونهم رجالا) فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ (أصْبَيْنَاهُمْ بِالْعَمَى فَلَمْ يَبْصُرُوا الضُّيُوفَ عِنْدَمَا دَخَلُوا يَبْحَثُونَ عَنْهُمْ). (قلنا لهم) فَذُوقُوا عَذَابِي وَتَذَرُ³⁷. وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ³⁸ (زلزال وأحجار تسقط عليهم لم تتوقف حتى هلكوا)، فَذُوقُوا عَذَابِي وَتَذَرُ³⁹! وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ⁴⁰. وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ⁴¹ (3)، كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ⁴².

6- خاتمة: أَكْفَارُكُمْ يَا قَرِيشَ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ؟!

أَكْفَارُكُمْ (يا قريش) خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكُمْ (الذين مضوا)؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ⁴³ (ألكم في الكتب عهد يبرؤكم)؟ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ⁴⁴ (عدد كبير وسننتصر) سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ (جمع قريش) وَيُؤَلِّقُونَ الدُّبُرَ⁴⁵ (يهربون). بَلْ السَّاعَةُ (القيامة) مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ⁴⁶ (من هزيمتهم تلك). إِنَّ

الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ⁴⁷ (في عناء)، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (ويقال لهم) ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ⁴⁸ (جَهَنَّمَ)، إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ⁴⁹. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ (كلمة واحدة: كن) كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ⁵⁰. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ (أمثالكم من الأمم الماضية) فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ⁵¹؟ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ⁵² (مدون في الكتب)، وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ⁵³ (مسطر مكتوب). إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ⁵⁴ (أنهار)، فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ (مجلس حق) عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ⁵⁵ (الله).

- تعليق

مما تجدر ملاحظته في هذه السورة أن الخطاب فيها يتم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي (ص). يشهد لهذه الملاحظة ورود آيات في هذه السورة تفيد صراحة أنه لم تعد ثمة فائدة لمواصلة إنذار قريش، منها قوله تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ (الأخبار عن هلاك الأقوام الماضية) مَا فِيهِ مَرْجَرٌ (رادع لهم)، حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ (فيها عبر ودروس لهم ومع ذلك لم يتعظوا) فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ؟ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ". والموعود يوم القيامة. وهذه أول مرة -حسب ترتيب النزول- يأتي فيها الأمر بالإعراض عن المشركين بصيغة العموم. كان هذا الأمر، من قبل، محدودا في أشخاص، مثل قوله تعالى: "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (النجم 29)". أما هنا فالموقف يشبه موقف الأنبياء السابقين من أقوامهم، موقف اليأس والدعاء عليهم بالهلاك، وقد ورد هذا بعبارات أوضع في سورة الأعراف: "كَذَّبُوا شُعْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ، وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ فَكَيْفَ أَسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ" (الأعراف 92-93)، "وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا نَبَأُ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ، فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَتَصَحَّتْ لَكُمْ، وَلَكِنْ لَمْ تُحِبُّوا النَّاصِحِينَ (الأعراف 77-79، وهي بعد السورة التالية).

على أن مواقف الأنبياء السابقين ليست واحدة ولا متطابقة فإذا كان اليأس يدفع الأنبياء أحيانا إلى الدعاء على أقوامهم بالهلاك فإن فيهم من كان موقفه الرجاء. وكما ضرب الله مثلا بيأس أولئك أبرز أيضا رجاء الآخرين. وفي السورة التي تلي سورة القمر مباشرة يأتي الأمر إلى الرسول عليه السلام بالتزام الصبر: "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص 17). إن خطاب "الصبر" سابق ولاحق، وهو القاعدة، والباقي استثناء. والقرآن نزل منجما ولذلك راعى الكليات والجزئيات، فجاء خطابه حافلا بالقواعد العامة وبالاستثناءات، وكيف يصلح لكل زمان ومكان إن لم يكن كذلك؟

المعاد

1- خطاب الجنة والنار في القرآن : سلاح وأخلاق.

إذا كان لابد من خلاصة عامة، لمضمون ما سبق، نستهل بها هذا الاستطراد الذي نختم به رحلتنا مع مرحلة جديدة في مسار نزول القرآن وما رافقه من تطور في علاقة الدعوة المحمدية مع الملأ من قريش، فإن ما ينبغي إبرازه بادئ ذي بدء ذلك التناغم والتكامل بين بداية هذه المرحلة ونهايتها على صعيد مسيرة التنزيل. لقد بدأنا هذه المرحلة بسورة فرضت علينا نفسها، بما تضمنته من إشعار بالانتقال من التركيز على موضوع "النبوة والألوهية" إلى التركيز على ركن المعاد: البعث والحساب. لقد كان ذلك واضحاً في عنوان السورة وفي أسلوبها ومضمونها : "القارعة"! لقد قرعت سمعنا فعلاً بالإعلان عن يوم جديد : "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ". وسرنا مع هذا الدرب الجديد نستمتع إلى خطاب اليوم الموعود، ونتحسس ردود فعل الملأ من قريش، إلى أن وجدنا أنفسنا أمام إعلان جديد : "اقتربت الساعة وانشق القمر!"

لقد أصر الملأ من قريش على التكذيب، شأنهم شأن الأقوام الماضية، قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون... لقد رفضوا قريش أخذ العبرة من الماضي فليتركوا يواجهون القول الفصل، "يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكَرَ".

لم نخطط لبداية هذه المرحلة الثانية ولا لنهايتها، كما أننا لم نخطط للمرحلة السابقة لها، لقد تتبعناهما اعتماداً على ترتيب النزول المروي (مع تعديلات قليلة استندنا فيها على مرويات بدت لنا أكثر اتساقاً مع مضمون السور ومساق التنزيل).

مرحلتان (أو قل خطوتان أو بابان أو محطتان -ولا مشاحة في الأسماء) سجلتا لحظات تأسيسية في السيرة النبوية المتناغمة مع مسير القرآن المنجم. وكما ختمنا المرحلة الأولى باستطراد تجاوزنا فيه الفهم النصي، للأسماء الحسنی الثلاثة (الرب، الله، الرحمان) كما عبر عنه اللسان العربي المبين، إلى التحليل المقارن الذي يستحضر تصورات الديانات التي كانت تشكل "محيط" الدين الجديد، سنختتم هذه

المرحلة باستطراد استشرافي مماثل ينتقل بنا من معهود العرب إلى آفاق تجاوزه، عندما أصبح القرآن كتاب حضارة عالمية تعج بثقافات وديانات متنوعة متعددة. لنبدأ أولاً بنوع من الاسترجاع لمضمون مفهوم البعث والجنة والنار كما كان يفهم ويعترض عليه داخل معهود العرب زمن الدعوة المحمدية.

لعل أول ما ينبغي إبرازه هنا هو تميز القرآن عن كل من التوراة والإنجيل، بل، وربما، عن الديانات الكبرى كلها، بالاهتمام الكبير الذي أولاه لمسألة "البعث والجنة والنار"⁽¹⁾. يتجلى هذا الاهتمام المتميز على صعيد شكل الخطاب كما على صعيد مضمونه. ولعل أكثر ما أبهر قريشا في الخطاب القرآني حتى عجزوا فعلاً عن معارضته والإتيان بمثله هو خطابه عن الجنة والنار. وهذا قد يكون راجعاً في جزء منه إلى أن قريشا لم تكن تؤمن بالبعث والحياة الأخرى، وبالتالي استحالة عليها إنتاج

1- موقف التوراة من المعاد، الحساب والجنة والنار، غامض ملتبس ومتقلب. يقول د. عبد الوهاب المسيري في موسوعته "اليهود واليهودية والصهيونية": "ولا توجد في كتب العهد القديم الأولى أية إشارات إلى بعث الموتى أو الحياة الأبدية، إذ يبدو أن العبرانيين القدامى لم يكونوا من المؤمنين بالبعث، وإنما كانوا يؤمنون بأن الإنسان جسد يقنى بالموت. وحتى بعد أن ظهرت فكرة خلود الروح، فإن هذه الفكرة لم تكن بعد مرتبطة بفكرة البعث والخير والشر والثواب والعقاب، أن الروح كانت تذهب بعد الموت إلى مكان مظلم يُسمى «شئول»، حيث تبقى إلى الأبد". ويؤكد المسيري أن فكرة البعث والحساب قد ارتبطت عند اليهود بالتحولات التي عرفها تاريخهم. وأن مفهوم "العالم الآخر" الذي يقع في المستقبل خارج "الدنيا" لم يظهر إلا بعد الانتكاسات التي عرفها تاريخهم، وأن من أولى المحاولات التي ظهرت للإقرار بفكرة وجود حساب في "اليوم الآخر" قد ظهرت في آخر سفر دانيال. "وقد ازدادت الرؤية الأخروية اليهودية تبلوراً بعد ذلك، فظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد كتب الرؤى التي تدور حول موضوعات أخروية نشورية. ويلاحظ أن فكرة شئول غير المحددة اكتسبت تحديداً في آخر هذه الفترة وأصبحت كلمة «جهنم» تدل عليها، ووُضعت «جهنم» مقابل «حديقة عدن» التي تحدد مفهومها هي الأخرى فأصبحت هي «الجنة». وأصبح الشينان مرتبطين بفكرة البعث والثواب والعقاب في العالم الآخر". وهكذا "فإذا كانت بداية التاريخ اليهودي، من وجهة النظر الصهيونية، هي الخروج من أرض العبودية في مصر ودخول أرض الميعاد، فالنهاية الأخروية هي الخروج أيضاً من أرض العبودية في مصر أو روسيا أو أي منفى آخر، ودخول أرض الميعاد أيضاً... وإذا كان دخول كنعان قد أدّى إلى إنشاء الهيكل والعبادة انقربانية المركزية (حيث يحل الإله وسط الشعب في قدس الأقداس)، فإن الدخول الحديث إلى فلسطين يؤدي إلى إنشاء الدولة الصهيونية، بحيث يحل الإله فيها، بالنسبة للمتدينين اليهود فتصبح دولة مقدسة. أما بالنسبة إلى الملحدين، فهي دولة مقدسة بذاتها إذ أن حلوليتهم حلولية بدون إله ووحدة وجود مادية (المسيري). هذا عن اليهودية، أما المسيحية فلا تقول بوجود جنة ولا نار حسيّتين، الجنة عندهم هي التحول إلى أرواح تقيم مع المسيح، مثل الملائكة مع الله. وأما النار، وهي لغبر المسيحيين الذين لا يؤمنون بألوهية عيسى، فهي الهاوية حيث الموت الأبدي.

خطاب في موضوع لم تكن تؤمن بوجوده، هذا ممكن! لكن ذلك راجع بكيفية أساسية إلى أن القرآن لم يقتصر على إثبات وجود هذا الذي تنفي قريش وجوده، بل قدمه إليهم مشخصا في صور بيانية بلاغية تجلى فيها فعلا صدق الحديث النبوي "إن من البيان لسحرا".

لقد وجدت قريش في هذا الخطاب مستوى من الفصاحة والبلاغة أرقى كثيرا من سجع الكهان وقصائد الشعراء ورجزهم، حتى إنهم احتاروا في الوصف الذي يصدق عليه. لقد كانت قريش تنكر أن يكون بعد الممات حياة أخرى، وتجادل في هذا الأمر جدالا مقرونا بالاستهزاء، فجاءت لهجة القرآن في هذا الموضوع قوية تقريرية وجدالية متنوعة، تقدم عن البعث والحساب والجنة والنار مشاهد حية كأنها وصف لواقع حسي حي ملموس، مشاهد يتخللها، تارة حوار حي بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وتارة أخرى شجار بين الملقى بهم في جهنم، يتلاومون ويحمل بعضهم بعضا مسؤولية هذا المصير الذي آلوا إليه؛ وفي المقابل من ذلك حديث ودي هادئ ينبئ عن الفرح والسعادة يجري بين أصحاب الجنة، بعضهم مع بعض، أو بينهم وبين الملائكة.

ومما يلفت النظر أن الوعيد بالعذاب يوم القيامة يُقدّم في هذه المرحلة كعقاب على الطغيان بالمال وعدم الإحسان إلى اليتامى والفقراء والمساكين: وهكذا يخاطب القرآن أغنياء قريش وهم في النار ليبين لهم أسباب إلقائهم فيها، يقول لهم: "كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما، وتحبون المال حبا جما. (الفجر 17-20)". ويكاد الباحث يستخلص النتيجة التالية من السور والآيات التي نزلت في هذه المرحلة، وهي أن الوحي جاء من الله لينذر الأغنياء الذين يستأثرون بالمال ويهضمون حقوق اليتامى ولا يحسنون إلى الفقراء بأن لهم جهنم، وليبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات -من الصدقات وغيرها- بأن لهم الجنة. وبما أن القرآن يجعل مصير "المكذبين من أولي النعمة" اليوم، كمصير أمثالهم في القرون الماضية، ويشخص هذا المصير بصور بيانية يتزاحم فيها الماضي والحاضر والمستقبل في مشهد واحد، يتداخل فيه زمن المكذبين من الأقوام الماضية مع زمن المكذبين من قريش، وينتقل فيه الوصف والحوار من زمن الدنيا إلى زمن الآخرة بدون حواجز، فإن المخيال الديني الاجتماعي السياسي الذي يتشكل من خلال هذه المشاهد لا بد أن يزامن هو الآخر بين ما جرى في الماضي وما سيجري في المستقبل، وبالتالي فالجزء في "الآخرة" ينسحب على الدنيا أيضا، إذ لا فاصل بينهما في المشهد. ومن هنا المضمون السياسي للدعوة المحمدية في هذه المرحلة: إن "الآخر"، المشركين الكافرين الخ سيعاقبون في الدنيا كما في الآخرة، ليس فقط بسبب

كفرهم وشركهم بل أيضا بسبب استئثارهم بالمال وعدم الإحسان إلى الفقراء. وهذا الاستئثار هو في الحقيقة نوع من "الكفر": هو كفر بالنعمة واستبداد بها. وبما أن مال الدنيا لن يمنع صاحبه من العقاب في الآخرة فهو لن يمنعه منه في الدنيا كذلك.

هذا النوع من العرض التشخيصي للحياة الأخرى كان سلاح الدعوة المحمدية للدفاع عن النفس إزاء خصومها من الملأ من قريش الذين استأثروا بالثروة التي كانوا يجنونها من موقع مكة كمركز ديني وتجاري، وفي نفس الوقت كان سلاحا "هجوميا" على الصعيدين النفسي والمعنوي -صعيد الترغيب والتخويف- يقوم بمهمتين في آن واحد: تخويف قريش بمشاهد جهنم وإغرائهم بمشاهد الجنة، الشيء الذي جعلهم يعيشون في تناقض وجدائي عبر عنه القرآن بقوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ". هذا بالنسبة لكفار قريش، أما بالنسبة للمؤمنين، صحابة الرسول عليه السلام، فإن مشاهد الجنة، وهم يتسامرون فيها وينعمون في غرفها بكل ما لذ وطالب، تنسيهم الحرمان الذي يعانون منه في الدنيا، وفي الوقت نفسه تحرك "الطمع" في نفوس المشركين، عليهم ينضمون إلى المؤمنين. وهذا الأسلوب في الدعوة الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، من ذلك قوله تعالى: "ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ. وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 55-56)، وقوله: "وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا. وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ (كذلك)، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا" (الإسراء 59-60).

خطاب القيامة والجنة والنار في القرآن: أخلاق وسلاح. لقد أوضحنا جانب السلاح فيه بما يكفي لجعل القارئ يفرق بين زمن القراءة -زمنه هو- وبين زمن الدعوة. إن زمن القراءة زمن نفسي قد يطول وقد يقصر، ولكنه لا يتردد كتردد ضربات المطرقة، بينما زمن الدعوة هو "زمن المطرقة" بالذات، لا يُحسب بالطول ولا القصر بل بتكرار الضربات.

حديث الجنة والنار في القرآن حديث مكرر كما تتكرر الشعارات في كل دعوة. لكن ما يميز التكرار في القرآن هو أنه يفترق تماما عن تردد ضربات المطرقة وتكرار الشعارات عندما "يسمع" (يفهم) من خلال السياق. ذلك لأن السياق يحول المنفصل إلى متصل. وقد حرصنا على التنبيه إلى ذلك.

نأتي الآن إلى الجانب النظري في الموضوع. لقد احتجت قريش مرارا بما يمكن التعبير عنا بـ "عدم معقولية البعث"، لقد تساءلوا باستنكار واستغراب: "أَنَذَا مِنْتَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ" (الواقعة 47-48)، وقالوا

باللهجة نفسها : قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (يس 78) الخ. وكان جواب القرآن بسيطاً واضحاً محرّجاً: أَنْتُمْ تَوَمِّنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ ابْتِدَاءً فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِكُمْ كَمَا فَعَلَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، خصوصاً وأنّكم تعرفون أنّ صنع الشيء مرة أخرى أسهل من صنعه في المرة الأولى. لكن ما كان يمنع قريشاً من قبول فكرة "البعث" ليس ما فيها من قوة أو ضعف على المستوى الحجاجي المنطقي. بل إن ما كانت ترفضه قريش، من عمق أعماقها، هو مضمونها الأخلاقي.

ذلك أنّ جوهر فكرة البعث في الإسلام، ومبررها والغرض منها، هو "الحساب". فالآخرة هي يوم الدين، يوم الحساب. اليوم الذي يطبق فيه مبدأ المسؤولية الفردية على الجميع : "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة 7-8)، "أَلَا تَرَى وَأَنْزَرُ وَأَنْزَرُ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى، ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءُ الْآوْفَى (النجم 38-41).

وهذا في الحقيقة ما كان يهرب منه الملا من قريش. وقد سبق أن رأينا كيف أنّ بعض كبارهم كانوا يبحثون عن وسائل للتخلص من ذنوبهم، إما ببيعها أو بكراء من ينوب عنهم في تحمل عقابها! كانت عقليتهم التجارية تمتنع عن رؤية شيء آخر لا يقع تحت قانون الربح والخسارة. هم يربحون في الدنيا من حج القبائل إلى الأصنام، ومما يرافق ذلك من التسوق والبيع والشراء، ويمارسون الربا والقمار ويأكلون أموال اليتامى الخ، وفكرة "البعث" تعني الحساب الفردي على كل سلوك لا أخلاقي يأتيه الفرد في حياته. ولهذا السبب كان موقفهم منه حذياً: الرفض الجامد المطلق.

ومن هنا تلك الظاهرة اللافتة للنظر: وهي أنّ قريشاً لم تميز في البعث كما فعلت شعوب وديانات وحضارات أخرى - بين بعث النفوس وبعث الأجساد. لقد لجأت ديانات وفلسفات منذ القدم إلى الخروج من "المأزق" الذي تطرحه فكرة البعث بالقول بـ"صور مختلفة" - إن جوهر الإنسان هو روحه، نفسه، وإن البدن ليس سوى حامل أو سجن أو مادة لهذا الجوهر. وبالتالي فالبعث عند من يقولون به - من هذا المنظور - سيكون للنفوس وحدها، وبالتالي فالحساب، ثواباً وعقاباً، سيكون للنفوس وحدها كذلك. أما الأجساد فلم تكن إلا آلات للنفوس، وهذا المنظور يجعل اعتراض قريش "من يحيي العظام وهي رميم" غير ذي موضوع.

وبهنا هنا أنّ تقوم في هذا الاستطراد باطلاة على هذا الجانب الذي كان له حضور قوي في الفكر الفلسفي في الإسلام خصوصاً بعد أن كتب الغزالي "تهافت الفلاسفة" الذي كفر فيه الفلاسفة بسبب ما استنتجته من آرائهم في "المعاد من إنكار لـ"بعث الأجساد".

2- الفارابي: النبي والفيلسوف

فكرة "المعاد" لدى فلاسفة الإسلام (الفارابي وابن سينا تخصيصا مع استبعاد المتصوفة والإشراقيين الخ)) مؤسسة، أو قل هي امتداد لنظريهم في المعرفة القائمة على فكرة الفيض: فيض العقل الأول (=الله في الخطاب الديني) - عبر العقول السماوية (=الملائكة في الخطاب الديني)- على النفوس البشرية تحت فلك القمر (عالم الأرض). والفرق بين النبي والفيلسوف على هذا المستوى هو أن الفيلسوف يتلقى بعقله الحقائق من العقل الفعال (العقل المكلف بما تحت فلك القمر وهو جبريل في الخطاب الديني) في حين يتلقاها النبي منه بمخيلته. وهذا الذي يلقيه العقل الفعال، في عقل الفيلسوف أو في مخيلة النبي، يتلقاه هو من الله. وبما أن الإنسان عقل ومخيلة فيكون الله عز وجل يوحى إليه بتوسط العقل الفعال إلى عقله المنفعل (المتلقي) ثم إلى قوته المخيلة. فيكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيمًا فيلسوفًا ومتفعلًا على التمام، وبما يفيض منه إلى قوته المخيلة نبيا منذرا بما سيكون ومخبرا بما هو الآن من الجزئيات... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية وفي أعلى درجات السعادة". ومن هنا كان ما يأتي به النبي يقدمه للجمهور على شكل مثالات وتشخيصات ومحاكمات كي يدركوه، لكونهم ليسوا أهل نظر عقلي. أما ما يأتي به الفيلسوف فهو يدركه إدراكا عقليا لا يحتاج فيه إلى مخيلة. ومن هنا قول الفارابي: ما في الدين مثالات لما ف الفلسفة، وبالتالي لا تناقض بينهما.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يربط الفارابي كغيره من الفلاسفة القدماء السعادة بالمعرفة العقلية، إذ بهذه المعرفة تستكمل نفس الإنسان حقيقتها (تصير عقلا) وتصبح غير محتاجة في قوامها إلى مادة، فتكون بذلك من جملة الأشياء البرينة من المادة، أي من جملة الكائنات التي لا تحتاج في أن تدرك إلى عضو به تدرك (كالبصر مثلا)، ولا إلى جسم يكون كالمادة للصورة التي تريد إدراكها (في المبصرات). وهكذا فالسعادة هي أن تصير النفس، بواسطة المعرفة العقلية، "في جملة الجواهر المفارقة للمواد وأن تبقى على تلك الحال دائما أبدا (وذلك هو الخلود)، إلا أن رتبته تكون دون رتبة العقل الفعال"، لأن هذا جوهر روحاني بطبيعته. أما النفس فليست كذلك، وإنما تكتسب تلك الصفة بالعلم والمعرفة. "أما ما دامت (النفس) لم تستكمل (=حقيقتها) ولم تفعل أفعالها (=العقلية التي بها تصير كاملة فبأنها تبقى) قوى وهينات فقط معدة لأن تقبل رسوم الأشياء مثل البصر قبل أن يبصر وقبل أن تحصل فيه رسوم المبصرات" (2).

تلك هي السعادة عند الفارابي (أو لنقل "الجنة" في الدنيا والآخرة، جنة المعرفة العقلية). وطريقها، كما رأينا، هو العقل واستكمال النفس حقيقتها بالمعرفة النظرية، المعرفة بمبادئ الموجودات ونظام الكون والعقول المفارقة الخ. أما ابن سينا فهو يربط السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند تحررها من البدن كما سنرى.

3- ابن سينا ومسألة المعاد

- اللذة والألم

يميز ابن سينا بين المعاد كما أخبر به الشرع ويقول عنه : "إنه لا سبيل إلى إثباته إلا من طريق الشريعة وتصديق خبر النبوة وهو الذي للبدن عند البعث". وبين المعاد كما "هو مدرك بالعقل والقياس البرهاني... وهو السعادة والشقاوة... اللتان للأنفس"⁽³⁾. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يربط ابن سينا السعادة باللذة التي تحصل للنفس عند بلوغها كمالها الخاص بها أي عندما تصير عالما عقليا، مرتسما فيها صورة الكل، فتشاهد الحُسْن المطلق والخير المطلق والجمال المطلق وتتحد به نوعا من الاتحاد! كما يربط الشقاوة بالألم الذي يحصل للنفس بسبب فقدان تلك اللذة. وإذا كانت النفس، وهي في البدن، لا تحس بالألم الناتج عن فقدان اللذة المذكورة فذلك لأن البدن يقوم حاجزا بينها وبين تلك اللذة، فإذا زال هذا الحاجز بسبب الموت أدركت فقدانها للذة وأحست بالألم، مثلها في ذلك مثل الشخص الذي يكمن الألم في عضو من أعضائه، غير أن وجود مانع للإحساس بالألم كالمخدر مثلا يجعله لا يحس به، حتى إذا زال المانع شعر بالألم شديد. وإذا فالبدن يلعب دورين متكاملين : فمن جهة يشغل النفس عن استكمال جوهريتها وبلوغ اللذة العليا، ومن جهة أخرى يحول دونها ودون الشعور بالألم الذي يكمن وراء فقدان اللذة. فإذا تحرر الإنسان في حياته الدنيا من البدن وشواغله أحس باللذة حسب درجة تحرره، وإذا لم يتحرر شغله البدن ليس فقط عن الشعور باللذة بل أيضا عن الشعور بالألم الناجم عن فقدان اللذة، حتى إذا فارقت النفس البدن بالموت زال المانع فتعيش في سعادة كاملة أو ناقصة حسب درجة تحررها من شواغل البدن أثناء وجودها فيه، وتعاني من شقاء كامل أبدي أو مؤقت حسب درجة انشغالها بالبدن أثناء وجودها فيه⁽⁴⁾.

- أصناف النفوس بعد الموت

وهكذا فالنفوس بعد الموت أصناف :

3 - ابن سينا : النجاة ص 326

4 - المصدر نفسه ص 328 وما بعدها

1- هناك النفوس العالمة الفاضلة، أي التي حصلت على كمالها الخاص بها قبل أن تفارق البدن بسبب الموت فتمكنت من المعرفة التامة بالوجود ومبادئه وعقله ومراتبه حتى صارت "عالما معقولا موازيا للعالم الموجود كله مشاهدا لما هو الحق المطلق والخير المطلق والجمال والحق"⁽⁵⁾. إن هذه النفوس، إذا استمرت على تلك الحال وهي بعد في بدنها ولم يشغلها شاغل حسي طارئ فإنها تبقى كذلك بعد الموت في لذة لا نهاية لها، فتتصل لذتها في الدنيا وهي في البدن بلذتها في الآخرة وقد فارقت البدن، ولذلك تعيش في سعادة لا يمكن قياسها ولا وصفها بأنها أعظم وأشد، لأنه ليس هناك سبيل إلى مقارنتها بأي سعادة أخرى، فهي السعادة الكاملة، والكامل يعرف بنفسه وليس بمقارنته بالناقص.

2- وهناك النفوس العالمة ولكن غير الفاضلة وهي التي تنبعت، وهي في البدن، لكمالها فعملت بالفعل أنه موجود وأصبحت نازعة إليه، ولكنها مع ذلك لم تحصله لأن انشغالها بالبدن قد أنساها ذاتها ومعشوقها كما ينسى المرض الاستلذاذ بالحلو واشتهائه وكما تميل الشهوة بالمرضى إلى المكروهات الحقيقية. فإذا فارقت هذه النفوس البدن عرض لها عارضان. أولهما اللذة التي تستلزم معرفتها بكمالها، وثانيهما الألم الناتج عن الإحساس بفقدان تلك اللذة بسبب انشغالها بالألم. وبذلك تتألم ألما عظيما عندما تفارق البدن بالموت، لأن البدن كان لها بمثابة المانع الذي يمنع الإحساس بالألم. وذلك الألم العظيم هو الشقاوة التي لا تعدلها شقاوة. غير أن هذا الألم لا يدوم إلى الأبد بل يبقى المدة اللازمة لتطهير تلك النفوس ثم يزول. هذه النفوس إذن لا تخلد في الشقاء بل تسعد في النهاية.

3- وهناك النفوس التي اكتسبت رأيا (=سمعت) بأن هاهنا أمورا يكتسب بها الشوق إلى كمال جوهرها، ولكنها وهي في بدنها لم تحصل ما تبلغ به، بعد مفارقتها البدن، كمالها التام. فإذا فارقت البدن على هذه الحال الناقصة وقعت في شقاء أبدي إذ لا يمكنها اكتساب أوائل الملكة العلمية لأن هذه إنما كانت تكتسب بالبدن، وهي قد فارقت البدن. والذين هم هذه حالهم إما مقصرون من السعي إلى اكتساب الكمال الإنساني وإما معادون جاحدون متعصبون لأراء فاسدة، والجاحدون أسوأ حالا في الشقاء الأبدي من المقصرين.

4- وهناك النفوس السليمة التي هي على الفطرة، أي التي لم تعرف طريق استكمالها جوهرها ولا سمعت به والتي، بالإضافة إلى ذلك، لم تتدنس بالعقائد المخالفة، هذه النفوس "إذا سمعت ذكرا روحانيا يشير إلى أحوال المفارقات (أي إذا اتبعت ديننا يذكرها بالجنة والنار) "حصل لها شوق وأصابها وجد مبرح مع لذة

مفرحة⁽⁶⁾. فمن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى ذات الكمال، أي إلى مناسبة ذاته للكمال، لم يقطع إلا بالوصول إليه، وبالتالي يسعد السعادة القصوى. ومن كان شوقه إلى الكمال راجعا إلى أمور أخرى كطلب الحمد والمنافسة فإنه يقطع بما يحصل له من ذلك.

5- وأخيرا هناك نفوس "البله من الناس" التي لم تكتسب الشوق ولا عرفت كمالها، فإذا فارقت البدن وكانت غير مكتسبة للهيئات البدنية الرديئة وليس لها حياة غير ذلك ولا معنى يضاده وينافيه فإنها تعذب عذابا شديدا بمفارقة البدن ومقتضيات البدن، من غير أن يحصل لها شوق، لأن آلة ذلك، التي هي البدن، قد بطلت، وخلق التعلق بالبدن قد بقي⁽⁷⁾. ويذكر ابن سينا رأيا آخر يصدد هذه النفوس ويرجعه. ومؤدى هذا الرأي أن هؤلاء البله إذا فارقت نفوسهم أبدانها، وهي بدنية لا تعرف غير البدنيات وليس لها تعلق بما هو أعلى من الأبدان فيشغلهم عنها، أمكن أن تستعمل هذه النفوس أجراما سماوية، لا بأن تصير أنفسا لتلك الأجرام أو مدبرة لها، بل تستعمل تلك الأجرام في التخيّل، أي تتخيّل بواسطتها ما قيل لها في الدنيا عن أحوال الآخرة : فالنفوس الزكية منها؛ أي التي اعتقدت الخير وعملت في الدنيا. تشاهد الجنة وتنعم في هذه المشاهدة. والنفوس الشريرة التي عملت الشر في الدنيا تشاهد جهنم وتشقى بهذا المشاهدة. وسيكون ذلك بمثابة السعادة الحقيقية بالنسبة للنوع الأول والشقاوة الحقيقية بالنسبة للنوع الثاني، لأن الصور الخيالية ليست أقل وضوحا من الصور الحسية، بل إن قوتها تزداد كما في صور الأحلام حيث تتألم النفس ألما شديدا إذا كانت تلك الصور مزعجة⁽⁸⁾.

تلك هي نظرية ابن سينا في المعاد وهي مؤسسة، كما رأينا، على نظريته في النفس. والواقع أن النظرية السينوية في النفس لا تؤسس نظريته في المعاد وحدها بل تؤسس كذلك نظريته في السعادة التي تحصل لبعض النفوس في هذه الدنيا، قبل مفارقتها أبدانها مفارقة نهائية. يتعلق الأمر إذن بما يعرف بـ "تصوف" ابن سينا، أو على الأصح بنظرية التصوف السينوية، وهذا موضوع آخر.⁹

6 - ابن سينا. الإشارات والتنبيهات. ج4، ص 34

7 - المصدر نفسه ص 4 ج 35. أيضا: النجاة. ص 329 وما بعدها

8 - ابن سينا. شرح أوتولوجيا. المصدر نفسه ص 72. الإشارات والتنبيهات. ج4 ص 35

9- نذكر أننا قد استعنا هنا هذه الفقرات من كتابنا "بنية العقل العربي". القسم الثالث. الفصل الثاني.

4- موقف ابن رشد.

ألف الغزالي كتابه الشهير "تهافت الفلاسفة" ليرد على الفلاسفة بنفس منطقهم -والمقصود ابن سينا- فحصر المسائل التي رأى أن آراءهم تخالف ما جاء به الإسلام في عشرين مسألة آخرها "مسألة بعث الأجساد"، وقد كفرهم في ثلاث مسائل، منها هذه الأخيرة. وقد رد عليه ابن رشد بكتاب سماه "تهافت التهافت" تتبع فيه ردود الغزالي في كل مسألة وبين أن ما نسبته للفلاسفة إنما يخص تأويلات ابن سينا لفلسفة أرسطو وليس آراء هذا الأخير. ويهنا هنا أن ننقل رد ابن رشد في المسألة التي نحن بصدد حلها⁽¹⁰⁾.

قال الغزالي: "مسألة في إبطال إنكارهم لبعث الأجساد، ورد الأرواح إلى الأبدان، ووجود النار الجسمانية، ووجود الجنة والحدور العين، وسائر ما وعد به الناس. وقولهم: إن كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق لتفهيمهم ثوابا وعقابا روحانيّين، هما أعلى رتبة من الجسمانيين".

قال ابن رشد تعقيبا على ذلك "ولما فرغ (الغزالي) من هذه المسألة (= المسألة السابقة 19) أخذ يزعم أن الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد! وهذا شيء ما وجد، لواحد ممن تقدم، فيه قول. والقول بحشر الأجساد أقل ما له منتشر في الشرائع [= منذ] ألف سنة. والذين تأدت إلينا عنهم الفلسفة هم دون هذا العدد من السنين. وذلك أن أول من قال بحشر الأجساد هم أنبياء بني إسرائيل، الذين أتوا بعد موسى عليه السلام. وذلك بين من الزبور، ومن كثير من الصحف المنسوبة لبني إسرائيل. وثبت ذلك أيضا في الإنجيل، وتواتر القول به عن عيسى عليه السلام. وهو قول الصابئة...

بل القوم (=الفلاسفة) يظهر من أمرهم أنهم أشد الناس تعظيما لها (للشرائع) وإيمانا بها. والسبب في ذلك أنهم يرون أنها (الشرائع) تنحو نحو تدبير النفس الذي به وجود الإنسان، بما هو إنسان. وبلوغه سعادته الخاصة به. وذلك أنها ضرورية في وجود الفضائل الخلقية للإنسان، والفضائل النظرية والصنائع العملية. وذلك أنهم يرون (يعني الفلاسفة) أن الإنسان لا حياة له في هذه الدار إلا بالصنائع العملية، ولا حياة له في هذه الدار ولا في الدار الآخرة إلا بالفضائل النظرية. وأنه ولا واحد من هذين يتم، ولا يبلغ إليه، إلا بالفضائل الخلقية. وأن

10- سبق أن أشرطنا على طبعه جديدة لكتب ابن رشد التالية (فصل المقال، الكشف عن مناهج الأدلة، تهافت التهافت، الكليات في الطب) مزودة بمدخل ومقدمات تحليلية وشرح وتعليقات. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. ومن طبعنا لكتاب "تهافت التهافت"، المشار إليها، نستعيد هنا هذه الفقرات. انظر: المسألة العشرون.

الفضائل الخلقية لا تتمكن إلا بمعرفة الله تعالى وتعظيمه بالعبادات المشروعة لهم، في ملة ملة، مثل القرايين والصلوات والأدعية ... ويرون بالجملة أن الشرائع هي الصنائع الضرورية المدنية التي تأخذ مبادئها من العقل والشرع -ولاسيما ما كان منها عاما لجميع الشرائع- وإن اختلفت في ذلك بالأقل والأكثر. ويرون مع هذا (=علاوة عليه) أنه لا ينبغي أن يتعرض بقول مثبت أو مبطل في مبادئها العامة، مثل: هل يجب أن يعبد الله أو لا يعبد؟ وأكثر من ذلك: هل هو موجود أم ليس بموجود؟ وكذلك يرون في سائر مبادئه: مثل القول في وجود السعادة الأخيرة وفي كقيفيتها. لأن الشرائع كلها اتفقت على وجود أخروي بعد الموت، وإن اختلفت في صفة ذلك الوجود. كما اتفقت على معرفة وجوده وصفاته وأفعاله، وإن اختلفت فيما تقوله في ذات المبدأ وأفعاله، بالأقل والأكثر. وكذلك هي متفقة في الأفعال التي توصل إلى السعادة التي في الدار الآخرة، وإن اختلفت في تقدير هذه الأفعال.

فهي (الشرائع الدينية) بالجملة: لما كانت تنحو نحو الحكمة بطريق مشترك للجميع، كانت واجبة عندهم. لأن الفلسفة إنما تنحو نحو تعريف سعادة بعض الناس العقلية، وهو من شأنه أن يتعلم الحكمة (الفلسفة). والشرائع تقصد تعليم الجمهور عامة. ومع هذا فلا نجد شريعة من الشرائع إلا وقد نبهت بما يخص الحكماء، وعينت بما يشترك فيه الجمهور.

ولما كان الصنف الخاص من الناس (= العلماء) إنما يتم وجوده وتحصيل سعاداته بمشاركة الصنف العام، كان التعليم العام ضروريا في وجود الصنف الخاص، وفي حياته: أما في وقت صباه ومنشئه فلا يشك أحد في ذلك، وأما عند نقلته إلى ما يخصه، فمن ضرورة فضيلته ألا يستهين بما نشأ عليه، وأن يتأول لذلك أحسن تأويل. وأن يعلم أن المقصود بذلك التعليم هو ما يعم لا ما يخص. وأنه إن صرح يشك في المبادئ الشرعية التي نشأ عليها، أو بتأويل، أنه مناقض للأنبياء صلوات الله عليهم وصاداً عن سبيلهم، فإنه أحق الناس بأن يطلق عليه اسم الكفر. ويوجب له في الملة التي نشأ عليها عقوبة الكفر. ويجب عليه مع ذلك أن يختار أفضلها في زمانه، وإن كانت كلها عنده حقا. وأن يعتقد أن الأفضل ينسخ بما هو أفضل منه. ولذلك أسلم الحكماء الذين كانوا يعلمون الناس بالإسكندرية (=مدرستها الفلسفية العلمية) لما وصلتهم شريعة الإسلام، وتنصر الحكماء الذين كانوا بسبلاد الروم لما وصلتهم شريعة عيسى عليه السلام. ولا يشك أحد أنه كان في بني إسرائيل حكماء كثيرون. وذلك ظاهر من الكتب التي تلقى عند بني إسرائيل، المنسوبة إلى سليمان عليه السلام. ولم تزل الحكمة أمرا موجودا في أهل السوحى، وهم الأنبياء

عليهم السلام. ولذلك أصدق كل قضية، هي: أن كل نبي حكيم وليس كل حكيم نبيا. والحكماء (=هم) العلماء الذين قيل فيهم "إنهم ورثة الأنبياء".

وإذا كانت الصنائع البرهانية (كالرياضيات) في مبادئها المصادرات والأصول الموضوعية، فكم بالحري يجب أن يكون ذلك في الشرائع المأخوذة من الوحي والعقل. وكل شريعة كانت بالوحي، فالعقل يخالطها. ومن سلم أنه يمكن أن تكون هاهنا شريعة بالعقل فقط، فإنه يلزم ضرورة أن تكون أنقص من الشرائع التي استنبطت بالعقل والوحي. والجميع متفقون على أن مبادئ العمل (العبادات) يجب أن تؤخذ تقليدا، إذ كان لا سبيل إلى البرهان على وجوب العمل، إلا بوجود الفضائل الحاصلة عن الأعمال الخلقية والعملية.

فقد تبين من هذا القول: أن الحكماء بأجمعهم يرون في الشرائع هذا الرأي، أعني: أن يتقلد (=الإنسان) من الأنبياء والواضعين مبادئ العمل والسنن المشروعة، في ملة ملة. والمدحود عندهم من هذه المبادئ الضرورية هو ما كان منها أحت للجمهور على الأعمال الفاضلة، حتى يكون الناشئون عليها أتم فضيلة من الناشئين على غيرها، مثل كون الصلوات عندنا: فإنه لا يشك في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى. وأن الصلاة الموضوعية في هذه الشريعة يوجد فيها هذا الفعل أتم منه في سائر الصلوات الموضوعية في سائر الشرائع، وذلك بما شرط في عددها وأوقاتها وأذكارها، وسائر ما شرط فيها من الطهارة، ومن التروك، أعني: ترك الأفعال والأقوال المفسدة لها.

وكذلك الأمر فيما قيل في المعاد فيها هو أحت على الأعمال الفاضلة مما قيل في غيرها. ولذلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثله بالأمور الروحانية، كما قال سبحانه: "مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار" (الرعد 35). وقال النبي عليه السلام: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر بقلب بشر". وقال ابن عباس: "ليس في الآخرة من الدنيا إلا الأسماء"، فدل على أن ذلك الوجود نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود، وطور آخر أفضل من هذا الطور. وليس ينبغي أن يتكرر ذلك من يعتقد أنا ندرك الموجود الواحد ينتقل من طور إلى طور، مثل انتقال الصور الجمادية إلى أن تصير مدركة بذواتها، وهي الصور العقلية. والذين شكوا في هذه الأشياء وتعرضوا لذلك وأفصحوا به إنما هم الذين يقصدون إبطال الشرائع وإبطال الفضائل، وهم الزنادقة الذين يرون أن لا غاية للإنسان إلا التمتع بالذات. هذا مما لا يشك فيه أحد. ومن قدر عليه من هؤلاء فلا يشك أن أصحاب الشرائع والحكماء بأجمعهم يقتلونهم. ومن لم يقدر عليه فإن أتم الأقاويل التي يحتج بها عليه هي الدلائل التي تضمنها الكتاب العزيز.

وما قاله هذا الرجل (الغزالي) في معاندتهم (الفلاسفة) هو جيد. ولا بد في معاندتهم أن توضع (تعتبر) النفس غير مائتة، كما دلت عليه الدلائل العقلية والشرعية، وأن يوضع (= أن يتم التسليم بـ) أن (=الأجسام) التي تعود (=تبعث يوم القيامة) هي أمثال هذه الأجسام التي كانت في هذه الدار، لا هي بعينها، لأن المعدوم لا يعود بالشخص وإنما يعود الموجود لمثل ما عُد، لا لعين ما عدم، كما بين أبو حامد (الغزالي).

وهذا الرجل (الغزالي) كفر الفلاسفة بثلاث مسائل: أحدها هذه، وقد قلنا كيف رأى الفلاسفة في هذه المسألة، وأنها عندهم من المسائل النظرية. والمسألة الثانية قولهم: إنه (الله) لا يعلم الجزئيات. وقد قلنا أيضا إن هذا القول ليس من قولهم (=المسألة 13). والثالثة قولهم بقدوم العالم، وقد قلنا أيضا إن الذي يعنون بهذا الاسم ليس هو المعنى الذي كفرهم به المتكلمون (= المسألة الأولى).

وقال الغزالي في هذا الكتاب (كتابه تهافت الفلاسفة) إنه لم يقل أحد من المسلمين بالمعاد الروحاني (وحده)، وقال في غيره، إن الصوفية تقول به. وعلى هذا فليس يكون تكفير من قال بالمعاد الروحاني ولم يقل بالمحسوس، إجماعا. وجوز هو القول بالمعاد الروحاني. وقد تردد أيضا في غير هذا الكتاب (من كتبه) في التكفير بالإجماع. وهذا كله كما ترى تخطيط. ولا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة. والله الموفق للصواب والمختص بالحق من يشاء.

المرحلة الثالثة

إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام

استهلال

أبرزنا في التعليق الذي ختمنا به سورة القمر، آخر سور المرحلة الثانية، كيف أن الخطاب فيها ينم عن توتر العلاقة بين مشركي قريش والنبي عليه السلام. ونضيف الآن أن ذلك التوتر قد أدى بكبار قريش إلى التدخل لدى أبي طالب، عم النبي وعميد الهاشميين في ذلك الوقت، وكان قد تكفل به في صباه واستمر يحميه ويمنعه من خصوم نبوته ودعوته. وإذا كنا لا نستطيع الجزم بأن هذا التدخل أو ذلك كان أول تدخل منهم لديه، لأن روايات عديدة تحدثت عن تدخلات متعددة من دون ترتيب زمني واضح، فإن هذا التدخل الذي وردت عنه إشارة قوية في السورة التي نحن بصدد الانتقال إليها تجعل منه حدثاً يسجل مرحلة ثالثة في الدعوة المحمدية، مرحلة ما يُعبر عنه، في كتب التفسير والسيرة، بـ"التعرض للأصنام".

تتميز هذه المرحلة بكون الرسول عليه السلام قد خاض خلالها مع الملائ من قريش معركة قوية وعنيفة ضد الشرك وعبادة الأصنام، فتعرض هو وأصحابه لشتى أنواع الإذابات والعسف كان من نتائجها اضطراب معظم الذين لبوا دعوته إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر منه، وكان ذلك بين الخامسة والسادسة للنبوة (وهي الهجرة الأولى)، ثم تواصلت الهجرة طيلة سنة أو يزيد، إلى أن قررت قريش محاصرة النبي (ص) وأهله في شعب أبي طالب بجبل أبي قُبَيْس المطل على مكة، فكانت الهجرة الثانية التي بلغ بها من هاجر إلى الحبشة من المسلمين أزيد من ثمانين رجلاً وامرأة. وسنرى تفصيل ذلك في المرحلة الرابعة من كفاح النبي عليه الصلاة والسلام. أما الآن فسيكون علينا أن نتعرف على المرحلة الثالثة التي انتقلت فيها الدعوة المحمدية من التركيز على المعاد إلى التركيز على التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام.

كانت مرحلة جديدة في مسار الدعوة، سيكون علينا هنا التعرف على مسارها وتوابعها، إن على صعيد التنزيل أو على مستوى وقائع السيرة.

38- سورة ص

1- تقديم

تسجل هذه السورة والتي تليها (الأعراف) مرحلة جديدة سواء على صعيد مسيرة نزول القرآن أو صعيد علاقات الرسول عليه السلام مع الملأ من قريش.

1- فعلى الصعيد الأول تنتقل هذه السورة، على مستوى الشكل، من سلسلة السور الصغيرة والآيات القصار ذات الوقع الخاص الشبيه بالسجع -وما هو بسجع الشعراء- إلى سلسلة السور الطويلة ذات الآيات الطوال والعبارات الجدلية السجالية، البيانية، كما تنتقل على مستوى المضمون إلى التركيز على محور التوحيد مع شجب الشرك والتعرض للأصنام والاستهزاء بها وبمن يعبدها - مع حضور متفاوت للمحاور الأخرى (النبوة، البعث، المسألة الاجتماعية، إلى جانب توظيف قصص الأنبياء بصورة متكررة). وحسب تصنيفات المؤلفين في علوم القرآن يمكن القول إننا سننتقل مع سورة "ص" من مجموعة سور "المفصل" التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة "الناس"، حسب تصنيف المصحف، إلى مجموعة السور "المثاني"⁽¹⁾، التي تمتد من سورة "ق" إلى سورة الشعراء، في التصنيف نفسه.

هذا على مستوى مسار التنزيل أما على مستوى السيرة، وبالأخص تطور العلاقة بين الرسول عليه السلام والملأ من قريش فيمكن أخذ فكرة عنها من المرويات التالية التي ننقلها عن المؤرخ ابن سعد، صاحب الطبقات الكبرى، حيث نقرأ :

1- "... عن الزهري⁽²⁾ قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهرا، فاستجاب الله من شاء من أحداث الرجال (شبان) وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكبين لما يقول. فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه : إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء! فكان ذلك حتى

1- قيل سميت "المثاني" لأن القصص تتكرر فيها. ويندلي برأينا في هذه التسمية في حينه. أما إطلاق اسم المفصل على السور القصيرة فبذلك لكونها قصيرة تفصل بينها البسمة ...

2- رواية الزهري لسيرة ابن إسحاق تختلف قليلا عن رواية ابن هشام.

عاب الله آلهتهم التي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (حققوا عليه) عند ذلك، وعادوه".

2- وينقل ابن سعد عن راو آخر، قال: "لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعا بعضهم بعضاً؛ فكان أبو بكر يدعو ناحية سراً، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك، وكان عثمان مثل ذلك، وكان عمر يدعو علانية وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح، فغضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغى، وأشخص به منهم رجال فبادوه (جاهروه بالعداوة)، وتستر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان أهل العداوة والمباادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، الذين يطلبون الخصومة والجدل: أبو جهل بن هشام، وأبو لهب بن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس بن عدي وهو بن الغيطلة، والغيطلة أمه، والوليد بن المغيرة، وأمّية وأبّسي ابنا خلف، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية، والسائب بن صيفي بن عابد، والأسود بن عبد الأسد، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم، وعقبة بن أبي معيط، وابن الأصدى الهذلي ... والحكم بن أبي العاص، وعدي بن الحمراء، وذلك أنهم كانوا جيرانه. والذين كانت تنتهي عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم: أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط، وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة، ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، كانوا كمنحو قريش. قال ابن سعد ولم يُسلم منهم أحد إلا أبو سفيان والحكم بن أبي العاص... وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت بين شر جارين: بين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، كانا لياتيان بالفروث (ما في الكرش) فيطرحانها على بابي". فيخرج به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا! ثم يلقيه بالطريق"

3- وفي رواية أخرى من رواة متعددين: 'دخل حديث بعضهم في حديث بعض قالوا: لما رأت قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة سقط في أيديهم، فمشوا إلى أبي طالب حتى دخلوا عليه فقالوا: أنت سيدنا وأفضلنا في أنفسنا، وقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع ابن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا. وجاؤوا (يعني وفد قريش) بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا: قد جنناك بفتى قريش جمالا ونسبا ونهادة وشعرا ندفعه إليك فيكون لك نصره وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله، فإن ذلك أجمع للشيرة وأفضل في عواقب الأمور مغبة. قال أبو طالب: والله ما أنصفتُموني! تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه! ما هذا بالنصف! تسوموني سوم العرير (الغريب في القوم)

الذليل! قالوا فأرسل إليه فلنخطبه النصّف. فأرسل إليه أبو طالب، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال (أبو طالب): يا ابن أخي! هؤلاء عمومتك وأشراف قومك وقد أرادوا ينصفونك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قولوا أسمع. قالوا تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك. قال أبو طالب قد أنصفك القوم فاقبل منهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيتم إن أعطيتكم هذه، هل أنتم معطي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم! فقال أبو جهل: إن هذه لكلمة مريجة، نعم وأبيك لنقولنّها وعشر أمثالها. قال: قولوا لا إله إلا الله. فاشمأزوا ونفروا منها وغضبوا وقاموا وهم يقولون: "اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد". ويقال: المتكلم بهذا عقبة بن أبي معيط، وقالوا: لا نعود إليه أبدا وما خير من أن يقتل محمد.

فلما كان مساء تلك الليلة فُقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاء أبو طالب وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع (أبو طالب) فتيانا من بني هاشم وبني المطلب ثم قال: لياخذ كل واحد منكم حديدة صارمة، ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتي منكم فليجلس إلى عظيم من عظمائهم: فيهم ابن الحنظلية يعني أبا جهل، فإنه لم يرغب عن شر إن كان محمد قد قتل. فقال الفتيان نفعل. فجاء زيد بن حارثة (مولى الرسول) ⁽³⁾ فوجد أبا طالب على تلك الحال، فقال يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال نعم كنت معه آنفا. فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبدا حتى أراه. فخرج زيد سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي طالب، فقال: يا بن أخي أين كنت؟ أكنت في خير؟ قال نعم. قال أدخل بيتك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما أصبح أبو طالب غدا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده فوقف به على أندية قريش ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون. فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممت به؟ قالوا لا. فأخبرهم الخبر، وقال للفتيان أكشفوا عما في أيديكم فكشفوا، فإذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال -أبو طالب- والله لو قتلتموه ما أبقيت منكم أحدا حتى تنقاني نحن وأنتم. فاتكسر القوم؛ وكان أشدهم اتكسارا أبو جهل.

ومن هذه الحادثة فصاعدا سيكون الرسول عليه السلام في حماية أبي طالب، وستكرر تدخلات كبار قرش لدى هذا الأخير ولكن بدون جدوى.

3 - كان النبي (ص) قد اشترى زيد بن حارثة في الجاهلية بعهاظ فاعتقه وتبناه، حتى نزلت آية بإبطال التبني، كما سنرى في حينه.

- نص السورة

1- مقدمة: أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ..؟

بسم الله الرحمن الرحيم
 ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ¹ (القصص والمواعظ)، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا (قريش)
 فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ² (عناد وإعراض عن الدعوة المحمدية)، كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ
 مِنْ قَرْنٍ (من أمة كذبت رسلها) فَنَادَوْا (ربهم واستغاثوا بالتوبة إليه) وَكَانَ جِوْنُ
 مَنَاصٍ³ (وقد فاتتهم الفرصة ولم يعد هناك مجال للنجاة). وَعَجِبُوا (قريش) أَنْ
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ⁴ (يعنون محمداً). أَجْعَلِ الْآلِهَةَ
 إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ⁵! وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ (أشرافهم الذين كانوا عند
 أبي طالب، وقالوا) أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ⁶
 (مؤامرة على آلها!) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلمَةِ الْآخِرَةِ (النصرانية، وهي تقول
 بالتثليث)، إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ⁷ (من محمد). أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (الوحي) مِنْ بَيْنِنَا
 (استفهام إنكاري)؟ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي (بل هم يشكون في القرآن وصحة
 مصدره الإلهي)، بَلِ لَمَّا يَتُوقَفُوا عَذَابٌ⁸ (لم ينالوا بعد جزاء تكذيبهم)، أَمْ عِنْدَهُمْ
 خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ⁹ (فيمنعون إرسالنا لك ويرسلون من يشاءون)؟
 أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ¹⁰ (إذن
 فليصعدوا إلى السماء متخذين الوسائل لذلك، كالحبال)! جُنْدٌ مَا هَئِلَكَ مِنْهُمْ
 الْأَحْزَابِ¹¹ (لقد هزم هناك جند من أحزاب إبليس لما أرادوا استراق السمع).

2- أقوام كذبت قبلهم ... فنزل عليها العقاب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ¹² (دعائم حكمه)، وَثَمُودُ
 وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ¹³. (إن كل (ما منهم) إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ
 فَحَقَّ عِقَابٌ¹⁴. وَمَا يَنْظُرُ (ينتظر) هَؤُلَاءِ (المشركون من قريش) إِلَّا صَنِيعَ وَاحِدَةٍ
 مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ¹⁵ (لا تسكن ولا تهدأ). وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنَا (أطلعنا على
 أعمالنا) قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ¹⁶.

3- اصبر ... وتأس بتجربة داود.

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَانْكَرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ (القوة) إِنَّهُ أَوَّابٌ¹⁷
 (مطيع)، إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ¹⁸، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً

(مجموعة)، كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ¹⁹ (مطيع)؛ وَشَدَدْنَا مَلَكَهَ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ²⁰. وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصِمِ (متخاصمان)⁽⁴⁾ إِذْ تَسَوَّرُوا (تسلقوا سور) الْمِخْرَابَ²¹ (مقدم الدار)، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ! قَالُوا لَا تَخَفْ (نحن) خَصِمَانِ (هما ملكان يمثلان داوود وزوج المرأة التي تزوجها غضبا) بَغَى بَغْضَانًا عَلَى بَغْضٍ، فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلِمَا تَشِطُّ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ²². إِنَّ هَذَا أَخِي (يعني داوود) لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً (امراة) وَلِي نَجْعَةٌ (امراة) وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا (يتنازل عنها لي لأضمها إلى نسائي) وَعَزَّتِي فِي الْخِطَابِ²³ (غلبني). قَالَ (داوود) لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ (بطلب) نَجْعِكَ إِلَى تِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ (الشركاء) لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ! وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ (اختبرناه بضم زوجة ذلك الرجل إلى زوجاته) فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ²⁴ (ورجع إلى ربه). فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى (قربى) وَحُسْنَ مَآبٍ²⁵ (مصير)⁽⁵⁾. يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَمَّا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا (بنسيانهم) يَوْمَ الْحِسَابِ²⁶. (ومن جملة ما نسي هؤلاء أن الله ما خلق السماوات والأرض باطلا...): وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا! فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ²⁷. أَمْ نَجْعَلُ (هل يريدون أن نجعل) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ²⁸؟! (هذا) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ (يا محمد) مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ²⁹.

4- حاصل القصة (بعبارة الرازي) "أن داود عشق امرأة "أوريا"، فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعة، وعرضا تلك الواقعة عليه. فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة" (الرازي). أما الزمخشري فقد حكي القصة كما يلي: قال: "كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبه، وكانت لهم عادة في المواساة بذلك قد اعتادوها. وقد روي أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك. فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له "أوريا"، فأحبها فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يردّه ففعل، فتزوجها وهي أم سليمان، فقيل له: إنك مع عظم منزلتك وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك وكثرة نساءك، لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً، ليس له إلا امرأة واحدة، النزول (عن امرأته لك)، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك وقهر نفسك والصبر على ما امتحنت به" (الزمخشري: الكشف).

5- وجه التأسي بقصة داود. انظر بعده: قصة سليمان.

4- ... وتأس بتجربة سليمان!

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ³⁰، إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَاشِيِّ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادَ³¹ (الخيول رافعة قوائمها)، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ (أحببت الخيل حبا شغلي) عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ (الشمس) بِالْحِجَابِ³² (غابت ولم أصل)، رُدُّوْهَا عَلَيَّ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ³³ (يقطع سيقانها وأعناقها). وَكَفَدَ فِتْنًا سُلَيْمَانَ وَآلَقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا (صنما) ثُمَّ أَنَابَ³⁴ (تاب) (6)، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَتَّبِعُنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ³⁵. فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً (لينة طيعة) حَيْثُ أَصَابَ³⁶ (شاء)، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ³⁷، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ³⁸ (مقيدين بالسلاسل)، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ³⁹ (أعط ما شئت وامنع ما شئت)! وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ⁴⁰ (7).

5- ... وتأس بتجربة أيوب ...

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ: أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ⁴¹ (بذهاب مالي وأهلي وعجز في جسدي. فاستجاب له الله وقال) ارْكُضْ (اضرب)

6 - ذكر المفسرون عددا من الروايات حول هذا الموضوع، كثير منها أقرب إلى الخرافات، ولعل أقربها إلى السياق الرواية التالية ومفادها "أن سليمان تزوج امرأة وهويها، وعبدت الصنم في داره، فنزع الله ملكه أياما، وسلط شيطانا على مملكته، ثم تاب سليمان فسأل الله أن يهب له ملكا يدل على أنه غفر له، فردَّ عليه ما نزع منه". وهذه القصة مستفادة من التوراة (سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر)، ومما جاء فيه: "وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات، فضلا عن ابنة فيزعون، فتزوج نساء موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وجيتيات، وكبلهن من بنات الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الزواج منهم قائلا لهم: «لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم، لأنهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم». ولكن سليمان التصق بهم لفرط محبته لهم. ففككت له سبع من زوجة، وثلاث من حظية، فاتحرفن بقلبه عن الرب... كوما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصيدونيين، ومكثوا إلى العمونيين البغيض، كوارتكب الشر في عيني الرب، ولم يتبع سبيل الرب بكمال كما فعل أبوه داود. 7 وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعا لكموش إلى الموآبيين الفاسق. 8 وشيد مرتفعات لجميع نساته الغربيات، اللواتي رحن يوقدن البخور عليها ويقررن المحرقات لآلهتهن: الخ.

7- يجب أن نتذكر أن هذه السورة نزلت ردا على محاولة قريش مساومة النبي عليه السلام، بالاستعانة بعمه أبي طالب. لقد عرضوا عليه (ص) أمورا رفضها، وفي قصة داود وسليمان عبرة، فقد فتنّا ثم ندما وتابا فكان الجزاء أن جعل الله داود خليفة في الأرض الخ، وكان جزاء سليمان أن وهب له ما طلب: "ملكا لا ينبغي أن يكون لأحد من بعده، فسخر له الريح الخ. وفي ذلك وعد ضمني للرسول (ص) إن هو صبر ولم يستسلم لإغراءات قريش!

الأرض) بِرَجْلِكَ، هَذَا مُقْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ⁴² (فتفجرت عينان واحدة للاغتسال والثانية للشرب)، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ (ففرجنا عنه ما كان فيه من البلاء، ووهبنا له زوجته)، وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ (أولاده) رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ⁴³، (وقلنا له) وَخَذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا (عوداً رطباً) فَاضْرِبْ بِهِ (زوجتك التي حلفت أن تضربها عقاباً على ما كان إبليس قد أراد حملها عليه) وَكَأَنَّا تَحْتًا. إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا (كان أيوب يتحمل البلاء)، نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ⁴⁴.

6- وَتَأَسَّ بِتَجْرِبَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ⁴⁵ (القوة البدنية والعقلية). إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ⁴⁶ (بالذكر الجميل في الدنيا)، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ⁴⁷، وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ⁴⁸.

7- وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ: جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ الْمَهَادُ.

هَذَا ذِكْرٌ (وعبرة). وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ⁴⁹: جَنَّتْ عَنْهُمْ مُفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ⁵⁰، مُكْنَيْنِ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ⁵¹، وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتِ الطُّرُقِ أَتْرَابٌ⁵² (بعضضين من أبصارهن، متساويات)، هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ⁵³، إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ⁵⁴. هَذَا، وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ⁵⁵: جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَوْنَ الْمَهَادُ⁵⁶ (المصير). هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ: حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ⁵⁷ (من دموع وقبح غليظ)، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ⁵⁸ (وسوائل أخرى، أنواع وأشكال. قيل لكفار الأقوام السابقة) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ (فوج آخر من قريش يدخل معكم، فأجابوا) لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ⁵⁹ (يضيقون علينا هنا في النار). قَالُوا (ر- عليهم فوج قريش) بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْحَصُونَ بِكُمْ، أَنْتُمْ (السابقون إلى الكفر) قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا! فَيَنْسَوْنَ الْقُرْآنَ⁶⁰. قَالُوا (وأضافوا) رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهِ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ⁶¹. وَقَالُوا (قريش) مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ⁶² (فقراء المسلمين)؟ أَلَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا (هل لأننا كنا نسخر منهم فاختفوا الآن من أمامنا؟) أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ⁶³ (أبصارنا؟) إِنْ ذَلِكَ (ما ذكرنا هو) لَحَقٌّ: تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ⁶⁴.

8- مَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ... عَصِيَانِ إِبْلِيسَ وَإِغْوَاءِ آدَمَ!

قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ، وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ⁶⁵، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ⁶⁶. قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ⁶⁷، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ⁶⁸.

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ⁶⁹ (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ⁷⁰. (ومن جملة ما أوحى إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ⁷¹، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ⁷²، فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ⁷³، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ⁷⁴! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ⁷⁵? قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ⁷⁶. قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ⁷⁷، وَإِنَّ عَلَيْكَ لعَذَابَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ⁷⁸. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ⁷⁹. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ⁸⁰، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ⁸¹. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ⁸²، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ⁸³ (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقُّ أَقُولُ⁸⁴، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ⁸⁵.

10- خاتمة: لتعلمن نبأه بعد حين...

قل (يا محمد لقریش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ⁸⁶ (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْرٌ لِلْعَالَمِينَ⁸⁷، وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ⁸⁸.

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي : التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قریش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبثه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قریش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهائهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قریش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمئنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشنت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفسدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذكرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتعهما بقوة، ما سبق أن منع بها بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الاتساق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقفدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش. ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختتم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

39- سورة الأعراف

- تقديم

تقع سورة الأعراف مباشرة بعد سورة "ص" على لائحة ترتيب النزول، ورتبتها 39. تبدأ هذه السورة بمقدمة ماثلة لتلك التي وردت في سورة "ص"، ولكن مع طرح ما يمكن أن نعبر عنه بـ "برنامج جديد" للدعوة يتناسب مع المرحلة. ومما يفيد ذلك قوله تعالى في مستهلها : "المص (ألف، لام، ميم، صاد)، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ". وما يلفت الانتباه في هذه الآية أمران:

- الأول استعمال اسم "الكتاب" كوصف لهذه السورة. وهذا ما قرره الزمخشري. فهو يرى أن المقصود بهذا اللفظ هو هذه السورة، باعتبار أن "المص" مبتدأ و"كتاب" خبر. وتسمية هذه السورة بـ "كتاب" يبررها في نظر القائلين بذلك كونها طويلة في "حجم كتاب من كتب أهل الكتاب"، وأنها نزلت مرة واحدة. ومنهم من يقول إن إطلاق اسم "كتاب" عليها هو بمثابة رد على قريش الذين طعنوا في كون القرآن مجرد أقوال يأتيها محمد من حين لآخر وأنه لم يأت بكتاب كما فعل موسى.

- أما الأمر الثاني الذي يشد الانتباه في مقدمة هذه للسورة فهو قوله تعالى: "فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لَتُنذِرَ بِهِ". وهذا "الخرج" لا شيء يبرره لو كان المقصود بـ "الكتاب" هو القرآن. ذلك لأن الرسول عليه السلام كان ينذر بالقرآن من قبل، دون أن يشعر بالخرج. وإذا فلا بد أن يكون هناك شيء جديد في هذه السورة أو في ظروف نزولها، من شأنه أن يثير الخرج في نفس النبي عليه السلام.

ومن وجهة نظرنا هناك شيان يمكن أن يبررا استعمال لفظ "الخرج" هنا. أولهما هو تسمية هذه السورة "كتابا"، بينما كان اسم "الكتاب"، لحد الآن، خاصا بكتاب "أهل الكتاب" (التوراة). وما يمكن أن يكون مدعاة للخرج هنا هو هذا الانتقال بالوحي المحمدي إلى مستوى "الكتاب"، بعد أن كان يسمي نفسه من قبل بالأسماء التالية على التوالي وحسب ترتيب النزول⁽¹⁾: ذكر، ذكرى، تذكرة، حديث، ثم

1- لقد شرحنا هذه المسألة بتفصيل في الفصل السادس من التعريف بالقرآن .

قرآن. أما الآن، فإن سورة "المص" وحدها "كتاب"! وهذا الاسم أعني "الكتاب" سيمسمى به القرآن كله، ولأول مرة في هذه السورة نفسها (الآية 52).

ثانيهما، وهذا أهم بالنسبة لموضوعنا هنا، هو أن النبي عليه السلام، الذي اعتاد من قبل القيام بالدعوة والتبشير والإنذار، بآيات تنزل مفرقة وحسب مقتضيات الأحوال، إما جوابا عن سؤال أو ردا على تهجم، أو بمناسبة نازلة من النوازل الخ، هو الآن مطالب بمتابعة رسالته من خلال "كتاب" : سورة طويلة نزلت مرة واحدة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسجل هذه السورة إستراتيجية جديدة في القصص القرآني: كان القصص في القرآن (2) لحد الآن يتناول قصص أنبياء أقوام عربية كعاد وثمود (من العرب البائدة) أو من كان قومهم الذين أرسل إليهم عربا أو تجري قصصهم في بلاد العرب مثل لوط ومدين وأصحاب الأيكة في الشمال (بين مكة والشام)، وسبأ، وأصحاب الجنة وقوم تبع بالجنوب (اليمن)، وقوم يونس في الشرق (الموصل)، إضافة إلى ما انتشر في هذه المناطق وغيرها من أخبار فرعون وعلاقة سليمان بملكة سبأ الخ... أما في سورة الأعراف فسيعرف القصص القرآني نقلة نوعية، إذ ستطرح السورة أمامنا برنامجا وإستراتيجية للقصص القرآني، بحيث تعرض ضمن مخطط عام لقصص أنبياء أهل الكتاب، إضافة إلى قصص أنبياء العرب!

وهكذا، فبعد المقدمة التي نبهت النبي إلى أن الأمر يتعلق هذه المرة بسورة هي: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ"، تنتقل السورة مباشرة إلى التذكير بالمصير الذي خص الله به الأقوام التي كذبت رسلها: "وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسًا بَيَاتًا (ليلا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" (في قيلولة)، (الأعراف 4). ثم تضيف السورة، وكأنها تجيب على اعتراض من قريش، تقول فيه: وما الدليل على ذلك؟ تجيب: "فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (لننظر في أخبار الأقوام الماضية مع رسلهم)، فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ (على مشركي مكة) بَعْلِمٍ، وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (عن مجرى الأحداث كما هو حال القصص المحترفين المتصنعين)، بَلْ لَقَدْ جِئْتَ تِلْكَ الْأَحْدَاثَ بِعِلْمٍ وَأَعْلَىٰ مِنْهُ! وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ" (الأعراف 6-9) (3).

2- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن : القصص في القرآن المكي : المرحلة الثانية.

3 - يمكن أن يفهم من هذا دعوة قريش إلى مقارنة ما سيقصه القرآن عن الأنبياء والرسل وأقوامهم بالقصص التي كان يقصها عليهم النضر بن الحرث الذي ذهب إلى الحيرة وجاء من هناك بقصص فارسية كما سيأتي لاحقا.

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَكِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ⁶⁹ (لم يكن لدي علم بالملائكة حين اختلفوا في شأن خلق آدم، كما سيبين): إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ⁷⁰. (ومن جملة ما أوحى إلي أن أذكر ما يلي) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ⁷¹، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ⁷²، فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ⁷³، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ⁷⁴! قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ⁷⁵? قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ⁷⁶. قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَاتَكَ رَجِيمٌ⁷⁷، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ⁷⁸. قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ⁷⁹. قَالَ فَاتَكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ⁸⁰، إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ⁸¹. قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ⁸²، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ⁸³ (الذي أخلصتهم لعبادتك أي الملائكة)، قَالَ (الله) فَالْحَقُّ، وَالْحَقُّ أَقُولُ⁸⁴، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ⁸⁵.

10- خاتمة: لتعلمن نبأه بعد حين...

قُلْ (يا محمد لقريش) مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (على القرآن) مِنْ أَجْرٍ (كما ظننتم عندما عرضتم علي المال والسلطة الخ) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ⁸⁶ (من الذين يتكلفون اختلاقه)، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ⁸⁷، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ (حقيقته) بَعْدَ حِينٍ⁸⁸.

- تعليق

تدشن هذه السورة مرحلة جديدة من مسار التنزيل موضوعها المركزي : التوحيد مع التعرض للأصنام. لقد انطلقت هذه السورة من إصرار قريش على تكذيب نبوة محمد عليه السلام بعد ما لمسوه من رفضه عليه السلام التفاوض معهم مؤكدا تشبئه بالدعوة إلى التوحيد وشجب الشرك. لقد كان لرجوع كبار قريش، من الاجتماع بالنبي لدى عمه أبي طالب، خائبين، أكبر الأثر في نفوسهم، لقد استنكروا أن يكون الله قد أرسل محمدا إليهم دون غيره من كبارهم ووجهانهم واعتبروا ذلك مؤامرة عليهم وعلى آلهتهم وأخذوا يفكرون في التخلص منه بقتله. لقد رد أبو طالب بفضحهم وإعلان حمايته وهددهم بحرب أهلية لا تبقي ولا تذر، حرب أهلية بين بني هاشم والمطلب ومن قد ينضم إليهم، وبين خصوم الدعوة المحمدية. والحرب الأهلية القبلية هي أكثر ما تتجنبه قريش، لأنها تمس بعمق مصالحها الاقتصادية: عائدات الحج والتجارة. وهذا كان النبي عليه السلام يعرفه جيدا، وهو ما يفسر تصرفه

باطمنان ورفضه أية مساومة معهم والمضي في تبليغ رسالة التوحيد وشجب الشرك وتسفيه عقول من يعبدها.

وفي هذا الإطار نفسه دشتت السورة التي نحن ضيوف عليها توظيف قصص الأنبياء بالصورة التي يجد فيها النبي وصحبه ما يسليهم ويثبت أفئدتهم. فتجارب الأنبياء السابقين تعطي المثل والدرس والعبرة والأمل. إن المعركة مع "الملأ من قريش" مستمرة، وكما كانت مشاهد الجنة والنار سلاحا قويا في هذه المعركة، وستبقى، هاهي تجارب الأنبياء التي انتهت بهلاك المكذبين من أقوامهم وانتصار رسلهم، تقدم سلاحا آخر هو: "درس التاريخ".

لقد ذُكرت السورة بما نال الأقوام الماضية التي كذبت رسلها (قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَنَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) من عقاب وعذاب وهلاك -وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في السورة السابقة- لتتحدث بعدها -لأول مرة حسب ترتيب النزول- عن تجربة كل من داود وسليمان، مركزة على ما تعرضا له من فتن انتهت بهما إلى التوبة وطلب المغفرة وبالتالي إلى تلبية طلبهما وتمتيعهما بقوة، ما سبق أن مُنع بهما بشر. وما ذلك إلا لصبرهما وعدولهما عن الانسياق مع الهوى. والخطاب موجه هنا ضمنيا إلى الرسول محمد عليه السلام، ليقفدي بهما ولا ينساق مع مساومات قريش. ثم تنتقل السورة إلى رسم مشهد من مشاهد يوم القيامة والجزاء، واستحضار تلاوم أهل النار، لتخلص من ذلك إلى ما سيكون عليه مصير قريش عندما تلتحق بمكذبي الرسالات السابقة.

وقبل أن تختم السورة عرجت على قصة إبليس ورفضه السجود لآدم لتؤكد أن الرسول محمد عليه السلام لم يكن حاضرا مع الملائكة وإنما هو الوحي الذي قص عليه ما جرى، وأن دوره هو الإنذار بالقرآن الذي يصرون على تكذيبه، مؤكدا لهم أن ما جاء به حق وهو من عند الله، وأنهم سيعلمون خبره وحقيقته في مستقبل الأيام.

قلنا إن سورة الأعراف تشكل نقلة نوعية على مستوى "القصص في القرآن: ذلك أن القصص المفصل، المستوفي لعناصره، إنما يبدأ معها. فكثير من القصص التي سترد في السور اللاحقة هي إما تفصيل لبعض الجوانب المذكورة في هذه السورة وإما صياغة لها جديدة حسب ما يقتضيه المقام. ففي هذه السورة نجد أنفسنا إزاء ما يشبه أن يكون مخططاً (أو برنامجاً) لقسم كبير من القصص القرآني يشمل قصص الأنبياء الذين لم يرد لهم ذكر في التوراة كما يعرض لمعظم أنبياء التوراة (4).

وهكذا فإذا كانت السور السابقة قد اقتصرت على عرض بعض جوانب القصص الخاصة بأنبياء "العرب البائدة" السابقين على أنبياء بني إسرائيل، دونما تقيد بـ"الترتيب الزمني"، فإن سورة الأعراف تعرض أنبياء "العرب البائدة" ضمن سلسلة الأنبياء المذكورين في التوراة، متقيدة بـ"الترتيب الزمني" انطلاقاً من آدم... وهكذا، فبعد قصة آدم وإبليس، وقصة نوح والطوفان، تأتي قصص عاد، وثمود، ثم لوط (وإبراهيم)، وشعيب (5)، ثم قصة موسى مع فرعون التي، انطلاقاً منها، سيدشن القرآن القول في قصص أنبياء بني إسرائيل. وبعد قصة الصراع بين موسى وفرعون تخلص السورة إلى عرض مباشر لصراع الرسول محمد عليه السلام مع مشركي قريش. وهذا هو الغرض من القصص في القرآن كما أوضحنا من قبل (6)، وسيتضح هذا أكثر من خلال التذكير بالاستراتيجيات التي سلكها القرآن في مجال القصص، وهي استراتيجيات ثلاثة هي:

أولاً: مراعاة "التسلسل الزمني" للتاريخ المقدس الذي تروي هذه السورة فصوله من خلال قصص الأنبياء، انطلاقاً من آدم وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض إلى النبي محمد عليه السلام.

4- الأنبياء الذين اختص القرآن بذكر أسمائهم وقصصهم ولم يرد لهم ذكر في التوراة هم : شعيب، ذو الكفل، إدريس، هود، صالح، لقمان، إسماعيل، مع ذكر قصة الطوفان، والإشارة إلى فرعون.. والمسرح الذي تجري فيه قصص هؤلاء (باستثناء فرعون) هو الجزيرة العربية، خصوصاً المنطقة التي تمتد من مكة إلى الشام (حالياً: الأردن وفلسطين وسورية). أما أنبياء التوراة والإنجيل الذين ذكرهم القرآن فهم: نوح وإبراهيم وزكرياء ويعقوب (المسمى إسرائيل، وإليه ينسب بنو إسرائيل) ويوسف وموسى ويونس وأيوب وداود وسليمان وأشعيا ويحيى (المعدان، أو يوحنا)، والسيد المسيح.

5- يقول الطبري في تاريخه: وقال بعضهم لم يكن شعيب من ولد إبراهيم وإنما هو من ولد بعض من كان آمن بإبراهيم واتبعه على دينه وهاجر معه إلى الشام ولكنه ابن بنت لوط، فجدة شعيب ابنة لوط ابن أخت إبراهيم. هذا وقد وردت أخبار أيوب بتفصيل في التوراة: سفر أيوب.

6- التعريف بالقرآن: خاصة المقدمة والخاتمة.

ثانياً: توظيف قصص الأنبياء في تحذير قريش من المصير المرعب الذي ينتظرهم إذا هم تمادوا في كفرهم وشركهم، وفي نفس الوقت تثبيت فؤاد النبي وتقوية معنويات أصحابه، وذلك بالتأكيد على أن جميع الرسل قد تعرضوا للتكذيب من طرف أقوامهم ولكنهم صبروا حتى جاءهم نصر ربهم.

ثالثاً: صب خطاب الرسل السابقين إلى أقوامهم في صيغة تحاكي وتعزز الخطاب الذي يوجهه محمد عليه السلام إلى قومه، فكأن خطاب الأنبياء السابقين إلى أقوامهم إنما يعبر عن حال النبي محمد مع قومه قريش.

وفي هذا الإطار جاءت الإشارة لأول مرة إلى العلاقة بين الرسالة المحمدية وما في كتب أهل الكتاب من التبشير به من جهة، وإلى عموم هذه الرسالة من جهة أخرى بحيث تشمل أهل الكتاب أنفسهم، هؤلاء "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". ليس هذا فحسب فالدعوة التي كانت موجهة في البداية إلى مشركي قريش، أصبحت الآن دعوة عالمية، دعوة إلى الناس جميعاً: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (الأعراف 157-158)". أضف إلى ذلك توجيه خطاب النصيح والإرشاد إلى بني آدم، بعد أن تم ربط الضلال والانحراف بقصة إبليس الذي أضل آدم وتوعد ذريته.

وبالجملة فما كان من قبل تلميحا أو إشارة، يجد تفصيله في هذه السورة: سواء تعلق الأمر بأخبار الأمم الماضية والعبرة منها، أو بالخطاب إلى الرسول عليه السلام حيث اتسع هنا إلى نوع من تحذيره من الشيطان، أو بالخطاب إلى قريش حيث تتم مواجهتهم هنا مباشرة وبصورة صريحة، أو بالمواجهة بين المستضعفين والمستكبرين، يوم القيامة، أو رسم مشاهد لقيام الساعة والجنة والنار.

وأخيراً وليس آخراً، نقرأ في هذه السورة، ولأول مرة، التشنيع على قريش بالتجأهم إلى تبرير عبادتهم للأصنام، التي لا يقبلها عقل، بالقول: "وَجَدْنَا عَلَيْهِمَا آبَاءَنَا!"

ولابد من أن نضيف أنه في هذه السورة تعرض القرآن لأول مرة إلى الحلال والحرام، إلى نقد وشجب للباطل والبعي وبعض العادات التي كانت تمارس قبل الإسلام حين الطواف بالكعبة الخ (فقرة 5). إنه محور "الأخلاق" الذي ستدشن هذه السورة التحرك فيه إلى جانب محور العقيدة (النبوّة والتوحيد والمعاد). إن الأخلاق في القرآن

المكي ستحتل ابتداء من هذه السورة المكانة التي تحتلها الشريعة في القرآن المدني. وسنرى أن الأخلاق في القرآن أساس الشريعة وليس العكس.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: كتاب لتنذر به المشركين وذكرى للمؤمنين.

"المص¹، (هذا) كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ، لَتُنذِرَ بِهِ (المشركين) وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ². (يَأْمُرُكُمْ أَنْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَكَمَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (أَصْنَامًا)، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ³! وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا (لَيْلًا) أَوْ هُمْ قَائِلُونَ⁴ (من القبلولة)، فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ⁵. فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ⁶، فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ (على قريش) بَعْلُكُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ⁷ (7)، وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ (بعد سماع القص) الْحَقُّ (العدل)⁽⁸⁾، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ⁸، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ⁹ (يكذبون ويستهزئون). وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ، قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ¹⁰."

7- يقول تعالى: سنقص على قريش تفاصيل ما جرى لتلك الأقوام وكيف تعاملوا مع رسلهم، وهذا القص ليس سماعاً من أحد بل هو قص من شاهد مباشر، عالم بما كانوا يفعلون (وهو الله). والقص هنا ليس من أجل تسليّة قريش كما يفعل القصاصون بل هو توبيخ وتقريع.

8- يمكن أن يكون قوله "والوزن يومئذ الحق" عائداً إلى قوله: "قالوا إنا كنا ظالمين"، ويكون المقصود: يوم القيامة. ويمكن أن يكون "الوزن يومئذ الحق" عائداً ما بعد الاستماع إلى قصص القرآن والمقارنة بينه وبين ما يقصه الآخرون من الأساطير. وفي هذه الحالة تكون الإشارة هنا إلى القصص النضر بن الحارث الذي يقول عنه ابن إسحاق: "كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش، أحسن حديثاً منه، فهلتم إليّ، فأتانا أحدكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟" وقيل: وهو الذي قال: "سأُنزل مثل ما أنزل الله". وقيل نزل في هذا الرجل ما ورد فيه لفظ "الأساطير".

2- السبب في ضلال قريش : اتباعهم شهواتهم كما حصل لآدم!

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ (يا بني آدم) ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا، إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ¹¹، قَالَ (له الله) مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ¹²! قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا، فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا، فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ¹³ (الدليلين). قَالَ أَنْظِرْنِي (أمهلي) إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ¹⁴. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ¹⁵. قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي (فبسبب إغوائك لي بأولئك) نَافَعْنَنَّهُمْ (انحرف بهم عن) صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ¹⁶، ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ¹⁷. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُورًا (ممقوتا ملعونا). لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ (أقول) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ¹⁸.

3- طمع آدم وزوجته في أن يصيرا ملاكين أو يكونا من الخالدين!

"وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"¹⁹؛ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ (أخفي) عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِيهِمَا⁽⁹⁾ وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا (لكي لا تكونا) مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ²⁰. وَقَاسَمَهُمَا (أقسم لهما) إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ²¹. فَذَاقَهُمَا (أنزلهما إبليس من منزلتهما) بَغْرُورٍ (بسبب الطمع)، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (يلصقان) عَلَيْهِمَا

9 - العري الجسدي هنا رمز للكشف عن طبيعة النفس البشرية المركبة من ثلاث قوى: قوة الشهوة، وقوة الغضب، وقوة العقل، حسب تقسيم القدماء (منذ أفلاطون). والعري هنا بسبب تغلب قوة الشهوة على قوة العقل (وإغواء الشيطان رمز لتغلب الشهوة). ومن هنا سيختلف مصير الإنسان عن مصير الملائكة. الملائكة أرواح لا تعدد في نفوسهم فهم منقطعون لتسبيح الله ويعيشون في جواره في السماء. أما الإنسان فإنه بسبب إغواء الشيطان له أهبط وإياه إلى الأرض حيث سيقضيان مدة في (الحياة الدنيا) يختبر فيها الإنسان في مدى قدرته (أعني قوته العقلية) على التحكم في القوتين الآخرين، الغضبية والشهوانية. وعندما ينتهي أجله يحاسب ليكون مصيره إما النار مع إبليس وذريته وإما الجنة مع الملائكة. هذا هو، بالإجمال مغزى قصة إبليس مع آدم. وبنية القصة واحدة في الديانات والفلسفة: في الفلسفة اليونانية وما تفرع عنها من تيارات غنوصية صوفية يضعون "المعرفة" (معرفة الحقيقة، معرفة الله) مكان العبادة والتقوى في الدين، كما رأينا عند الفارابي وابن سينا في الاستطراد الذي ختمنا به المرحلة السابقة. وسنزيد بعض جوانب هذا الموضوع تفصيلا كلما تطلب الفهم ذلك.

مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ! وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ²². قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ²³. قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ²⁴; قَالَ فِيهَا (فِي الْأَرْضِ) تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تَخْرَجُونَ²⁵ (عند قيام الساعة).

4- يا آدم: لباس التقوى خير... ويا قريش: هذه سبيل التقوى!

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سِوَاتِكُمْ وَرِيشًا (للزينة)، وَلِبَاسُ التَّقْوَى! ذَلِكَ خَيْرٌ. ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ²⁶. يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سِوَاتِهِمَا، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ (جنده) مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ²⁷. وَإِذَا فَعَلُوا (الذين لا يؤمنون) فَاحِشَةً⁽¹⁰⁾ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا! قُلْ إِنْ لِلَّهِ لَأْيَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ. اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ²⁸? قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ⁽¹¹⁾ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ²⁹ (12): فَرِيقًا هَدَى، وَفَرِيقًا حَقَّ

10- الفاحشة في القرآن معناها في الغالب: الزنا. وبما أن الأمر يتعلق هنا بالعري (وهو مقدمة الزنا كما يقال)، وبما أن العرب، أو بعضهم، كانوا في وقت من الأوقات يطوفون بالكعبة عراة، طلبا للمطر كما تفعل بعض الشعوب البدائية، أو اعتقادا منهم أن ذلك من شعائر الحج (هامش بعده 14)، فيمكن أن نفهم على ضوء هذا معنى قوله تعالى، لاحقا: "خذوا زينتك عند كل مسجد" وقوله: "قل من حرم زينة الله" الخ.

11- القسط: العدل، وبه فسر جل المفسرين هذا اللفظ هنا، وبعضهم شرحه بـ"التوحيد". والقسط معناه العدل فعلا، ويقال هو معرب من اللاتينية Justas، لكن هذا المعنى لا يناسب السياق الذي يتحدث عن الفاحشة والزينة الخ. لذلك نميل إلى القول إن معنى العدل هنا هو الاعتدال، والمقصود الاعتدال في الملبس، تجنب كل من العري والزينة المبالغ فيها عند الدخول إلى المسجد، وتجنب الفاحشة الكبيرة (أي الجماع مع من ليس زوجا أو زوجة)، وهذا المعنى ينسجم مع ما ذكرناه في الهامش السابق، وسنجد له تأكيدا في استثناء "اللم" أي الزنا بغير الفرج، كالثقلبة واللمس الخ، كما رأينا في سورة النجم.

12- جل المفسرين يفهمون هذا الآية خارج السياق، فيقولون إن المقصود: كما أنشأكم أول مرة تعودون، أي تبعثون ليوم الحساب. أي كأنه يرد على منكري البعث! وليس هذا هو موضوع الكلام هنا. وسياق الكلام يدور حول اللباس والعري. أي كما خلقكم عراة عند ميلادكم تعودون عراة: تخرجون عراة من القبر: فريق منكم كان قد اهتدى في الدنيا فهو إلى الجنة، وفريق كان قد ضل فهو إلى النار.

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ³⁰ (13). يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ³¹. قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ³²؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً (لَهُمْ وَجَدَهُمْ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ³³. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ³⁴. وَكُلُّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ³⁵.

5- فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ !

يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا (إن ما: شرط) يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي، فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ³⁵ (الجملة كلها جواب الشرط)، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ³⁶. فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (قال: له شريك، أو أنه ينزل عليه كتابا) أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (إدلائله وحججه) أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ (أي الوعيد الذي في القرآن)، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا (الملائكة) يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (أين الأصنام التي كنتم تعبدون) قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا (ضاعوا وفقدنا أثرهم)، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ³⁷. قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ

13- "حق عليهم الضلالة": ليس منذ خلقهم، بل لأن هذا الفريق اتبعوا إبليس وجنده من الشياطين (أي اتبعوا أهواءهم). فاختاروا الضلالة على الهدى فصارت طبيعة فيهم فظلموا للحق وظلموا أنفسهم: اتبعوا هواهم: "بغير هدى من الله، إن الله لا يهدي القوم الظالمين" (القصص 50)

14- روي عن ابن عباس أنه قال: "إن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة. الرجال بالنهار، والنساء بالليل. كانوا إذا وصلوا إلى مسجد منى، طرحوا ثيابهم وأتوا المسجد عراة. وقالوا: لا نطوف في ثياب أصبنا فيها الذنوب، ومنهم من يقول: نفعل ذلك تفاؤلا حتى نتعري عن الذنوب كما تعرينا عن الثياب، وكانت المرأة منهم تتخذ سترا تعلقه على حقويها، لتستر به عن الحُصْنِ، وهم قريش، فبأنهم كانوا لا يفعلون ذلك، وكانوا يصلون في ثيابهم، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتا، ولا يأكلون دسما، فقال المسلمون: يا رسول الله فنحن أحق أن نفعل ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي: "البسوا ثيابكم وكلوا اللحم والدسم واشربوا ولا تسرفوا"، يقصد معناها. أما نصها فهو أعلاه.

لَعَنَتْ أُخْتَهَا، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا (تلاحقوا) فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأُولَاهُمْ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ. قَالَ: لِكُلِّ ضِعْفٍ، وَلَكِنْ لَا تَعْمَلُونَ³⁸. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ (لَمْ تَسْتَقْبِلُوا عِبْرَةَ بَتَأْخِرَكُمْ فِي الزَّمَانِ) فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ³⁹. إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ (فِي ثَقْبِ إِبْرَةِ الْخِيَاطِ: مُسْتَحِيلٌ)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ⁴⁰. لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ (فِرَاشٌ) وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ (أَعْطِيَةٌ) وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ⁴¹. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ -لَا نَكُلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا⁽¹⁵⁾- أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ⁴². وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ (مَنْ حَقْدٌ كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَأَسْكَنَاهُمْ مَسَاكِنَ)، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ. لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ. وَتَوَدُّوا أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا (أَنْتُمْ مُسْتَحِقُونَ لَهَا) بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁴³.

6- أصحاب النار (المتفرون) يستغيثون بأصحاب الجنة (الفقراء)!

وَبَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ: أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ قَالُوا نَعَمْ. فَأَذِنَ مُؤَدَّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ⁴⁴ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا (السَّبِيلَ) عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ⁴⁵. وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ (بَيْنَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَبَيْنَ أَصْحَابِ النَّارِ)، وَعَلَى الْأَعْرَافِ (سُورِ بِالْجَنَّةِ) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ (بِمَا يَظْهَرُ عَلَى وُجُوهِهِمْ مِنْ فَرَحٍ أَوْ خَوْفٍ)، وَتَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ: (إِنَّهُمْ) لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ⁴⁶ (فِيهَا بِلِ ثَوَابِ مِنْ رَبِّهِمْ). وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ (أَصْحَابِ الْجَنَّةِ) تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁴⁷. وَبَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ⁴⁸? أَهَؤُلَاءِ (هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءُ) الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ (أَنْ) لَا يَنَالَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟ (قَدْ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَخْزَوْنَ⁴⁹. وَبَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ! قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ⁵⁰. (وَيَقُولُ تَعَالَى): الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا

15- جملة اعتراضية، والمعنى أننا لم نكلف الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأدخلناهم الجنة، إلا بما كانوا يقدرون عليه، وذلك كان في مقدور الذين جازيناهم بجهنم، ولكنهم لم يفتؤوه.

وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ (نهلهم) كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ⁵¹ (وبجدهم آياتنا).

7- وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ!

وَلَقَدْ جَنَنَاهُمْ (يعني قريشا) بِكِتَابٍ (هو القرآن) فَصَلَّنَاهُ عَلَى عِلْمٍ، هَذِي وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁵². هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ (ما يؤول إليه أمرهم كما أخبرهم)؟ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ (يوم القيامة) يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ⁵³ (لم يجدوا أثرا لما كانوا يعبدون من شركاء مع الله). إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي (يلبس) اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا (سريعا)، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ (التدبير)، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ⁵⁴. اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (بلا رياء) إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ⁵⁵ (في الدعاء بالتشوق والرياء). وَكَأَن تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، وَادْعُوهُ خَوْفًا (من عقابه) وَطَمَعًا (في ثوابه) إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ⁵⁶. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا (تبشر بالمطر) بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ⁵⁷ (16). وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا (بمشفة) (17)، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ (الدلائل والأمثال) لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ⁵⁸.

8- نوح لقومه: أَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ مِنْكُمْ نَذِيرٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ⁽¹⁸⁾ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ⁵⁹، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي

16- كما يخرج النبات بالسحاب تسوقه الرياح فينزل المطر ويسقي الأرض فيخرج النبات وتلك هي نهاية السلسلة، فكذلك حياتكم في الدنيا حلقات من سلسلة تنتهي إلى إخراجكم من قبوركم: برهان بالمماثلة لحدوث البعث.

17 - كذلك منكم من يخرج من قبره "طييبا" وبسهولة ومآله الجنة، ومنكم من يخرج "خبثا" وبمشفة ومصيره النار.

18 - ما ورد هنا في قصة نوح وعاد ... هو استعادة وتأكيد بالمثال لمقدمة السورة.

ضَلَّالٌ مُبِينٌ⁶⁰. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁶¹. أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ⁶². فَكَذَّبُوهُ فَاتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ⁶⁴.

9- عَادَ لِقَوْمِهِ... أَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ مِنْكُمْ مُنْذِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ؟

وَالْيَاقِ عَادَ (أَرْسَلْنَا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ⁶⁵؟ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ (عقل)، وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ⁶⁶. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁶⁷، أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ⁶⁸. أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ؟ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ⁶⁹. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ⁷⁰! قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ (عذاب) وَغَضَبٌ، أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ (يعني الأصنام: قارن مع سورة النجم 22/23) مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ⁷¹. فَاتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ⁷².

10- قَوْمِ ثَمُودَ: اتُّبْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ!

وَالْيَاقِ ثَمُودَ (أَرْسَلْنَا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ. قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ: هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ⁷³. وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَبْنِيُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَغْوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ⁷⁴. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ⁷⁵. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ⁷⁶ فَفَعَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، وَقَالُوا يَا صَالِحُ اتُّبْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ⁷⁷! فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (زلزال) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَائِمِينَ⁷⁸. فَتَوَلَّى عَنْهُمْ (صالح) وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ⁷⁹.

11- قَوْمِ لُوطُ : أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَطِهُرُونَ!

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ؟ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ⁸⁰! إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ⁸¹. وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ (سدوم على البحر الميت) إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَطِهُرُونَ⁸². فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ⁸³ (الباقين في العذاب)⁽¹⁹⁾، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (أهلكهم)، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ⁸⁴.

12- قَوْمِ شُعَيْبُ: لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا...

وَالِإِلَى مَدْيَنَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ⁸⁵. وَلَا تَقْعُدُوا يَكُلَ صِرَاطٍ تُوْعَدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا. وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ، وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ⁸⁶! وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ⁸⁷. قَالَ الْمَكَّا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا، أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا. قَالَ أُولَئِكَ كُنَّا كَارِهِينَ⁸⁸? قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا مِنْهُ! وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا. وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا. رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ⁸⁹. وَقَالَ الْمَكَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنْنَأْتِبِعَنَّ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ⁹⁰. فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الزلزلة) فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ⁹¹. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنُوا فِيهَا (ديارهم خاوية كأنهم لم يقيموا فيها)، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ⁹². فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ: يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ⁹³.

19- قِيلَ لَهَا كَانَتْ مَتَوَاطِنَةً مَعَ قَوْمِهَا تَرْسِلُ دَخَانًا مِنْ بَيْتِهَا لِإِخْبَارِهِمْ بِوُجُودِ ضَيْوْفٍ عِنْدَ زَوْجِهَا.

13- مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ... لَقَدْ اخْتَارُوا الضَّلَالَةَ.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ⁹⁴، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا (تعاافوا وكثروا)، وَقَالُوا : قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ (فهذا أمر طبيعي يحدث من حين لآخر وليس له علاقة بمعتقداتنا وأفعالنا)، فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁹⁵. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁹⁶. أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى (والمقصود قريش سكان أم القرى) أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ⁹⁷؟ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ⁹⁸؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ⁹⁹. أَوَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ¹⁰⁰؟ تِلْكَ الْقُرَى نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ¹⁰¹(20)، وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ¹⁰² (21).

14- قِصَّةُ مُوسَى : قَالَ فِرْعَوْنُ لِمَلَأْهُ: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ!

أ- قَالَ الْمُؤْمِنُونَ لِمُوسَى: أَوَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا (إِلَمْ يَعْتَبَرُوا بِهَا) فَاتَّظَرَّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ¹⁰³. وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁰⁴، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، قَدْ جُنْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ¹⁰⁵. قَالَ إِنْ كُنْتَ جُنْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ¹⁰⁶، فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ¹⁰⁷، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ

20- هذه الآية تشرح جاتبا من مسألة الهدى والضلال. فقولُه : "فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"، معناه أنهم خيروا بين الهدى والضلال فاختراروا الضلال وسجنوا فيه أنفسهم، وأصبحوا لا يستطيعون التراجع، فصار ذلك كأنه طبع غرسه الله فيهم.

21- تلميح إلى أهل مكة (أم القرى) مثلها كمثل أهل القرى الذين قصت السورة أخبارهم، وأنهم لن يؤمنوا بما كفروا به من قبل، ولذلك فلا أمل فيهم. وهذا يستعيد ما ورد في سورة القمر (فقرة - 1)

بَيْضَاءَ (في غير لون الأفعى، لم تعد أفعى) لِلنَّاطِرِينَ¹⁰⁸. قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ
 فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ¹⁰⁹. (قال فرعون) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَآذَا
 تَأْمُرُونَ¹¹⁰. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ (هارون. أخر أمرهما) وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ (صعيد
 مصر) حَاشِرِينَ¹¹¹ (منادين)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ¹¹². وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ :
 قَالُوا (هل) إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ¹¹³؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ¹¹⁴.
 قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكَيْنِ¹¹⁵؟ قَالَ أَلْقُوا! فَلَمَّا أَلْقُوا
 سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ¹¹⁶، وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
 أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ¹¹⁷ (ما يموهون به من العصى)، فَوَقَعَ
 الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹¹⁸، فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ¹¹⁹. وَالْقِيَ
 السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ¹²⁰، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ¹²¹، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ¹²². قَالَ
 فِرْعَوْنَ : أَمْتُمْ بِهِ قَبْلُ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا
 مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ¹²³، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
 أَجْمَعِينَ؟ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَبِّلُونَ¹²⁴، وَمَا نَتَّقِمُ مِمَّا آتَا بَآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا
 جَاءَنَا. رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ¹²⁶. وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ
 أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ. قَالَ سَنَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ
 وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ⁽²²⁾ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ¹²⁷. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ
 وَاصْبِرُوا، إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ¹²⁸. قَالُوا
 أَوَدِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْنَا. قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ
 وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ¹²⁹.

ب- وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا..!

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِينَ (من الجفاف) وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعْلَهُمْ
 يَذْكُرُونَ¹³⁰، فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا
 بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، أَلَا إِنَّمَا طَائَرُهُمْ (شؤمهم) عِنْدَ اللَّهِ (ما حدث لهم هو جزاء
 لهم من عند الله) وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ¹³¹. وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
 لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ¹³²، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ
 وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ: آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ¹³³. وَلَمَّا وَقَعَ

22- نُبْقِيهِمْ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ لِيَلِدْنَ الْخَدَمَ... ذكر المفسرون عدة أسباب لقرار فرعون ذبح
 أبناء بني إسرائيل: وكلها تدور حول ما قيل (نتجما أو حلما...) من أن مولودا في بني
 إسرائيل سيكون على يديه سقوط ملك فرعون.

عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ (العذاب) قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ، لَنْ نَكْشِفَ عَنْكَ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَكَتَرَسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ¹³⁴. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغَوَةِ إِذَا هُمْ يَكْثُونَ¹³⁵. فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ¹³⁶. وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ¹³⁷ (يرفعون من البنيان).

ج- أَصْرَفَ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ..!

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ، قَالُوا (بنو إسرائيل) يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ¹³⁸ ! إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ (هالك) مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹³⁹، قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ¹⁴⁰. وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ¹⁴¹. وَوَعَدْنَا مُوسَى (من أجل لقائه) ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ (بعد) أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ، وَكَأ تَتَّبِعَ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ¹⁴². وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ. قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي. فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا! فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: سُبْحَانَكَ ثَبَتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ¹⁴³. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ¹⁴⁴. وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ (الوَح التوراة) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ (وَقُلْنَا لَهُ) فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ (بجد وحرص) وَأَمُرُ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا، سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ¹⁴⁵ (دار فرعون وملأه: مصر). سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ¹⁴⁶. وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁴⁷.

د- بنو إسرائيل يتخذون العجل صنما ... وموسى يستغفر لهم.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عَجَلًا جَدًّا (مجسما ليس من لحم ودم) لَهُ خَوَارٌ. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا؟ اتَّخَذُوهُ وَكَاتُوا ظَالِمِينَ¹⁴⁸. وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِرَحْمَتِ رَبِّنَا وَيَغْفِرُ لَنَا لَنْكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ¹⁴⁹. وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ: بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي! أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ؟ وَالْقَى الْأَلْوَا حَ (ألواح التوراة) وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ (هَارُونَ) يَجْرُهُ إِلَيْهِ. قَالَ (هرون): ابْنُ أُمِّ (أخي) إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ¹⁵⁰. قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ¹⁵¹. (أجاب الله:): إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ¹⁵². وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹⁵³. وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَا حَ وَفِي سُخْفِهَا (ما كتب فيها) هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِربِّهِمْ يَرْهَبُونَ¹⁵⁴. وَاخْتَارَ مُوسَى (من) قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا (لم يعبدوا العجل) لِمِيقَاتِنَا (للموعد الذي حددناه ليعتدروا عن قومهم) فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ (الهزة القوية) قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ، أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ¹⁵⁵، وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ، إِنَّا هَذَا

(تبنا) إِلَيْكَ.

هـ- رحمتي سأكتبها للذين يتقون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي.

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ¹⁵⁶، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ (ما ثقل عليهم) وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ (ووقروه) وَبَصَّرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ¹⁵⁷. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ¹⁵⁸.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ¹⁵⁹، وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا (قبائل، فئات) أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ، فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا. قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى⁽²³⁾؛ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ¹⁶⁰. وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ (بيت المقدس) وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ (استسلمنا) وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ، سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ¹⁶¹. فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ¹⁶². وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ (مدينة أيلة) الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ (البحر الأحمر) إِذْ يَخْدُونَ فِي السَّبْتِ⁽²⁴⁾ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ. كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ¹⁶³. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا، اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا. قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ¹⁶⁴. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ¹⁶⁵. فَلَمَّا عَتَوْا (تكبروا) عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ¹⁶⁶. وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ (قَرَّرَ) لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ. إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ¹⁶⁷. وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ،

23 - المَنَّ: نبات يؤكل كالخلوى. وفي السورة انه يشبه بذر الكزبرة ينساقط على الأرض ليلا، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزا ذا طعم خاص. والسلوى الطير السماوي. قيل يسافر في مجموعات كبيرة من إفريقيا متجها شمالا.

24 - يعتدون على حرمة يوم السبت الذي حرم عليهم الكسب فيه، قيل: إن الواحد منهم كان يأخذ مساء الجمعة خيطا ويضع فيه وَهَقَةً، ويلقيه في البحر بينما الطرف الآخر من الخيط مربوط إلى وتد، ثم يتركه كذلك إلى يوم الأحد. وفشا هذا فيهم حتى كثر صيد الحوت، فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت عن ذلك. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسموا القرية بجدار. فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لثأنا؛ فعلموا على الجدار فنظروا فإذا هم قردة، ففتحو الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنسان، ولم تعرف الإنسان أنسابهم من القردة؛ فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنسان فتشتم ثيابه وتبكي؛ فيقول: ألم ننهكم فتقول برأسها نعم. قالوا: صار الشبان قردة والشيخوخ خنازير (كما سيأتي بعد)، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

وَبَلَّغْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ¹⁶⁸. فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ! (25) أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ : أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ؟ وَالْأُدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ؛ أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹⁶⁹؟ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ¹⁷⁰، وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ (اقتلعناه رفعا) فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ! خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ، وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ¹⁷¹⁻²⁶.

15- وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا (قريش) سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا! (وقد فعلنا ذلك كي لا تستطيعون) أَنْ تَقُولُوا⁽²⁷⁾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ¹⁷²، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعدِهِمْ: أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبِطِلُونَ؟ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ¹⁷³. وَآتِلْ عَلَيْهِمْ (على قريش) نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا⁽²⁸⁾ فَاسْتَسْلَخَ مِنْهَا فَاتِبَعَةَ الشَّيْطَانِ (أدركه وأضله) فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ¹⁷⁵. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا (بآياتنا) وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ (لم يكافح من أجل التبليغ) وَاتَّبَعَ هَوَاهُ! فَمَثَّلَهُ

25- يأخذون الرشوة على الفتاوى الدينية يحكمون لكل راس بالحكم الذي يريد.

26- "واذكر يا محمد إذ اقتلنا الجبل، فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظلة غمام من الظلام، وقلنا لهم: خذوا ما آتيناكم من فرائضنا بقوة، وألزبناكم من أحكام كتابنا، فاقبلوه، واعملوا باجتهاد منكم في أدائه من غير نقصير ولا توان. واذكروا ما في كتابنا من العهود والمواثيق التي أخذنا عليكم بالعمل بما فيه" (الطبري)

27- ذهب المفسرون في هذه الآية مذاهب بعيدة في التأويل، ليجعلوها متلاحمة مع الفكر في زمانهم، وذلك لا يستقيم اليوم. وأقرب تفسير إلى معهود العرب وإلى النص، ما ذكره الزمخشري، إذ اعتبر النص عبارة عن تمثيل قال: "إخراجهم من أصلاهم نسلًا (عاقلا) وإشهادهم على أنفسهم". أما قوله تعالى: "ألست بربكم قالوا بلى شهدنا" فهو - من باب التمثيل والتخييل. ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرره وقال لهم: ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررتنا بوحدانيتك".

28- ذكر المفسرون عدة روايات في من نزلت فيه هذه الآية، ولعل أقربها إلى السياق ومعهود العرب الرواية التالية، قالوا: "نزلت هذه الآية في أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب، وعلم أن الله مرسل رسولا في ذلك الوقت، ورجا أن يكون هو، فلما أرسل الله محمدا (ص) حسده، ثم مات كافرا. وكان له شعر يعبر فيه عن ما يشبه عقيدة الإسلام.

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرِكْهُ يَلْهَثْ. ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا ⁽²⁹⁾. فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ¹⁷⁶. سَاءَ مِثْلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا، وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ¹⁷⁷. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ¹⁷⁸. وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْبَاسِ، لَهُمْ
قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا،
أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ¹⁷⁹ (يسمون الأصنام آلهة ويدعون
الله بأسمائها). وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ
(ينحرفون) فِي أَسْمَائِهِ، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ¹⁸⁰. وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ
بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْمَلُونَ ¹⁸¹ (هم المؤمنون). وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا (مشركو قريش)
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ¹⁸²، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ¹⁸³. أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا؟ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنَّةٍ (ليس مجنوناً كما ادعوا) إِنْ هُوَ (القرآن) إِلَّا
نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
(وما يحدث في الكون من موت وحياة على جميع المستويات)، وَأَنْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَدْ أَفْتَرَبَ أَجْلُهُمْ! فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ؟ ¹⁸⁵ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ
لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ¹⁸⁶ (يتحيرون). يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ
مُرْسَاهَا؟ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا إِلَّا هُوَ، ثَقُلَتْ (عظم شأنها)
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً! يَسْأَلُونَكَ كَاتِبٌ حَقِّيَّ عَنَّا (مهتم بها
وخائف مثلهم) قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَكَيِّنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ¹⁸⁷. قُلْ لَا
أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ (متى قيام
السَّاعَةِ) لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّبِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ¹⁸⁸ (إذن لكي تتجروا من الخوف من يوم الحساب) آمنوا واستكثروا العمل
الصالح). هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ⁽³⁰⁾ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا،

29- الكلب يخرج لسانه ويتنفس بقوة سواء كان ذلك بعد التعب أو حين يجلس مرتاحاً.
وكذلك هذا الرجل بقي ملتصقاً بالأرض لم يرتفع إلى المستوى الذي تدل عليه آيات الله
والذي نطق بها شعره، ولكن دون قلبه، لأنه لو آمن بقلبه لما حسد النبي الذي جاء بمثل =
=ما كان يبشر به. ومثل هذا الرجل "مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا"، والمقصود هنا : قريش.
لقد كانوا يقدرون محمداً ويصفونه بالأمين الخ، ولكن عندما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام
وشجب تسميتهم لها بـ "بنات الله"، أعرضوا عنه وحاربوه.

30- اعتمد معظم المفسرين على الإسرائيليات في تفسير قوله تعالى: "وجعل منها زوجها"
فقالوا إن "الله خلق حواء من ضلع آدم"، وهذا مذكور في التوراة. ولكن ليس في القرآن ما
يدل على أن الله خلق حواء من ضلع آدم. وما يفهم من الآيات التي تعرضت لهذا الموضوع
هو أن الله خلق آدم من طين". على أن هذه الآية وسياقها لا علاقة لهما -في نظرنا- بقصة
آدم وحواء. إن الخطاب هنا موجه إلى مشركي قريش، إلى كل فرد منهم. والمعنى : هو
الذي خلقكم -خلق كلا منكم- من نفس واحدة، هو الرجل، أي من مني الزوج، وجعل من

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا (جامعها) حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ (لم تهتم)، فَلَمَّا أَثْقَلَتْ (ثقل) بطنها وأيقنت بالحمل) دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا : لَنُنْزِلَنَّ صَالِحًا (ولدا سويا) لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ¹⁸⁹. فَلَمَّا آتَاهُمَا (مولودا) صَالِحًا جَعَلَهُ (أي الله) شَرِيكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا (31) فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ¹⁹⁰. أَيُشْرِكُونَ (مع الله) مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا (كالأصنام) وَهُمْ يُخْلِقُونَ¹⁹¹، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ¹⁹²؟ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ؛ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ¹⁹³! إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أُمْتَأَلِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ¹⁹⁴! اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَنْطِشُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا؟ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا؟ قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تَنْظُرُونِي¹⁹⁵ (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ (الكتاب) وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ¹⁹⁶. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ¹⁹⁷! وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ (الأصنام) يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ¹⁹⁸.

16- خاتمة: اسلك سبيل اليسر ولا تفكر في الانتقام...

خُذِ الْعَفْوَ (اسلك سبيل اليسر) وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ¹⁹⁹. وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ (إذا استهوتك الرغبة في الانتقام) فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ²⁰⁰. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ (رغبة شيطانية) تَذَكَّرُوا (فكروا) فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ²⁰¹ (للعواقب). وَإِخْوَانُهُمْ (إخوان المشركين) يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ²⁰² (لا يكفون) (32). وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا (اخترقتها)! قُلْ إِنَّمَا أُتِيعَ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي. هَذَا

تلك النفس، أي من ذلك المني زوجها باختلاطه مع ماء المرأة. وهذا ما يقتضيه العلم القديم الموروث عن أرسطو والذي انتشر بين الأطباء القدامى، فقد كانوا يرون أن النفس (وهي الصورة) هي من مني الرجل، أما ماء المرأة فهو مجرد مادة للتغذية. فالمرمر (أو الرخام) مادة وهي لا شكل لها، وعندما تلبسها صورة معينة صورة رجل أو صورة امرأة، تصبح تمثالا للرجل أو المرأة. وكذلك ماء المرأة فهو كالمرمر، في هذا المثال، فعندما تلبسه صورة الرجل يكون المولود ذكرا وعندما تلبسه صورة المرأة يكون أنثى. ويبقى من يعطي الصورة؟ في الأفلاطونية المحدثه قالوا يعطيها واهب الصور، (وهو العقل السماوي للعالم مدبر ما تحت فلك القمر، ويناسب جبريل في الاصطلاح الديني). وهذا قريب من قوله تعالى "وَمَرْيَمُ ابْنْتِ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا" (من جبريل-التغابن 12).

31- يمكن أن يكون المعنى : سميها باسم فيه شرك، مثل عبد العزى، عبد اللات الخ،

32- قال الفراء : "وقوله "وَإِخْوَانُهُمْ..." إخوان المشركين "يُمدُّونَهُمْ" في الغي، فلا يتذكرون ولا ينتهون، فذلك قوله: (ثم لا يقصرون) يعني المشركين وشياطينهم. (معاني القرآن ج1).

بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَذَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ²⁰³. وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ²⁰⁴. وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَئِنْ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ²⁰⁵. إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ (أي الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ²⁰⁶.

- تعليق

السورة كلها رد على قريش على إثر ذهابهم إلى أبي طالب، هي امتداد لسورة "ص". والقصص فيها موظف مباشرة في هذا الغرض. حوار الأنبياء مع أقوامهم هو حوار الرسول محمد عليه السلام مع قريش.

ترتبط بداية سورة الأعراف مباشرة بكل من بداية ونهاية السورة التي قبلها (سورة ص). فمن جهة تستعيد في مقدمتها موقف قريش وعجبهم من أن يكون محمد بن عبد الله مبعوثاً من الله إليهم، كما فعلت سورة "ص" في بدايتها، ومن جهة أخرى تربط موقف قريش ذلك، بموقف إبليس من آدم، الذي شرحت السورة السابقة في نهايتها. وبالجملية يمكن القول إن سورة الأعراف التي نزلت مباشرة بعد سورة "ص"، حسب ترتيب النزول، قد جاءت، لا لتكرر ما سبق أن ورد في هذه الأخيرة، بل لتعيد صياغته بشكل أكثر تنظيماً وتفصيلاً.

وهكذا تبدأ السورة -كما رأينا أعلاه- بمخاطبة النبي عليه السلام مؤكدة أن القرآن الذي يوحى إليه هو كتاب من عند الله تعالى، فعليه أن لا يشعر بأي ضيق أو حرج في تبليغه لقومه، ينذر المكذبين، ويذكر المؤمنين، داعياً إلى عدم اتخاذ أولياء لهم من دون الله كما كان يفعل أقوام من قبل فكان مصيرهم الهلاك. ثم تعلن السورة عن أن مدار القول فيها هو قصص أحوال هؤلاء الذين اتخذوا لهم أولياء من دون الله فعبدوا الأصنام أو أشياء أخرى غير الله، وما جرى بينهم وبين رسلهم من حوار وجدل، حتى يتبين السامع بنفسه، ومن خلال استعمال ميزان عقله، الصواب من الخطأ، والهدى من الضلال.

وهكذا تنطلق هذه السورة من استعادة القصة التي ختمت بها السورة السابقة (قصة إبليس/آدم) ولكن مع تفاصيل أوفى: لقد ابتدأ مسلسل وجود البشر، الذين مكن لهم الله في الأرض (والخطاب موجه إلى قريش)، بدأ من خلق الله آدم في السماء وأمره الملائكة بالسجود له تكريماً، فسجدوا إلا إبليس. ولما سألته تعالى عما منعه من السجود احتج بتفوق أصله على أصل آدم: "خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ". فكان جواب الرب على هذا "الاستكبار" الذي يماثل استكبار الملأ من قريش، الذين تساءلوا كما رأينا في أوائل السورة السابقة، "أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا" وأهمل

كبراعنا وأشرافنا! كان الجواب أن الله أمر إبليس بالهبوط من السماء إلى الأرض، ليريه مكانه الحقيقي بين "الصاغرين"³³. هنا طلب إبليس من الله أن لا ينفذ فيه وعيده وأن يمهله إلى يوم القيامة، فاستجاب الله لطلبه. وهنا قال إبليس: بما أن مقامي في الجنة قد فسد بسبب هذا المخلوق الجديد (آدم) فإني سأجند لأنتقم منه، سأفسد مقامه هو وذريته في الأرض. فأجابه تعالى: أخرج من الجنة مذموماً، وساملاً جهنم منك ومن ممن اتبعك منهم. ثم خاطب الله آدم: "اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" (الأعراف 19).

وهنا يبدأ الجزء من القصة الذي لم يرد في السورة السابقة: إبليس يغري آدم وزوجه بالأكل من شجرة، كان الله قد نهاهما عنها، فانساقا لإغرائه ودفع بهما الطمع إلى الأكل من تلك الشجرة وما أن فعلا حتى بدت لهما عورتهما (والمقصود ضعفهما الذي يكشف عن أنهما خلقا من مادة (طين) وليس من نور (كباقي الملائكة)، وطفقا ينتزعان من أوراق الشجر ما به يستر كل منهما عورته (كناية عن سعي الإنسان لستر جوانب الضعف فيه). ولما رأى الله فعلتهما اتجه إليهما باللوم والعتاب وأمرهما بالخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض ليعيشا وفق طبيعتهما "الترابية"³⁴.

من هذا العرض المركز عن قصة آدم مع إبليس تنطلق السورة، سورة الأعراف، التي نحن ضيوف عليها، إلى تفصيل القول في العبرة التي يجب استخلاصها منها، متجهة بالخطاب إلى ذرية آدم لتنبيههم إلى أن الشيطان (الشهوة) الذي أخرج أبويهما من الجنة بعد أن كشف عن عورتهما (عن جانب الضعف البشري فيهما) مصرّاً على مواصلة مهمته التضليلية بين صفوف البشر، وأن الله جعل الشياطين "أولياء الذين لا يؤمنون" (والمقصود المباشر هم قريش) يضلونهم

33 - لم يرد اسم إبليس في التوراة بل ورد اسم الحية (أو التنين) فهي التي أغرت حواء، وحواء أغرت معها آدم، بالأكل من الشجرة المحرمة. أما في الأناجيل فقد ورد اسم إبليس (والشيطان) على أنه هو الحية ذاتها. على أني لم أعثر في التوراة ولا في الأناجيل على ما يشبه قصة أمر الملائكة بالسجود لآدم، وامتناع إبليس بدعوى أنه من "نور" (آدم من طين (تراب)). ولعل ذكر القرآن لهذا الجانب إشارة إلى ما تدعيه قريش من تفوق على المستضعفين من أتباع النبي (ص)، وقد ستمتهم "الأراذل" وطلبت من النبي أن يطردهم كشرط للاعتراف به والانضمام إليه.

34 - والجدير بالذكر هنا أن خطيئة الأكل من الشجرة هي -في القرآن- خطيئة آدم وليس خطيئة حواء، فالمسؤولية تقع على الرجل وليس على المرأة/الحية (كما في التوراة). ولذلك طلب الله التوبة من آدم وليس من حواء. فلما أعلن آدم توبته سقطت الخطيئة.

ويوجهونهم ويملنون عليهم أفكارا كاذبة يبررون بها ما يرتكبونه من ضلالات، ويتمسكون به من ميررات وحجج.

وتستمر السورة في بيان أوامر الله ونواهيه وما يترتب عنها من ثواب أو عقاب يوم القيامة، ثم تقدم مشهدا من مشاهد الحوار الذي يجري في الآخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار— وهذا المشهد هو المقصود بقوله تعالى عن قريش "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ؟"، أي هل ينتظرون حصول ما سيؤول إليه ما في هذا الكتاب من وعد ووعد؟ وبعبارة أخرى: هل ينتظرون قيام القيامة ليروا بأعينهم ما في الجنة من نعيم وما في النار من عذاب؟ إنهم إن كانوا يريدون ذلك فليعلموا أنه: "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ (أمثالهم من الأمم الماضية) قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا، أَوْ نَرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ؟ وكان الجواب، كلا: "قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ" (الأعراف 51/53).

من هنا تنتقل بنا السورة مباشرة إلى عرض قصص هؤلاء الذي وقفوا من قبل مع رسلهم الموقف نفسه الذي وقفه كفار قريش مع رسولهم العربي محمد بن عبد الله.

وهكذا فبعد قصة آدم وإبليس تنتقل بنا سورة الأعراف إلى قصة نوح لتؤكد ما سبق. فمن السهل وضع اسم محمد مكان اسم نوح، وصرف كلمتي "أنجيناه" و"أغرقنا" من صيغة الماضي (المناسبة لنوح) إلى صيغة الحاضر والمستقبل (المناسبة لمحمد)، لتبقى الحقيقة المراد تقريرها هي هي.

أما الطريق الذي سلكته سورة الأعراف في الانتقال من آدم وإبليس إلى نوح فهو كما يلي: بعد الفراغ من قصة آدم/إبليس اتجهت السورة بالخطاب إلى بني آدم لتذكرهم بإرشاد الله آدم وحواء إلى "اللباس" الذي يستر عوراتهما، ولتنبيههم إلى أن "لباس التقوى" خير، لأنه هو الذي يقيهم من أن يفتنهم الشيطان/الشهوة كما فتن أبويهما فأخرجهما من الجنة. ولما كان عرب "الجاهلية" قد اعتادوا أن يطوفوا حول الكعبة عراة "كما خلقهم الله" تضرعا إليه، وكأنهم يتبرؤون من فعله آدم وحواء التي اضطرتهم إلى البحث عما يستر عوراتهما، فقد نبهتهم السورة إلى أنه لا ينبغي أن يتخذوا العري وسيلة للتضرع إلى الله، وأن عليهم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأن يأكلوا ويشربوا دون إسراف.

ثم تخاطب السورة بني آدم منبهة إلى أن عليهم أن يتبعوا ما تأتي به إليهم رسلهم من الله، وتستطرد في وصف مصير المتقين ومصير الكافرين يوم القيامة مستعيدة حوار أهل الجنة وأهل النار، مذكرة قريش بأن الله قد بعث إليهم رسولا ومعه كتاب هو "هَذِي وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ". ثم تذكرهم بأن الله خلق السماوات

والأرض ورتب نظام الكون وسخره لخدمة من في الأرض، ثم تذكرهم بأن الله كما يرسل الرياح حاملة سحباً ومطراً ينبت نباتاً، بعضه طيب وبعضه خبيث، كذلك يرسل الرسل لتبليغ رسالاته إلى الناس فيكون منهم الطيبون الذين يستجيبون، والخبيثون الذين يكذبون ويعرضون، وبعد الممات يبعثون من قبورهم: الطيبون بسهولة، والخبيثون بمشقة، ثم يحاسبون...

ومن هنا تنتقل السورة إلى التذكير بقصص الرسل مع أقوامهم، مبتدئة بقصة نوح، بوصفه أول رسول جاء بعد آدم. يتعلق الأمر بنص قصير لا يحكي وقائع القصة كما سنتعرف عليها لاحقاً، بل يقتصر على التركيز على حوار نوح مع قومه، وهو لا يختلف في شيء عن الحوار الذي ورد في آيات عديدة بين النبي محمد عليه السلام وقومه قريش³⁵. وهذا ينسجم مع الغرض من القصص القرآني جملة، بوصفه وسيلة تذكير وبيان ودعوة لقريش لاستخلاص العبرة من تجارب "التاريخ"، تجارب الرسل السابقين مع أقوامهم، تماماً مثلما تدعوهم إلى استخلاص العبرة من آثار وبقايا قرى الأمم السابقة، ومن انتظام الظواهر الكونية انتظاماً يخدم الإنسان في نهاية المطاف. من هذا المنظور نكتشف وحدة السياق بين الآيات التي عرضت لقصة نوح والآيات السابقة لها والتي جاءت كمقدمة لها.

بعد عرض قصة آدم/إبليس وقصة نوح تعود بنا سورة الأعراف، إلى قصص "أهل القرى" مع أنبيائهم، لتفصل القول فيها، ثم لتعرج على قصص أنبياء آخرين قبل أن تنتقل إلى قصة موسى مع فرعون وقومه. يتعلق الأمر هذه المرة، ليس بقرية يعيد أهلها الأصنام، وإن كان نقد عبادة الأصنام سيستأنف في مرحلة من مراحل هذه القصة، بل يتعلق الأمر أساساً بطاغية نصب نفسه إلهاً يضطهد شعبه ويستعمل قسماً منهم -هم بنو إسرائيل- في الأعمال الشاقة، وقد ذهب به الطغيان إلى أقصى مداه عندما قرر ذبح أطفالهم الذكور والإبقاء على الأمهات والبنات لتأمين الخدمة له ولملأه.. ومن أجل إنقاذ هذا الشعب بعث الله موسى إلى فرعون.

وعلى خلاف القصص السابقة حيث كان التعريف بالنبي يقتصر على نسبته إلى قومه كـ"أخ" لهم ("إلى هود أخاهم عاد"، "إلى مدين أخاهم شعيب" الخ) فإن حكاية حياة موسى تحتل حجماً كبيراً في قصته مع فرعون -كما سنرى في سورة

35 - نشير في هذا الإطار إلى التشابه بين ما ورد أعلاه من تعجب قوم نوح من أن يكون الله قد أرسله إليهم وهو مجرد واحد منهم، وبين ما ورد قبل في مقدمة سورة "ص"، المتصلة مباشرة مع سورة الأعراف على صعيد ترتيب النزول، من تعجب قريش من أن يكون النبي محمد عليه السلام قد أرسله الله إليهم وهو واحد منهم: "وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا، وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (ص 63).

طه- هذا بينما يقتصر التعريف بفرعون موسى على إبراز طغيانه وادعائه الألوهية -دون ذكر اسمه ولا أي شيء يمكن أن يعرف به من بين الفراعنة الآخرين- مما يوحي بأنه يتخذ هنا رمزا للطغيان وبالتالي ليس المقصود فرعون بعينه، من بين الملوك الفراعنة، بل المقصود كل من هو في معناه. ويتأيد هذا بكون فرعون صاحب يوسف لم يطلق القرآن عليه اسم فرعون بل سماه "الملك" (انظر لاحقا سورة يوسف).

ومع أن قصة موسى قد عرضت في عشر سور من القرآن المكي⁽³⁶⁾، مجال بحثنا، فإن العرض الوارد في سورة الأعراف، منطلقا المرجعي، يشكل ما يمكن اعتباره الصيغة الرئيسية للقصة. وهذا لا يقلل من أهمية الصيغ التي وردت فيها القصة في باقي السور؛ ففضلا عن أن هذه الصيغ تورد عناصر جديدة تفصيلية فهي تطرح القصة في سياقات أخرى، كثير منها متشابه فعلا، على صعيد بداية السورة وخاتمتها، ولكنها تختلف قليلا أو كثيرا على صعيد أسلوب العرض كما على صعيد المضمون.

تبدأ سورة الأعراف في عرضها لقصة موسى بربطها بقصص أهل القرى المذكورة قبلها، الشيء الذي يعنى أنها تندرج في نفس الإطار الذي حددته هذه السورة في بدايتها للقصص القرآني. أما المراحل التي ركزت عليها هذه السورة من قصة موسى، فقد عرضناها في فقرات داخل النص. وقد أبرزنا في عناوينها ردود فعل "الشعب"، قوم موسى وقوم فرعون.

بعد ذلك تعود السورة إلى قريش، في خاتمة مطولة، تتميز بهجوم لاذع على الأصنام، فيه تسفيه لعقول الذين يعبدونها ثم تتحداهم أن يستعينوا بها وينفذوا ما يتحدثون به من ضرورة التخلص من محمد، الرسول الذي هد كياناتهم وأقض مضاجعهم: "قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي، فَلَا تُنْظِرُونِي"¹⁹⁵ (لا تمهلوني)، إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (الأعراف 195-196).

36- ذكر اسم موسى في القرآن كله 131 مرة. أما قصته في القرآن المكي فقد عرضت في عشر سور: حكاية، أو مجرد إشارة. أما هذه القصة في القرآن المدني فسنعرض لها لاحقا.

40- سورة الجن

- تقديم

ذكر ابن إسحق أن نزول هذه السورة كان عند رجوع النبي عليه السلام من الطائف التي ذهب إليها يطلب العون والنصرة من أهلها ثقيف بعد أن أشد عليه ضغط قريش عقب وفاة أبي طالب، وقد كان رد فعل ثقيف سيئا جدا إذ أغروا به صبيانهم وسفهاءهم الخ، فرجع في حال أسوء من تلك التي ذهب بها...

وبناء على ذلك يكون تاريخ نزول سورة الجن في السنة العاشرة للنبوّة (قبل ثلاث سنوات من الهجرة). غير أن هذا لا يستقيم مع ترتيب النزول، ففضلا عن أن هذه السورة مرتبة في لوائح ترتيب النزول في رتبة 40 بعد سورة الأعراف فإن سورة حم "الأحقاف" التي فيها آيات صريحة تشير إلى سورة الجن (انظر هامش 1 أدناه)⁽¹⁾، والتي رقم ترتيبها 66 في لوائح ترتيب النزول، قد نزلت مع الحواميم أثناء الحصار، كما سنبين بعد، ومعلوم أن ذهاب النبي عليه السلام إلى الطائف يطلب النصرة كان بعد انحلال الحصار في السنة العاشرة، وبالتالي فآيات سورة الأحقاف (أعلاه) لا يمكن أن تتحدث عن واقعة من وقائع السيرة حدثت بعد نزولها.

لذلك نرجح الرتبة التي أعطيت لسورة الجن في لوائح ترتيب النزول. ومما يزكي هذا الترجيح لدينا كون الرتبة التي أعطيت لها (رقم 40) تجعلها تالية لسورة الأعراف؛ وكما سنرى فإن مضمونها وسياقها يزكيان هذه الرتبة. فالسورة تتحرك في امتداد أفق سورة الأعراف، كما سيوضح.

تشتمل السورة كما هو واضح على قسمين: قسم يحكي قصة استماع رجال من الجن للقرآن وما كان رد فعلهم: لقد أعجبوا بالقرآن فآمنوا فتخلوا عن الشرك وانفصلوا عن المشركين من الجن والإنس. لقد تبين لهم أن هؤلاء كانوا يكذبون على الله، وأن مشركي قريش كانوا يحتمون بأمثالهم من الجن، وأن الجن كانوا من قبل

1- هي قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (الأحقاف 29-31)

يسترقون السمع من السماء للحصول على "الغيب" وأنه حدث أن تغير الأمر فصاروا يطردون بشهب من نار. وعندما بحثوا عن سبب هذا التغير اكتشفوا أن رسولا جديدا قد بعثه الله إلى العالمين، هو محمد (ص)، وأن باب السماء قد أغلقت فلم يعد من الممكن لا التجيم ولا الكهانة، وأنه لم يعد هناك من سبيل لتلقي المعرفة الغيبية من السماء غير الوحي الذي ينزل على هذا الرسول. هذا وقد ذكر المحدثون ورواة أسباب النزول خبرا عن ابن عباس يقول فيه: "ما قرأ رسول الله (ص) على الجن ولا رآهم، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشيطان وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: ما هذا إلا شيء قد حدث فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فانظروا هذا الذي حدث فانطلقوا فاتصرف النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بـ"تخلة" وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا"، فأنزل الله على نبيه "قل أوحى إلي" وإنما أوحى إليه قول الجن.

أما القسم الثاني من السورة فهو موجه إلى قريش بخطاب يدعوهم إلى استخلاص الدرس من إسلام الجن: ذلك أنه لو استقاموا وأسلموا لغير الله حالهم بإمدادهم بالمطر، وهم في أمس الحاجة. فإذا هم رغبوا في ذلك حقا فليتركوا المساجد لله وحده وليسحبوا أصنامهم ولا يكرروا ما فعلوه حين تراموا على النبي يريدون خنقه عندما رأوه يصلي أمام نواديهم في المسجد، لا لذنب اقترفه بل فقط لكونه رسولا من الله جاء يحذرهم من الشرك ويبين لهم مصيرهم عند قيام الساعة. يسألون النبي عن وقتها! والجواب أن أمرها عند الله وأنه لم يتلق من عنده أي شيء عنها.

- نص السورة:

1- جماعة من الجن تستمع للقرآن ... وتسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

"قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا¹ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ؛ فَأَمَّا بِهِ وَكَانَ نَشْرُكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا². وَأَنَّهُ، تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا (تعالى مقام ربنا)، مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا³؛ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا⁴ (كذبوا وغلوا بادعائه أن له صاحبة وولد)، وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا،⁵ (2). وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ (من كفار قريش) يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ (يقولون أعوذ وأحتمي بجن هذا المكان) فَرَادَوْهُمْ رَهَقًا⁶ (انحرافاً وطغياناً)، وَأَنَّهُمْ (رجال من الجن) ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ (يا كفار قريش) أَن لَّنْ يَنْبَغْتَ اللَّهُ أَحَدًا⁷، وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا (ملائكة) وَشُهَبًا⁸ (نجوماً محرقة)، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ (كنا نسترق السمع من السماء) فَمَنْ يَسْمَعُ إِنَّا (بعد إرسال محمد رسولاً) يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا⁹ (حارساً تمنع من استراق الوحي)، وَأَنَا لَا نَذْرِي أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أُرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا¹⁰ (هل سيؤمنون بالرسالة المحمدية أم سيكفرون بها). وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ : كُنَّا طَرَأَقَ قِدْدًا¹¹ (فرقاً مختلفة)، وَأَنَا ظَنُّنَا أَن لَّنْ نَعِجَّزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ (إن أراد منا أمراً) وَلَكِنْ نُعْجِزُهُ هَرَبًا¹² (إذا هربنا إلى السماء)، وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى (القرآن) آمَنَّا بِهِ، فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا¹³، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَا الْقَاسِطُونَ (الجائرون) فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا¹⁴. وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا¹⁵.

2- خطاب لقريش : إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا

وَأَلَّوْ (وقل أوحى إلي أن لو) اسْتَقَامُوا (مشركو قريش) عَلَى الطَّرِيقَةِ (الطريق المستقيم) لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا¹⁶ (كثيراً، بعد جفاف)، لَنَفْتِنَنَّاهُمْ فِيهِ (نختبرهم به). وَمَنْ يَعْزِضْ (منهم) عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ (القرآن) يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا¹⁷ (شاقاً)، وَأَنْ (وقل أوحى إلي أن) الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ (المسجد الحرام) فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا¹⁸ (غيره)، وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ (محمد) يَدْعُوهُ (يعبد الله) كَادُوا (مشركو قريش) الْجَالِسُونَ فِي نَوَادِيهِمْ بِالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا¹⁹ (بعضهم فوق بعض مزدحمين عليه ليمنعوه من الصلاة). قُلْ (يا محمد لمشريكي قريش) إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا²⁰. قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا²¹. قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَ رَبِّي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَكِنْ أَجِدُ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا²² (ملجأً). (قل لا أملك) إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ، (من هذا البلاغ): وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا²³، حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا²⁴ (هل هم أم المسلمون)؟ قُلْ إِن أُنْذِرِي

2- المعنى: صدقنا قول "سفهيها" لأننا ظننا أنه لا أحد يخطر على باله أن يكذب على الله، فلما سمعنا القرآن علمنا أنهم قد كذبوا.

(ما أدري) أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا²⁵! عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا²⁶، إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ⁽³⁾ فَاتَّهَ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا²⁷ (يوحي بهذا الغيب إلى الرسول محروسا بالملائكة)، لِيَعْلَمَ (الله) أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا (يعني الرسل) رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (من الوحي) وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا²⁸ (كل شيء عنده محصي، بما في ذلك عمل الرسل وردود فعل أقوامهم).

- تعليق واستطراد : في الجن والشيطان

1- في اللغة:

ذكر الجن في القرآن لأول مرة حسب ترتيب النزول في آخر سورة الناس رقم 18، في قوله تعالى "الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس"، الشيء الذي يفهم منه أن "الوسواس" قد يأتي من الجن وقد يأتي من الإنس. وفي سورة الرحمان ورد الخطاب موجها إلى الإنس والجن. أما هنا في السورة المسماة باسم "الجن" فموضوعها "إسلام الجن". وقد حاك الرواة والمفسرون وكتاب السيرة والمؤلفون في "الأدب والأخبار" حكايات لا حصر لها عن الجن، كما أن بعضهم أكثر في الحديث عن الجن في القرآن وعن علاقته بالسيرة النبوية ومسيرة القرآن الخ، لذلك ارتأينا تخصيص هذا التعليق لهذا الموضوع، متوخين الانتقاء والاختصار.

- الجن، إبليس، الشيطان، ثلاثة ألقاظ يتعين تحديد معناها قبل الخوض فيما نحن بصده.

أما لفظ "الجن" فنقرأ عنه في "مقاييس اللغة" لابن فارس : "جن : الجيم والنون أصل واحد، وهو (السنر و) التستر. فالجنة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم. والجنة : البستان، لأن الشجر بورقه يستتر. وناس يقولون: الجنة عند العرب النخل الطوال ... والجنين: الولد في بطن أمه، والجنين: المقبور. والجنان: القلب. والمجن: الترس، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة. ... والجنة: الجنون، وذلك أنه يغطي العقل. وجنان الليل: سواده وستره الأشياء ... والمجنة الجنون. فأما الحية الذي يسمى الجان فهو تشبيه له بالواحد من الجان. والجن: سموا بذلك لأنهم متسترون عن أعين الخلق، قال تعالى: "إنه

3- علق الزمخشري على هذه الآية بقوله: "إنه لا يطلع على الغيب إلا المرتضى الذي هو مصطفى للنبوّة خاصة، لا كل مرتضى. وفي هذا إبطال للكرامات؛ لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل.

(إبليس) يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" (الأعراف 27). ولا تكاد المعاجم الأخرى تخرج عن هذه المعاني.

أما لفظ "الشيطان" فنقرأ عنه في لسان العرب لابن منظور ما يلي :
 "والشيطان: حَيَّةٌ لَهُ عُرْفٌ. وَالشَّاطِنُ: الْخَبِيثُ... والشيطان: معروف، وكل عاتٍ متمرد من الجن والإس والدواب شيطان... وَتَشْيِطَنَ الرَّجُلُ وَشَيْطَنَ إِذَا صَارَ كَالشَّيْطَانِ وَقَعَلَ فَعَلَهُ... وفي التنزيل العزيز: "وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ" (الشعراء 210). وقوله تعالى: "طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ" (الصفافات 65) ... والشيء إذا اسْتَقْبَحَ شَبَّهَ بِالشَّيَاطِينِ. والشيطان لا يرى، ولكنه يَسْتَشْفِرُ أَنَّهُ أَقْبَحَ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَلَوْ رُؤِيَ لَرُؤِيَ فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ... بالفوا في تمثيل ما يستقبح من المذكر بالشيطان وفيما يَسْتَقْبَحُ من المؤنث بالتشبيه له بالغول. وقيل: كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ كَأَنَّهُ رُءُوسَ حَيَّاتٍ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسْمِي بَعْضَ الْحَيَّاتِ شَيْطَانًا، وَقِيلَ: هُوَ حَيَّةٌ لَهُ عُرْفٌ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ.

هذا الفائض من الكلام حول معنى "الشيطان" والاختلاف بين اللغويين في تحديد أصله الاشتقاقي في اللغة العربية يدل على ضعف علاقة هذا اللفظ باللغة العربية. الشيء الذي يحمل على الاعتقاد بأن هذا اللفظ يجد أصله في لفظ Tzatanâ الذي يعني بالآرامية ما يعنيه لفظ الشيطان بالعربية. ويعتبر هذا اللفظ من قاموس الديانة الإبراهيمية إذ نجد له مقابلا بالعبرانية يعبر عن كائن استقاه اليهود من اللغة الكلدانية عندما كانوا مسبيين في بابل، ليدل على محامي الاتهام في المحكمة، فهو عدو. أما في المسيحية فقد تم التعبير عن هذا العدو في إنجيل متى (4-10) بلفظ satanas ، الذي صار علما على "الشيطان"، وأعطى له اسم ملائكي هو صمويل Samaël (ملك الموت والدمار)⁽⁴⁾.

أما لفظ "إبليس" فقد ورد عنه في لسان العرب: "أَبْلَسَ الرَّجُلُ: قُطِعَ بِهِ. وَأَبْلَسَ: سَكَتَ. وَأَبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَيِ يَنْسُ وَيَنْدِمُ، وَمِنْهُ سُمِيَ إِبْلِيسُ وَكَانَ اسْمُهُ عَزَازِيلَ. وفي التنزيل العزيز: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ (يندم) الْمُجْرِمُونَ" (الروم 12). وفي "مجاز القرآن" لأبي عبيدة أن لفظ "إبليس" ممنوع من الصرف لأنه أعجمي، وبذلك قال لغويون آخرون. وإذا صح أن هذا اللفظ أعجمي فقد يصح القول إن له علاقة باللفظ اليوناني Diabolos الذي يعني: الشيطان.

4- أسماء الملائكة في التوراة مثل صموئيل ورفائيل ومكائيل وجبريل وغيرها، هي من "الآلهة الصغرى" الكلدانية، وكانوا يعتبرونها جسمانية لها أرواح ومقرها السماء، ولكنها لا ترى من الأرض، وهي تمشي على الأرض بإذن الإله ألوهيم. وربما كان هذا من أصول عبادة الأصنام في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وسنفصل القول في موضوع الأصنام لاحقا.

والمفسرون للقرآن يعتبرون الجن جنسا، ويُميزون فيهم بين الأخيار والأشرار. "واختلفوا في الجن والشياطين فقليل: الشياطين جنس والجن جنس آخر، كما الناس جنس والأفراس جنس، وقيل: الجن منهم أخيار ومنهم أشرار، والشياطين اسم لأشرار الجن".

2- أخبار الجن في المؤلفات العربية

هذا على المستوى اللغوي. أما على مستوى المروث الثقافي العربي فلا نحتاج هنا إلى عرض مفصل للتصورات التي بناها العرب لأنفسهم أو استقوها عن غيرهم من الأمم حول الجن. فالثقافة الشعبية العربية ما زالت محملة بما يسميه القدماء في مؤلفاتهم بـ "أخبار الجن"، وهي مؤلفات عديدة بعضها خاص بهذا الموضوع وبعضها يضم أبوابا وفصولا تتحدث عنه. من هذه المؤلفات على سبيل المثال، لا الحصر: كتاب "أخبار الجن وأشعارهم" لهشام بن محمد بن السائب الكلبى (المتوفى سنة 204 هـ) الذي تروى عنه كثير من مظاهر حياة العرب قبل الإسلام. ومنها كتاب "آكام المرجان في أحكام الجنان" للفاضل بدر الدين: محمد بن عبد الله الشبلي (الحنفي 769 هـ)، رتبته على مائة وأربعين بابا في أخبار الجن وأحوالهم... ومن كتب "الأخبار" التي أفردت بابا في أخبار الجن كتاب أبي هلال لقيط بن بكير المحاربي كان من رواة الكوفة، وهو من المؤلفين الأوائل إذ توفي سنة 190 هـ. وإضافة إلى هذه المؤلفات والنصوص ذات الطابع "الأدبي" هناك نصوص كثيرة كتبت كتقديرات أو كحواش وتعليقات حول ما ذكر عن الجن في القرآن أو في الحديث (وهو شيء كثير) سنأتي على ذكر بعضه في حينه.

لقد بقيت هذه المؤلفات تحكي عبر القرون موروثة شعبية حول الجن (والشياطين وإبليس) يعبر بصيغ شتى عن التداخل الكبير بين حياة البشر وحياة الجن. ومع أن كثيرا من الناس، المثقفين منهم وغير المثقفين، يشكون في مصداقية ما يقال في هذا الصدد فإن الجميع يستلذ السماع لـ "حديث الجن"، و"حديث الجنى" و"الجنية" إما لما يشتمل عليه من ملح وغرائب أو للاعتقاد في ذلك نوعا من الاعتقاد... ومن الشائع في الموروث الشعبي العربي -وغيره- أن الجن يتقاسمون الحياة على الأرض مع الإنسان، فهم يسكنون مع الناس ويعملون في المهن كما يعمل الناس، ولكنهم يتميزون عنهم بخصائص: منها أنهم لا يرون إلا نادرا وفي الغالب على "صورة" حيوان أو إنسان أو حشرات. ومنها أن لهم القدرة على النفاذ في جسم الإنسان فيوجهونه ويساعدونه أو يخنقونه أو يحدثون ضررا في عضو من أعضائه، ومنها أن للرجل جنية وللمرأة جني، وليس العكس.

والاعتقاد في وجود الجن اعتقاد قديم متأصل في الشعوب السامية خاصة وفي غيرها من الشعوب عامة. وهو حديث حاضر في التوراة والأنجيل، كما هو حاضر في القرآن. وما يهمنا هنا، ونحن نتحدث عن خطاب العقيدة في القرآن، هو بيان حقيقة مضمون الجن والشياطين في هذا الخطاب وفي هذا السورة بالذات.

3- في القرآن...

ورد لفظ إبليس في القرآن 11 مرة، تسع منها مكررة في قصة عصيانه أمر الله بامتناعه عن السجود لآدم. وبذلك يكون قد ذكر خارج هذه القصة مرتين فقط، مرة في قوله تعالى عن قوم نبي الله إبراهيم: "فَكَبِّبُوا (جمعوا) فِيهَا (في جهنم) هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ" (الشعراء 94-95)، وقوله: "وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ (على أهل سبأ) إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" (سبأ 20). وباستثناء الحالة الأولى، حالة التمرد والعصيان في قصته مع آدم، فقد بقي مفهوم إبليس في الحالات الأخرى تعبيراً عن تنفيذه لما تعهد به أمام الله في تلك القصة من أنه سيصرف كل جهده لغواية آدم وذريته وتضليلهم وصرفهم عن طاعة الله ودفعهم إلى عصيانه مثلما عصاه هو نفسه. وفي ذلك الحوار الذي جرى بين الله وبينه في ثانيا تلك القصة توعد الله، بأن يملأ جهنم، عندما تقوم القيامة، منه ومن جنوده وضحاياه من الإنس والجن. وكان أول ضحاياه آدم وزوجته حواء، فقد نجح في إغرائهما بالأكل من شجرة في الجنة كان الله قد نهاهما عن الأكل منها وأباح لهما كل ما عداها. لقد أغرهما إبليس بالأكل من تلك الشجرة: "فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ" (الأعراف 20).

ومنذ تلك الواقعة صار اسم الشيطان، في الخطاب القرآني، مرادفاً لاسم إبليس. لقد ورد ذكره 63 مرة مفرداً و17 مرة جمعاً (شياطين). وإذا جمعنا حصة إبليس إلى حصة الشيطان، وهما بمعنى واحد، كان المجموع 64 مرة بينما لم يرد لفظ الجن في القرآن سوى 19 مرة. ويتضح من هذه الأرقام أهمية الدور الذي يعطيه الخطاب القرآني لمفهوم "الشيطان" بوصفه العدو المبين للإنسان.

ولعل أهم ما يفترق به خطاب الجن عن خطاب الشيطان، في القرآن، هو أن هذا الأخير يقدم في كل حالة كعدو للإنسان، يوسوس له ويسعى لتضليله، بينما يقدم الجن والإنس كصنفين من مخلوقات الله، في كل منهما شياطين: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا" (الأنعام 112)، وكثيراً ما يتجه الخطاب إليهما معاً، خصوصاً خطاب اللوم والعتاب في

الآخرة، وفي جهنم بالتخصيص. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَافِرِينَ" (الأنعام 130).

هذا في الآخرة، أما في الدنيا فخطاب الجن، مقرونا بالإنس أو منفردا، يكتسي في الغالب نوعا من التحدي. من ذلك قوله تعالى: "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا، لَّا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَّا تَنْتَصِرَانِ" (الرحمان 33-35). والمقصود في هذه الآية ومثيلاتها نفي ما كان يعتقدُه العرب وغيرهم في الكهان والمنجمين من أنهم يطلعون على شيء من الغيب بواسطة ما يسرقه الشياطين من حديث الملائكة في السماء. ذلك أن الله خلق السماء محروسة فكلما حاول شيطان استراق السمع إلا ورُمي بأجسام نارية هي الشهب. وجاء هذا النفي بطريقة تبين إحكام نظام السماء وأن خلق السماوات والأرض بهذا النظام أكثر تعقيدا ودقة من خلق آدم من تراب.

الخطاب هنا موجه إلى خصوم الدعوة المحمدية من الإنس والجن. ويستهن القرآن اعتقادات فريق من المشركين: "جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ، وَ(قد) خَلَقَهُمْ، وَخَرَفُوا (افتعلوا له) لَهُ بُيُوتٌ مُبَيَّنَّاتٌ وَبَنَاتٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (الأنعام 100)". "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ (الله) وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا" (الصفافات 159)، ومما ورد في خطاب الجن، في سياق التحدي لقريش، قوله تعالى: "قُلْ لَنَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، لَّا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" (الإسراء 88). (5)

4- مرويات حول الجن لها علاقة بالقرآن.

لقد كان من الطبيعي أن تنشط مخيلة رواة الأخبار للتوسع في إنتاج مادة غزيرة في موضوع الجن وعلاقته بالإسلام، مما قد يتفق من قريب أو بعيد، أوفد لا يتفق، مع ما تحتمله الآيات التي تتحدث عن الجن في القرآن. إن موضوع الجن هو من أكثر الموضوعات إثارة للاهتمام في المعهود العربي كما في معظم الثقافات، إن لم يكن في جميعها. وبالتالي فكل ما ينتمي إلى هذا

5- انظر كتامة لهذا ما كتبناه حول وجود الجن ووسواس الشيطان في التعليق الذي كتبناه في سورة الناس 18.

الموضوع، ويمكن توظيفه في خدمة الإسلام، بصورة من الصور، داخل ذلك المعهود يمكن، ليس فقط التغاضي عنه بل أيضا الترحيب به، من طرف العقل الساهر على حماية الدين والعمل على انتشاره من دعاة وفقهاء، ما دام لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما.

وبما أن الأمر يتعلق بمجال القص والرواية والتخييل فإن اختلاق مرويّات فيه، وهو ما يسمى بـ "الوضع" في الحديث أو غيره، سيكون عملا إبداعيا يخلد اسم صاحبه، على مستوى الثقافة الشفوية كما على مستوى الروايات المكتوبة. أما مصداقية المرويّات في هذا المجال فهي لا تلتمس -لا من طرف "الوضّاع" والرواة- ولا من جانب "المستهلكين"، ولا في وجود ما يشهد لها بالصحة بنوع من التأويل لآيات الذكر الحكيم، كلا. إن المصداقية هنا تلتمس في "المرجعية"، أي في الشخص الذي ينتهي إليه الإسناد وتقف عنده العنقة. ومن هنا كثرة ما يروى عن شخصيات جعلتها الشهرة "كعبة" مفتوحة يعلق عليها كل راوٍ معلقاته الروائية الصحيحة وشبه الصحيحة والموضوعة.

من ذلك ما روي عن قتادة (أحد المرجعيات الرئيسة في التفسير السني للقرآن) في الموضوع نفسه من أنه قال في قوله تعالى: "وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ" (انظر الهامش رقم 1 أعلاه)، قال: ذكّر لنا أنهم صرّفوا إليه من نيتوى. قال: فإن نبيّ الله (ص) قال [لأصحابه]: "إني أمرت أن أقرأ القرآن على الجن، فأيكّم يتبعني؟" فأطرقوا، ثم استتبعهم فأطرقوا، ثم استتبعهم الثالثة فأطرقوا، فقال رجل: يا رسول الله إنك لذو بدنه، فاتبعه عبد الله بن مسعود، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعْبًا يقال له شِعْب الحجون. قال: وخطّ نبيّ الله (ص) على عبد الله خطا ليثبته به، قال [عبد الله]: فجعلت [الأرض] تهوي بي وأرى أمثال النُسُور تمشي في دفوفها، وسمعت لغطا شديدا، حتى خفت على نبيّ الله صلى الله عليه وسلم. ثم تلا القرآن. فلما رجع نبيّ الله قلت: يا نبيّ الله ما اللُغَط الذي سمعت؟ قال: "اجتمعوا إليّ في قتيل كان بينهم، ففضي بينهم بالحق". وذكر لنا أن ابن مسعود لما قَدِم الكوفة رأى شيوخا شُمطا من الزُّرط (من سود الهند)، فراعوه، قال: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نفر من الأعاجم، قال: ما رأيت للذين قرأ عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم الإسلام من الجن شيئا أدنى من هؤلاء.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس حول "تاريخ الجن" من أنه قال: "كان إبليس من حيّ (قبيلة) من أحياء الملائكة، يقال لهم "الجن"، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: فكان اسمه الحارث. قال: وكان خازنا من خزان الجنة. قال: وخلقّت الملائكة من نور غير هذا الحيّ. قال: وخلقّت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت". وروي عنه أيضا في الموضوع نفسه أنه قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض وكان من أشدّ الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حيّ يسمون جنّا". كما روي عنه أنه قال: "أول من سكن الأرض الجنّ، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضا. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، فقتلهم إبليس ومن معه، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال الله: "إني جاعل في الأرض خليفة". فعلى هذا القول إني جاعل في الأرض خليفة من الجنّ يخلفونهم فيها فيسكنونها ويعمرونها. وفي رواية أخرى، قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض (عن الطبري وغيره).

وفي "تهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين، أحمد النويري، نقرأ صيغة أخرى للقصة المذكورة عن ابن مسعود رواها الشعبي عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجنّ منكم أحد؟ فقال: ما صحبه منّا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشرّ ليلة بات بها قوم، فلما كان في وجه الصبح أو قال في السحر، إذا نحن به يجئ من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فذكروا الذي كانوا فيه، فقال: "إنه أتاني داعي الجنّ فأتيتهم فقرأت عليهم" قال: فاطلق فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم (موقدهم)، قال: وقال الشعبي فسألوه الزاد، وكانوا من جن الجزيرة، فقال (ص): "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما كان لحما، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستجوا بهما، فإتتهما زاد إخوانكم من الجنّ" (رواه مسلم في صحيحه). وكان فيما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم: "الرحمن. علم القرآن" السورة؛ وبدل على ذلك ما رواه محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم "الرحمن" على الناس سكتوا فلم يقولوا شيئا، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "لَجِنٌ كانوا أحسن جواباً منكم: لما قرأت عليهم "قبأى آلاء ربكما تكذبان؟" قالوا: لا ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب". وروى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أن نفرأ من الجن خمسة عشر بني أخوة وبني عم يأتونني الليلة فأقرأ عليهم القرآن". وقيل: كانوا أكثر من هذا".

ومن ذلك ما روى في موضوع تبشير الجن بقرب مبعث النبي عليه السلام، كما بشرت به أحبار اليهود ورهبان النصارى (كما بينا ذلك في التعريف بالقرآن). قيل: "أول خبر قدم المدينة عن قرب مبعث النبي عليه السلام، أن امرأة من أهل يثرب تدعى فاطمة، كان لها تابع من الجن (يمارس الزنا معها) فجاءها يوماً فوق على جدارها، فقالت: مالك لا تدخل؟ فقال: إنه قد بعث نبي يحرم الزنا، فحدثت بذلك المرأة عن تابعها من الجن". وقيل إن فلاناً روى ما يلي، قال: "سرت إلى الشام فأدركني الليل، فأتيت وادياً فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي الليلة (كان الوادي مسكناً للجن)، فلما أخذت مضجعي إذ قائل لا أراه يقول: عذ بالله الأحد، فإن الجن لا تجير على الله أحداً، وأنه قد بعث رسول الأميين، وصلينا خلفه بالحجون، وأسلمنا واتبعناه، وآمنا به وصدقناه، فأسلم تسلم".

5- "الكلام" في الجن

تلك نماذج من حكايات الجن لها علاقة بالقرآن، وغني عن البيان القول إنها من جنس الإسرائيليات التي غصت بها كتب كثير من المفسرين. والسؤال الذي ينبغي أن يطرح بصدد هذه المرويات سيكون غير ذي معنى إذا هو انطلق من إشكاليات الفكر العلمي أو الفلسفي، المعاصر لنا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين! إن محاكمة فكر القرون الوسطى هذا النوع من المحاكمة غير جائز. لكن السؤال الذي يطرح نفسه والذي له معنى، سواء بالنسبة للذين ابتدعوا أو رويوا تلك الأخبار أو بالنسبة لمن يؤرخ لها نوعاً من التأريخ هو التالي: كيف تعامل الخطاب العالم مع مضمون تلك الروايات والأخبار؟ وبعبارة أخرى كيف كان هذا الخطاب يحاول عقلنة مسألة الجن، ووسوسة الشيطان؟ وأعني بـ "العقلنة هنا" إدراجها في النسيج العام الذي يقيمه العقل حول الظواهر الكونية قصد فهمها وربما السيطرة عليها.

يعطينا الفخر الرازي ملخصاً جيداً لآراء المفكرين إلى زمانه حول مسألة الجن نورد منه ما يلي:

قال في مستهل تفسيره لسورة الجن: "اختلف الناس قديماً وحديثاً في ثبوت الجن ونفيه، فالتقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأن أبا علي بن سينا قال في رسالته في حدود الأشياء "الجن حيوان هوائي متشكل بأشكال مختلفة"، ثم قال: "وهذا شرح للاسم". فقله: وهذا شرح للاسم يدل على أن هذا الحد شرح للمراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج. وأما جمهور أرباب الملل والمصدقين للأنبياء فقد اعترفوا بوجود الجن. واعترف به جمع عظيم من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ويسمونهم بالأرواح السفلية، وزعموا أن الأرواح السفلية أسرع إجابة إلا أنها أضعف، وأما الأرواح الفلكية فهي أبطأ إجابة إلا أنها أقوى".

"واختلف المثبتون (للجن) على قولين: فمنهم من زعم أنها ليست أجساماً ولا حالة في الأجسام بل هي جواهر قائمة بأنفسها. قالوا: ولا يلزم من هذا أن يقال: إنها تكون مساوية لذات الله لأن كونها ليست أجساماً ولا جسمانية سلوب⁽⁶⁾، والمشاركة في السلوب لا تقتضي المساواة في الماهية. قالوا: ثم إن هذه الذوات بعد اشتراكها في هذا السلب أنواع مختلفة بالماهية كاختلاف ماهيات الأعراض بعد استوائها في الحاجة إلى المحل، فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها كريمة محبة للخيرات، وبعضها خسيصة محبة للشرور والأفات، ولا يعرف عدد أنواعهم وأصنافهم إلا الله.

قالوا: وكونها موجودات مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخبريات قادرة على الأفعال، فهذه الأرواح يمكنها أن تسمع وتبصر وتعلم الأحوال الخبرية وتعمل الأفعال المخصوصة. ولما ذكرنا أن ماهياتها مختلفة، لا جرم لم يبعد أن يكون في أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة عظيمة تعجز عنها قدر البشر، ولا يبعد أيضاً أن يكون لكل نوع منها تعلق بنوع مخصوص من أجسام هذا العالم، وكما أنه دلت الدلائل الطبية على أن المتعلق الأول للنفس الناطقة التي ليس الإنسان إلا هي، هي الأرواح، وهي أجسام بخارية لطيفة تتولد من ألطف أجزاء الدم وتتكون في الجانب الأيسر من القلب ثم بواسطة تعلق النفس

6- أي مجرد نفي، تنفي عن الجن الجسمية.

بهذه الأرواح تصير متعلقة بالأعضاء التي تسري فيها هذه الأرواح، لم يبعد أيضاً أن يكون لكل واحد من هؤلاء الجن تعلق بجزء من أجزاء الهواء، فيكون ذلك الجزء من الهواء هو المتعلق الأول لذلك الروح، ثم بواسطة سيران ذلك الهواء في جسم آخر كثيف يحصل لتلك الأرواح تعلق وتصرف في تلك الأجسام الكثيفة (ذلك حسب التشريح والطب القديمين منذ اليونان، ولا علاقة لهما بالعلم الحديث).

ويضيف الرازي: "ومن الناس من ذكر في الجن طريقة أخرى فقال: هذه الأرواح البشرية والنفوس الناطقة إذا فارقت أبدانها وازدادت قوة وكمالاً بسبب ما في ذلك العالم الروحاني من انكشاف الأسرار الروحانية، فإذا اتفق أن حدث بدن آخر مشابه لما كان لتلك النفس المفارقة من البدن، فسبب تلك المشكلة يحصل لتلك النفس المفارقة تعلق ما بهذا البدن، وتصير تلك النفس المفارقة كالمعاونة لنفس ذلك البدن في أفعالها وتدبيرها لذلك البدن، فإن الجنسية علة الضم، فإن اتفقت هذه الحالة في النفوس الخيرة سمي ذلك المعين ملكاً وتلك الإعانة إلهاماً، وإن اتفقت في النفوس الشريرة سمي ذلك المعين شيطاناً وتلك الإعانة وسوسة".

والقول الثاني في الجن أنهم أجسام، ثم القائلون بهذا المذهب اختلفوا على قولين، منهم من زعم أن الأجسام مختلفة في ماهياتها، إنما المشترك بينها صفة واحدة، وهي كونها بأسرها حاصلة في الحيز والمكان والجهة وكونها موصوفة بالطول والعرض والعمق، وهذه كلها إشارة إلى الصفات والاشتراك في الصفات لا يقتضي الاشتراك في تمام الماهية لما ثبت أن الأشياء المختلفة في تمام الماهية لا يمتنع اشتراكها في لازم واحد. قالوا: وليس لأحد أن يحتج على تماثل الأجسام بأن يقال: الجسم من حيث إنه جسم له حد واحد، وحقيقة واحدة، فيلزم أن لا يحصل التفاوت في ماهية الجسم من حيث هو جسم، بل إن حصل التفاوت حصل في مفهوم زائد على ذلك، وأيضاً فلائنه يمكننا تقسيم الجسم إلى اللطيف والكثيف، والعلوي والسفلي، ومورد للتقسيم مشترك بين الأقسام، فالأقسام كلها مشتركة في الجسمية والتفاوت، إنما يحصل بهذه الصفات، وهي اللطافة والكثافة، وكونها علوية وسفلية، قالوا: وهاتان الحجتان ضعيفتان..."

40- سورة يس

- تقديم

لم يرد في "سبب نزولها" شيء يستحق الذكر، وما ذكروا من أن قوله تعالى في هذه السورة "إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ" قد نزل في عائلة من الأنصار أرادت تغيير مسكنها والاقتراب من المسجد وأنهم استشاروا النبي في ذلك، وأنه عليه السلام رد عليهم بتلك الآية، أقول: هذا مردود، لأن السورة مكية والعائلة المشار إليها كانت من الأنصار تسكن المدينة. إذن كل ما يمكن أن يقال، إذا صحت تلك الرواية، هو أن النبي عليه السلام سيكون قد قرأ عليهم الآية، وكانت قد نزلت من قبل في مكة، لا أنها نزلت حين قرأها.

- نص السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

1- مقدمة: حق القول على أكثرهم..أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

يس¹ (1) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ² (قَسَمَ) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ³ (جوابه) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁴. (هذا القرآن) تَنْزِيلَ الْغَزِيذِ (القوي) الرَّحِيمِ⁵، لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ⁽²⁾، فَهُمْ غَافِلُونَ⁶. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ⁷. إِنَّا جَعَلْنَا

1 - أقوال عديدة في معنى لفظ "يس"، والأشهر أنه (ياء، سين)، مثل طاء هـ، حا ميم الخ.

2- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية فمنهم من جعل "ما" بمعنى "مثل" وبالتالي يكون معنى الآية "لتنذر قوما مثل الذين أنذر آبائهم"، على معنى أنهم جاءتهم رسل من قبل. ومنهم من جعل "ما" زائدة تفيد النفي، وبالتالي يكون المعنى عكس السابق أي: ما جاءهم قبلك نذير. ونحن نرى أن معناها واضح، وهو أن العرب أمة أمية لم يسبق أن جاءهم نذير ولا كتاب، "ما أنذر آبائهم من قبل". وهذا مصداقاً لقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يَبْعَثُ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَقِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (الجمعة. 2)

فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْآذِقَانِ فَهُمْ مُقَحَّحُونَ⁸ (لا يستطيعون تحريك رؤوسهم)⁽³⁾، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا (مضغوط عليهم لا يستطيعون حراكا: مسجونون في قالب الكفر) فَأَغْشَيْنَاهُمْ (وكان ذلك غشاوة وغطاء على أبصارهم) فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ⁹، (والنتيجة) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ¹⁰. إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ (ما يدعو إليه القرآن) وَخَشِئِي الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ (بالعبرة والدليل) (4) فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ¹¹. إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ¹² (اللوح المحفوظ، وعلى أساسه يكون الثواب والعقاب).

2- أصحاب القرية : كذبوا المرسلين فهلكوا بالصيحة

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (5) إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ¹³ (رُسُل عيسى إليهم)، إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ¹⁴، قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ¹⁵. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ¹⁶، وَمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينِ¹⁷. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَكَيْمَسَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ¹⁸. قَالُوا (الرسول) طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ (شؤمكم هو الكفر). أَتُنذِرُنَا (إن خاطبناكم بالبرهان ترجموننا مع ذلك)؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ¹⁹ (في الشرك والعناد)! وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا (هؤلاء) الْمُرْسَلِينَ²⁰، اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ²¹. وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ²²، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً، إِنْ يَرِدْنِي الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِي²³، إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ²⁴. (قال الرجل للرسول) : إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِي²⁵. قِيلَ (سيقال له يوم القيامة) ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قَالَ (وسيجيب): يَا لَيْتَ

3- يقال أقمح الدابة وأكمحها: إذا جذب سراكبه-ا لجامها عنده لترفع رأسها.

4- أي من آمن به عن طرق الاستلال بالشاهد على الغائب، الاستدلال بنظام العالم على وجود صانع حكيم له الخ. أما من اشترط العيان، أي رؤية الله أو رؤية قيام القيامة، حتى يؤمن به، فهو في الكفر مسجون.

5- يجمع المفسرون على أن المقصود بهذه القرية هي "أنطاكية" بشمال سورية. وقد أشار كثير منهم إلى أن الأمر يتعلق برسولين بعثهما المسيح عليه السلام لنشر الدعوة فيها ثم عززهما بثالث. انظر تفاصيل أوفى في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن الكريم. المرحلة الثانية فقرة 3-هـ

قَوْمِي يَعْمُونَ²⁶، بِمَا غَفَرَ لِي (بِغْفَرَان) رَبِّي وَجَعَلَنِي (وَجَعَلَهُ إِيَّاي) مِنَ الْمَكْرُمِينَ²⁷. وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ (مَلَائِكَةِ) لِإِهْلَاكِهِمْ إِذْ اسْتَمَرُوا عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ) وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ²⁸ (مُحْتَاجِينَ عَلَى ذَلِكَ). إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ²⁹. يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ³⁰.

3- آيات وأدلة لم يعتبروا بها... لقد بقوا معرضين.

أَلَمْ يَرَوْا (أَلَمْ تَعْتَبِرْ قَرِيشَ) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الْأُمَمِ) أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ³¹، وَإِنْ كُلُّ لَمَّا (إِلَّا وَ) جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخْضَرُونَ³². (وإحياء الموتى من البشر مثل إحياء الأرض الميتة) : وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ³³، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ³⁴، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ³⁵. سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْمُونَ³⁶. وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ³⁷. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ³⁸، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ (فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ رَقِيقًا كَالْعُودِ) الْقَدِيمِ³⁹ (كَمَا كَانَ عِنْدَ بَدَايَةِ ظَهْرِهِ)! لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ⁴⁰. وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ⁴¹، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ⁴²، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ⁴³، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ⁴⁴. وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا (عَلَى سَبِيلِ الْإِحْتِيَاظِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى سَبِيلِ الْيَقِينِ) مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ (مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ) وَمَا خَلْفَكُمْ (يَوْمَ الْحِسَابِ) لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ⁴⁵ (6). وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ⁴⁶، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁴⁷. وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴⁸. مَا يَنْظُرُونَ (يَنْتَظِرُونَ) إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ⁴⁹ (يَخْتَصِمُونَ)، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ⁵⁰.

6- جواب "إذا قيل لهم" يدل عليه السياق وهو : كانوا معرضين.

4- قيام الساعة، ونعم الجنة وعذاب النار

وَنُفِخَ (عندما ينفخ) فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ (القبور) إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ⁵¹ (يخرجون). قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا! (الجواب) هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ⁵². إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ⁵³. فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزُونُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁵⁴. إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ⁵⁵، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ⁵⁶، لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَكَهُمْ مَا يَدْعُونَ⁵⁷ (يتمنون)، سَلَامٌ قَوْلًا (جاءهم) مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ⁵⁸، وَامْتَازُوا (انعزلوا وانفردوا) الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ⁵⁹. أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ⁶⁰، وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ⁶¹، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا (خلقا) كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ⁶²، هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ⁶³، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ⁶⁴. الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁶⁵. وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ (مشوا في الطريق) فَأَنَّىٰ يَبْصُرُونَ⁶⁶؟ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ (في مكاتهم) فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ⁶⁷، وَمَنْ نَعْمَرَهُ نَكَسْنَاهُ (نضعفه) فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ⁶⁸.

5- خلقنا كل ما هو ضروري في حياتهم فاتخذوا الأصنام آلهة!

(وهذا القرآن ليس شعرا كما تقولون) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ (ما علمنا محمدا...) وَمَا يَتَّبِعِي لَهُ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ⁶⁹، لِنُذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا (حي العقل والبصيرة، مؤمنا) وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ⁷⁰. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (الإبل) فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ⁷¹، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ⁷²، وَكَهَمُّ فِيمَا مَنَافِعَ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ⁷³. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ⁷⁴، (هؤلاء الآلهة) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ (حتى) وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ⁷⁵. فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ⁷⁶.

6- خاتمة: خلقنا الإنسان من نطفة، ويتساعل من يحيي العظام؟!!

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ⁷⁷! وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ⁷⁸؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ⁷⁹: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ⁸⁰. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ

مِثْلَهُمْ؟ بَلَى، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ⁸¹⁽⁷⁾. إِنَّمَا أَمْرُهُ، إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ، فَيَكُونُ⁸²! فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَكْرُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁸³.

- تعليق

تناولت هذه السورة القضايا الرئيسية التي في القرآن المكي عموماً : النبوة، التوحيد والبعث مع التعرض للأصنام. والمسألة التي وقف عندها المفسرون هي مضمون الآيات 7، 8، 9، 10 حيث يقول تعالى: "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي آعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ". وظاهر هذا الآيات يفيد أن الله أراد لقريش الكفر، وأنهم لن يؤمنوا، سواء دعاهم الرسول إلى الإسلام أم لم يدعهم، الشيء الذي ينفي عن الإنسان حرية الاختيار. وكان طبيعياً أن يختلف تأويل المعتزلة الذين بنوا مذهبهم على ما عبروا عنه بـ"خلق الأفعال" - بمعنى أن الله منح للإنسان حرية الاختيار وخلق فيه القدرة على الفعل، وبالتالي فالإنسان يتحمل مسؤولية أفعاله، والله ينفذ فيه وعده ووعدته. أما أهل السنة والأشاعرة فعارضوا هذا الفهم وقالوا : الله وحده الحر المختار، يفعل ما يشاء "لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ" (الأنبياء 23)، والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف "يسأل" الناس عن أفعالهم إذا لم يكونوا أحراراً مختارين. وقد حاول الأشعري الهروب من هذا السؤال بالقول إن الإنسان "يكتسب أفعاله" ومن هنا فكرة "الكسب" عند الأشعرية التي وصفت بالغموض الشديد حتى ضرب بها المثل فقيل: "أخفى من كسب الأشعرية". وتندرج هذه القضية في ما يعبر عنه في علم الكلام بـ"المشينة" وسنخصصها بقول لاحقاً.

وبناء على هذا الاختلاف في أصول المذهب بين الفريقين قال الزمخشري في شرح الآيات أعلاه، من وجهة نظر المعتزلة: إن المقصود بـ"القول" في الآية رقم 7 ("لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ") هو قوله تعالى: "لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (السجدة 13)، مضيفاً: لقد تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب لأنهم مصممون على الكفر، وبالتالي يموتون وقد اختاروا الكفر على الإيمان، بعد أن بين الله لهم طريق الجنة وطريق النار، فمن اختار منهم طريق النار حق عليهم قوله

7- قيل: جاء رجل إلى الرسول بعظم حائل ففتته بين يديه وقال: يا محمد يبعث الله هذا بعد ما أرم؟ قال: نعم يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت هذه الآيات.

"لأملأن جهنم... " الآية. أما القرطبي فهو يشرح الآية من وجهة نظر أهل السنة كما يلي، قوله تعالى: "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" معناه: "لقد وجب العقاب على أكثرهم، لأن الله قد حَتَمَ عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون رسوله! وقد حاول مفكرو الأشاعرة التخفيف من هذه الجبرية القاسية بالتماس "فهم" وسط، عبر عنه الرازي في تفسيره كما يلي ملخصاً: لقد استمع أكثر مشركي قريش إلى الأدلة والبيانات التي تثبت صحة ما جاء به محمد = من التوحيد والبعث الخ، ومع ذلك فهم لا يرجي منهم أن يؤمنوا الآن أو غداً، لأن الإنسان عندما يستمع إلى أدلة التوحيد يتوقف برهة من الزمن ليتأمل تلك الأدلة. وهذه البرهة من الزمن يسمونها "مهلة النظر"، وهي مهلة يرجي أن تنتهي بالنظر في تلك الأدلة إلى قرار. فإذا مرت هذه المهلة وانقضت ولم يؤمن فمعنى ذلك أنه مُصِرٌّ على عدم الإيمان. ولأن قريشاً لم يؤمنوا عندما انتهت "مهلة النظر" حق القول فيهم بأنهم كفار. فإذا قالوا لن نؤمن حتى نرى الله، أو نرى قيام الساعة الخ، فهم يرفضون الدليل والبرهان ويطلبون العيان (المعينة)، أي قيام القيامة والحساب مثلاً! "وعند العيان لا يفيد الإيمان" لأن الإيمان بالبعث يكون قبل البعث أي قبل قيام القيامة، أما إذا قامت القيامة فقد قضى الأمر ولا يبقى إلا الحساب. والهدف من هذا النوع من التأويل هو -كما قلنا- تجنب الشبهة التي تنسب امتناعهم عن الإيمان إلى الله تعالى. ونحن نرى أن هذا النوع من الاستلال لا يساعد على الفهم بل يحول دونه. وما ذكرناه في النص هو أقرب إلى فهم الخاصة والعامة سواء بسواء. وهذا الذي قاله الرازي يلزم عنه نفي "التوبة" وهي لا تكون إلا بعد انتهاء "مهلة النظر"، فإذا قال تكون بعد تجدد النظر وقع في الدور أو التسلسل، وهما محالان عند المتكلمين.

هذا على مستوى "التفسير بالمعقول"، أما "التفسير بالمنقول" فيمدنا بالروايات التالية (نقلنا عن القرطبي)، قال : إن الآيات الأربع التي نحن بصدها "قيل نزلت في أبي جهل ابن هشام وصاحبيه المخزوميين؛ وذلك أن أبا جهل حلف لنن رأى محمداً يصلي ليرضخن رأسه بحجر؛ فلما رآه ذهب فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه رجعت يده إلى عنقه، والتصق الحجر بيده، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما؛ فهو على هذا تمثيل أي هو بمنزلة من غَلَّتْ يدهُ إلى عنقه. فلما عاد (أبو جهل) إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، فقال الرجل الثاني وهو الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه (يعني رأس النبي عليه السلام). فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرههم حتى نادوه فقال: والله ما رأيته ولقد سمعت صوته. فقال الثالث: والله لأشدخن أنا رأسه. ثم أخذ الحجر وانطلق، ثم رجع القهقري ينكص على عقبيه حتى خرَّ على فقاه مغشياً عليه. فقيل

له: ما شأنك؟ قال شأني عظيم رأيت الرجل (محمدًا) فلما دنوت منه وإذا فحل (حيوان ذكر قوي) يخطر (يضرب) بذنبه، ما رأيت فحلا قط أعظم منه، حال بيني وبينه، فواللات والغزى لو دنوت منه لأكلني. فأنزل الله تعالى: "إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ". ويضيف القرطبي: "وقال محمد بن إسحاق في روايته: جلس عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل وأمية بن خلف، يراصدون النبي صلى الله عليه وسلم ليلبغوا من أذاه؛ فخرج عليهم، عليه السلام، وهو يقرأ "يس" وفي يده تراب فرماهم = به وقرأ: "وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" فاطرقوا حتى مرّ عليهم عليه السلام، أي غطينا أبصارهم".

وفي رأينا أن هذا النوع من التفسير — "خرق العادة" لا أصل له في القرآن. لقد تحدث القرآن بتفصيل عن معجزات موسى وعيسى (وهي من هذا القبيل) وبالمقابل حصر معجزة نبينا عليه الصلاة والسلام في القرآن. ومن جملة الآيات التي كررت هذا المعنى، ما ورد في سورة العنكبوت، وهي آخر سورة نزلت بمكة، وبالتالي يمكن اعتبارها ختما للجدل مع قريش حول هذا الموضوع. قال تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ! قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا، يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" (50-52).

وواضح أننا هنا أمام إغلاق نهائي لمسألة إمكانية تخصيص خاتم النبيين والمرسلين بمعجزة من جنس ما طالبت به قريش. لقد قررت الآية أن القرآن كاف وحده كمعجزة للنبي عليه السلام، ثم أنهت الجدل في الموضوع بأن خاطبت النبي أن: "قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا". وقد أفصح النبي عليه السلام عن هذا المعنى في حديث ورد في صحيح مسلم، قال فيه: "«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»".

42- سورة الفرقان

- تقديم

لم يذكر المفسرون ولا المؤلفون في أسباب النزول مناسبة أو سببا لنزول هذه السورة ككل. ولكنهم ذكروا عدة روايات تخص آيات منها، أعني أنها وقائع تصلح أن تكون تفسيراً لها دون أن تكون سبباً لنزولها، كما يمكن أن تكون تلك الوقائع قد حدثت بالفعل وأن النبي عليه السلام سمع بها أو كان قد سئل عن بعضها فنزلت هذه السورة بعد ذلك بمدة قصيرة أو طويلة وفيها آيات تجيب عنها. إن هذا يعني أنه ليس هناك ما يربط هذه السورة ككل ولا آيات منها بتاريخ معين. ولكن طابعها العام يجعل منها سورة تنتمي بامتياز إلى هذه المرحلة، مرحلة الرد على قريش والتعرض لأصنامهم الخ. وما يهمنا هنا من ذكر هذه الروايات هو أنها تعطينا فكرة واضحة عن اللقاءات التي كانت للنبي عليه السلام مع قريش وأنواع الأسئلة التي كانوا يطرحون عليه. ولا شك أن ما تذكره الروايات التالية من أحاديث وأسئلة واستفسارات واعتراضات لم تحدث مرة واحدة ولا في أيام متقاربة، بل لا بد أن تكون قد حصلت متفرقة، خصوصاً وبعضها يشير إلى آيات لم تكن قد نزلت وقت نزول هذه السورة. فمن أجل التعريف بالجانب "السلمي" الذي كان يطبع في الغالب علاقة الرسول بخصوص الدعوة المحمدية قبل هذه السورة نورد هذه الروايات. أما الجوانب السلبية المطبوعة بالعدوان والاضطهاد والاستهزاء فقد أشرنا إلى بعضها من قبل وسنتحدث عنها في مناسبة لاحقة.

من الوقائع التي ربطها المفسرون والمؤلفون بآيات من هذه السورة ما يلي: قالوا في قوله تعالى "وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ" : "كان أبي بن خلف يحضر النبي صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به، فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية. وفي رواية أخرى "كان عقبة خليلاً لأمية بن خلف، وحدث أن أسلم عقبة فقال له أمية: وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً! كفر عقبة وارتد لرضا أمية، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية. وفي رواية ثالثة: "أن أبا بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين وكان عقبة لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه وكان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم. فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ودعا رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى طعامه، فلما قرب الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه. وكان أبي بن خلف غائباً، فلما أخبر بقصته قال: صبأت (يعني تركت دين قومك) يا عقبة؟ فقال: والله ما صبأت، ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت فطعم. فقال أبي: ما أنا بالذي رضي منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه! ففعل ذلك عقبة : فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف". وتضيف الرواية: "فقتل عقبة يوم بدر صبراً (ضرب بالسيف وترك حياً حتى يموت).

ونكروا في شأن قوله تعالى : "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ" إلى "غفوراً رحيماً"... أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أنا لما علمنا -يعني وقد سمعوا آيات الوعيد- لمن يعمل تلك الأعمال وإلا فمن أين علموا أن تلك الأعمال جرائم وهم في جاهلية كفر، فنزلت (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) الآيات. وفي رواية أخرى أن أحدهم سأل النبي عليه السلام: "أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ". وفي أخرى أن أحدهم "أتى وحشي (وفزع) إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد كنت أحب أن أراك على غير جوار، فأما إذ أتيتني مستجيراً فأنت في جواري حتى تسمع كلام الله، قال: فإني أشركت بالله وقتلت النفس التي حرم الله تعالى وزنيت، هل يقبل الله مني توبة؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ" إلى آخر الآية، فتلاها عليه فقال: أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً وأنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ"، فدعا به فتلاها عليه فقال: ولعلي ممن لا يشاء؟ أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله، فنزلت "قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ"، فقال: الآن لا أرى شرطاً، فأسلم.

وفي رواية أخرى: "قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئا في الآخرة وإن شئت جمعتهما لك في الآخرة قال: بل أجمعهما لي في الآخرة، فنزلت "تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك" الآية. وفي أخرى: "قال المشركون إن محمداً، كما يزعم، نبي! فلم يعذبه ربه؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فيُنزل عليه الآية والآيتين، فأنزل الله: وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة".

أما في شأن قوله تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ"، فقد ذكروا أن المقصود بهم هم الآتية أسماؤهم: "عداس مولى حويطب بن عبد العزى، ويسار (غلام عامر) بن الحضرمي، وجبر مولى عامر، وهؤلاء (الموالي) الثلاثة كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرؤون التوراة ويحدثون أحاديث منها". وذكروا أن أشراف قريش اجتمعوا ذات ليلة بظهر الكعبة، وعرضوا عليه أشياء، وسألوه الآيات. فكان فيما كلموه به: "أن قالوا له: فإن لم تفعل لنا هذا، يعني ما سألوه من تسيير جبالهم عنهم، وإحياء آبائهم، والمجيء بالله والملائكة قبيلاً، وما ذكره الله في سورة بني إسرائيل، فخذ لنفسك، سل ربك يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسلته فيجعل لك قصورا وجناتا وكنوزا من ذهب وفضة، تغنيك عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتبس المعاش -كما نلتسمه- حتى نعلم فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنا بفاعل".

- نص السورة

1- مقدمة: شجب الشرك وعبادة الأصنام.

بسم الله الرحمن الرحيم
تَبَارَكَ (كثير خيره) الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانِ عَلَيَّ عَبْدِهِ (محمد) لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا¹، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا². (أما قريش) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا³.

2- اتهامهم النبي بافتراء القرآن، وتعبيره بأكل الطعام ...

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا (القرآن) إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَاتَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ! فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا⁴. وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا⁵! قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا⁶. وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ؟ لَوْنَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا⁷، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا! وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا⁸ (انظر التقديم). انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلكوا فلا يستطيعون سبيلًا⁹ (إلى الفهم والإيمان). تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورًا¹⁰.

3- كذبوا بالبعث: وجاء الرد بمشاهد من الجنة والنار.

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (بيوم القيامة)، وَأَعْتَدْنَا (أعدنا) لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا¹¹، إِذَا رَأَتْهُمْ (النار السعير) مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَزَفِيرًا¹². وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَاتًا⁽¹⁾ ضَبَقًا مُقَرَّنِينَ (مقيدين) دَعَا (تمنوا) هُنَالِكَ ثُبُورًا¹³ (هلاكا)! (يقال لهم) لَأَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا¹⁴. قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ؟ كَانَتْ لَهُمْ (للمتقين) جَزَاءٌ وَمَصِيرًا¹⁵: لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ، كَانَ (هذا) عَلَى رَبِّكَ وَغَدَاً مَسْئُولًا¹⁶. وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ وَمَا يَغْبُتُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (من الملائكة) فَيَقُولُ (الله لهؤلاء الملائكة): أَلَمْ أَضَلَّكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ¹⁷؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا¹⁸ (هالكين). فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (كذبكم الملائكة) بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا (دفعاً للعذاب عنهم) وَلَآ نَصْرًا (لأنفسهم). وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ (يا مشركي قريش) نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا¹⁹. وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ! وَجَعَلْنَا بَغْضُكُمُ لِبَغْضِ فِتْنَةٍ، أَتَنْصَرُونَ⁽²⁾؟! وَكَانَ رَبُّكَ

1- المعنى: إذا كانت النار منهم بعيدة سمعوا صوت غلياتها، وإذا ألقوا فيها وجدوا مكاتاً ضيقاً.

2- اختلف تفسير الطبري لهذه الآية عن تفسير الزمخشري: فالطبري يقول بصدها: "وامتحناكم أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبياً وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكاً وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيراً وحرمانه الدنيا، لاختير الفقير بصيره على ما حرم مما أعطيه

بصيراً²⁰. وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا؟ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا²¹ (تجاوزا الحد). يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَائِكَةَ (يوم القيامة) لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ: حِجْرًا مَّحْجُورًا²² (3)، وَقَدِمْنَا (قصدنا) إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا²³: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا²⁴، وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَائِكَةُ تَنْزِيلًا²⁵. الْمَلِكُ -يَوْمَئِذٍ- الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ، وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا²⁶. وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ: يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا²⁷، يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا²⁸. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا²⁹.

4- الرسول يشتكي! والرد: كذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المحرمين.

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا³⁰ (كذبوا به وأعرضوا عنه! وجاء الجواب): وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا³¹. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا (هلا) نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَذَلِكَ (لم ننزله مرة واحدة) لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا³² (4).

الغنى، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره : فمن أجل ذلك لم أعط محمدا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ريك وإجابتم رسول الله إلى ما دعاكم إليه بغير عَرَض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأنني لو أعطيته الدنيا، لَسَارَعَ كثير منكم إلى اتباعه طمعا في دنياه أن ينال منها". أما الزمخشري ففسر الآية كما يلي: "يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم أيها الناس ببعض: إنه أبتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لهم العداوة، وأقاولهم الخارجة عن حد الإتيان، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل". وأوضح عند المقارنة أن الطبري تجاوز السياق إلى تكريس نوع من "ليس في الإمكان أبدع مما كان" كقانون يحكم الفقر والغنى وما إلى ذلك. أما الزمخشري فقد حصر المسألة في سياق صراع النبي عليه السلام مع قريش. وبالتالي فالآية عنده لا تقرر حكما عاما وإنما هي محصورة في مجال ما دعاه : "وهذا تصبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما قتلوه واستبدعوه، من أكله الطعام ومشيه في الأسواق بعد ما احتج عليهم بسائر الرسل".

3- قيل : كان الرجل، في الجاهلية، إذا رأى الرجل الذي يخاف منه القتل في الأشهر الحرم يقول: "حجرا محجورا"، أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر، فلا يبدؤه بشر.

4- مما قيل في ذلك: "كان القرآن ينزل عليه جوابا لقولهم: ليعلم محمد أن الله يجيب القوم بالحق عما يقولون. ويعني بقوله: لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ لنصح به عزيمة قلبك ويقين نفسك،

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (يعترضون به على القرآن) إِلَّا جُنُنًاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا³³.
(هؤلاء المشركون المعترضون) الَّذِينَ يُخْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ، أُولَٰئِكَ
شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا³⁴ (مكانهم في جهنم أكثرا شرا كما كان سبيلهم في الدنيا
أكثر ضلالا).

5- تذكير بأقوام كذبوا رسلهم... وقریش كالأنعام أو أضل سبيلا!

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا³⁵، فَقُلْنَا اذْهَبَا
إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَذَمَرْنَاهُمْ تَذْمِيرًا³⁶ (بإغراقهم في البحر). وَقَوْمُ
نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا
أَلِيمًا³⁷. وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرُّسِّ وَقُرُونًا (أَمَّا) بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا³⁸. وَكُلًّا
ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا³⁹ (مزقنا وأهلكنا). وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي
أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا⁽⁵⁾. أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا (في طريقهم) بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا⁴⁰ (بعثًا). وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ (ما) يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا (يستهزئون، ويقولون)
أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا⁴¹؟ إِنْ (إنه) كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْهَيْتِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا
(ثَبَّتْنَا) عَلَيْهَا. وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا⁴²! أَرَأَيْتَ مَنْ
اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا⁴³، أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا⁴⁴!

6- آيات تدل على أنهم لا يعقلون... وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا!

أَلَمْ تَرَى إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (جعله طويلا في الصباح) وَلَوْ شَاءَ
لَجَعَلَهُ سَاكِنًا! ثُمَّ جَعَلْنَا (حركة) الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا⁴⁵، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ (في الظهر)
إِنِّي قَبِضْنَا يَسِيرًا⁴⁶؟ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ
نُشُورًا⁴⁷، وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
طَهُورًا⁴⁸، لِنُخْبِي بِهِ بَلَدَهُ مِثْنًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا⁴⁹. وَلَقَدْ
صَرَّفْنَاهُ (الماء) بَيْنَهُمْ (في الوديان) لِيَذْكُرُوا (ليعتبروا) فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا
كُفُورًا⁵⁰. وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا⁵¹. فَلَا تَطْعُ الْكَافِرِينَ، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ

ونسجعهك به. وقوله وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا يقول: وشينا بعد شيء علمناكه حتى تحفظنه. والترتيل
في القراءة: الترسل والتثبث" (الطبري).

5- قریش تمر في طريقها إلى الشام للتجارة على إحدى تلك القرى التي أهلك الله أهلها
بالمطر القوي. يقال هي قرية سدوم، سكنى قوم لوط.

(القرآن) جهادًا كبيرًا⁵². وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ (خلط ماء الأنهار بماء البحار): هَذَا عَذَابٌ قُرَاتٌ (عذب) وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (شديد المرورة)! وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا⁵³، (لا البحر يغزو الأنهار فتصبح مالحة، ولا العكس)، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ (الْمَنِيِّ) بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا⁵⁴. (ومع ذلك) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَّا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ! وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا⁵⁵ (حليفًا للشيطان ضده).

7- قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى الْقُرْآنِ أَحْرًا إِلَّا إِيمَانَكُمْ بِهِ.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا⁵⁶! قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا مَنَ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا⁵⁷ (فإيمانه هو أجري). وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا⁵⁸. الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، (إنه) الرَّحْمَنُ! فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا⁵⁹ (من يعرف الدين، أهل التوراة أو جبريل). وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ، قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ (من غير أن نعرفه)، وَزَادَهُمْ نُفُورًا⁶⁰. (لأن مسيلمة الحنفي خصمهم القليل التاريخي "ربيعه"، شرق الجزيرة، كان يدعو الله "الرحمان") تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (منازل النجوم) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا (الشمس) وَقَمَرًا مُنِيرًا⁶¹، وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً (أحدهما يخلف الآخر) لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ (يستنتج من ذلك وجود صانع حكيم) أَوْ أَرَادَ شُكُورًا⁶² (يعبد الله، فيهما، ويستريح).

8- خاتمة: رفضوا عبادة الرحمان فبين لهم خصال عباد الرحمان!

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (هم) الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا⁶³، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا⁶⁴، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا⁶⁵ (لازما)، إِنَّهَا سَاعَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا⁶⁶، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ (ما ينفقون) بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا⁶⁷ (وسطا)، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا⁶⁸، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا⁶⁹ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا⁷⁰. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ

يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا⁷¹ (6)، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا⁷²، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا (لم يتعاملوا معها) صُمًا وَعُمْيَانًا⁷³ (بل واعين متدبرين)، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا⁷⁴، أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ (الدرجة العالية في الجنة) بِمَا صَبَرُوا، وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبًّا وَسَلَامًا⁷⁵، خَالِدِينَ فِيهَا، حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا⁷⁶. قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (ادعائكم أن له شركاء) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ، فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامَا⁷⁷ (أداء جزاء هذا الكذب) (7).

- تعليق

جمعت هذه السورة جملة من الاعتراضات كان كفار قريش يعترضون بها على النبي عليه السلام فردت عليها بلهجة قوية، وحادة أحياناً. وقد تناولت هذه الردود قضايا تخص العناصر الأساسية التي أكد عليه القرآن في السور السابقة مثل التوحيد والنبوة ومشاهد القيامة، ثم ختمت بتعداد خصال عباد الرحمن، رداً على قريش الذين اعترضوا على هذا الاسم ورفضوا أن يكون من أسماء الله. وقد سبق أن بينا أن مسلمة الحنفي من شرق الجزيرة كان قد تنبأ وسمى إلهه الرحمن، وأن رفض قريش لهذا الاسم قد يرجع إلى التنافس القبلي التاريخي بين "مضر" سكان غرب الجزيرة و"ربيعة" سكان شرقها، وقد فصلنا القول في ذلك في "الاستطراد" الذي ختمنا به المرحلة الأولى (بعد سورة قريش رقم 27). جاء القرآن إذن ليعبر هذا التأثير القبلي على تصور قريش لـ"الرحمان"، فجعل الرحمن أحد أسماء الله الحسنى، فأوضح أن عباد الرحمن لا يتحددون بالجغرافيا أو بالتاريخ أو بالانتماء القبلي بل يتميزون بخصال عالية، فقدمت ما يشبه أن يكون دستوراً في الأخلاق للمسلمين. قسم منه يخص علاقة الإنسان مع الله، وقسم يتناول علاقة الناس بعضهم ببعض.

6- ذكروا أن هذه الآية جاءت جواباً لقوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، وكانوا قد اقترفوا هذه الذنوب فاستفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك". انظر التقديم.

7- اختلف المفسرون في فهم هذه الآية، والذي نختاره أنه خطاب لقريش: والمعنى تلك خصال عباد الرحمن، أما أنتم أيها المشركون فربي لا يكثر بكم، لولا أنكم تفترون عليه وتسبون إليه البنين والبنات شركاء... وتكذبون رسله. من هذه الجهة سيعبأ بكم ويكون الحساب لزاماً.

القسم الأول: 1- يشرح معنى العبادة والهدف منها : يعبدون الله وحده لا شريك له .. 2- يخافون عقابه. 3- إذا ذكروا بآياته لم يعرضوا عنه. لقسم الثاني: 1- التواضع : "يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا". 2- التسامح: "إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامٌ". 3- التوسط في المعاش: "إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا". 4- "لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ". 5- "لَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ عِقَابًا، إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا". 6- "لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... 7- وإذا مروا باللغو مروا كرامًا فلا ينساقون معه. 8- يطلبون نرية صالحة ... 9- يجعلون من أنفسهم قدوة للمتقين ونموذجاً لهم يحتذى.

هذا ولابد من التذكير هنا بما سبق أن قلناه في الاستطراد الذي ختمنا به سور المرحلة الأولى، والذي خصصناه لألفاظ "الرب، والله، والرحمان". إن استعادة ما قلنا هناك يدفع بنا إلى طرح السؤال التالي: إذا كانت تلك هي خصال "عباد الرحمن" فما هي خصال "عباد الله".

هنا يجب الرجوع إلى معنى "العباد". قال الراغب الأصفهاني في كتابه "مفردات القرآن: "العبودية: إظهار التذلل. والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى. ولهذا قال: "لا تعبدوا إلا إياه" (الإسراء-23).

ثم يضيف: "والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير، وهي عامة للمخلوقات، وهي الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها من خلق فاعل حكيم، كقوله: "والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون" (النحل-49). وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق (الإنسان)، وهي المأمور بها في نحو قوله: "اعبدوا ربكم" (البقرة-21)، "واعبدوا الله" (النساء-36).

"والعبد يقال على أربعة أضرب: الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتباعه، نحو: "العبد بالعبد" (البقرة-178)، و "عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء" (النحل-75). الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإياه قصد بقوله: "إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً" (مريم-93). والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان: [الأول]: عبد لله مخلص، وهو المقصود بقوله: "واذكر عبدنا أيوب" (ص-41)، "إنه كان عبداً شكوراً" (الإسراء-3)، "تزل الفرقان على عبده" (الفرقان-1)، "على عبده الكتاب" (الكهف-1)، "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" (الحجر-42)، "كونوا عباداً لله" (آل عمران-79)، "إلا عبادك منهم المخلصين" (الحجر-40)، "وعد الرحمن عباده بالغيب" (مريم-61)، "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا" (الفرقان-63)، "فأسر بعبادي ليلاً" (الدخان-23)،

"فوجدنا عبداً من عبادنا" (الكهف-65). و[الثاني] عبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: "تعص عبد الدرهم، تعص عبد الدينار".

"وعلى هذا النحو يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبداً لله، فإن العبد على هذا بمعنى العابد، لكن العبد أبلغ من العابد، والناس كلهم عباد الله بل الأشياء كلها كذلك، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار، وجمع العبد الذي هو مسترق: عبيد، وقيل عبيد، وجمع العبد الذي هو العابد عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد. ولهذا قال: "وما أنا بظلام للعبيد" (ق-29)، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك".

تخلص من هذه التحديدات أن الفرق بين "عباد الرحمان" و"عباد الله" يتحدد باتجاه العلاقة بين الخلق والخالق: فاتجاه العلاقة في قولنا "عباد الله" هي من الخلق إلى الخالق: المخلوق يعبد الله بالتسخير أو بالاختيار. أما في قولنا: "عباد الرحمان" فاتجاه العلاقة هو من "الرحمان الرحيم" إلى المرحوم. ومن هنا كانت خصال "عباد الرحمان" تقتضي الاقتداء بصفات الرحمان وتتلخص في سلوك "الرحمة" بمخلوقات الله. وفي الحديث: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

45- سورة فاطر

- تقديم

وردت أخبار عن ما قيل إنه من "أسباب" نزول هذه السورة، ونحن ندرج بعض هذه الروايات لأنها تعبر عن جوانب من حياة النبي الاجتماعية وعن بعض الأسئلة التي كانت تطرح عليه. وهي في الجملة من نوع الأسئلة التي ما زال البدو يطرحونها في مثل هذه الأحوال: أقصد أنهم يفعلون ذلك بالفطرة وبدون تعقيدات أو بروتوكول". عن ابن عباس قال: "نزلت هذه الآية: 'أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ قَرَآءَ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ' (الآية 8) حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام فهدي الله عمر وأضل أبا جهل، ففيهما أنزلت. ومعنى هذا أن هذه السورة نزلت قبيل إسلام عمر في وسط السنة الخامسة للنبوّة. ومما روي بصدد آيات هذه السورة أن رجلا قال: يا رسول الله إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا فهل في الجنة من نوم؟ قال: لا، إن النوم شريك الموت، وليس في الجنة موت. قال فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: ليس فيها لغوب كل أمرهم راحة، فنزلت: 'وَقَالُوا (أهل الجنة) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِنْ فَضْلِهِ لَّا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعَب) وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (إعياء) (34-35).

هذا من جهة ومن جهة أخرى قيل إن قريشا كانت تقول (قبل بعثة محمد): لو أن الله بعث فينا نبيا ما كانت أمة أطوع لخالقها ولا أسمع ولا أشد تمسكا بكتابتها منا، فأنزل الله "وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُنَّ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ" (اليهود) وكانت اليهود تستفتح بالنبي الجديد (تستقوي بمجيئه على خصومهم لأنهم كانوا يجدون ذلك في كتبهم)، فيقولون: "إنا نجد نبيا". وتضيف الآية: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا، اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ".

- نص السورة

1- مقدمة: الله يرسل الرسل، وما يفتح من الرحمة فلا ممسك لها...

بسم الله الرحمن الرحيم
الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ⁽¹⁾. يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ¹. مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ
مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْقَوِيُّ الْحَكِيمُ² (يتصرف بحكمة).

2- نعمة الخلق والإيجاد ... ونعمة الرزق من السماوات والأرض.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ: هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ، يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ⁽²⁾. لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤَفَّكُونَ³ (تتصرفون). وَإِنْ يَكْذِبُوكَ
فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ⁴. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَكِنَّ الْغُرُورَ⁵ (الشيطان: وظيفته
التغدير). إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ⁶ (جهنم). الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ⁷. أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا⁽³⁾، فَإِنْ
اللَّهُ يُضِلِّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ⁸. وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقَتَاهُ إِلَى بَلَدٍ مِّيَّتٍ
فَأَخْبَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ النُّشُورُ⁹ (البعث: يخرج الناس من القبور
كما يخرج النبات من الأرض بعد المطر). مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا،

1- من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ...

2 - الرازي: نعمة الله مع كثرتها منحصرة في قسمين نعمة الإيجاد، ونعمة الإبقاء. فقال
تعالى: "هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ" إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء. وقال تعالى: "يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ" إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء.

3- المعنى: أَيْكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مُتَسَاوِينَ: أَيْكُونُ الَّذِي زَيْنَ
الشيطان له الكفر فسار عليه كمن لم يغتر بالشيطان فاجتنب الكفر؟ يشهد لهذا المعنى قوله :
"أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ" (محمد: 14).

إِلَيْهِ يَصْنَعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (يرفع قيمته) (4). وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيُوتَ (المُؤامرات) لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ¹⁰ (يفسد). وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ (آدم)⁽⁵⁾ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَكَأَنَّ تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ، وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ. إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ¹¹. وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَابٌ فَرَاتٌ⁽⁶⁾ (يكسر العطش) سَالِفٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (شديد الملوحة) وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (السمك) وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً (لؤلؤا) تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (بالتجارة) وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ¹². يُوَلِّجُ (يدخل) اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ (الأصنام) مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ¹³ (لقافة النسوة)؛ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ (يتبرؤن من إشراككم لهم في الألوهية مع الله)، وَكَأَيُّ نَبِيٍّ (بحقيقة الأمر) مِثْلَ خَبِيرٍ¹⁴ (الله).

3- لا تزر وزر أخرى، وما أنت بمسمع من في القبور!

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ¹⁵. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ¹⁶، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ¹⁷. وَكَأَيُّ زُرٍّ وَزَرٍّ أُخْرَى، وَإِنْ تَدْعُ (نفس رجل) مُثْقَلَةً (بوزرها) إِلَى جَمَلِهَا (أحدًا) إِلَى مَسَاعِدَتِهَا عَلَيْهِ لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى، إِنَّمَا تُغْنِي الْذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ. وَمَنْ تَزَكَّى (تطهر من الشرك) فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ¹⁸. وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ¹⁹، وَكَأَيُّ ظِلْمَاتٍ وَكَأَيُّ النُّورِ²⁰، وَكَأَيُّ

4- "كان كفار مكة يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده، لأن البعد من الملك ذلة، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه، فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب، فمن قبل كلامه وصعد إليه فهو عزيز ومن ردّ كلامه في وجهه فهو ذليل، وأما هذه الأصنام فلا يتبين عندها الذليل من العزيز إذ لا علم لها، فكل أحد يمسه" (الرازي).

5 - الخلق من تراب (أو من الطين) يفسر في الفهم "العلمي" القديم على مثال تكون الدود في التراب والطين ...

6- أصل البحر (في اللغة) كل مكان واسع جامع للماء الكثير، ويصدق هذا على الأنهار الكبرى مثل النيل والفرات.

الظِّلُّ وَكَأَ الْخُرُورِ²¹ (الجنة والنار)، وَمَا يَسْتَوِي الْأَخْيَاءُ وَكَأَ السَّمَوَاتِ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ، وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ²² (الكفار المعرضون لا يسمعون، هم كالموتى فلا تأسف لعدم استجابتهم). إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ²³. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ²⁴. وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ (صحف كصحف موسى) وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ²⁵ (التوراة)، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ²⁶ (أنت تعرف العقاب الذي نزل بهم)! أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ (ألم ترى في الجبال طرقا شقت ملونة بلون الصخر) بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ (صخور) سُودٌ²⁷، وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ (ألم ترى فيها ما هو) مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (الذين يلاحظون ما في الكون من كائنات بدیعة دالة على صانعها)، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ²⁸. إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَنَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ²⁹، لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ³⁰.

4- الناس ثلاثة: مقصر غير ملتزم، ملتزم مقتصد، مسابق للخيرات..

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ (الدين) هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (من الديانات السماوية) إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ³¹. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ (أي هذا الدين لهؤلاء) الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا (أي من بلغته الدعوة إلى الإسلام) فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ (لا يلتزم به) وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ (لا يتجاوز الواجبات)، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ³²: جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَكُلُولًا وَكِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ³³. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ³⁴، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ (الجنة) مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ (تعب) وَكَأَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ³⁵ (إعياء). وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا، وَكَأَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا. كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ³⁶. وَهُمْ يَصْطَرَّخُونَ (يصرخون مستغيثين) فِيهَا (في جهنم، قائلين): رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ. (يقال لهم) أَوْ لِمَ نَعْمَرُكُمْ مَا (زمننا كافيا) يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ (خصوصا) وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا، فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ³⁷. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُور³⁸. هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا (كرها و غضبا)، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا³⁹.

5- ماذا خلق شركاؤكم ... يؤخرهم إلى أجل مسمى!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ؟ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ (المشركون) بَعْضُهُمْ بَعْضًا (بشفاعة أصنامهم) إِلَّا غُرُورًا⁴⁰ (باطلا). إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ (=مَا) أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا⁴¹. وَأَقْسَمُوا (قريش) بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَاتِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (اليهود)، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا غُفُورًا⁴²، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ، وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. فَهَلْ يَنْظُرُونَ (يَنتظرون) إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ (إهلاكهم كما أهلك الأولون)؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا⁴³. أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من قوم عاد وثمود السخ) وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً! وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا⁴⁴.

6- خاتمة : ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا لانقرضوا منذ البداية.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ (المقصود الإنسان منذ آدم الذي كان أول من عصى) بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ (من نفس). وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا⁴⁵ (يغفر ذنوب من تاب، ويوازن بين الحسنات والسيئات).

- تعليق

بدأت السورة بطرح العلاقة بين الله والعالم وفي مركزه الإنسان. الله خالق العالم فهو الإله ولا إله غيره: إنه مشرف على العالم ومدير لأمواره. هو في السماء العليا يرسل الملائكة بالعدد المطلوب تنزل بالوحي وغيره، فيفتح من الرحمة بالقدر الذي يراه مناسباً للإنسان، والرحمة تشمل الوحي والعلم والمعرفة والحياة وبما به قوامها.

وانطلاقاً من هذه المقدمة تعرض السورة بواسطة خطاب جدلي موجه إلى قريش كيف أن الله أنعم عليهم نعمتين: نعمة الإيجاد، إذ لم يكونوا شيئاً فخلقهم بشراً يسمعون ويبصرون ويفهمون ويعقلون فيسمعون على غيرهم من الكائنات. ونعمة الرزق، خلق لهم ما به قوام حياتهم من المأكّل والملبس ويسخر مخلوقات أخرى كثيرة لفائدتهم، وجعل الظواهر الطبيعية كتعاقب الليل والنهار الخ لفائدتهم... وإذن فمن الواجب عليهم أن يعترفوا بهذه النعم وأن لا يكفروا بها، ولا يليق بعقلاء مثلهم أن يعبدوا أصناماً ويجعلوها شركاء الله وهم يعرفون أنها من صنع أيديهم وأنها لا تضر ولا تنفع ولا تشفع، بل لا تسمع ولا تبصر... مثل هذا الكفر والجور ظلم للنفس وظلم للنعم ولذلك لا بد من حسابهم، وسيكون ذلك بعد قيام القيامة التي يكذبون بها ظلماً. ألا يعرفون أن الله الذي خلقهم وأنعم عليهم لم يفعل ذلك عبثاً، بل ليلوهم ويختبرهم، ثم يجازيهم يوم الحساب حيث "لا تزر وازرة وزر أخرى" لا أحد يحمل ذنوب غيره ولا أحد يحاسب عليها غير مقترفها...

ثم تتوجه السورة بالخطاب إلى الرسول لتسليه وتثبت فؤاده وتقوي عزيمته طالبة منه الصبر والمثابرة ومواصلة تبليغ رسالته. أما كونهم يكذبونه ويرفضون الاستجابة لدعوته فذلك ما حصل للأنبياء السابقين الذي خاضوا معارك الفهم والإفهام مع أقوامهم، وكان النصر حليفهم في نهاية الأمر؟ أما المصرون على العناد والتكذيب والذين بلغ بهم الاستكبار أن تأمروا على رسلهم مخططين لقتلهم فقد جاءهم الهلاك من عند الله، إما بواسطة كوارث طبيعية أو بوضعهم في موضع يجعل الهلاك حتماً عليهم.

أما غير هؤلاء الذين كذبوا وأعرضوا، ففضلوا الهدى على الضلال فآمنوا وانكبوا على عمل الصالحات، فمنهم من هاون مقصر، ومنهم من اقتصر على ما يجب، ومنهم السابقون إلى عمل الخير.

وتختتم السورة بالرد على سؤال طالما طرحه خصوم الدعوة المحمدية، سؤال فيه نوع من التحدي، يقولون: أين هذا الوعد والوعيد الذي يكرره علينا محمد؟ ويأتي الجواب: الأمر يتطرق بحساب وجزاء مؤجل إلى أجل، الله وحده يعرفه. ولو أن الله أردف الحساب والجزاء بكل فعل يفعله الناس لما بقي على الأرض أحد. إن آدم أول من عصى، ولو عاقبه الله يوم عصى لا انقطع وجود البشر. ولكن ألهمه التوبة فتاب عليه، وترك بني آدم يتناسلون، -ومعهم الكائنات الأخرى لأنها خلقت ليسخروها في حياتهم- وذلك من أجل أن يتيح لآدم فرصة الحياة بدون تكرار خطيئة آدم ولا الشعور بثقلها. فالتوبة محتها، والتوبة تحمي ذنوب كل من تاب واستقام.

44- سورة مريم

- تقديم

رتبت هذه السورة -سورة مريم- قبل سورة طه. وتفيد الروايات أن هذه الأخيرة نزلت قبيل إسلام عمر بن الخطاب، وكان إسلامه ما بين الخامسة والسادسة من البعثة. وبالتالي تكون سورة مريم قد نزلت خلال السنة السادسة، أي في ظروف الهجرة إلى الحبشة. وفي هذه الحالة يمكن أن يكون جعفر بن أبي طالب -الذي كان على رأس المهاجرين إلى الحبشة كما سنرى- قد أخذ معه هذه السورة (حفظاً أو مكتوبة) فالروايات تؤكد أنه قرأها أو قسماً منها على النجاشي (ملك الحبشة الذي كان مسيحياً) عندما سألته عما يقول القرآن الكريم عن مريم،⁽¹⁾ وبالتالي عن طبيعة عيسى الذي تقول عنه النصارى إنه ابن الله. هذا وتضم السورة أجزاء من قصص أخرى مما يدخل في موضوعها المركزي، موضوع التوحيد وإبطال الشرك.

ربما كان من المفيد التذكير بأننا نقتصر هنا على القصص الواردة في القرآن المكي، خصوصاً وقصة مريم قد ورد قسم منها في القرآن المكي وقسم في القرآن المدني. وقد سبق أن قلنا إن للقرآن في القصص التي يعرضها زماناً خاصاً به هو زمان الدعوة. أما زمان القصة المفترض فيه أن يكون موازياً للزمان الطبيعي فهو جملة أحداث يذكر منها القرآن في كل مقال ما يناسب المقام. ومقام الدعوة في مكة غير مقام الدولة في المدينة، وما يناسب تطور الدعوة قد يختلف عما يناسب تطور الدولة. وهكذا فما ذكرته هذه السورة من قصة مريم لا يخص مريم بمفردها بل يخص عيسى ابنها أيضاً، وبالتحديد حملها به من غير أن يمسسها بشر، كما سنرى. والهدف إبراز هذا الجانب/المعجزة في القصة كبرهان على "التوحيد" ضداً على الشرك، سواء اتخذ شكل عبادة الأصنام كما هو حال قوم إبراهيم ومن سار على دربهم، أو شكل ادعاء أن لله ولداً، بما في ذلك تثليث النصارى وعبادة الملائكة بوصفها بنات الله كما كان الحال عند العرب.

1- انظر التفاصيل في التعريف بالقرآن الفصل الثاني.

- نص السورة

1- مقدمة: زكريا الشيخ يطلب ابنا: ينس من الإجاب وامرأته عاقر.

بسم الله الرحمن الرحيم

كهيعص¹ (هذا) ذَكَرُ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا² (2)، إِذْ نَادَى (زكريا) رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا³، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (ضعفت صحتي) وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ (بدعائي إياك من قبل) رَبِّ شَقِيًّا⁴ (خائبًا). وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ (الذين يلوونني في النسب مثل بني العم) مِنْ وَرَأْسِي (بعد موتي، أن يبدلوا الدين) وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا (منذ زمن الشباب) فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا⁵ (ولدا، على غرار ما نقول : ولي العهد)، يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا⁶.

2- الله يستجيب ويبشره بغيام أتاه الحكمة والنبوة؟

(فأجابه الرب) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا⁷ (3). قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا⁸ (نهاية السن)! قَالَ: كَذَلِكَ (سيكون)! قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا⁹. قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً (علامة عندما تحمل امرأتني) قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا¹⁰. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ (المسجد) فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ (أشار إليهم) أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا¹¹. (ولد يحيى، وبعد أن كبر وصار رجلا خاطبه الله) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ (التوراة) بِقُوَّةٍ (بجد وحزم). وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ (الحكمة) صَبِيًّا¹² وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً (طهارة من عندنا) وَكَانَ تَقِيًّا¹³ وَبَرًّا (محسنا) بَوَالِدَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا¹⁴. وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا¹⁵.

2- المعنى: هذا ذكر الرحمة التي خص ربك بها عبده زكريا. وزكريا المقصود هنا هو زوج خالة مريم أم عيسى عليه السلام. وكان من أنبياء بني إسرائيل ولكن ليس له كتاب في التوراة، وقد روى قصته بتفصيل الحواري "لوقا" في إنجيله. فهو إذن غير زكريا الأول الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد والذي له كتاب في التوراة.

3- أي سميه يحيى. ولم نجعل هذا الاسم لغيره من الأنبياء السابقين.

3- ويهب الولد لمريم دون أن يمسيها رجل!

وَنَذَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ (اعتزلت) مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا¹⁶، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (جبريل) فَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا¹⁷. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا¹⁸ (4). قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا¹⁹. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بِغِيًّا²⁰ (زانية). قَالَ كَذَلِكَ (سيكون)! قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا²¹ (قرر الله ذلك). فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا²²، فَأَجَاءَهَا (أَلجأها) الْمَخَاضُ إِلَى جُذْعِ النَّخْلَةِ: قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا²³. فَوَدَّاهَا (جبريل) مِنْ تَحْتِهَا (من أسفل منها) أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا²⁴ (نهرًا)، وَهَزَى إِلَيْكَ جُذْعَ النَّخْلَةِ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا²⁵، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا! فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا²⁶. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا²⁷ (ذنبا عظيما)، يَا أُخْتَ هَارُونَ (5) مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا²⁸. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ (إلى الصبي: أَنْ كَلِمُوهُ)! قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ (هو) فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا²⁹? قَالَ (الصبي عيسى) إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابُ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا³⁰، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا³¹، وَبِرًّا بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا³²، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا³³.

4- حقيقة أمر عيسى: ما كان لله أن يتخذ من ولد!

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، (وذلك هو) قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ³⁴ (يشكون: فَقَالُوا عِيسَى ابْنُ اللَّهِ)، مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ! سُبْحَانَهُ! إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ³⁵. (قال عيسى) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا

4- إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه.

5- اختلفوا في من هو هارون هذا، إذ لا يمكن أن يكون هو هارون أخ موسى لبعد المسافة الزمنية بينها وبينه. وروي عن المغيرة ابن شعبة قال: «يعتني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرايت ما تَقْرَؤُونَ تَسَاحَتْ هَارُونَ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ الْمَغِيرَةُ: فَلَمْ أَدْرِ مَا أَقُولُ. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلِهِمْ». (إِنَّ الْمَقْصُودَ شَخْصَ آخَرَ سَمِيَ إِبْرَاهِيمَ).

صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ³⁶. فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ (فَرَّقَ النصارى) مِنْ بَيْنِهِمْ. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ³⁷ (يوم القيامة)، أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ! يَوْمَ يَأْتُونَنَا (ما أسمعهم وما أبصرهم به يوم القيامة بعد أن كانوا في الدنيا صمًا عميًا، لا يصدقون). لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ³⁸، وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ (الحساب) إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ³⁹، إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ⁴⁰.

5- إبراهيم يرفض عبادة الأصنام، والله يهب له إسحق ويعقوب.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ⁽⁶⁾ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا⁴¹، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا⁴²، يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا⁴³، يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا⁴⁴، يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا⁴⁵، قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ، وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا⁴⁶. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا⁴⁷، وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا⁴⁸. فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَكُلًّا (منهم) جَعَلْنَا نَبِيًّا⁴⁹ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا⁵⁰.

5- موسى وهارون وإسماعيل وإدريس، هم من أنبياء الله

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا⁵¹، وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا⁵² وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا⁵³. وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا⁵⁴، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا⁵⁵. وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا⁵⁶، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا⁵⁷. أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ (يعقوب) وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا⁵⁸.

6 - بعد أن أثبتت السورة الوحدانية لله ضدا على اعتقاد النصارى في أن عيسى ابن الله، تنتقل إلى إبراهيم شيخ الأنبياء لتبرز مقاومته للشرك...

6- أقوام جاءت بعدهم: بعضهم كفروا، وبعضهم تاب وآمن...

فَخَلَفَ مِنْ بَٰعِدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ
عَذَابًا⁵⁹ (ضلالا وهلاكاً)، إِنْ مَنِ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا⁶⁰، جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ (من غير أن
يعاينوها)، إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا⁶¹ (آت لا ريب فيه)، لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا
سَلَامًا، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا⁶²، تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ
كَانَ تَقِيًّا⁶³.

7- الوحي ينزل على من اختاره الله، ويوم القيامة يا قريش، آت.

(قال جبريل) (7) وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا
بَيْنَ ذَلِكَ (يعلم ما سبق وما سيأتي) وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا⁶⁴. رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ، هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا⁶⁵ (ندا
ومثيلاً)؟! وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ (8): أَئِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا⁶⁶، أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ
أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا⁶⁷. فَوَرَبِّكَ لَنَحْضُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينُ، ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ
حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا⁶⁸ (على ركبهم: ج. ركبته)، ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ (فرقة)
أُيُوهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا⁶⁹ (جراً)، ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا
صِلِيًّا⁷⁰ (أحق بأن يلقوا في جهنم). وَإِنْ مِنْكُمْ (ما منكم يا مشركي مكة) إِلَّا
وَأَرَدُهَا (جهنم)! كَانَ (هذا) عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا⁷¹ (لأنهم اختاروا الشرك
وأعرضوا عن القرآن)، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا⁷². وَإِذَا
تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا⁷³ (النادي، جماعة)؟ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (قوم) هُمْ أَخْسَنُ أَثَاثًا
(متاعاً ومالاً) وَرَبِّيًّا⁷⁴ (ومنظراً). قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا
(في الدنيا) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا (جاءهم) مَا يُوعَدُونَ (من الحساب)، إِمَّا الْعَذَابَ (في

7- يربط المفسرون بين هذه الآية وبين انقطاع الوحي عن النبي لبعض الوقت بعد سؤال
قريش له عن أهل الكهف وذوي القرنين والروح الخ. وفي رأينا أن هذه الآية مرتبطة
بالسياق السابق. فبعد أن عدت السورة الرسل الذين خصهم الله برسالاته قال (جبريل) : ما
ننزل إلا بأمر ربك : ما نأتي بالوحي إلا بأمر الله، وبأمره جنناك أنت دون غيرك من رجال
قريش.

8- أحد كبار خصوم الدعوة المحمدية، اختلفوا في اسمه.

الدنيا) وَإِمَّا السَّاعَةَ (قيام القيامة)، فَسَيَظْمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَتًا (هل الجنة أم النار) وَأَضْعَفُ جُندًا⁷⁵ (جند الجنة أم شياطين الدنيا). وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا⁷⁶ (ما يرد عليهم). أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَكَذَا⁷⁷ (قيل: اسمه العاصي بن وائل من خصوم الدعوة المحمدية)، أَلَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا⁷⁸ (أبهرم عقدا مع الله)؟ كُلَّا سَكَتَبُ مَا يَقُولُ، وَتَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا⁷⁹، وَتَرْتَهُ مَا يَقُولُ (سيحمل في سجله يوم الحساب) وَيَأْتِينَا فَرْدًا⁸⁰ (بدون ما يعتز به من مال وأولاد).

8- لقد أهلكنا قبلهم أمما تعبد الأصنام... فهل تراها أو تسمعها؟

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا⁸¹ (أعوانا لهم وشفعاء)! كُلَّا، (يوم القيامة سينطبق الله أصنامهم) سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا⁸² (ويتبرؤون منهم). أَلَمْ تَرَى أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا⁸³ (تدفعهم إلى المعاصي)! فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُ لَهُمْ عَذَابًا⁸⁴. يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا⁸⁵ (راكبين)، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا⁸⁶ (يمشون عطشى)، لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا⁸⁷ (بشهادة أن لا إله إلا هو). وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا⁸⁸! لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا⁸⁹؛ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا⁹⁰ (بسبب) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا⁹¹. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا⁹²، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا⁹³. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا⁹⁴، وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا⁹⁵. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا⁹⁶.

9- خاتمة: أنزلناه بلسان قومك وجعلناه على طريقتهم ومعهودهم...

فَاتِمَّا يَسِرَّنَاهُ (الكتاب) بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا⁹⁷. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ، هَلْ تَحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا⁹⁸ (صوتا خفيا)؟.

- تعليق

يدور الخطاب في هذه السورة حول محور واحد، محور التوحيد وإبطال الشرك. وهكذا فالهدف مما أوردته من قصة زكريا ومريم وعيسى هو إبطال التثليث الذي يجعل لله ولدا وشريكا. الله هو الذي أعطى، على غير العادة، ولدا للشيخ المسن زكريا على الرغم من العقم الذي أصيبت به امرأته. والله هو الذي خرق العادة مرة أخرى فأعطى لمريم ابنا من دون أن يمسسها بشر، تماما كما أن الله هو الذي خلق آدم من طين وأنه الذي سبعت الموتى للحساب والجزاء. هذه القدرة على خرق العادة ليست لأحد من المخلوقات بما فيها الإنسان والملائكة، فبالأحرى الأصنام التي تصنع من حجر وغيره من الجمادات فتبقى جامدة مثلها لا تسمع ولا ترى ولا تقدر على فعل شيء. وهذه الأصنام التي تعبدها قريش قد عبدتها أمم قبلها فأرسل الله رسلا يبينون للناس تفاهتها وعدم معقولية عبادتها، وعلى رأسهم شيخ الأنبياء إبراهيم والأنبياء من ذريته من إسحاق وإسماعيل إلى عيسى ومحمد بن عبد الله ... ومع ذلك فقريش ماضون في التمسك بأصنامهم يتعقدون أنها تمثل الملائكة التي يعتبرونها بنات الله، وأنها ستشفع لهم! فلا تعجل عليهم إن مصيرهم جهنم في نهاية الأمر، شأنهم شأن الأقوام الذي كذبوا رسلهم والذين لم يبق منهم لا ما يرى ولا ما يسمع.

هذه البيانات، سواء ما كان منها من قصص الأنبياء مع أقوامهم أو مما ذكرناه من عن عبادة قريش للأصنام بوصفها شفعاء تمثل على الأرض "بنات الله" في السماء، قد أوحيناها إليك، ويسرناها بلغة قومك وطريقتهم في الخطاب كي يسهل تبليغهم وإقامة الحجة عليهم. فإذا لم يستجيبوا فلا تقلق. فلقد مضت أمم مثلهم أهلكناها ففנית، ولم يعد يسمع منها صوت ولا يحس منها بشركة.

45- سورة طه

- تقديم

أهم ما ورد بصدد هذه السورة هو ربطها بهجرة المسلمين إلى الحبشة وبإسلام عمر بن الخطاب، فعن ابن إسحاق: أن إحدى النساء المسلمات المهاجرات إلى الحبشة قالت: إنها بينما كانت تستعد لهذه الهجرة إذ أقبل عليها عمر بن الخطاب الذي قالت عنه إنه كان ممن يؤذي المسلمين، فسألها إلى أين الرحيل؟ قالت: "نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجاً". قالت : فقال : صحبكم الله". (وكان ذلك حوالي منتصف السنة الخامسة للنبوة).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى قال ابن إسحاق : "وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب قد أسلمت وأسلم بعلها، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين، ما بين رجال ونساء⁽¹⁾، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب (وكان قد أسلم قبل أيام)، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام من رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقية نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابي (المنحرف عن دين قومه)، والذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله. فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف (قبيلة الرسول عليه السلام) تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال : وأي أهل بيتي؟ قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب : فقد، والله، أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما. قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: "طه" يُقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت،

1- في الروض الأثف: كان عدد المسلمين بضعة وأربعين رجلاً، وإحدى عشرة امرأة. وعن اب عباس: "كان أسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة؛ فأسلم عمر وصاروا أربعين".

وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خُباب عليهما، فلما دخل قال : ما هذه الهَيِّمَةُ (كلام لا يفهم) التي سمعت؟ قالوا له : ما سمعت شيئا، قال : بلى! والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه! ويطش بخنثه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشحها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنثه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك . فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها، قال : لا تخافي، وحلف لها بالهتة ليردتها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه ... فأعطته الصحيفة، وفيها: "طه" (2)، فلما قرأ منها صدرأ، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له : يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (أبو جهل)، أو بعمر بن الخطاب"، فآله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خُباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خُباب : هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله (ص) وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله (ص)، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله (ص) وهو فزع، فقال : يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه (وكان حمزة عم النبي قد أسلم قبل ذلك بنحو أسبوع). فقال رسول الله (ص) : اتنن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله (ص) حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْرَتَه (موضع شد الإزار)، أو بمجمع رداءه، ثم جَبَذَه به جَبْذَةً شديدة، وقال : ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله، جئت لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله؛ قال : فكبر رسول الله (ص) تكبيرة عَرَفَ أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم . فتفرق أصحاب رسول الله (ص) من مكانهم، وقد عَزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة عم النبي، وعرفوا أنهما سَيَمْتَعَان رسول الله (ص)، وينتصفون بهما من عدوهم.

2 - وفي رواية أقل شهرة: أن عمر قرأ من سورة الحديد وهذا لا يستقيم، لأن هذه السورة نزلت في المدينة وفيها ما يؤيد كونها مدنية.

قال ابن إسحاق: "فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين أسلم". ثم ذكر رواية ثانية عن رواة مكيين قالوا إن عمر كان يقول: "كنت للإسلام مباحداً، وكنت صاحب خمر في الجاهلية، أحبها وأسَر بها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت ليلة أريد جنسانى أولئك في مجلسهم ذلك، قال: فجننتهم فلم أجد فيه منهم أحداً فقلت: لو أنى جنت فلانا الخمار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمرأ فأشرب منها. قال: فخرجت فجننته فلم أجد . قال: فقلت: فلو أنى جنت الكعبة فطفت بها سبعا أو سبعين قال: فجنت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله (ص) قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليماني. قال: فقلت حين أتيت: والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول فقلت: لئن دنوت منه أستمع منه لأرو عنه؛ فجنت من قبل الحجر (الكعبة)، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشى رويداً ورسول الله (ص) قائم يصلى يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبلة، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. قال: فلما سمعت القرآن⁽³⁾ رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام فلم أزل قائما في مكاني ذلك، حتى قضى رسول الله (ص)، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه، حتى يجزع (يقطع) المسعى، ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عبد عوف الزهري، ثم على دار الأخنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه (ص) في الدار الرقطاء (الملونة) التي كانت بيدي معاوية بن أبي سفيان. قال عمر رضي الله عنه: فقتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسول الله (ص) حسي عرَفنى، فظن أنى إنما تبعته لأؤديه ففهمنى (زجرني) ثم قال: ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قال: قلت: لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند الله قال: فحمد الله رسول الله (ص)، ثم قال: قد هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري، ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله (ص)، ودخل رسول الله (ص) وسلم بيته".

وأضاف ابن إسحاق: وكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة، حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه، وأن كان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله (ص) إلى الحبشة" (قيل في الهجرة الأولى).

3- وفي رواية أخرى أن السورة التي كان يقرأها النبي عليه السلام هي سورة "الحاقة" وهذا مشكوك، فيه لأن هذه السورة هي من أواخر ما نزل في مكة حسب لوائح ترتيب النزول، وبالتالي يفصلها عن تاريخ إسلام عمر أزيد من خمس سنوات!

روايتان مختلفتان حول إسلام عمر: الأولى بطلتها أخته، والثانية بطلها هو نفسه. الأولى منسوبة إلى أهل المدينة والثانية منسوبة إلى أهل مكة. وناقل الروايتين واحد، إنه ابن إسحاق كاتب السيرة النبوة! فأَي الروايتين أقرب إلى الصحة؟

نلاحظ أولاً سكوت معظم كتب الحديث والسيرة عن الرواية الثانية، ومنهم من قال إن راويها مجهول الخ. أما نحن فنرجح أن تكون الروايتان صحيحتين معاً، أما الأولى فلشهرتها ووقوع الاتفاق عليها. وأما الثانية فلأنها يمكن النظر إليها على أنها تنتم للأولى.

ذلك لأنه من الممكن افتراض أنه بعد إعجاب عمر بالقرآن عندما قرأ سورة طه أو قسماً منها في بيت أخته خرج وهو ينوي فعلاً الذهاب إلى الرسول (ص) ليعلن إسلامه. ومعروف عن عمر أنه كان في الجاهلية يكثر من شرب الخمر، وأنه لم يكف عنها نهائياً إلا بعد نزول الآية الثالثة التي تقطع بتحريمها (اجتنبوه. في المدينة). فمن الممكن جداً أن يكون عمر قد أراد أن "يخفف" عن نفسه بشرب الخمر - التي لم تكن محرمة في الإسلام يومئذ - الشعور بثقل التحول الذي قرر القيام به، وذلك بالدخول في الإسلام بعد أن كان على سبيل قريش في الضغط على المسلمين، كما ورد ذلك في كلام أخته في الرواية الأولى. من أجل ذلك اتجه إلى الخمر الخ، ولما لم يجد أحداً اتجه إلى المسجد لعله كان ينوي الاستماع إلى مزيد من القرآن فصادف بغيته، حيث كان النبي عليه السلام يصلي ويقرأ القرآن. ويمكن أن نفترض أن ذهاب عمر إلى بيت أخته كان مساءً في وقت متأخر وأنه لم يخرج منه إلا حوالي منتصف الليل ... ليجد حانات مكة فارغة من روادها ... ويجد النبي (ص) في المسجد يصلي وقد اقترب الصبح ...

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن تذكرة لمن يخشى... فلا يشقىك إعراضهم.

بسم الله الرحمن الرحيم
طه¹، مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى² (لتحزن لكون قومك لم يستجيبوا، فما هو) إِلَّا تَذْكِرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى³ تَزِينًا (قرآناً نزل) مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى⁴. (هو) الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى⁵ (4)، تَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

4- جري ويجري نزاع حول هذه الآية بين الفرقة المشبهة، أي الذين تشبهون الله بالإنسان فينسبون له ما ينسب للإنسان من الأوضاع الجسمانية، فقالوا : استوى على العرش جلس =

الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى^٦ (تحت الأرض). وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ
(بالشكوى من إعراض قومك عنك، أو لم تجهز به) فَإِنَّهُ يَعْطِمُ السِّرَّ وَأَخْفَى^٧، اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى^٨.

2- مثال مما عاناه موسى من فرعون في سبيل أداء الرسالة.

أ- الله يكلم موسى: *إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى.*
وهَلْ (وقد) أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى^٩، إِذْ رَأَى نَارًا (وكان قادمًا من مدين في
اتجاه مصر وقد ضل الطريق، وكان الليل شتاء باردا) فَقَالَ لَأُهِلَّهُ امْكُثُوا إِنِّي
أَنْسَتُ نَارًا (أبصرت) لَعَلِّي آتِيَكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ (للتسخين) أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى^{١٠}
(من يرشدنا إلى الطريق). فَلَمَّا أَتَاهَا (وصل النار) نُودِيَ (عليه) يَا مُوسَى^{١١}: إِنِّي
أَنَا رَبُّكَ، فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ (احتراما) إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ (المسمى) طُوًى^{١٢}، وَأَنَا
اخْتَرْتُكَ (رسولا) فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى^{١٣} (إليك) : إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي
وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي^{١٤}، إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا (٥) لَتَجْزِيَّ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
تَسْعَى^{١٥}، فَلَا يَصَدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى^{١٦} (فتهلك).

ب- عصا موسى: تعريفه بها ...

(سأله الله) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى^{١٧}، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا
وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى^{١٨} (كالدفاع عن النفس). قَالَ أَلْفِهَا
يَا مُوسَى^{١٩}. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى^{٢٠}! قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى^{٢١} (نعيدها عصا عادية كما كانت)، وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ (جنبك) تَخْرُجُ
بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ، آيَةٌ أُخْرَى^{٢٢}، لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى^{٢٣} (تحول العصا حية
ثم ورجوعها عصا عادية بمجرد إدخال اليد في الجيب، من آيات الله الكبرى).

ج- إرساله إلى فرعون .. وطلبه أخاه هارون

أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى^{٢٤} (استعبد قسما من شعبه). قَالَ (موسى) رَبِّ
اشْرَحْ لِي صَدْرِي^{٢٥}، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^{٢٦}، وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي^{٢٧}، يَقْفُوهَا

عليه كما يجلس الملوك على عروشهم. أما مناهضو التشبيه من المعزلة والأشاعرة وغيرهم
فيلتمسون للآية معنى مجازيا، فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الملك كما في "ملك
الناس" و"ملك يوم الدين" الخ. وهناك من أهل السنة من يتوقف عن التدقيق في معنى
الاستواء، ويقول: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة" (روي عن الإمام
مالك).

5- في القاموس المحيط: تكون "كاد" بمعنى أراد: "أكادُ أخفيها": أريدُ إخفاءها.

قَوْلِي²⁸، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي²⁹، هَارُونَ أَخِي³⁰، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي³¹، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي³²، كَيْ نَسَبَحَكَ كَثِيرًا³³، وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا³⁴، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا³⁵. قَالَ : قَدْ أُوتِيتَ سؤْلَكَ يَا مُوسَى³⁶.

د- تذكيره بطقولاته: وما جرى له إلى أن كلمه الله

وَلَقَدْ مَنَّا (أنعمنا) عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى³⁷ (عندما ولدت وكان فرعون يقول أولاد بني إسرائيل خوف أن يكون منهم من يقضي على ملكه)، إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ (في المنام) مَا يُوحَى³⁸: أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ⁽⁶⁾ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ (نهر النيل) فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ (هو فرعون، وذلك ما حدث). وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي (جعلتك محبوبا) وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي³⁹ (لتكون عيني عليك، تحرسك). (ولا تنس) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ (لتبحث عنك وتجدهم أحضروا المرضعات لك فرفضتهن) فَتَقُولُ (لهم أختك) هَلْ أَتَاكُم عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ؟ (فقبلوا، فجاعتك بأمك) فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ. وَقَتَلْتَ نَفْسًا (ولا تنس أيضا أنك قتلت رجلا من أقباط مصر وخفت من عقاب فرعون) فَفَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (اختبرناك بأمور أخرى فخلصناك) فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ (في الموعد الذي قدرناه) يَا مُوسَى⁴⁰، وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي⁴¹ (رسولا).

هـ- إرساله ومعه هارون إلى فرعون في مهمة

اذهب أنت وأخوك بآياتي ولما تنيا (تتوقفا) في ذكري⁴²، اذهبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى⁴³، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيْنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى⁴⁴. قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا (يبادرنا بالعقوبة) أَوْ أَنْ يَطْغَى⁴⁵ (يقتلنا). قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى⁴⁶، فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى⁴⁷. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى⁴⁸. قَالَ (فرعون) فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى⁴⁹؟ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ (صورته) ثُمَّ هَدَى⁵⁰. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى⁵¹ (فمن كان ربها)؟ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ؛ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى⁵². الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّارَ مَهْدًا وَسَلَكًا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (طرقا) وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى⁵³، كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ

6 - قلنا لها - عندما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون في جملة من يولد - ضعيه في التابوت واقذفي التابوت في النيل.

لأُولَى النَّهْيِ ⁵⁴ (العقل)، مِنْهَا (الأَرْض) خَلَقْنَاكُمْ (خلق آدم من طين وأنتم ذريته تعيشون من خيراتها)، وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ (حين ينقضي أجلكم) وَمِنْهَا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً (مرة) أُخْرَى ⁵⁵ (يوم تقوم القيامة للحساب والجزاء).

و- موسى ينتصر على السحرة. وفرعون يهتمهم بالتواطؤ معه وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ (فرعون) آيَاتِنَا (معجزات موسى) كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ⁵⁶، قَالَ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ⁵⁷، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ⁵⁸ (يقع بيننا وبينك على مسافة واحدة). قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ (العید) وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضَعْفَى ⁵⁹. فَتَوَلَّى (ذهب) فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ (سحرته) ثُمَّ أَتَى ⁶⁰. قَالَ لَهُمْ (للسحرة) مُوسَى: وَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ (يهلككم) بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ⁶¹، فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى ⁶² (وتشاوروا)، قَالُوا (بعضهم لبعض) إِنْ هَٰذَا (7) لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْمُتْلَى ⁶³ (العالية في فن السحر) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا (متحدين)، وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ⁶⁴ (من انتصر علي الآخر). قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ⁶⁵؟ قَالَ بَلْ أَلْقُوا، (فألخوا) فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ⁶⁶. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ⁶⁷. فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ⁶⁸، وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ⁶⁹ (وكذلك حدث).

ز- السحرة يؤمنون برب موسى، ويتوعدون فرعون...

فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدًا، قَالُوا: آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ⁷⁰. قَالَ (فرعون لهم) آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ! إِنَّهُ (موسى) لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (توطأتهم معه)، فَلَمَّا قُطِعَ أُيُودُكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأْصَلْبَتُكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا (أنا أو رب موسى) أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ⁷¹. قَالُوا لَنْ نُوْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَالَّذِي فَطَرَنَا (8) فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ (افعل ما تشاء)، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⁷² (حكمك مقصور على الحياة الدنيا). إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ⁷³. (قالوا) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ

7 - حسب قواعد النحو يجب أن تكون العبارة: "إن هذين لساحران"، وقد استعمل القرآن هنا لغة يأتي أهلها بالآلف في المثني في الجر والرفع والنصب.

8 - نرجح الرأي القائل إن جملة "والذي فطرنا": قسم.

رَبُّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا⁷⁴، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى⁷⁵، جَنَّاتُ عَذْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى⁷⁶ (تطهر من الآثام). وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ (أخرج ليلاً) بِعِبَادِي (بنِي إِسْرَائِيلَ) فَاضْرِبْ لَهُمْ (فشق لهم بعصاك) طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ⁽⁹⁾ يَبْسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا (من فرعون) وَلَا تَخْشَى⁷⁷ (غرقاً). فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ (الماء) مَا غَشِيَهُمْ⁷⁸ (من الغرق والتلف)، وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى⁷⁹ (فقدهم وما اهتدى إليهم).

ح- فتنة السامري: صنع لبني إسرائيل صنما فعبدوه، وموسى يغضب.
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى⁸⁰ (10)، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى⁸¹، وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى⁸². (ذهب موسى للقاء ربه ثانية ليأخذ التوراة، فقال له:) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى؟⁸³ قَالَ: هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي. وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى⁸⁴. قَالَ: فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ⁸⁵ (11). فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا، قَالَ: يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا؟ أَفَطُلَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أُرَدْتُمْ أَنْ يُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي⁸⁶ (وعدكم لي بالبقاء على دين الله)؟ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا (بارادتنا) وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا (أثقالاً) مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ⁽¹²⁾ فَقَذَفْنَاهَا. فَكَذَلِكَ (يقول الله لموسى) أَلْفَى السَّامِرِيُّ⁸⁷ (الحلي في النار) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ، فَقَالُوا (السامري وأتباعه) هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ⁸⁸ (نسيه موسى فذهب يطلبه). (يخاطب الله موسى) أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَرْجِعُ (لا يرد العجل) إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا⁸⁹! وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ، فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي⁹⁰. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ (على عبادته) حَتَّى

9- خلاف بين المفسرين وبين الباحثين المعاصرين: هل يتعلق الأمر بالنيل أم بالبحر الأحمر؟

10 - الْمَنَّاءُ: نبات يؤكل كالخلوى. وفي السورة أنه يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلاً، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزاً ذا طعم خاص. والسَّلْوَى الطير السماوي. قيل يسافر في مجموعات كبيرة من إفريقيا متجهاً شمالاً.

11 - السامري: قيل من قبيلة السامرة، قبيلة من قبائل بني إسرائيل، رجل التقوا به فحبب إليهم عبادة الأصنام وصنع لهم صنماً على صورة عجل فعبدوه.

12 - أي جلي قوم فرعون كانوا استعارها منهم بعله عرس فبقيت عندهم.

يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى⁹¹. قَالَ (موسى بعد رجوعه) : يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ، إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا⁹²، أَلَا تَتَّبِعُنِي (وَيَتْرَكُهُمْ)؟ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي⁹³؟ قَالَ يَبْنَومُ (يا ابن أُمِّي) لَا تَأْخُذْ بِخِشْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي، إِنِّي خَشِيتُ (لَوْ اتَّبَعْتُكَ أَنْ يَتْبَعَنِي فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَيَبْقَى فَرِيقٌ وَحِيدٌ) أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ (تَنْتَظِرْ) قَوْلِي⁹⁴ (رَأْيِي فِي ذَلِكَ). قَالَ (موسى) فَمَا خَطْبُكَ (مَا شَأْنُكَ) يَا سَامِرِيُّ⁹⁵؟ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ (جَبْرِيلَ) فَنَبَذْتُهَا (أَلْقَيْتُهَا) وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي⁹⁶ (13). قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ (مَا دَمْتُ حَيًّا) أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ (عِقَابِكَ أَنْ لَا تَمَسَ أَحَدًا وَلَا يَمَسَكَ أَحَدٌ) (14) وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ) لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا⁹⁷، إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا⁹⁸.

3- تلك قصص السابقين، وقد أعطيناك القرآن فلا تعجل بتنفيذ وعيده

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا⁹⁹، مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا¹⁰⁰، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا¹⁰¹. يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا¹⁰² (من تأثير النار)، يَتَخَفَتُونَ (يَتَسَارُونَ) بَيْنَهُمْ : إِنْ لَبِثْتُمْ (فِي الْقَبْرِ) إِلَّا عَشْرًا¹⁰³ (من الليالي). نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ (المدة التي مكثوها) إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً (أَقْرَبَهُمْ إِلَى الصَّوَابِ) إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا¹⁰⁴ (15). وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ (كَيْفَ تَصِيرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؟ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا¹⁰⁵، فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا¹⁰⁶ (مستويا)، لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا¹⁰⁷ (ارتفاعًا)، يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ (أَيَّ النَّاسِ الْخَارِجُونَ مِنْ قَبَرِهِمْ يَتَّبِعُونَ إِسْرَافِيلَ الْمُنَادِيَ بِقِيَامِ السَّاعَةِ) لَا عِوَجَ لَهُ (لَا يَبْتَغِدُونَ عَنْهُ) وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا¹⁰⁸، يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا¹⁰⁹ (=شهادة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ).

13 - قال: إنه رأى دابة جبريل فأخذ من موضع حافرها قبضة من تراب وألقاها فتحولت إلى صورة الصنم، أملا أنه بفعله ذاك يصير ما لا روح له ذا روح، وأنه رأى قوم موسى يطلبون منه أن يجعل لهم إلها، فحدثته نفسه أن يكون ذلك العجل إلههم.

14 - قالوا: فكان يهيم في البرية وإذا مس أحداً أو مسه أحد أصابتهما الحمى.

15 - هذا القائل: قوله قريب من الصواب لأنه أدرك أن مدة إقامتهم في القبر لا تساوي شيئاً بالنسبة لخلودهم في جهنم.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا¹¹⁰. وَعَنَت (خضعت) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا¹¹¹، وَمَنْ يَفْعَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا¹¹² (لحقه). وَكَذَلِكَ (معطوف على "كَذَلِكَ نَقُصُّ") أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا (كررنا) فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا¹¹³ (عبرة بهلاك من قبلهم)، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ. وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ (بتنفيذ وعيده) مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ⁽¹⁶⁾ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا¹¹⁴.

4- آدم استسلم للشهوة، وتلك حال قريش. والحساب يوم القيامة.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ) فَنَسِيَ (وأكل) وَكَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا¹¹⁵ (إرادة حازمة تكبح جماع الرغبة)، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى¹¹⁶، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلَزَوْجَكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى¹¹⁷، إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى¹¹⁸، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى¹¹⁹ (تضرك شمس الضحى). فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ : قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ⁽¹⁷⁾ وَمَلَكَ لَا يَبْلَى¹²⁰، فَأَكَلَا (هو وامراته) مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا (ظهرت عورة كل منهما للآخر) وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ (أخذا يلبسان) عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى¹²¹، ثُمَّ اجْنَبَا رَبَّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى¹²² (18)، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ يَا بَنِي آدَمَ) عَدُوٌّ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ (سيأتاكم) مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى¹²³، وَمَنْ أَعْرَضَ

16- ذهب المفسرون في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، بعضهم يربطها بأحداث وقعت في المدينة وهذه سورة مكية باتفاق! وآخرون تجاهلوا السياق تماما... وفي رأينا أن الآية متصلة بما قبلها وما بعدها كما يلي: "وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًّا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا" (فإذا كان لم يحدث لهم ذكرا ولم يؤمنوا ولم يهلكهم الله كما فعل بالأقوام الماضية، فإن ذلك ليس راجعا إلى أن الله لم يستطع حملهم على الإيمان أو لم يقدر على إهلاكهم. كلا، إنه يمهلهم كما أمهل الذين من قبلهم) : فتعالى الله الملك الحق (أن يخلف وعده، فانتظر حتى ينزل عليك القرآن كله ثم احكم بعد ذلك): وكما تعجل بالقرآن (بتنفيذ وعيده) من قبل أن يقضى إليك وحيه (كله) وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا". وتأتي قصة آدم ونسيانه ... ثم عقابه بإخراجه من الجنة ثم قبول توبته ... يأتي ذلك ممتما للسياق وصلا بقوله تعالى (لاحقا) " فاصبر على ما يقولون... وكما تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم (فئات من قريش) زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم..."

17 - يخلد من يأكل منها. وفي التوراة : "شجرة المعرفة"

18 - هذه التوبة أسقطت ما تعتبره المسيحية بـ"الخطيئة الأصلية"، خطيئة آدم المذكورة.

عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (فيها ضيق حال) وَتَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى¹²⁴. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا¹²⁵. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى¹²⁶. وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى¹²⁷.

5- خاتمة: اصبر على ما يقولون، ولا تمدن عينيك الى ما عندهم.

أَفَلَمْ يَهْدِ (يتبين) لَهُمْ (لقريش) كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (الأقوام) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ (تمشي قريش أثناء أسفارهم جنب مساكن أولئك الأقوام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النِّهْيِ¹²⁸ (لمن له عقل). وَلَوْنَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ (بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة) لَكُنْ لَزَامًا (العقاب لازما لهم في الدنيا) وَأَجَلٌ مُّسَمًّى¹²⁹ (وفي تاريخ نحدده لهم). فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى¹³⁰ (بما تناله عن ذلك من الثواب)، وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ (وأنت تعاني من الفقر) إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ (فئات من قريش)، زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (لينشغلوا فيه ويطغوا به)، وَرَزَقَ رَبُّكَ (وسياتيك في المستقبل) خَيْرٌ وَأَبْقَى¹³¹. وَأْمُرْ أَهْلَكَ (زوجتك) بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا (لا نكلفك البحث عن الرزق) نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى¹³². وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ! أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ (في القرآن) بَيِّنَةٌ مَا فِي الصِّحْفِ الْأُولَى¹³³؟ وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِغَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ (من قبل أن ينزل القرآن) لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذِلَ وَتَخْزَى¹³⁴! قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ (الكل ينتظر ما سيحصل) فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَى¹³⁵.

- تعليق

تنطلق هذه السورة من مقدمة تسلي النبي عليه السلام وتثبت فؤاده وتهون عليه ما يلقاه من إعراض قريش، وتؤكد له أن الله لم ينزل عليه القرآن ليجعل منه مادة للمعاناة والشقاء، ولا ليطلب منه فرضه على قريش؛ فالقرآن إنما هو "تذكرة لمن يخشى" الله، أما من أصر على كفره وعاند فسيلقى جزاءه من عند الله. وكي تؤكد السورة هذه التسلية تسلك مرة أخرى سبيل القصص، ففي القصص عموما تسلية من حيث هو قص يشد انتباه المستمع إلى أحداثه وأبطاله ويبعده عن هموم اللحظة

الحاضرة، والقصص القرآني يتميز بخاصيتين أخريين على مستوى التسليّة، تناسبان حال الرسول عليه السلام. فمن جهة بطل القصة رسول مكلف مثله برسالة تحمل تذكرة، ومن جهة أخرى قوم يعارضون ذلك الرسول ويمنعون في عناده وإيذائه، ومن جهة ثالثة تكون النتيجة دوما تعرض الطرف الطاغوي المصّر على رفض دعوة الرسول للعقاب في الدنيا فضلا عن عقاب الآخرة.

والقصة التي وردت في هذه السورة هي قصة موسى مع فرعون. وقد سبق أن نزل قسم منها، هو نواتها، في سورة الأعراف⁽¹⁹⁾. وإذا كانت هذه السورة التي نحن ضيوف عليها تستعيد هيكل القصة من سورة الأعراف لتضيف إليها عناصر جديدة تخص تجربة موسى في طفولته وشبابه، فإنها كسابقتها الأعراف⁽²⁰⁾ تعود لتخاطب الرسول عليه السلام وتقول له: تلك هي الآيات/المعجزات التي خصصناها للأنبياء السابقين، أما أنت فقد أعطيناك القرآن فهو معجزتك، تقرأ فيه كيف فعل ربك بالأقوام الذين كذبوا رسلهم ونوع الوعيد الذي ينتظر مشركي قومك من قريش، وهو وعيد سيتحقق لا محال. لكن لا تستعجل تنفيذه، إن الله يمهلهم لحكمة: قد يسلم بعضهم، وإن لم يفعلوا فستكون الحجة عليهم أضخم وأقوى. إن قومك يتبعون أهواءهم، فهم سجناء فيها كما اتبع آدم هواه، وبما أنه أبو البشرية جمعاء ومن أجل أن لا ينقطع الجنس البشري في المهد، ويفسد نظام العالم الذي أقامه الله لخدمة الإنسان، فقد ألهمه الله التوبة. ولما تاب آدم غفر الله له، وأخير ذريته بما جرى حتى يكون لهم عبرة. لقد منحناهم فرصة التوبة ولكن إلى أجل. إلى يوم الحساب. فلا يهلك ما يقولون عنك وما يتهمونك به، ولا يهلك ما يتمتعون به في الدنيا، فذلك متاع فان. وسيحاسبون عليه، وستجزى الجزاء الأوفى، أنت والمؤمنون لك، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

19- انظر تفاصيل عن قصة موسى في القرآن: التعريف بالقرآن. قسم القصص في القرآن المكي المرحلة الثالثة: قصة موسى وفرعون.

20- انظر أعلاه: سورة الأعراف الفقرات 15-16-17.

48- سورة الواقعة

- تقديم

روي أنه لما نزلت "إذا وقعت الواقعة" وذكر فيها "ثلة من الأولين وقليل من الآخرين" قال عمر: يا رسول الله، ثلة من الأولين وقليل منا (ولم يكن عمر قد أسلم مع الأولين فقد أسلم في السنة الخامسة للنبوّة. فأمسك آخر السورة سنة، ثم نزلت "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين" فقال رسول الله (ص) : يا عمر تعال فاسمع ما قد أنزل الله "ثلة من الأولين وثلة من الآخرين". وهذه الرواية إن صحت تدل على أن هذه السورة نزلت حوالي السنة السادسة للنبوّة أو بعدها، وهذا ينسجم مع ما ذكرناه عن سورة طه وأنها نزلت حوالي السنة الخامسة والنصف عند الهجرة الأولى إلى الحبشة، أي قبل هذه بمدة قصيرة مما يزكي ترتيبهما متتابعتين أو متقاربتين. كما روي أنهم كانوا يعجبون بوادي وَجَّ وظلاله وطلحه وسدره، فأنزل الله "وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود".

نص السورة

1- مقدمة: الناس عند قيام القيامة ثلاثة أصناف:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ¹ (قامت القيامة) لَيْسَ لَوْفَعِهَا كَاذِبَةٌ² (لن يكذب وقوعها أحد) . خَافِضَةٌ (بعض الناس إلى النار) رَافِعَةٌ³ (آخرين إلى الجنة)⁽¹⁾.
إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا⁴ (اهتزت بقوة) وَيُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا⁵ (وفتت تقطبتا) فَكَانَتْ
هَبَاءً مُنْبَثًا⁶، وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا (أصنافا) ثَلَاثَةٌ⁷ : فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، مَا أَصْحَابُ

1- يُحدد موقع جهنم في "أسفل سافلين" (الأرض السفلى) وموقع الجنة في "أعلى عليين" فوق السماوات تحت العرش.

الْمُتِمَّةَ⁸؟ (هم الذين يأتون وسجلات أعمالهم يمينهم فيذهبون إلى الجنة) !
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ، مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ⁹؟ (عكسهم إلى النار)، وَالسَّابِقُونَ،
السَّابِقُونَ¹⁰؟ (هم السابقون إلى الإيمان والعمل الصالح)⁽²⁾، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ¹¹
(إلى الله بقلوبهم وانشغاله به)، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ¹².

2- نعيم الجنة : السابقون المقربون، وأصحاب اليمين.

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى¹³ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ¹⁴ (3) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ¹⁵
(منسوجة بالذهب)، مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ¹⁶. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ¹⁷
(يهرمون ولا يموتون)، بأكواب وأباريق وكأس من معين¹⁸ (من خمر جارية)، لَا
يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ¹⁹ (لا يصيبهم الصداق من شربها ولا يسكرون)،
وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ²⁰، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ²¹، وَحُورٌ عِينٌ²² (جوار كبير
بياض أعينها) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ²³: جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ²⁴. لَا يَسْمَعُونَ
فِيهَا (الجنة) لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا²⁵ (كلاماً فاحشاً ولا ما يوجب التأثيم) إِلَّا قِيلًا (قولاً)
سَلَامًا سَلَامًا²⁶. وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ²⁷ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ²⁸
(مقطوع شوكة) وَطَلْحٍ مَنضُودٍ²⁹ (شجر الموز مصفوف متراصق) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ³⁰
وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ³¹ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ³²، لَا مَقْطُوعَةٍ (بل هي موجودة باستمرار) وَلَا
مَمْنُوعَةٍ³³ (غالية) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ³⁴. إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً³⁵ (الصور العينية:
خلقناهن من دون ولادة) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا³⁶ (عذارى)، عُرْبًا أَتْرَابًا³⁷ لأصحاب
اليمين³⁸ (عاشقات لهم متساويات في السن). ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى³⁹ وَثَلَاثَةٌ مِنَ
الْآخِرِينَ⁴⁰ (جماعتان متساويتان: جواب على احتجاج عمر . انظر التعليق).

3- أصحاب الشمال : في سموم وحميم ... كانوا ينكرون البعث.

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ⁴¹؟ : (هم الذين يعاتون) فِي سَمُومٍ
وَحَمِيمٍ⁴² (ريح حارة ودخان)، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ⁴³، (دخان شديد السواد) لَا بَارِدٍ

2- هنا شبه تواز مع آية سورة فاطر رقم 32: "فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ
سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ".

3- اختلف المفسرون في معنى الآية: بعضهم يجعل "ثلة من الأولين" بمعنى كثير من
المسلمين الأولين السابقين إلى الإسلام وهم فقراء في الغالب، و"قليل من الآخرين" (الذين
أسلموا بعدهم)، وهذا المعنى يتفق مع ما روي عن عمر في الموضوع (انظر التقديم). وهو
الأقرب إلى السياق.

وَلَا كَرِيمٌ⁴⁴. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ⁴⁵، وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ⁴⁶ (وهو الشرك)، وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ⁴⁷ أَوْ بَاوُنَا الْوُلُوكُونَ⁴⁸؟ قُلْ إِنْ الْوُلُوكِينَ وَالْآخِرِينَ⁴⁹ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ⁵⁰. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ⁵¹ لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ⁵². فَمَالَنُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ⁵³، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ⁵⁴، فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ⁵⁵ (شرب الإبل). هَذَا نَزْلُكُمْ (مَا أَعَدَّ لَهُمْ) يَوْمَ الدِّينِ⁵⁶ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا (هَلَا) تَصَدَّقُونَ⁵⁷. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ⁵⁸ (تصبون في الأرحام من مني) ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ⁵⁹؟ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ، وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ⁶⁰ (في الخلق، وقادرون) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ⁶¹ (من الهيئات والأشكال). وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا (هَلَا) تَذْكُرُونَ⁶² (تقرون أن الله خلقكم! فلماذا لا تقرون أنه قادر على إعادة خلقكم)؟ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ⁶³؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ⁶⁴؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ⁶⁵ (تتدمون وتستغربون ما حدث بكم ولقنتم): (وتقولون) إِنَّا لَمُعْرَمُونَ⁶⁶ (صار ما أنفقناه على الحرب غرما علينا)، بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ⁶⁷ (أصبحنا محرومين من رزقنا): أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ⁶⁸. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ (السحاب) أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ⁶⁹؟ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا (ملحا) فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ⁷⁰؟ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ⁷¹ (تسعلون)؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا (التي تحترق) أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ⁷²؟ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً (تذكر بنار جهنم) وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ⁷³ (للمسافرين). فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ⁷⁴.

4- قرآن كريم في كتاب مكنون، أفبهذا تكذبون؟ ...

فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ⁷⁵، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ⁷⁶! إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ⁷⁷ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ⁷⁸ (في اللوح المحفوظ) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ⁷⁹ (الملائكة)، نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁸⁰. أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ⁸¹ (مكذبون)، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ (المطر الذي ينزله الله) أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ⁸² (فلا تقولون إنه من الله، بل تقولون سقينا من نوء كذا)⁽⁴⁾، فَلَوْلَا (هَلَا) إِذَا بَلَغَتِ (الروح) الْحُلُقُومَ⁸³ وَأَنْتُمْ

4- كانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الأنواء وهي الساقط من النجوم جهة المغرب أو جهة المشرق، فيقولون سقينا بنوء كذا...

(أيها المشركون) حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ⁸⁴ (إليه) وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ⁸⁵ (لا تروننا)! قُلُوبًا (هلا) إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ⁸⁶ (أي أحراراً تتصرفون كما تريدون لا حدود لقدركم) تَرْجِعُونَهَا (الروح) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁸⁷ (هلا تردون الروح إلى الميت؟ لا! ليس في مقدوركم ذلك. أما مصيره بعد أن تقبض روحه فواحد من ثلاثة).

5- خاتمة : جزاء الأصناف الثلاثة

فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ⁸⁸ (السابقين المذكورين قبل) فَرَوْحٌ (راحة) وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ⁸⁹، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ⁹⁰ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ⁹¹ (فهو في السلامة مثلهم، وقد سبق وصف حالهم)، وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ⁹² فَنُزُلٌ (فسيستقبل بشراب) مِنْ حَمِيمٍ⁹³ (من جهنم)، وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٌ⁹⁴ (ويلقى به فيها). إِنْ هَذَا (الذي ذكرنا) لَهُوَ حَقٌّ الْيَقِينِ⁹⁵ (اليقين الحق)، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ⁹⁶ (أنزه ربك من الظلم، لقد أعطى لكل ما يستحق).

- تعليق

تناولت السورة موضوع المعاد، وتحدثت عن أصناف المصير يوم القيامة فجعلتها ثلاثة : نعيم السابقين المقربين إلى الله بقلوبهم وأعمالهم يتجنبون الكبائر والصغائر، ومصير أصحاب اليمين الذين زادت حسناتهم على سيئاتهم، ووجهتهم الجنة، ومصير المكذبين الضالين ووجهتهم جهنم. لقد تحدثنا في الاستطراد، الذي ختمنا به المرحلة الثانية من مسار التنزيل في مكة، عن خطاب الجنة والنار في القرآن المكي بوصفه سلاح الدعوة المحمدية ضد قريش بما فيه من وعيد وتخويف من جهة، وما يقوم به، من جهة أخرى، من تسليية المسلمين وتثبيتهم وترغيبهم في العمل الصالح، بما يتضمنه من وعود تنسيهم حالة الضغط والحرمان التي كانوا موضوعاً لها. وقلنا إن هذا الأسلوب الذي يجمع بين الترغيب والتخويف يوضحه القرآن في غير ما آية، مثل قوله تعالى: "وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (الأعراف 56)".

وغني عن البيان القول إن من حق هذه السورة أن ترتب مع سور المرحلة الثانية التي ركزت سورها على موضوع المعاد، وليس ضمن سور المرحلة الثالثة التي تتحرك فيها والتي يقع التركيز فيها على إبطال الشرك وتسفيه عقول عبدة

الأصنام. ولكن بما أننا لم نجد سندا في المرويات يسمح بتغيير ترتيبها فضلنا تركها في رتبها ضمن السور التي تركز على إبطال الشرك وإقرار التوحيد. وقد رأينا أن في السورة ما يبرر موقعها ضمن هذه المرحلة، ذلك أنه يخيل إلينا أن القصد الأول في السورة ليس تأكيد البعث والحديث عن الجنة والنار، وإنما هو بيان درجات أصحاب الجنة بالتمييز بين السابقين الأولين الذين قضوا السنين الماضية على بدء الدعوة، وقد بلغت زمن نزول هذه السورة ست سنوات أو يزيد قضاؤها في الاضطهاد والتعذيب ومنهم من اضطر إلى الهجرة إلى الحبشة... أقول التمييز بين هؤلاء وبين الذين أسلموا حين بدأ الإسلام ينتشر ويتقوى خصوصا بعد إسلام شخصيات مثل حمزة وعمر، اللذين كان إسلامهما نقطة تحول في مسار الدعوة . وكما تسأل عمر قائلا: "يا رسول الله، ثلثة من الأولين وقليل منا"، كما رأينا في التقديم، فلا يستبعد أن يكون أحد المسلمين الأولين قد تسأل قبل نزول السورة طارحا القضية في اتجاه آخر : قضية السبق في الإسلام، خصوصا ومن بين الذين أخذوا يلتحقون بالإسلام رجال شاركوا قبل إسلامهم في إيذاء المسلمين السابقين؟ وقد رأينا عمر يهجم على أفراد من أسرته لأنهم أسلموا (تقديم السورة السابقة). نستنتج من ذلك أن ترتيب هذه السورة قد تحكم فيه الجو الذي حدث في أوساط المسلمين عند إسلام عمر بن الخطاب.

49- سورة الشعراء

- تقديم

لعل أهم ما ورد في شأن هذه السورة أمران: أولهما يتعلق بقوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "وأنذر عشيرتك الأقربين"، وقد وردت في هذا الشأن روايات لعل أهمها ما يلي: فعن عائشة: قالت: لما نزلت هذه الآية: وأنذر عشيرتك الأقربين قال رسول الله (ص): "يا صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يا فاطمةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ". وقيل لما نزلت هذه الآية: خاطب عليه السلام قريشا فقال: "يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ، لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يا فاطمةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، سَلِينِي مَا شِئْتِ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا". وفي رواية أخرى: أنه عليه السلام "علا صخرة من جبل، فعلا أعلاها حجرا، ثم قال: يا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ، يا صَبَاحَاهُ، إِنِّي نَذِيرٌ، إِن مِثْلِي وَمِثْلُكُمْ مِثْلُ رَجُلٍ أَتَى الْجَيْشَ، فَخَشِيَهُمْ عَلَى أَهْلِهِ، فَذَهَبَ يَرْتَبُوهُمْ، فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِهِمْ: يا صَبَاحَاهُ". وفي أخرى: "صعد النبي (ص) على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال (النبي): "أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي". قالوا: نعم، ما جرينا عليك إلا صدقا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبأ لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا". قيل: "فنزلت: تبأ يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب" (انظر التعليق). وهناك من يأخذ هذه الروايات على أنها تتحدث عن اجتماعات متعددة بين النبي (ص) ورجال من عشيرته الأقربين، وليس عن اجتماع واحد. ومما يذكر في هذا الشأن أنه: "لما نزلت: وأنذر عشيرتك الأقربين"، بدأ بأهل بيته وفصيلته، فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله: "وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ".

والشيء الثاني يتعلق بقوله تعالى في هذه السورة: "والشعراء يتبعهم الغاؤون". قيل: "كان شعراء بمكة يهجون النبي (ص) منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب ونحوهما، وهم المراد بآيات "الشعراء".

- نص السورة

1- مقدمة: عن قريش وإصرارها على التكذيب

بسم الله الرحمن الرحيم
 طسم¹ تلك آيات الكتاب المبين². لعلك باخع نفسك (مهلكها غما) ألا يكونوا (قريش) مؤمنين³. إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية (حجارة أو ظلاما أو...) فظلت (تظل) أعناقهم لها خاضعين⁴. وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (متجدد، متكرر) إلا كانوا عنه معرضين⁵. فقد كذبوا، فسبأتهم أنباء ما كانوا به يستهزون⁶ (البعث والمصير). أوكم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم⁷، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين⁸، وإن ربك لهو العزيز الرحيم⁹.

2- ومن الأنبياء التي جاءتهم متكررة نبأ موسى وفرعون:

أ- فرعون يجادل موسى حول "رب العالمين".

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ¹⁰، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ¹¹؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي¹²، وَيَضْحِكُوا صَدْرِي وَلَئِنْ تَنْطَلِقَ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ¹³ (ليذهب معي)، وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ (كان قد قتل قبطيا) فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي¹⁴. قَالَ كَلَّا، فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمْعُونَ¹⁵، فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁶، (يقول لك) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ¹⁷؟ قَالَ (فرعون) أَلَمْ نَرْبِكُمْ فِينَا وَلَكِيدًا وَلَكِثَّتْ فِينَا مِنْ عَمَرِكُمْ سِنِينَ¹⁸، وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ (قتلك قبطيا) وَأَنْتِ مِنَ الْكَافِرِينَ¹⁹. قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا (ضربت الرجل)، وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ²⁰ (لم أكن أعلم أن ضربي إياه سيؤدي إلى قتله). فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ، فَوَهَبَ

1- موسى وهارون وفرعون.

لِي رَبِّي حُكْمًا (علما) وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ²¹. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّثْتُ
(استعبدت) بَنِي إِسْرَائِيلَ²²؟ قَالَ فِرْعَوْنُ، وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ²³ (الذي بعثك إلي)؟
قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ²⁴. قَالَ (فرعون) لَمَنْ
حَوْلُهُ: أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟²⁵ قَالَ (موسى) : رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ²⁶. قَالَ (فرعون
لحاشيته) : إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ²⁷! قَالَ (موسى) : رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ²⁸. قَالَ (فرعون) لَنْنَأْخُذَ بِهَا غَيْرِي
لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ²⁹. قَالَ (موسى) : أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ³⁰؟ قَالَ
(فرعون) فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ³¹.

ب- موسى يلقي عصاه وينتصر على السحرة.

فَأَلْقَى (موسى) عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ³² (عظيم)، وَنَزَعَ يَدَهُ (من
جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ³³. قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ³⁴، يُرِيدُ
أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟³⁵ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ (أخز
أمرهما) وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ³⁶ (يجمعون السحرة)، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ
عَلِيمٍ³⁷. فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ³⁸. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ³⁹؟
(تعالوا اجتماعوا) لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ⁴⁰. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ⁴¹؟ قَالَ نَعَمْ، وَإِنَّمَا إِذَا لَمِنَ
الْمُفْرِيِّينَ⁴². قَالَ لَهُمْ مُوسَى : أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ⁴³، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ
وَقَالُوا : بَعْزَةُ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ⁴⁴. فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ⁴⁵ (يموهون)، فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ⁴⁶؟ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ⁴⁷، رَبِّ
مُوسَى وَهَارُونَ⁴⁸. قَالَ (فرعون لهم) آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ؟ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي
عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ (تواطأتم معه)، فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ: لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ⁴⁹. قَالُوا لَا ضَيْرَ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ⁵⁰. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ
يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ⁵¹.

ج- خروج موسى وبني إسرائيل وغرق فرعون

وَأَوْخَيْتُنَا إِلَى مُوسَى (بعد أن قضى سنين يدعو فرعون وقومه ولم
يستجيبوا) أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي (بني إسرائيل)، إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ⁵² (يتبعكم فرعون وقومه
لردكم). فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ⁵³ (جامعين له الجيوش وقال لهم) إِنْ
هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ⁵⁴. (أي بنو إسرائيل عددهم قليل)، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ⁵⁵

(مقلقون)، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ⁵⁶ (محتاطون). فَأَخْرَجْنَاهُمْ (أخرج الله فرعون وجيوشه) مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ⁵⁷، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ⁵⁸ (اليتبعوا بني إسرائيل). كَذَلِكَ (كان)، وَأَوْرَثْنَاهَا (بهلاكهم) بَنِي إِسْرَآئِيلَ⁵⁹. فَاتَّبَعُوهُمْ (لحقوا بهم) مُشْرِقِينَ⁶⁰ (وقت شروق الشمس)، فَلَمَّا تَرَاوَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ⁶¹ (من طرف فرعون وجنده)، قَالَ (موسى) كُلُّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِي⁶². فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ (انشق) فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ (الجبل) الْعَظِيمِ⁶³. وَأَزَلَّوْنَا (قربنا) ثَمَ الْآخَرِينَ⁶⁴ (فرعون وقومه)، وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ⁶⁵، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ⁶⁶ (2)، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ⁶⁷، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ⁶⁸.

2- ... وأنبياء صراع إبراهيم مع قومه حول الأصنام ...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ⁶⁹، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ⁷⁰، قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ⁷¹. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ⁷²، أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ⁷³. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ⁷⁴. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ⁷⁵ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ⁷⁶؟ فَإِنَّهُمْ (الأصنام) عَدُوٌّ لِي (ولا أعبد) إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ⁷⁷، الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي⁷⁸، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي⁷⁹، وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي⁸⁰، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي⁸¹، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ⁸². رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا (علما) وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ⁸³، وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخَرِينَ⁸⁴، وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ⁸⁵، وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ⁸⁶، وَلَوْ تَخَزَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ⁸⁷، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ⁸⁸، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ⁸⁹. وَأَزَلَّوْنَا (قربنا) الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ⁹⁰، وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ⁹¹، وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ⁹²، مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكَ أَوْ يَنْتَصِرُونَ⁹³، فَكَبَّوْا (ألقي بهم) فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ⁹⁴، وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ⁹⁵. قَالُوا (آلهة المشركين) وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ⁹⁶، تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁹⁷، إِذْ نَسَوْنَاكَ (الخطاب إلى ما كانوا يعبدون) رَبَّ الْعَالَمِينَ⁹⁸، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ⁹⁹ (الشياطين)، فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ¹⁰⁰، وَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً (رجعة

2- فرعون لم يفرق كما ورد في سورة أخرى.

أُخْرَى) فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ¹⁰². إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹⁰³، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹⁰⁴.

3- ... وأنباء نوح مع قومه ... والطوفان.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ¹⁰⁵، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ¹⁰⁶، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹⁰⁷، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا¹⁰⁸، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁰⁹(3)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا¹¹⁰. قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ¹¹¹ (الفقراء والضعفاء)، قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ¹¹²، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ¹¹³. وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ¹¹⁴، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ¹¹⁵(4). قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِمَا نَبْنِيهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ¹¹⁶. قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِي¹¹⁷، فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا (احكم بيننا) وَتَجَنَّبْ مِنِّي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ¹¹⁸، فَافْتَحْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ¹¹⁹ (الممتلئ)، ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ¹²⁰. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹²¹، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹²².

4- ... وأنباء عاد ومصرهم ...

كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ¹²³، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ¹²⁴، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹²⁵، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا¹²⁶، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹²⁷. أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ (مكان مرتفع) آيَةً (بناءً) تَعْبَثُونَ¹²⁸ (تسرفون)، وَتَتَّخِذُونَ مَصَاتِعَ (خزانات للماء) لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ¹²⁹، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ¹³⁰، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا¹³¹. وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ¹³²، أَمَدَّكُمْ بِالْأَعْنَامِ وَبَتِينَ¹³³، وَجَبَّاتٍ وَعَيُْونِ¹³⁴، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ¹³⁵. قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ¹³⁶، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ

3- ربما كانوا يعرضون عليه المال والجاه إن هو كف عن أصنامهم، كما فعلت قريش مع النبي عليه السلام.

4- كذلك قالت قريش للنبي (ص) فجاءهم الجواب من القرآن: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ" (الأنعام 52)

الْأُولَئِينَ¹³⁷، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ¹³⁸. فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹³⁹، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹⁴⁰.

5- ... ثمود ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ¹⁴¹، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ¹⁴²، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹⁴³، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ¹⁴⁴، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁴⁵، أَتُزَكُّونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِينَ¹⁴⁶، فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ¹⁴⁷، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ¹⁴⁸ (عذب)، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ¹⁴⁹ (مترفين)، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ¹⁵⁰، وَلَئِنْ تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ¹⁵¹، الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَئِنْ يَصْحَبُوكُمْ¹⁵². قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ¹⁵³، مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ¹⁵⁴، قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ¹⁵⁵ وَلَئِنْ تَمَسَّوْهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ¹⁵⁶، فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ¹⁵⁷. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹⁵⁸، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹⁵⁹.

6- ... وأنبياء قوم لوط ومصيرهم ...

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ¹⁶⁰، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ¹⁶¹، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹⁶²، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ¹⁶³، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁶⁴. أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ¹⁶⁵، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلِ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ¹⁶⁶. قَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ وَنِسَاءُنَا بِمِثْلِ نِسَاءِ ذِي الْحِزْنِ¹⁶⁷، قَالَ إِنِّي لَعَلَّكُمْ مِنَ الْغَالِينَ¹⁶⁸ (المبغضين)، رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ¹⁶⁹، فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ¹⁷⁰، إِلَّا عَجُوزًا (امرأته) فِي الْغَابِرِينَ¹⁷¹ (أهْلَكْنَاهَا)، ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ¹⁷²، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ¹⁷³، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹⁷⁴، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹⁷⁵.

7- ... وأنبياء قوم شعيب ومصيرهم ...

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْآيَةِ الْمُرْسَلِينَ¹⁷⁶، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ¹⁷⁷، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ¹⁷⁸، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا نِيَّ¹⁷⁹، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ

إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁸⁰. أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ¹⁸¹، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ¹⁸²، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَغَوَّا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ¹⁸³، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ (وَالْخَلِيقَةَ) الْأَوَّلِينَ¹⁸⁴. قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ¹⁸⁵، وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ¹⁸⁶، فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا (أَجْسَامًا) مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ¹⁸⁷. قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ¹⁸⁸، فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ (الحريق)، إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ¹⁸⁹. إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ¹⁹⁰، وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ¹⁹¹.

8- خاتمة: تأكيد النبوة، وأندر عشيرتك الأقربين

وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁹²، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ¹⁹³، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ¹⁹⁴، بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ¹⁹⁵، وَإِنَّهُ (الذكر القرآني) لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ¹⁹⁶ (كالتوراة والإنجيل). أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ (لمشركي مكة) آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ¹⁹⁷ (يعرفون مجيء محمد النبي الأمي) ؟ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ¹⁹⁸، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ¹⁹⁹. كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ (جعلنا القرآن) فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ²⁰⁰: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ²⁰¹، فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ²⁰²، فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ²⁰³ (ممهلون حتى نؤمن)؟ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ²⁰⁴ (ألم يكونوا يستعجلونه)؟ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ²⁰⁵ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ²⁰⁶، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ²⁰⁷؟ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ²⁰⁸، ذَكَرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ²⁰⁹. وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ (بِالقرآن) الشَّيَاطِينُ²¹⁰، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ²¹¹! إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُولُونَ²¹²، فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ²¹³. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ²¹⁴، وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ (أَلَنْ مَعَامَلَتِكَ) لِمَنْ اتَّبَعَكَ (أَي لِمَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْهُمْ وَصَارُوا) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ²¹⁵، فَإِنْ عَصَوْكَ (أَي أَهْلَكَ وَعَشِيرَتَكَ) فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ²¹⁶ (5). وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ²¹⁷، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ²¹⁸ (للصلاة)،

5- في هذا الآيات ما يثير التباسا في الفهم. وقد حدث ذلك لبعض المفسرين. وممكن الالتباس موضعان: أولهما عبارة: "لمن اتبعك من المؤمنين"، والمفروض أن المؤمنين جميعا يتبعونه فلماذا استعمال "من" هنا وهي تفيد "البعض"؟ وثانيهما عبارة "فإن عصوك"! =

وَتَقَلَّبَكَ (تحريك قائما راکعاً...) فِي السَّاجِدِينَ²¹⁹ (المصلين)، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ²²⁰. هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ²²¹، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ²²² (الكهنة والمنجمين والذين يهجون النبي من الشعراء)، (الشياطين) يَلْقَوْنَ السَّمْعَ (أي ما سمعوه إلى الكهنة) وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ²²³. وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ²²⁴، أَلَمْ تَرَىٰ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ²²⁵، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ²²⁶، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِّن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا⁽⁶⁾. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ²²⁷.

تعليق

تكتسي هذه السورة أهمية خاصة لورود آية "وأُنذِر عشيرتك الأقربين" الشيء الذي يشير، على صعيد مسار الدعوة، إلى ابتداء لحظة جديدة، هي الانتقال من دعوة الأفراد سرا وجهرا إلى دعوة الجماعة. والجماعة التي أمر النبي بالبدء بها هي "عشيرته الأقربين". وقد رأينا في التقديم تفصيل ذلك. وقد قدر بعض الرواة أن عدد الذين حضروا ليستمعوا إليه بلغ أربعين شخصا، والغالب أنهم جميعا قد سمعوا بنبوة الرسول عليه السلام وكان فيهم المؤمنون وغير المؤمنين. وقد حدد بعضهم تاريخ هذه الاجتماع في السنة الرابعة أو الخامسة. وهذا تقدير فيه نظر! لأن إسلام حمزة وعمر والهجرة الأولى إلى الحبشة، وهي أحداث وقعت في النصف الثاني من السنة الخامسة، كان قد مر عليها وقت. وإذن فلعل الأقرب إلى الصواب أن يقال إن ذلك حدث في السنة السادسة ونيف.

وهنا لا بد من التذكير بأن المفسرين والرواة يقدرون الأمور حسب ترتيب المصحف ولذلك نجدهم يربطون بين رد فعل أبي لهب بعد الاستماع إلى خطاب النبي (ص) في الأقربين من عشيرته، وهو قوله "تبا لك، ألهذا جمعتنا" (يا محمد)، أقول يربطون ذلك بـ "نزول" سورة "المسد" التي ذكروها في موقع الجواب منه عليه

فعلى من يعود الضمير؟ وسبب الالتباس هو عدم الارتباط بالسياق ككل من قوله : "وأُنذِر عشيرتك". وقد انتبه الزمخشري إلى المعنى الكلي الذي يعطيه السياق فقال في معنى الآيات المذكورة: "أُنذِر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره".

6- كان في مكة شعراء يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يردون عليهم وهم المستثنون في الآية.

السلام على أبي لهب. وسورة المسد من أوائل السور (رقم 6 في لوائح ترتيب النزول. انظر تعليقنا بصدها: سورة المسد رقم 3). ويكفي أن يقارن المرء بين ترتيب النزول وترتيب المصحف ليلاحظ الفرق الزمني بين سورة المسد وسورة الشعراء وسورة الحجر التي ورد فيه قوله تعالى "اصدع بما تؤمر"، وهذه الآية تذكر في كتب التفسير والسيرة قبل "أنذر عشيرتك الأقربين"، مع أنها نزلت بعدها. ذلك أن ترتيب هذه السور الثلاث في المصحف هو كما يلي: سورة الحجر رقم 15 وسورة الشعراء رقم 26 وسورة المسد، 111. أما في ترتيب النزول فالسور المذكورة مرتبة كما يلي: المسد 6 الشعراء 47 الحجر 54 فالترتيبان معكوسان. والنظرة تختلف عند اعتماد أحدهما مكان الآخر. فسورة الشعراء تقع قبل سورة الحجر في ترتيب النزول وبالتالي فـ"أنذر عشيرتك الأقربين" نزلت قبل "اصدع بما تؤمر" أما سورة المسد فهي سابقة لهما بمسافة طويلة.

بقي أن نشير إلى العلاقة بين مقدمة السورة التي ورد فيها قوله تعالى: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"³، وبين خاتمتها التي وردت فيها الآية التي نحن بصدد: "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ". وقد سبق أن نبهنا إلى أهمية الانتباه إلى العلاقة بين المقدمة والخاتمة في السور.

فالمقدمة تطرح الموضوع الذي سيدور عليه الخطاب في السورة، ليأتي بعدها ما هو بمثابة التحليل لذلك الموضوع، ثم تأتي الخاتمة بالنتيجة من التحليل. وبناء عليه يمكن القول إن النبي كان حين نزول السورة في حالة نفسية قلقة بسبب إعراض قريش عن الاستجابة وإصرار خصوم الدعوة الكبار، أمثال أبي جهل وأبي لهب الخ، على محاربتها بكل الوسائل، فجاءت هذه السورة لتنبيه النبي أولاً إلى أنه يجب أن لا يقلق ولا "يحمل الهم القاتل"، وأن عليه أن يتأسى بتجارب الأنبياء السابقين، التجارب التي عرضتها هذه السورة بشكل مركز، مكررة ما ورد سابقاً من قصص الأنبياء، في فقرات مستقلة تنتهي كل منها بقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ". (عزيز قوي شديد على المكذبين، رحيم بالمؤمنين). وواضح أن استعادة مجمل القصص التي سبقت حكايتها إنما المقصود منه التخفيف من قلق الرسول لكون قومه لم يستجيبوا للدعوة، كما ورد ذلك في مقدمة السورة: "لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ"³.

وتأتي خاتمة السورة لترتبط بمقدمتها من جديد ولتؤكد للنبي أن القرآن الذي يُعرضون عنه وينكرون أن يكون من عند الله هو فعلاً تنزيل من "رب العالمين، نزل به الروح الأمين" (جبريل). والدليل على ذلك أن معانيه وقصصه وتعاليمه هي نفسها

التي جاءت بها الكتب السماوية السابقة، وبإمكان قريش أن تتأكد من ذلك لدى علماء بني إسرائيل فهم يجدون في التوراة ما في القرآن كما أن فيها إخبار بمجيء محمد النبي الأمي قبل ظهوره. والفرق بين الكتب السماوية وبين القرآن هو أنه لم يلحقه تغيير وقد نزل "بلسان عربي مبين" ليفهمه العرب، ولو جاءهم بلسان أعجمي لما فهموه... يلي ذلك تهديد ووعد لمشركي قريش، ثم دعوة النبي أن "أنذر عشيرتكَ الأقربين". يلي ذلك بيان أن القرآن ليس من إحياء الشياطين ولا هو بتخرصات المنجمين والكهان.

وهكذا تختتم بثلاثة أمور : الأول دعوة الرسول إلى الثبات على موقفه: "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ"²¹³. والثاني دعوته أن "أَنْذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ"²¹⁴. والثالث التأكيد له بأن الله يراه ويراه، وأن لا يهتم بهجاء الشعراء المشركين له ولا بمن يرددون شعرهم : "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ"²²⁴، أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ"²²⁵، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ"²²⁶، إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا (للنبي والقرآن) مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا"⁽⁷⁾. وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ"²²⁷.

وهذا نرى أن السورة كلها تدور حول ما بدأت به : "لَعَلَّكَ (يا ممد) بَاخِعٌ نَفْسَكَ (مهلكها غما) أَلَّا يَكُونُوا (قريش) مُؤْمِنِينَ". هدفها تبديد ذلك الهم وتسليته حاملة وتنشيط فؤاده وتقوية عزيمته.

بقي علينا أن نشير إلى الطابع الخاص ب"بنية" هذه السورة، ولعل الزمخشري هو الوحيد بين المفسرين الذي لاحظته وأبرزه. قال: "كل قصة من القصص المذكورة في هذه السورة كتنزيل برأسه. وفيها من الاعتبار ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تختتم بما اختتمت به صاحبته. ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأبعد من النسيان. ولأن هذه القصص طرقت بها آذان ووقرت عن الإلصاق للحق، فكوثررت بالوعظ والتذكير وروجت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتح ذهنًا". وهذا الذي لاحظته الزمخشري ينطبق في الحقيقة على سبع سور متتابعة أولها هذه، وسنعود إلى هذا الموضوع في الآخرة منها.

7- كان في مكة شعراء يهجون النبي صلى الله عليه وسلم منهم النضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب وغيرهما... وكان هناك شعراء مسلمون يرددون عليهم وهم المستثنون في الآية.

48 - سورة النمل

- تقديم

لم يرد شيء يذكر عن هذه السورة سوى أنها مكية باتفاق، وأنها من السور التي تحمل أكثر من اسم واحد، إذ تسمى سورة سليمان أيضا، وأنها نزلت بين سورة الشعراء وقبل سورة القصص، كما في لوائح ترتيب النزول. ولعل غياب روايات أسباب نزول الآيات عن هذه السورة أن القسم الأعظم منها استعادة لقصص سبق أن قصها القرآن في سور سابقة (مع التوسع في قصة سليمان). أما باقي السورة فهو تقريع للمشركين. وهذه السورة تشبه في بنيتها السورة السابقة (انظر التعليق).

- نص السورة

1- مقدمة: إنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم

بسم الله الرحمن الرحيم
طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين¹، هدى وبشرى للمؤمنين²، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون³. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيناً لهم أعمالهم فهم يعمهون⁴ (يتحIRON)، أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الخاسرون⁵. وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم⁶ (فذكرهم بالقصص التالية).

2- إلى فرعون ... فانظر كيف كان عاقبة المفسدين!

إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا (رأيت) سآتیکم منها بخبر (نهدي به بعد أن ضللتنا الطريق) أو آتیکم بشهاب قیس لعلکم تصطلون⁷ (تستدفنون). فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها (أي موسى) وسبحان الله رب العالمين⁸. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم⁹. وألق عصاك! فلما رآها تهتز كأنها جان (حية) وكى مذبذبا ولم يعقب (لم يرجع). يا موسى لا تخف إني

لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ¹⁰، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ⁽¹⁾ فَلَيَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹¹. وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ. (اذْهَبْ) فِي تَسْنَعِ آيَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ¹². فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً (فاعلة مؤثرة)⁽²⁾ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ¹³. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ، ظُلْمًا وَعُلُوًّا (جحدوا بها ظالمين متكبرين بعد أن تأكدوا منها)، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ¹⁴

3- بَلْقِيسُ: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ... وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ!

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ¹⁵. وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَتَاطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ¹⁶. وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ¹⁷ (يجمعون ويساقون)، حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ⁽³⁾ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ¹⁸، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ¹⁹. وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ، فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْدَ أَمْ كَانَ (هُوَ) مِنَ الْغَائِبِينَ²⁰! لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي (إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَأْتِنِي) بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ²¹. فَمَكَثَ (الهدد زمنًا) غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ

1- قد يكون المراد هنا هو موسى: فقد ظلم بقتله القبطي ثم بدل حسنا بعد سوء، أي تاب.

2- في التوراة: أن إله موسى ضرب فرعون وقومه عشر ضربات (بعضر آيات) قبل أن يذعن فيسمح لبني إسرائيل بالخروج مع موسى إلى فلسطين. كان فرعون يتوسل بعد كل ضربة إلى موسى ليدعو ربه ليمحو الضربة، واعدة إياه بإطلاق سراح بني إسرائيل، وبمجرد ما تزول الضربة ينكت فرعون وعده فتأتي الضربة الثانية وهكذا إلى عشر ضربات هي: الأولى ضرب موسى بعصاه ماء النيل (أو البحر) فتحول إلى دم، الثانية دعا موسى ربه فسلط الله على فرعون وقومه الضفادع، وفي الثالثة سلط عليهم البعوض فغزا بيوتهم، وفي الرابعة هاجمتهم أسراب من الذباب، وفي الخامسة أهلك الله مواشيهم كلها، وفي السادسة أصيبوا بدمامل متقيحة، وفي السابعة أمطروا بعواصف من البرد، وفي الثامنة غزاهم الجراد، وفي التاسعة خيم عليهم ظلام كثيف، وفي العاشرة أهلك جميع الأبقار من مصر، أبقار البشر وأبقار الحيوان... وبعد هذه أذعن فرعون وسمح لبني إسرائيل بالخروج. (التوراة: سفر الخروج، 10/7) والقرآن أشار إلى تسعة زائدًا العصا فالمجموع عشرة.

3- يقال: بالشام.

(إسليمان): أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ (قبيلة في اليمن) بِنَبَأٍ يَقِينٍ²²: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ (هي الملكة بلقيس) وَأَوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ²³? وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ²⁴: (زين لهم الشيطان) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ (ما هو مخبئ) فِي السَّمَاوَاتِ (المطر) وَالْأَرْضِ (النبات) وَيَعْلَمُ مَا تَخْفُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ²⁵. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ²⁶. قَالَ سَتُنظرُ أَصْدَقْتُ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ²⁷! أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ²⁸ (كيف سيكون جوابهم)، (ذهب الهدد وألقى إلى بلقيس الكتاب، فقرأته وخطبت قومها) قَالَتْ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ²⁹ (ونصه): إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ³⁰، أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ³¹. قَالَتْ (الملكة بلقيس) يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي³² (إلا بمحضركم). قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٌ شَدِيدٌ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ³³. قَالَتْ: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ³⁴ (4). وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ⁽⁵⁾ فَنَظَرَهَا بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ³⁵. فَلَمَّا جَاءَ (رسول بلقيس) سُلَيْمَانَ قَالَ: أَتُمِدُونَنِي بِمَالٍ! فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ³⁶ (أنتم محتاجون إليها). ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا (لا يستطيعون مقاومتهم) وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ³⁷. قَالَ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ³⁸ (مستسلمين)? قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجَنِّ: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ³⁹. قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ (عالم من أهل الكتاب) أَنَا آتِيكَ بِهِ (بعرشها) قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفَكَ (في رمشة عين)، فَلَمَّا رَأَاهُ (رأى سليمان العرش) مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ. وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ⁴⁰. قَالَ (سليمان) نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا (أي غيروها إلى حال لا تتعرف

4- اختلف المفسرون في "وكذلك يفعلون" هل هو من قولها، "أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتدليل، وكانت ناشئة في بيت الملك، فرأت ذلك وسمعت. ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك. وقيل: هو من كلام الله إعلاماً لرسوله صلى الله عليه وسلم وأمه، وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا". وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس.

5- تريد اختياره بالهدية، إن قبلها فهو ملك وإن رفضها فهو نبي.

عليه إذا رآته) نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ⁴¹. فَلَمَّا جَاءَتْ (الملكة أروها العرش): قِيلَ (لها) أَهَكَذَا عَرْشُكَ؟ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ. (فقال سليمان) وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ⁴². وَصَدَّهَا (عن الإسلام: الإيمان بالله) مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ⁴³. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ (حوضاً من زجاج) فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً (ماء) وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا (كي لا يبطل ثوبها)، قَالَ (لها سليمان) إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ (حوض من زجاج) قَالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ⁴⁴ (6).

4- قَوْمُ ثَمُودَ: أَقْسَمُوا أَنْ يَقْتُلُوا النَّبِيَّ صَالِحَ ... فَدمر الله بيوتهم!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ (مؤمنون به ومكذبون) يَخْتَصِمُونَ⁴⁵، قَالَ (للمكذبين) يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ؟ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ⁴⁶، قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ (من المؤمنين). قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ (7) بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتِنُونَ⁴⁷.

6- ذكر بعض المفسرين الذين ينقلون عن الاسرائيليات أن الملك سليمان تزوجها اخ. أما في التوراة فقد ورد أنه "عندما بلغت أخبار سليمان "مسامع ملكة سبأ، قدمت لتلقي عليه أسئلة عسيرة، 2 فوصلت أورشليم في موكب عظيم جداً، وجمال محملة بأطباب وذهب ووجار كريمة... 4 ولما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، وشاهدت القصر الذي شيده، 5 كما يقدم على مائدته من طعام، ومجلس رجال دولته، وموقف خدامه وملابسهم... 6 قالت له: إن الأخبار التي بلغتني في أرضي عن أمورك وحكمك هي حقاً صحيحة. 7 ولم أصدقها في بادئ الأمر حتى جئت وشاهدت، فوجدت أن ما بلغني لا يجاوز نصف الحقيقة، فقد رأيت أن حكمك وصلاحك يزيدان عما سمعته من أخبارك... 10 وأهدت الملك مئة وعشرين وزنة (نحو أربعة آلاف وثلاث مئة وعشرين كيلو جراماً) من الذهب وأطباب كثيرة ووجار كريمة، فكانت التوابل التي أهدتها ملكة سبأ للملك سليمان من الوفرة بحيث لم يجلب مثلها في ما بعد". ولم يرد ما يفيد أنه تزوجها على الرغم مما ذكرت التوراة من أن "سليمان ألع بنساء غريبات كثيرات، فضلاً عن ابنة فرعون، فتزوج نساء موآبيات وعمونيّات وأدوميّات وصيدونيّات وجنّيات، 2 وكلهن من بنات الأمم التي نهى الربّ بني إسرائيل عن الزواج منهم قائلًا لهم: «لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم، لأنهم يغيّون قلوبكم وراء آلهتهم». ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن. 3 فكانت له سبع مئة زوجة، وثلاث مئة محظية، فانهرفن بقلبه عن الربّ. 4 فاستطعن في زمن شيخوخته أن يغيّين قلبه وراء آلهة أخرى" فبعد... عشتاروث آلهة الصيدونيّين، وملكوم إله العمونيّين البقيض، 6 وارتكب الشرّ في عيني الربّ، ولم يتبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود". (كتاب الملوك الأول).

7- شؤمكم عند الله: يعني هو السبب في التشاؤم والتفاؤل.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ (مدينة ثمود: الحجر) تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِّحُونَ⁴⁸، قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ (أقسموا بالله) لَنُنَبِّئَنَّ أَهْلَهُ (نقتلهم ليلًا) ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ⁴⁹. وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁵⁰ (8). فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ⁵¹. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا (بسبب ظلمهم، تعرفها قريش لأنها في طريقهم إلى الشام) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ⁵²، وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ⁵³.

5- قوم لوط: قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجْرًا

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ⁵⁴؟ أُنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ⁵⁵. فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ⁵⁶. فَانْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ⁵⁷ (قضينا أن تكون منهم)، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا (حجارة) فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ⁵⁸.

6- أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ؟... هُم قَوْمٌ مُنْحَرِفُونَ!

قُلْ (يا محمد) الْحَمْدُ لِلَّهِ (على هلاك كفر الأمم الماضية) وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى. أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمْ (أَمْ) مَا يُشْرِكُونَ⁵⁹، أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا! أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ (هل من إله آخر أعان الله على ذلك)، بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ⁶⁰ (عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام)؟ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (هادئة) وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ (جبالا) وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ (النيل العذب والبحر الأحمر المالح) حَاجِزًا (حجز كلا منهما فلا يدخل في مجرى الآخر)؟ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁶¹، أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ؟ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ؟ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ⁶². أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ⁶³. أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَلَلَهُ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁶⁴. قُلْ لَا يَظُنُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ. وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ⁶⁵. بَلْ أَدَارِكْ (هل أدرك) عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ⁶⁶.

7- لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا، أَنَّا لَمُخْرَجُونَ⁶⁷؟ لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاءُنَا مِنْ قَبْلُ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ⁶⁸! قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ⁶⁹. وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ⁷⁰. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁷¹، قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ (قريب منكم) بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ⁷². وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ⁷³، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْتَنُونَ⁷⁴، وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ⁷⁵. (ومن الأمور الغائبة عن الناس أخبار الماضي مثل اختلاف بني إسرائيل): إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ⁷⁶ (9)، وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ⁷⁷. إِنْ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُ: (يوم القيامة) بِحُكْمِهِ (علمه وعدله) وَهُوَ الْغَزِيرُ الْعَلِيمُ⁷⁸. فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ⁷⁹. إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُذْبِرِينَ⁸⁰ (خصوصا إذا ابتعدوا). وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ! إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ⁸¹. وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ⁸² (10).

9 - وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء تخص دينهم.

10- ذهب المفسرون في شرح هذه الآية مذهبا لا يتسق مع أسلوب القرآن في الدعوة والإقناع، والذي جرهم إلى ذلك ما انتقل إليهم من الموروث القديم وأساطير الأولين حول ما نسج حول "دابة" يقال إنها هي التي يبدئ بها قيام الساعة. ومثل هذا التفكير لا يتسق مع منهج القرآن. ونحن نرى أن الرجوع إلى السياق يغني عن جميع تلك الخزعبلات. فلقد وصف قریش بالصمم والعمى: "إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ" فهم كالبدواب، ففي هذا الإطار يجب فهم الآية أعلاه: "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ"، والمعنى: هم لا يسمعون كلام العقل فهم دواب، من أجل ذلك قررنا أنه يوم تقوم القيام وينادون للحساب نبعث دابة تكلمهم، وتخبرهم أن الناس الناجين يوم القيامة كانوا في الدنيا يوقنون بآيات الله. هم دواب فلا يفهمون إلا كلام الدواب. وهذا على سبيل السخرية.

8- قِيَامُ السَّاعَةِ وَجَهَنَّمُ لِلْمُشْرِكِينَ: هَلْ تَحْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ⁸³
 (يجمعون برِدٍّ آخرهم إلى أولهم ثم يساقون)، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ (لهم الله) أَكْذَبْتُمْ
 بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا؟ أَمْ أَذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁸⁴؟ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا
 ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ⁸⁵. أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا!
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ⁸⁶. وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ⁸⁷ (صَاغِرِينَ).
 وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ : صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ
 شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ⁸⁸. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ
 يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ⁸⁹، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تَحْزُونَ إِلَّا مَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ⁹⁰.

9- خاتمة: فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ.

إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي⁽¹¹⁾ حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ،
 وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ⁹¹، وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ . فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي
 لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ⁹²، وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
 فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁹³.

- تعليل

تنطلق هذه السورة كسابقتها من الإشارة إلى آيات القرآن "تِلْكَ آيَاتُ
 الْقُرْآنِ وَكِتَابٌ مُبِينٌ"، والمقصود العلامات والحجج والمعجزات التي خص الله
 بها أنبياءه وقص أخبارها في هذه السورة. ثم تخاطب السورة الرسول عليه
 السلام لتؤكد له أن أخبار هذه الآيات تأتيه من الله بواسطة جبريل: "وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ
 الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ"، وليس من الشياطين كما يدعي الكهان والقصاص
 أنهم يتلقون منها أكاذيبهم.

11- قرئ: "التي" أي مكة التي عظم الله حرمتها؛ أي جعلها حرما آمنا؛ لا يسفك فيها دم، ولا يظلم فيها أحد، ولا يصاد فيها صيد، ولا يعضد فيها شجر.

بعد ذلك تأخذ السورة عرض هذه الآيات فتذكر بتكليم الله موسى وتكليفه بفك أسار بني إسرائيل من عسف فرعون والخروج بهم من مصر... ومن قصة موسى تنتقل إلى سليمان وقصته مع الملكة بلقيس ملكة اليمن وما تحمله تلك القصة، التي يقصها القرآن لأول مرة، من دروس وعبر... ثم تعود إلى قصة صالح مع قومه ثمود فتضيف عناصر جديدة بالنسبة لما ورد عنها في السورة السابقة، ثم تذكر بقصة لوط، لتتجه بعدها إلى قريش باللوم والتقريع على عبادتهم الأصنام، مطالبة إياهم أن يستعملوا عقولهم، فيقارنوا بين ما يخلق الله وما يعطي، وبين أصنامهم التي يعبدون وهي لا تسمع ولا تنفع... ثم تخاطب الرسول وتنصحه بعدم الانشغال بهم : "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ" لتتخلص إلى التأكيد على البعث والحساب والعقاب. والتأكيد على أنهم سينالون جزاءهم يوم تقوم الساعة.

وأخيرا تختتم السورة مستعيدة ما طرحته في المقدمة طالبة من الرسول (ص) أن يعبد الله ويتلو القرآن: "فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ"

واضح إذن أن هذه السورة تُثْنِي السورة السابقة وتكررها شكلا ومضمونا، وأيضا على صعيد فواتح السورة : السورة السابقة فاتحتها الحروف ط. س. م والسورة الحالية فاتحتها الحرفان: ط. س. والسورة التالية فاتحتها ثلاثة كالأولى : ط. س. م ، ولذلك تسمى هذه السور بـ"الطواسين".

49- سورة القصص

- تقديم

يذكر المفسرون أن قوله تعالى في هذه السورة : "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" نزل في أبي طالب لما حضرته الوفاة وطلب منه الرسول أن يسلم، فامتنع... وورد في إحدى الروايات أنه: لما مات أبو طالب اشتد ذلك على النبي (ص) فقالوا للنبي: ما تنفع قرابة أبي طالب منك؟ فقال: «يلى والذي نفسي بيده إنه الساعة لفي ضحضاح من النار، عليه نعلان من نار، تغلي منهما أم رأسه، وما من أهل النار من إنسان هو أهون عذابا منه، وهو الذي أنزل الله فيه إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين» (رواه الطبري). ومثل هذا الكلام من الصعب تصديق صدره عن النبي (ص) علما بأن أبا طالب هو الذي تكفل به منذ صغره وأنه هو الذي حماه من أذى قريش إلى أن توفي. ونحن لا نستبعد أن تكون هذه الرواية موضوعة. فأبو طالب هو ولد علي بن أبي طالب، وكان الطالبيون أي العلويون في نزاع مع العباسيين حول الخلافة كما هو معروف. أما في رواية أخرى فقد ورد العكس، قالوا : قال له الرسول : "لاستغفرن لك ما لم أنه عنك"، وأضاف بعضهم : فأنزل الله عز وجل "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى" وهذه الآية مدنية من سورة التوبة. أما سورة القصص فهي مرتبة في لوائح ترتيب النزول تحت رقم 49، وموقعها في هذه الرتبة يدل على أنها نزلت قبل وفاة أبي طالب بسنتين أو ثلاث. ومما يوهن الرواية التي تربط بين آية سورة القصص وآية سورة التوبة وجود روايات أخرى تجعل سبب نزول آية التوبة مناسبات أخرى (انظر التفاصيل في الطبري).

- نص السورة

1- مقدمة: آيات الكتاب ... ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا ...

بسم الله الرحمن الرحيم
طسم¹، تلك آيات الكتاب المبين². نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون³: إن فرعون عا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ⁽¹⁾ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ⁴. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ (بنو إسرائيل: بتخليصهم من فرعون) وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً (ملوكاً)⁽²⁾ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ⁵ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ⁽³⁾، وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ⁶ (وهو أن يفنى ملكهم على يد موسى. هامان: رئيس جيش فرعون).

2- قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ...

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ، فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَكَأَنَّا تَخَافِي وَكَأَنَّا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ⁷. فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا (يدون أن يخطر ببالهم ذلك)، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ⁸. وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ (وقد هم على قتل الصبي موسى، اجعله) قُرَّةَ عَيْنٍ لِي. لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَتِفَعَّا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ⁹ (بما سيكون نتيجة لذلك). وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى (لما علمت بالنقاطه) فَارْعَا (إلا منه) إِنَّ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ (حتى إنها كادت أن تصرح بأنه ابنها) لَوْ أَنَّ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ¹⁰. وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ (استقصي أخباره)؛ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ (عن بعد) وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ¹¹. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ (فصار لا يقبل أية مرضعة)، فَقَالَتْ (لهم أخته) هَلْ أَدْلَكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ¹². (فوافقوا، وذهبت لتأتي بأمه) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَكَلْتَخُنَ وَلَعَلَّ لَكَ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ¹³. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ¹⁴. وَدَخَلَ (موسى) الْمَدِينَةَ (مدينة فرعون) عَلَى حِينٍ غَفَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ: هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ، فَاسْتَنَّاخَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى (ضربه بجمع كفه) فَقَضَى عَلَيْهِ. قَالَ (موسى) هَذَا (العمل أي قتله الرجل) مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ¹⁵. قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

1 - انظر سورة الأعراف (رقم 39) هامش 25

2- "وَجَعَلَكُمْ مَلُوكًا" (المائدة 20).

3- يسيطرون على بلدان، كما حدث زمن داوود وسليمان.

الرَّحِيمِ¹⁶. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا (معينا) لِلْمُجْرِمِينَ¹⁷. فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (ما سيفعلون به بعد قتله الرجل)، فإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ (يستغيث به من جديد على قبضي آخر) قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ (غاو للقتل) مُبِينٌ¹⁸. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا (للمستغيث وللموسى)، قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ، إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ، وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ¹⁹ (4). وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ (كبراء القوم) يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ⁽⁵⁾ فَأَخْرَجَ (من المدينة) إِيَّيَ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ²⁰. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (بحذر)، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ²¹. وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ (نحو) مَدْيَنَ⁽⁶⁾ قَالَ : عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سُبُلَ السَّبِيلِ²². وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً (جماعة) مِنَ النَّاسِ يَسْفُونَ (ماشيتهم)، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ (قريبا منهم) امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ (تمنعان أغنامهما من الماء). قَالَ مَا خَطْبُكُمَا (ما بكما)؟ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ (يصرف رعاة الأغنياء غنمهم بعد الشرب) وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ²³ (لا يقوى على سقي الغنم). فَسَقَى لَهُمَا (من بئر أخرى) ثُمَّ تَوَكَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي، لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ، فَقِيرٌ²⁴. فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا. فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ (قصة قتله القبطي وخوفه أن يقتلوه) قَالَ (له شعيب) لَا تَخَفْ! نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ²⁵. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ (اجعل منه أجيرا يرعى غنمنا)، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ²⁶ (فهو قوي أمين). قَالَ (شعيب لموسى): إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ (أزوجه) إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ (أن تكون أجيرا راعيا لي ثماني سنين) فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ (تبرعا)، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشْكَى عَلَيْكَ. سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ²⁷. قَالَ (موسى ليكن) ذَلِكَ.

4 - سمع ذلك القبطي عتاب موسى لصاحبه فعلم أن القاتل هو موسى، فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك، فأمر فرعون الذباحين بقتل موسى فاتجهوا إليه.

5 - يتشاورون لقتلك بالقبطي الذي قتلته أمس.

6 - وهي مدينة نبي الله شعيب، وهو مثله من نسل إبراهيم.

بَنِي وَبَنِيكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ (ليس في أي المدينتين قضيت ضرر بي) وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ²⁸.

3- فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ (المدة التي التزم بها مع شعيب) وَسَارَ بِأَهْلِهِ (بزوجته، بنت شعيب، إلى مصر) آتِسِ (أبصر) مِنْ جَانِبِ (جبل) الطُّورِ نَارًا! قَالَ لِأَهْلِهِ (وكان قد ضل الطريق) امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ (يرشدنا إلى الطريق)، أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ²⁹ (تستدفئون). فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ (جانب) الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ (7) أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ³⁰، وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ! فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ (حية) وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ. (ناداه الله) يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ³¹. اسْكُ (ادخل) يَدَكَ فِي جَيْبِكَ (جيب قميصك) تَخْرُجْ (العصا) بَيضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ، وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ (يدك، تتحرر) مِنَ الرَّهْبِ. فَذَانِكَ (العصا واليد) يَرْهَاتَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ³². قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي³³؛ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا (معينا) يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي³⁴. قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدُكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا؛ بِآيَاتِنَا، أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا، الْغَالِبُونَ³⁵. فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى، وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ³⁶. وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ³⁷. وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ (الكبراء) مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ (وزيره) عَلَى الطِّينِ (اطبخ الطين واصنع منه أجورا) فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا (مكانا عاليا، هرما؟) لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ³⁸. وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ³⁹. فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ⁽⁸⁾ فَانَظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ⁴⁰، وَجَعَلْنَاهُمْ أِثْمَةً

7- التي كان عندها لقاءه مع الله. وقيل إن الصوت كان يأتيه من داخلها، وهي شجرة "الطيفة" التي يقال إن النار كانت تنبعث منها دون أن تحترق.

8 - انظر تفصيل ذلك في التعريف بالقرآن. القصص في القرآن. قصة موسى وفرعون. السورة السابقة

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ (إِلَى مَا يُوْدِي إِلَى جَهَنَّمَ)، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصَرُونَ⁴¹.
وَاتَّبَعَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةُ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ⁴² (المُبْعَدِينَ).
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ (التَّوْرَةَ) مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ (الْأُمَمَ) الْأُولَى،
بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁴³.

4- وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ...

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ (مِنْ جَبَلِ طُورٍ) إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ
(كَلْفَنَاهُ بِالرَّسَالَةِ)، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ⁴⁴ (مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ حَاضِرًا وَإِنَّمَا
قَصَصْنَا عَلَيْكَ ذَلِكَ عِبْرَةً)، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا (أَمَّا بَيْنَكَ وَبَيْنَ مُوسَى) فَتَطَاوَلَ
عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ (طَالَتِ الْمُدَّةُ عَلَى النَّاسِ فَنَسُوا)، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا (مَقِيمًا) فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ⁴⁵ (ذَلِكَ إِلَيْكَ بِالْوَحْيِ). وَمَا كُنْتَ
بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا (مُوسَى)، وَلَكِن (أَطْلَعْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ
قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ (هَمَّ الْعَرَبُ) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ⁴⁶. وَلَوْكَ أَنْ
تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ، فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا (هَلَا) أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَنَنْتَبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ⁴⁷! فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا
(هَلَا) أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى (كِتَابًا مِنْزِلًا دَفْعَةً وَاحِدَةً)! أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا
أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ: قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا (تَعَاوَنَا عَلَيْنَا)، وَقَالُوا إِنَّا بِكَ
كَافِرُونَ⁴⁸ (9). قُلْ (لَقْرِيشَ) فَأَتَوْا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا (مِنْ كِتَابِ
مُوسَى وَكِتَابِ مُحَمَّدٍ) أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴⁹. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا
يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ. وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ⁵⁰.

5- وصلنا القول لقريش من خلال النصارى الموحدين

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ (قَصَصْنَا لَقْرِيشَ خَبَرَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ) لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ⁵¹. (أَمَّا الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ (الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ فَ) هُمْ بِهِ

9- "أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا ...". مِنَ الْمَفْسَرِينَ مِنْ جَعَلَ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى قَرِيشَ وَأُورِدُوا لَتُعَزِيزَ ذَلِكَ
"سَبَابًا لِلنَّزُولِ" مُؤَدَاهُ: "أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ بَعَثُوا رِجَالًا مِنْهُمْ إِلَى رُؤَسَاءِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ يَسْأَلُونَهُمْ
عَنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ (ص) فَأَجَابُوهُمْ : "إِنَّا نَجِدُهُ فِي التَّوْرَةِ بِنِعْمَتِهِ وَصَفْتُهُ"، فَلَمَّا رَجَعَ مَبْعُوثُو
قَرِيشَ إِلَى مَكَّةَ وَأَخْبَرُوا أَهْلَهَا بِمَا قَالَ الْيَهُودُ، قَالُوا: "إِنَّا بِكَ مِنْ الْكَتَابِينَ كَافِرُونَ."

يُؤْمِنُونَ⁵² (10). وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ⁵³. أَوَلَيْكَ يَوتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ⁵⁴. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ⁵⁵.

6- إنك لا تهدي من أحببت، التعرض للأصنام.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (قيل الإشارة إلى عميه أبي جهل وأبي طالب) وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ⁵⁶. وَقَالُوا (قريش) إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا (تنتزع منا أرضنا). أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا (مكة) آمِنًا يُجَنَّبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁵⁷. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا (كفرت وتبخرت) فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ (مهدمة على الطريق إلى الشام)، لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ⁵⁸. وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا (كبراهها، عاصمتها) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ⁵⁹. وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ⁶⁰. أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا (في الآخرة) فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ⁶¹ (للحساب، ثم النار). وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ (الله) فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِي (الأصنام) الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ⁶²؟ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ (الشیاطین من ذرية إبليس الذين أضلوههم) رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ، كَمَا غَوَيْنَا: تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ⁶³. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ! فَدَعَوْهُمْ (استغاثوا بهم) فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ. لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ⁶⁴ (لما رأوه)! وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ (الله) فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ⁶⁵؟ فَعَمِيتَ عَلَيْهِمُ الْتَبَاءُ (لم يعرفوا بما يجيبون) يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ⁶⁶. فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ⁶⁷. وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ⁶⁸. وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنْ صُدُورُهُمْ

10- ذكروا أن رجالا ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل كانوا يؤمنون بالرسول محمد وينتظرون ظهوره. وأن آخرين من الشام وكانوا أئمة النصارى، فيهم أنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها "أولئك يوتون أجرهم مرتين بما صبروا". وهؤلاء كانوا من النصارى الأريوسيين الموحدين. انظر التعريف بالقرآن. الفصل الأول والثاني.

وَمَا يُظُنُّونَ⁶⁹. وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁷⁰. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ⁷¹? قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ⁷²? وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁷³. وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ⁷⁴? وَتَزْعُمَانَا (أَخْرَجْنَا) مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا (عَلَيْهِمْ هُوَ نَبِيُّهُمْ) فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ، فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ⁷⁵.

7- قارون وقوة المال ... والمصير.

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ (ثِقَلَةٌ عَلَيْهِمْ)، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ⁷⁶. وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَكَأَنَّهُ نَسِىَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَكَأَنَّهُ تَبِغَ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ⁷⁷. قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ (المال) عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي⁽¹¹⁾، أَوَلَمْ يَعْظَمْ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ (الأمم) مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا، وَكَأَنَّهُ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ⁷⁸ (لا يسألون لماذا اقترفوها، فالمهم أن الجريمة ثابتة). فَفَرَجَ (قَارُونَ) عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ⁷⁹. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَكَأَنَّهُ يُلقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ⁸⁰. فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ⁸¹. وَأَصْنَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ: وَيَ كَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْ كُنَّا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا! وَيَ كَانَهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ⁸²! تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ⁸³. مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁸⁴.

11 - المعنى: أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل، وعندي أن الأمر كذلك.

8- خاتمة: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ⁽¹²⁾ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ (إلى الجزاء)⁽¹³⁾: قُلْ (إِلَهُم) رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁸⁵. وَمَا كُنْتُ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ⁸⁶ (لا تضعف ولا تيأس فيكون ذلك نصرا للكافرين)! وَلَا يَصُدُّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ⁸⁷. وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁸⁸.

- تعليق

تنطلق هذه السورة كسابقتها من تحديد موضوع الخطاب فيها فتشير إلى أنها ستعرض آيات ودلائل وحجج من "الكتاب الحكيم"، الذي يضم الحكمة المبثوثة في "كتاب التاريخ"، تاريخ الأنبياء مع أقوامهم، كما في كتاب الطبيعة التي ينطق نظامها واطراد أحوالها بدروس لمن يتفكرون. كان الغرض من الخطاب في السورة قبل الأخيرة، سورة "طسم" الأولى، طمأننة النبي عليه السلام والتخفيف من قلقه من استمرار قريش في الإعراض عن الإيمان به حتى بات يخشى من فشل دعوته؛ وكان الهدف في السورة الثانية (طس) فعل الشيء نفسه بالنسبة لأصحابه المؤمنين بإطلاعهم على آيات من القرآن فيها "هدى وبشرى للمؤمنين"، المقيمين للصلاة والمؤتين الزكاة والموقتين بالآخرة، بأن لهم الجنة. أما الذين لا يؤمنون بالآخرة المنساقين مع أهوائهم والذين لا يعرفون للحياة معنى آخر غير إشباع شهواتهم، فهم الذين سيخسرون في الآخرة ويكون مصيرهم العذاب.

12- فرض عليك القرآن: جعل القرآن من نصيبك، كما جعل التوراة من نصيب موسى. قارن الفرائض: توزيع الإرث.

13- اختلفت تأويلات المفسرين لهذه الآية، فمنهم من فسر "المعاد" هنا بوعد بالرجوع إلى مكة، ومنهم من قال إنه "الجنة" الخ، يدورون مع المعنى اللغوي للكلمة. أما نحن فنرى أن المعنى الذي يفرضه السياق هو "المعاد" بمعنى يوم الحساب والجزاء، الشيء الذي يعنى أن النبي (ص) سيجازى يوم القيامة كبقية البشر، وأنه واقع هو الآخر كالبشر جميعا تحت طائلة الوعد والوعيد. والآيات التالية صريحة في هذا المعنى: قوله تعالى "فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ" وقوله: "وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، وهذا مصداقا لقوله تعالى في آيات أخرى مثل قوله: "وَلَوْ كُنَّا أَنْ نُبَيِّنَ لَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا، إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا" (الإسراء 74-75).

أما موضوع السورة التي نحن ضيوف عليها، ثالثة الطواسين، فهو بيان كيف أن الله يريد أن يمن وينعم على الذين استضعفوا ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين، يمكنهم لهم في الأرض. وقد اتخذت السورة من قصة موسى مع فرعون وسيلة لهذا البَيَان ودليلاً تاريخياً على صدقه وحتمية تحقيقه.

وهكذا تبدأ السورة في عرض تفاصيل هذه القصة من البداية : كان فرعون يقتل المواليد (الذكور) لطائفة من شعبه لأنه قيل له إن زوال ملكه وهلاك جنده وحاشيته سيكون على يد واحد من أولئك المواليد. ومن أجل إزالة هذا الطغيان هياً الله الظروف لمولود لأحدى الأمهات من الطائفة المضطهدة حتى أصبح يعيش، ومعه أمه وأخته، في قصر فرعون تحت رعاية زوجة هذا الأخير. كان الهدف من ذلك تمكينه من الإفلات من المصير الذي فرضه فرعون على الذكور من مواليد بني إسرائيل... كبر موسى وصار شاباً فهياً له الله الظروف التي جعلته يقتل قبطياً، فيخاف أن يعتقل، ويهرب إلى مدين سيعيش مع نبيها الرجل الصالح شعيب الذي زوجه ابنته واقترح عليه البقاء معه عشر سنين قبل أن يعود هو وأهله إلى مصر. وفي الطريق إلى مصر كلمه الله تكليماً وكلفه بالذهاب إلى فرعون والعمل على تحرير بني إسرائيل من طغيانه، والرجوع بهم إلى فلسطين التي كانوا قد غادروها إلى مصر زمن يوسف. ومع امتناع فرعون وجدله في كون موسى نبياً من عند الله، وإنكاره أن يكون هناك إله غيره، منح الله لموسى آيات معجزات مكنته من الخروج ببني إسرائيل من مصر. ولما علم فرعون بذلك لحق بهم يتقدمه جنوده ففرقوا في البحر بينما أنجى الله فرعون ليبقى ذكره درساً للطغاة...

بعد هذه القصة تعود السورة إلى مخاطبة الرسول لتؤكد أن هذا الذي قصته عن فرعون هو وحي من الله إليه ورسالة إلى قومه قريش الذين تأخذ السورة في تفريعهم وتأنيبهم وتسفيه أصنامهم الخ. ثم تعود إلى قارون الذي كان من قوم موسى يمثل طغيان المال كما كان فرعون يمثل طغيان السلطة. وبينما كان يقيم حفلاً ضخماً إظهاراً لثروته، إذا بالأرض تخسف به فما أنقذه ماله ولا المعجبون به: "وَأَصْنَحِ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيَ كَانََ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ! لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا (بِالْقَنَاعَةِ) لَخَسَفَ بَنَّا! وَيَ كَانََ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ".

وأخيراً تختتم السورة، مستعدة موضوعها من المقدمة، مخاطبة الرسول عليه السلام: "وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ" ⁸⁶ (لا تضعف فيكون ذلك نصراً للكافرين)! وَلَا يَصُدُّكَ (الضعف واليأس) عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" ⁸⁷. واعلم أن "الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَى مَعَادٍ" (انظر أعلاه هامش رقم 13).

50- سورة يونس

- تقديم

ذكر المفسرون مرويات في موضوع نزول بعض آيات هذه السورة وهي مرويات تنحصر فائدتها في كونها تشير إلى بعض جوانب العلاقة بين مشركي مكة والنبي عليه السلام. من ذلك ما روه حول قوله تعالى في مستهل هذه السورة "أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ". قالوا، عن ابن عباس: "لما بعث الله محمد رسولا أتكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا له : الله اعظم من أن يكون رسوله بشرا، فأنزل الله تلك الآية، وأنزل "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا" الآية. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشرا فغير محمد كان أحق بالرسالة! لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل ردا عليهم : "أهم يقسمون رحمة ربك" الآية.

وفي قوله تعالى: "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا"، روي أنه نزل في خمسة من مشركي مكة، قالوا للنبي (ص): انت، بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى. وقال بعضهم: نزلت في المستهزئين حين قالوا: يا محمد انت بقرآن غير هذا، فيه ما نسألك.

والملاحظ أن جل هذه الـهـ ويات تذكر كمنااسبات لنزول آيات أخرى، مما يؤكد ما سبق أن قلناه من أن ما يروى كأسباب نزول هو في الغالب اجتهادات الهدف من روايتها ربط آية أو آيات بحوادث سبقت أو تأخرت عن نزول الآية، وأن فائدة هذه المرويات تقع على محيط التفسير. من أجل ذلك يجب أن لا يتعدى الأخذ بها مجال الاستئناس لأخذ فكرة عن بعض جوانب تطابق أو توازي مسار التنزيل ومسار السيرة. أما الفهم فيجب الاعتماد فيه على السياق ومبدأ "القرآن يشرح بعضه بعضا" ومراعاة معهود العرب على العموم.

- نص السورة

1- مقدمة : أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم؟

بسم الله الرحمن الرحيم
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ¹. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ! قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ²

2- كما يبدأ الخلق بعينه، والجزاء : الجنة أو النار.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ؟³ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا. إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (في الدنيا) ثُمَّ يُعِيدُهُ (عند قيام الساعة) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ⁴. هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ (القمر)⁽¹⁾ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ. مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ⁵. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ⁶. إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ⁷، أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ⁸. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ⁹، دَعَوَاهُمْ فِيهَا: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ¹⁰.

3- جعلناكم خلائف في الأرض لننظر كيف تعملون.

وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ (أي نتائج أعمالهم السيئة) اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ، (ولكن نهمهم) فَنَذَرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ

1- لأن العرب كانوا يعتمدون السنين القمرية.

يَعْمَلُونَ¹¹ (يترددون متحيرين). وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ (مريضاً مستلقياً) أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَذْعَنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹². وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ (يا قريش) لَمَّا ظَلَمُوا، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ¹³. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ (يا قريش) خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ¹⁴.

4- قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ!

وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ؟ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ؛ إِنِّي أَخَافُ، إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي، عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ¹⁵. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ⁽²⁾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹⁶! فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ! إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ¹⁷.

5- يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ شُفْعَاءَ وَيَطْلُبُونَ آيَةً! ... مواقف انتهازية...

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ. قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْظُمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (أي كون الأصنام شفعاء عنده)؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ¹⁸. وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا، وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (أي لأصدر حكمه) فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ¹⁹ (3). وَيَسْأَلُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ (معجزة) مِنْ رَبِّهِ!

2- عشت معكم أربعين سنة منذ ولادتي لم أدع النبوة حتى جاءني الوحي.

3- اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية فرجع بها بعضهم إلى آدم وقالوا كان الناس على عهده أمة واحدة! منهم من قال كانوا على الكفر ومنهم من قال كانوا على الإيمان، وآخرون رجعوا بها إلى نوح بعد الطوفان الخ. ونحن نرى أن السياق يقتضي الانطلاق من أن الخطاب موجه إلى قريش : يشنع عليهم عبادة الأصنام والاعتقاد في شفاعتها، زمن الدعوة المحمدية، ثم يذكرهم بأن "الناس" والمقصود هنا قريش بالذات، والعرب عموماً، كانوا أمة واحدة أي على دين إبراهيم وهم يقولون إنه جدهم الأعلى- ثم اختلفت ذرية فكان منهم يهود ونصارى وكان منهم من بقي على إيمانه بالله ولكن اتخذوا الأصنام شفعاء لهم عنده. ولولا أن الله قرر تأجيل الحساب إلى يوم القيامة لحكم بينهم وسيكون العرب الذين يعبدون =

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ²⁰. (على أن هؤلاء الذين يطلبون آية ينسون الواقع التالي:) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا⁽⁴⁾، قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا. إِنَّ رُسُلَنَا (الملائكة) يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ²¹. (كما ينسون أنه) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ (السفن) وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ، دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ السَّيِّئِينَ (قائلين): لَنْ أَنْجِيَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ²². فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْبُغُونَ (يمارسون الظلم والفساد) فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

6- بغيكم على أنفسكم ... والله يدعو إلى دار السلام.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، (هو مجرد) مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ²³. إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى، إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا (على حصادها والانتفاع بها)، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا (حريقا أو زلزالا) فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ (تزهري) بِالْأَمْسِ. كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ²⁴. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ (التي لا تجري فيها مثل هذا الحرائق والكوارث) وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ²⁵. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا (الهم) الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَآ يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ²⁶. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ (فالحساب :) جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَانُوا أَعْيُنَ (اليسر) وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

=الأصنام هم الخاسرون لأنهم خرجوا عن دين إبراهيم ورجعوا إلى دين قومه الذين حاربوه وأرادوا إحراقه.

4- يقول بعض المفسرين: إن الإشارة هنا إلى مطر بعد جفاف أصاب قريشا، نسيوه إلى الأنواء الخ، والظاهر أن معنى هذه الآية يتكرر في عدة سور، من ذلك مثلا قوله تعالى: "وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ" (الزمر 8)، وإذن فلا مبرر لتخصيص تلك الآية بمطر الخ. انظر أيضا قبله الآية 12 وبعده مثال الريح والسفن في البحر في الآية التي تلي هذه. وقوله "مكروا بآياتنا" أي فسروها بما ينسبونها لأصنامهم أو ما يعتقدون فيه مصدرها كالأنواء وغيرها.

فِيهَا خَالِدُونَ²⁷. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا (الْزِمُوا) مَكَاتِكُمْ، أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ (أَيِ الْأَصْنَامِ التي اتخذتموها شركاء مع الله!) فزِيلْنَا (فَرَقْنَا) بَيْنَهُمْ. وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ²⁸، فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، إِنْ كُنَا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ²⁹. هُنَالِكَ تَبْلُو (تُخْتَبِرُ) كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ، وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ، وَضَلَّ عَنْهُمْ (ذهب) مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (يَكْذِبُونَ)³⁰.

7- الأصنام لا فعل لها ... فكيف تعبدونها؟

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ (أَوْ قُلْ مَنْ) يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ (النبات) مِنَ الْمَيِّتِ (التراب) وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ (الخشب) مِنَ الْحَيِّ (الشجر)؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ. فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ³¹! فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ. فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، فَأَنَّا تُصْرِفُونَ³² (تَهْرِبُونَ). كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ³³. قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ (حياة ثم موت ثم حياة)؟ قُلْ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّا تَوَفَّكُونَ³⁴ (تكذبون). قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدِيَ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ³⁵. وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا. إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ³⁶.

8- يقولون افتراه! قل فأتوا بسورة مثله. قل: لي عملي ولكم عملكم.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (من الكتب السماوية) وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ⁽⁵⁾ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ³⁷. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ قُلْ فأتوا بسورة مثله وادعوا مَنْ اسْتَطَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ³⁸، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ (لم ينته نزوله ولم يتبين مآله بعد)! كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ³⁹. وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ⁴⁰. وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ، أَنْتُمْ بَرِينُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِسَرِيِّ مِمَّا تَعْمَلُونَ⁴¹.

9- إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ (ولكن لا يؤمنون)! أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ⁴²؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ، أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْغَضَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ⁴³. إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ⁴⁴. وَيَوْمَ يَخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ⁴⁵. وَإِنَّا نَرِيكَ (في الدنيا) بَغْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ (من العذاب والهلاك) أَوْ نَتَوَقَّعُكَ (قبل ذلك) فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ⁴⁶. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ. فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ (يوم القيامة) قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ⁴⁷. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ⁴⁸، قُلْ لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ⁴⁹. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا (ليلاً) أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ⁵⁰؟ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ! الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ⁵¹؟ ثُمَّ قِيلَ (يَقَالُ) لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَيْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ⁵²! وَيَسْتَتِيْبُونَكَ أَحَقُّ هُوَ؟ قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ⁵³. وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ، (جميع) مَا فِي الْأَرْضِ لَأَفْتَدَتْ بِهِ (العذاب)! وَأَسْرَوْا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ⁵⁴. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ⁵⁵. هُوَ يَخِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ⁵⁶.

10- وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ⁵⁷. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ، فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا، هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ⁵⁸. قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا! قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ⁵⁹. وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ⁶⁰. وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ (تفكر فيه) وَمَا تَتَلَوْنَا مِنْهُ (حول هذا الشأن) مِنْ قُرْآنٍ، وَلَكَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ، إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا، إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ. وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَكَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي سِي

كِتَابُ مُبِينٍ⁶¹. أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁶²: الَّذِينَ آمَنُوا وَكَاتُوا يَتَّقُونَ⁶³، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ. ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ⁶⁴. وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ! إِنَّ الْعِزَّةَ (القوة) لِلَّهِ جَمِيعًا. هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ⁶⁵. أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ. وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ! إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ⁶⁶ (يتوهمون ويخمنون). هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ⁶⁷. قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا! سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، إِنْ (هل) عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا؟ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ⁶⁸? قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ⁶⁹. (الكذب ونتائجه) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ، ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ⁷⁰.

11- قال نوح: لا تمهلوني... وقد نجاه الله. فلا تياس...

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً (لا تترددوا)، ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ (نفذوا ما أردتم) وَلَا تَنْظُرُونِي⁷¹ (تمهلوني)? فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ (تراجعتُم) فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ⁷². فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافًا، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ⁷³. ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ. كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ⁷⁴.

12- لفرعون: أَلَا أَلَا؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ!

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَاتُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ⁷⁵. فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ⁷⁶. قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ: أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ⁷⁷? قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)? وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ⁷⁸. وَقَالَ فِرْعَوْنُ اإِنْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ⁷⁹. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ

مَلْقُون⁸⁰؟ فَلَمَّا أَلْقَوْا، قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ (هُوَ) السَّحَرُ! إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ. إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ⁸¹. وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ⁸². فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ⁸³. وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ⁸⁴. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁸⁵، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ⁸⁶. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا (أَنْشَأَ) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تِلْكَ) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ⁸⁷. وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ⁸⁸. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْظُمُونَ⁸⁹. وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ⁹⁰. أَلَا الْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ⁹¹! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ⁹². وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ⁹³.

13- هل أنت شاك في قضيتك؟ هولاء لا يؤمنون ...!

فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ (التَّوْرَةَ) مِنْ قَبْلِكَ (فَهُمْ يَعْرِفُونَ قِصَصَ أَنْبِيَائِهِمْ). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ⁹⁴ (الشَّاكِّينَ). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁹⁵. إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ⁹⁶ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ⁹⁷. فَلَوْلَا (فَهَلَا: لَمْ يَحْدَثْ أَنْ) كَانَتْ قَرِينَةً آمَنْتَ فَتَفَعَّلَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَظَابَ الْخِزْيِ

6- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلَا تَتَّبِعَانِ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لمسكونها وسكون النون التي قبلها، فاختر لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التنثية. فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ٩٨ (٧). وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي السَّارِضِ
كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٩٩. وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْمِنَ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ (العذاب) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٠. قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَغْشَى الْأَيَّاتِ وَالتَّذَرُّعَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠١. فَهَلْ
يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ؟ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
الْمُنْتَظِرِينَ ١٠٢، ثُمَّ نَجَّيْنَا رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٣.

14- خاتمة: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ...

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٤. وَأَنْ
أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٠٥، وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٠٦. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٠٧. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلَّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ١٠٨.
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ١٠٩.

7- وهكذا فبعد الحكم العام والحتمي بالهلاك للأقوام الذين كذبوا رسلهم بما فيهم جنود
فرعون تستثنى السورة قوم يونس. فهم قد آمنوا قبل أن يروا العذاب. هذا، ولا تذكر هذه
السورة، ولا القرآن كله، أي شيء عن قصة قوم يونس هؤلاء، غير أن المفسرين يروون:
"أن قوم يونس كانوا بنيونى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم
يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا. فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع
سنين ففيس من إيمانهم. فقيل له: أخبرهم أن العذاب مُصْبِحُهُمْ إلى ثلاث (خلال ثلاثة أيام)
ففعّل، فقال قومهم: هو رجل لا يكذب فأرقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن
ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك؛ فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم
يجدوه فتأكدوا من صدق دعواه، فتأبوا ودعوا الله ولبسوا المسوح وفرقوا بين الأمهات
والأولاد من الناس والبهائم، وردوا المظالم في تلك الحالة" (القرطبي) .. وقد وردت قصة
يونس في التوراة واسمه هناك بالآرامية: يوان، وذلك في السفر المسمى باسمه، كما تمت
الإشارة إليه في إنجيل متى. وما ذكره القرطبي هنا يلخص ما ذكر بشأته في التوراة، مع
اختلافات بسيطة. انظر إضافات من التوراة في هامش 4 سورة القلم أعلاه رقم 35

- تعليق

بعد مجموعة الطواسين الثلاثة المتتابعة -حسب ترتيب النزول- تأتي مجموعة "الر" (الأربعة المتتابعة منها وهي سور: يونس، هود، يوسف، الحجر)⁽⁸⁾. والمجموعتان تشكل مجموعة متميزة بتشابه بنياتها إلى درجة التطابق. إنها تنطلق جميعا من مقدمة تبدأ بالإشارة إلى "آيات الكتاب" (المبين... الحكيم)، لتنتقل بعد ذلك إلى التذكير بتجارب كفاح الأنبياء السابقين وكيف أن الله نجاهم من مكائد خصومهم، وأهلك المكذبين من أقوامهم، لتخلص بعد ذلك -أو قبله- إلى مواجهة قريش، مركزا على مسألتين أساسيتين: إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وإثبات البعث والحساب والمصير: إما إلى الجنة وإما إلى النار. ثم تنتهي كل سورة من هذه المجموعة بما ابتدأت به، مستعيدة المقدمة في شكل جديد.

وهكذا، فهذه السورة (سورة يونس) التي انطلقت من قوله تعالى: "أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"، تستعيد في الخاتمة مضمون تلك المقدمة في صورة جديدة وعلى مرحلتين: تبتدئ الأولى بقوله عز وجل: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ". أما الثانية فتختتم السورة بتوجيه نفس الخطاب إلى النبي (ص) بصيغة جديدة ذات دلالة، قائلة: "وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ".

ولعل ما تتميز به هذه السورة عن أخواتها السابقات هو الإشارة مرارا إلى تحديات قريش للنبي (ص) وطلبهم منه أن يبذل القرآن ويعترف بالأصنام أو يأتي بمعجزات الخ، ويأتي الجواب يحمل تحديا واضحا لقريش: "وَإِنِّي عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِي". وهذا الجواب يلح إلى مؤامرات كانت قريش تحيكها ضد النبي (ص) وأن النبي عليه السلام كان على علم بها فتحداهم القرآن على لسان نوح أن ينفذوها مؤكدا لهم أن النتيجة لن تختلف عن تلك التي جناها قوم نوح وهي إغراقهم. ثم تؤكد السورة ذلك بالتذكير بصراع موسى مع فرعون الذي انتهى بدوره إلى إغراق قوم هذا الأخير.

⁸ - هناك سورة أخرى فاتها "الر" سورة إبراهيم وهي مكية وقد رتبت بين رتبة 69 ورتبة 72 في لوائح ترتيب النزول.

ومن أجل أن لا ييأس الرسول (ص) نهانيا من قومه تأتي الإشارة إلى قصة قوم يونس الذين تجنبوا المصير المحتوم الذي لقيه قوم نوح وقوم فرعون، وذلك بأن آمنوا بعد أن دعا عليهم يونس بالهلاك وتيقنوا أن يونس كان مخلصا في إنذاره لهم، إذ بادر فكان أول الهاربين من الهلاك الذي دعا به عليهم. وقد عانى يونس نفسه من عاقبة الهرب: فالقي به في البحر والتقمه الحوت. ولكن دعا ربه فأنقذه بأن رمى به البحر إلى الشاطئ، وكانت في ذلك نجاته هو الآخر.

وهذه الإشارة إلى قصة يونس تستعيد السورة مغزاها في مرحلة ثانية من خاتمها حيث يخاطب تعالى رسوله الكريم قائلا: "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ". ثم يتوجه تعالى بمغزى قصة يونس إلى قريش أيضا طالبا من رسوله تبليغها إياهم: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ".

ومما يلفت الانتباه في القسم الذي أوردته السورة من قصة موسى وفرعون قيام موسى بدعوة الناس إلى التوحيد قبل أن يطلب من فرعون السماح لبني إسرائيل بالخروج معه من مصر إلى فلسطين. ذلك أن موسى، فما سبق من السور، كان يتجه رأسا إلى فرعون، لكن هذه السورة تقدم لنا معلومات جديدة تتلخص في كونه قام بالدعوة إلى الله كباقي الأنبياء ولم يقتصر على خوض المعركة مع فرعون من أجل تحرير بني إسرائيل من طغيانه. وهكذا تحدثنا هذه السورة عن دعوة موسى لآل فرعون وملأه إلى الإيمان بالله وأنهم رفضوا وقالوا: "أَجْتَنَّا لِنُلْقِيَنَّ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا (موسى وهارون) الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ (السيطرة على مصر)؟ وما نحن لكما بمؤمنين"⁷⁸. وكما دعا كموسى آل فرعون قام بالدعوة في قومه بني إسرائيل: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ". ويخاطب موسى قومه: "يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ"⁸⁴. فقالوا على الله توكَّلنا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"⁸⁵، وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"⁸⁶. حينذاك، أمر الله موسى وهارون أن يقيموا بيوتًا لعبادة الله ويوجهوا الناس إليها: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ (أتشنا) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا، وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ (تلك) قِبْلَةً، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ"⁸⁷.

وهنا يلتحق موسى بنوح وغيره من الأنبياء الذين تعرضوا للتكذيب والإعراض والعناد، لقد أصبحت وضعيته مثل وضعيتهم، فدعا على فرعون

وملأه بالهلاك : "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ! رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ"⁸⁸. قَالَ (الله) قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا (اثبتا) وَلَا تَتَّبِعَانِ⁽⁹⁾ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ"⁸⁹. وهكذا ينتهي أمر فرعون وملأه إلى الهلاك وهم يطاردون موسى وقومه: يغرق الجند الذين وضعهم فرعون في المقدمة ليحتمي بهم، "حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ"⁹⁰. وبأتيه الجواب: "أَلْآنَ؟! وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ، وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"⁹¹! فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ"⁹²

وواضح أن هذا الاتجاه الجديد الذي أعطاه الوحي لقصة موسى والذي يكرر موقف نوح ويشير بصورة ضمنية إلى وضعية النبي (ص)، دليل على أنه عليه السلام كان يعاني عند نزول هذه السورة من ضغط شديد من طرف قريش -الشيء الذي يؤكد ما لاحظناه في السور السابقة. ومن أجل تسلية النبي (ص) والتخفيف عنه وتثبيت فؤاده، يخاطبه الوحي الإلهي : "فَإِنْ كُنْتَ (يا محمد) فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ (التوراة) مِنْ قَبْلِكَ (فهم يعرفون قصص أنبيائهم). لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ"⁹⁴ (الشاكين). وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ"⁹⁵. بعد ذلك يأتي هذا التأكيد "الحتمي": "إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ"⁹⁶ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ"⁹⁷. هنا تتدخل تجربة قوم يونس الذين آمنوا في آخر لحظة، فجنبهم الله الهلاك كما رأينا. إذن ليست هناك حتمية: الهلاك لقريش غير حتمي، بل هناك إمكانية تجنب الهلاك وانتصار الدعوة.

9- قال الزجاج من أهل اللغة: قوله: "وَلَا تَتَّبِعَانِ" موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعيا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لِسُكُونِهَا وسكون النون التي قبلها، فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التنثية: "فعل مضارع مجزوم بلا الناهية دخلت عليه نون التوكيد.

54- سورة هود

- تقديم

روى البخاري عن ابن عباس عن قوله تعالى في هذه السورة "ألا إنهم يثنون صدورهم". قال : كان أناس يستحون أن يتخلوا (أن يذهبوا إلى الخلاء لقضاء الحاجة) فيفضوا بفروجهم إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم". وفي رواية أخرى أخرجه الطبري عن راو آخر قال: "كان أحدهم إذا مر بالنبي (ص) وسلم ثنى صدره لكيلا يراه". فنزلت. ويشير هذا المثال إلى ما أكدناه مرارا من أن روايات أسباب النزول هي في الغالب نتيجة لبحث الرواة عن سبب مناسب للآية، وليس من أجل فهم الآية على ضوء الواقعة التي يعتبرونها سببا للنزول. ذلك أن معنى الآية، موضوع الحديث هنا، واضح من السياق، فالضمير في "منه" في قوله تعالى "يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ" يعود إلى النبي (ص) كما رواية الطبري.

وفي رواية عن ابن مسعود أن قوله تعالى في هذه السورة : "وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات" نزل في رجل "أصاب من امرأة قبله فأتى النبي (ص) فأخبره، فأنزل الله هذه الآية، فقال الرجل ألي هذه ؟ قال النبي : لجميع أمتي كلها". وفي رواية أخرى أن رجلا "يقال له أبو اليسر" قال: "أتنتني امرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت أطيب منه، فدخلت معي البيت، فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت رسول الله (ص) فذكرت ذلك له، فقال : أخلفت غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا⁽¹⁾؟ وأطرق طويلا حتى أوحى الله إليه فنزلت تلك الآية. ويسمى هذا الحديث الذي ورد في كتب التفسير والحديث بحديث "أبي اليسر".

والغريب أنهم يقولون إن أبا اليسر هذا كان من الأنصار، في المدينة، بينما الآية مكية. ولفظ الحديث يفيد أن الحادثة حدثت في المدينة بدليل قوله "أخلفت غازيا

1- يقال: "خَلَفْتُ الرجلَ في أهله إذا أقمْتُ بعده فيهم وقمت عنه بما كان يفعله، والهمزة فيه للاستفهام".

في أهله؟ فالغزوات كانت في العهد المدني وليس في المكي. ولذلك كان لابد من التعامل بحذر مع "أسباب النزول"، فهي مفيدة فقط على مستوى فهم جوانب من السيرة وظروف التنزيل.

يمكن القول إذن لم يرد في المرويات ما يخص هذه السورة، فلا بد من الاعتماد عليها وحدها: على علاقتها بما تقدم وتأخر وعلى السياق الخ.

- نص السورة

1- مقدمة: القرآن أحكمت آياته ثم فصلت... إلى الله مرجعكم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الر (قل يا محمد: هذا) كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ (2) مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ¹ (يا مكرم): أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ²، وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ، ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ يَمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ. وَإِنْ تَوَلَّوْا (فقل لهم) فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ³، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁴. أَلَا إِنَّهُمْ (يعني المشركين لا يريدون سماع هذا فتراهم) يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ (من النبي، لكي يتجنبوا التقاء بصرهم ببصره)! أَلَا حِينَ يَسْتَخْفُونَ ثِيَابَهُمْ (يتغطون بها) يَعْلَمُ (الله) مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ⁵.

2- خلق السماوات والأرض ليبلوكم أيكم أحسن عملا.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا: كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ⁶ (هو نفسه الكتاب الذي أحكمت آياته ثم

2- تعددت أقوال المفسرين حول هذه الآية بناء على أن لفظ "آية" معناه جزء من القرآن. أما نحن فنرى أن هذا اللفظ في القرآن كله يحيل إلى العلامات والمعجزات والدلائل والحجج التي يذكرها الله لحمل العقل البشري على التسليم بأن لهذا العالم صاتعا هو الله تعالى وأنه على كل شيء قدير وأن البعث واقع الخ. وإذن فالمعنى أن هذا الكتاب يشتمل على دلائل وجود الله ودلائل البعث الخ، ثم عرضها فيه ببراهين محكمة ثم فصلت بالقصص والأمثال وما أشبه مما يدخل في معهود العرب، وأيضا بلسان عربي مبين.

فصلت). وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ (خلقهن وسخرهن لفائدتكم) لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا؟ وَلَئِنْ قُلْتُمْ (لهم) إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ⁷. وَلَئِنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ (مدة) مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ؟ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ، وَخِاقٍ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ⁸. وَلَئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفُّورٌ⁹. وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً، بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَةٍ، لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي! إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ¹⁰. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ¹¹.

3- قُلْ قَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ.. ووعيد وتهديد.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا (لكونهم يقولون) لَوْلَا (هلا) أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ! إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ¹². أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ قَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ (يعني الأصنام) إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ¹³. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا (الأصنام) لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ¹⁴ (مقتنعون)؟ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا (فقط، وهم منكرو البعث) نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا (في الدنيا)، وَهُمْ فِيهَا (في الدنيا) لَا يُبْخَسُونَ¹⁵ (لا ينقص لهم منها)، أُولَئِكَ (هؤلاء هم) الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ (لكونهم أنكروا البعث)، وَحَبِطَ (فسد) مَا صَنَعُوا فِيهَا (في الدنيا من أعمال صالحة)، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ¹⁶ (3). أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (يعني محمد عليه السلام) وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ (يتبعه شاهد من الله هو القرآن) وَمِنْ قَبْلِهِ (قبل القرآن) كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً، أُولَئِكَ (محمد والقرآن وكتاب موسى) يُؤْمِنُونَ بِهِ (بالله)، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ (المتحزبين ضد الإسلام) فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ (لا تشك في هذا)، إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ¹⁷. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا؟ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ

3- المعنى : "كل من ينكر البعث - وأتى بعمل من الأعمال لطلب الأحوال الدنيوية فإنه يجد تلك المنفعة الدنيوية اللاحقة بذلك العمل، ثم إذا مات فإنه لا يحصل له منه إلا النار ويصير ذلك العمل الدنيوي في الدار الآخرة محبطاً باطلاً عديم الأثر" (الرازي).

رَبِّهِمْ، وَيَقُولُ الشَّاهِدُ (يوم القيامة) هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ. (يَقَالُ فِي
 وجوههم) أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ¹⁸، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا
 عِوَجًا (غير مستقيمة) وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ¹⁹. أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ
 (الله) فِي الْأَرْضِ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ
 (في الآخرة)، لَأَنَّهُمْ بَاسْتِغَالِهِمْ بِالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ
 (لِحُجِّجِ الْقُرْآنِ) وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ²⁰ (الحقيقة بعقولهم). أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
 أَنْفُسَهُمْ (بالجوء إلى عبادة الأصنام وترك عبادة الله) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ²¹ (ضاع منهم ما كانوا يكذبون على الله من قولهم مثلا إن الملائكة هم
 بنات الله وتمثلها الأصنام وهذه تشفع لهم). لَأَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
 الْخَاسِرُونَ²². إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا (أنايوا واطمأنوا) إِلَى
 رَبِّهِمْ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ²³. مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ
 (الكافر من جهة)، وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ (المؤمن من جهة)، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (هل
 يمكن المساواة بينهما حتى على صعيد المثل)، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ²⁴.

4- لَنْ يُؤْمِنَ يَا نُوحُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ (فقال لهم) إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ²⁵: أَنْ لَا
 تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ²⁶. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا (من الفقراء
 والعبيد)، بَادِيَ الرَّأْيِ (اتبعوك من غير تفكير)، وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ
 نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ²⁷. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ
 عِندِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ (خفيت)، أُنْزِلُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ²⁸؟ وَيَا قَوْمِ لَا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ، وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّهُمْ
 مَلَافٍو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ²⁹. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ
 طَرَدْتَهُمْ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ³⁰. وَكَأ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَكَأ أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَكَأ
 أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ، وَكَأ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا. اللَّهُ أَعْلَمُ
 بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ³¹ (إن قلت ذلك). قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا
 فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ³². قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ،
 إِنْ شَاءَ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ³³. وَكَأ يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي - إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ - إِنْ
 كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ³⁴. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ! قُلْ إِنْ

افْتَرَيْنَاهُ فَعَلَىٰ اجْرَامِي (كذبي)، وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرُمُونَ³⁵ (بعبادتكم الأصنام). وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ³⁶ وَاصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا، وَكَأ تَخَاطَبَتِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِقُونَ³⁷. وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ (وَأخذ نوح في صنعه)، وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ³⁸. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ³⁹ (لا يزول)، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ⁽⁴⁾ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ -إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ- وَمَنْ آمَنَ (احمله أيضا). وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ⁴⁰. وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا، بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ⁴¹. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ، وَتَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ: يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ⁴². قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَغْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ! قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ. وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ (ابن نوح) مِنَ الْمُعْرِقِينَ⁴³. وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلَعِي، وَغِيضَ الْمَاءَ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ (السفينة) عَلَى الْجُودِيِّ (جبل اسمه الجودي)، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ⁴⁴. وَتَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ⁴⁵. قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ⁴⁶. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ⁴⁷. قِيلَ (لنوح عندما وقعت السفينة) يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ (بالدنيا ويكفرون) ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ⁴⁸. تِلْكَ (القصة) مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ⁴⁹.

5- هود لقومه: فَاكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ.

وَالَّذِي عَادُوا (أرسلنا) أَخَاهُمْ هُودًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُقْتِرُونَ⁵⁰. يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي

4- التنور: الوعاء الذي يخبز فيه. فاض التنور : فاض منه الماء كما يفيض عند غليان القدر، كناية على ارتفاع الماء على السفينة.

فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ⁵¹. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ، وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ⁵². قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ، وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ⁵³. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ! قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ⁵⁴ مِنْ دُونِهِ، فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَأَا تَنْظُرُونِي⁵⁵ (لَا تَمْهَلُونِي). إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ: مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ⁵⁶. فَإِنْ تَوَلَّوْا (تَتَوَلَّوْا) فَقَدْ أَفْلَحَكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا، إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ⁵⁷. وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوْدًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ⁵⁸. وَتِلْكَ عَادَ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ⁵⁹، وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ (كَذَلِكَ)، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُوْدٍ⁶⁰.

6- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا.

وَالِى ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحًا، قَالَ: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ⁷¹. قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا؟ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ⁶². قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ⁶³ (خاسرا). وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فِذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ⁶⁴. فَعَقَرُوهَا فَقَالَ: تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. ذَلِكَ وَعَذٌ غَيْرُ مَكْنُوبٍ⁶⁵. فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ (هَلَاكٍ) يَوْمَئِذٍ، إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ⁶⁶. وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ⁶⁷. كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا، أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ، أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ⁶⁸.

7- قرية لوط: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا (الملائكة) إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى (مبشرين بالولد)، قَالُوا: سَلَامًا. قَالَ سَلَامٌ. فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ⁶⁹ (سمين لاستضافتهم). فَلَمَّا رَأَى

أَيْدِيَهُمْ لَّا تَصِلُ إِلَيْهِ (لَا يَأْكُلُونَ) نَكَرَهُمْ (لَمْ يَطْمِئِنِّ إِلَيْهِمْ) وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً. قَالُوا لَّا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ⁷⁰، وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ (امْرَأَةُ إِبْرَاهِيمَ) فَضَحِكْتَ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ⁷¹. قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ، وَهَذَا بَطْيَى (زَوْجِي) شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ⁷². قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ⁷³. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى (أَخَذَ) يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ⁷⁴ (يُنَاقِشُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ أَمْرَ إِهْلَاكِهِمْ، خَوْفًا عَلَى لُوطٍ)، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ (مَشْفُقٌ) مُنِيبٌ⁷⁵. (نُودِي:) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا! إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ⁷⁶. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا (أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةُ) لُوطًا سِيقَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا (كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ وَأَن قَوْمَهُ سَيَسْبِقُونِ إِلَيْهِمْ)، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ⁷⁷. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ (كَزَوَّجَاتٍ مِنْ إِبْتِهَانٍ هَؤُلَاءِ) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَئِنْ تَخْزُونِي فِي ضَيْقِي (ضَيُوفِي) أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ⁷⁸? قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ (فِي التَّعَامُلِ مَعَهُنَّ حَسَبَ شَهْوَتِنَا) وَإِنَّكَ لَتَظُنُّهُمَا نَارِيذٌ⁷⁹ (أَيِ اللَّوَاطِ). قَالَ (أَتُمْنَى) لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ (لِإِخْرَاجِكُمْ وَالْإِقْلَاعِ بِكُمْ بِعِيدًا) أَوْ أَوْيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ⁸⁰ (يَمْنَعُكُمْ مِنَ الدَّخُولِ عَلَيَّ)؟ قَالُوا (الْمَلَائِكَةُ) يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ: فَاسْرُ (أَخْرَجَ) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ (أَثْنَاءَهُ)، وَلَا يَنْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ، إِنَّا أَمْرَأَتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ⁸¹? فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَاهَا عَلَیْهَا سَافِلَةً (الْقَرْيَةَ) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ⁸²، مُسَوَّمَةً (عَلَيْهَا عَلَامَاتٌ تَعْرِفُ بِهَا) عِنْدَ رَبِّكَ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ⁸³.

8- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...

وَالِإِي مَدِينٍ (أَرْسَلْنَا) أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، وَلَئِنْ تَنْقَصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرَاكُمْ بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ⁸⁴. وَيَا قَوْمِ اتَّقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَئِنْ تَبَخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَئِنْ تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ⁸⁵: (إِنَّ) بَقِيَّةَ اللَّهِ (مِنَ الْحَالِ) خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ⁸⁶ (وَمَا أَنَا بِقَادِرٍ عَلَى مَنَعِكُمْ). قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا (مِنَ الْأَصْنَامِ) أَوْ (نَتْرَكَ) أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ؟ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ⁸⁷. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ⁸⁸. وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي (لَا يَكْسِبُكُمْ شِقَاقُكُمْ عَنِّي) أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ⁸⁹؟ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ⁹⁰. قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ! وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا، وَلَوْ أَنَّ رَهْطَكَ لَرَجَمْتَاكَ! وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ⁹¹. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ (أَقْوَى لَدَيْكُمْ) مِنَ اللَّهِ، وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا؟ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ⁹². وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ (طَرِيقَتِكُمْ) إِنِّي عَامِلٌ (عَلَى طَرِيقَتِي)، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ⁹³ (مُنْتَظَرٌ) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ⁹⁴، كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا (يَقِيمُوا فِيهَا أَحْيَاءً)! أَلَا بُغْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثُمُودٌ⁹⁵.

9- فرعون قومه يوم القيامة النار.. بنس الورد والمورود.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ⁹⁶ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ⁹⁷، يَقْدُمُ قَوْمَهُ (يَتَزَعَمُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ، وَبَنَسَ الْوَرْدَ الْمَوْزُودَ⁹⁸، وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ (الدُّنْيَا) لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَنَسَ الرَّقْدَ الْمَرْفُودَ⁹⁹ (ترادفت عليهم لعنتان).

10- ذلك من أنباء القرى نقصها عليك، وما ظلمناهم ...

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ (يَدُلُّ عَلَيْهَا آثَارُهُمْ) وَحَصِيدٌ¹⁰⁰ (وَمِنْهَا مَا انْدَثَرَ نَهَايَا)، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ -الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ¹⁰¹ (خَسْرَان). وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ، إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ¹⁰². إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ¹⁰³. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعْدُودٍ¹⁰⁴، يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ¹⁰⁵. فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي

النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ¹⁰⁶، خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ¹⁰⁷. وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ¹⁰⁸ (مقطوع). فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ¹⁰⁹. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَكَلَّمَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَرِيبٍ¹¹⁰. وَإِنْ كُنَّا لَمَّا⁽⁵⁾ لَيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ¹¹¹. فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ¹¹². وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ، ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ¹¹³. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ (الصُّبْحِ وَالْمَغْرِبِ)⁽⁶⁾ وَزَلْفًا (أَوَقَاتًا، نَوَافِلَ) مِنَ اللَّيْلِ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ¹¹⁴. وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ¹¹⁵. قُلُوبًا (هَلَا) كَانَ مِنَ الْقُرُونِ (الْأُمَمِ) مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، (لَكِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ¹¹⁶. وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْطَحُونَ¹¹⁷. وَكَوْشَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ¹¹⁸ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ، وَكَذَلِكَ خَلَقَهُمْ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ¹¹⁹.

5- تعددت آراء اللغويين في معنى كلمة "لما" بالتشديد. وأوضح ما قيل بشأنها قراءتها "لما" بالتثنية، من اللام، نظير قوله تعالى: "أكلأ لما" أي جميعا... بمعنى: وإن كل ما يجمعون ليوفينهم ربك أعمالهم...

6- أجمع المفسرون على أن الصلاة المطلوبة هنا هي الصلاة المفروضة (مرتان في اليوم ونوافل في الليل)، واختلفوا في كيفية تحديد طرفي النهار مع الصلوات الخمس التي ترسمت في المدينة. وذكر أن بعض الخوارج قالوا بصلاتين فقط بناء على ظاهر الآية أعلاه وأن "الخمس" لم تذكر في القرآن وإنما أخذت من الصحابة، وقد استنكره جمهور السنة هذا الرأي. ويروي أن نافع بن الأزرق زعيم أكبر فرق الخوارج سأل ابن عباس "هل تجد ميقات الصلوات الخمس في كتاب الله؟ قال: نعم؛ فسبحان الله حين تمشون المغرب، وحين تصبحون الفجر، وعشيا العصر، وحين تظهرون الظهر" (الآية كما يلي: "فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ" (الرؤم 17-18)). والسورة مكية وبعضهم يقول إن الآية 17 مدنية. وستعود إلى الموضوع عند تناولنا لهذه السورة.

11- خاتمة : وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك.

وَكُلًّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ¹²⁰. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ¹²¹، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ¹²². وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ¹²³.

- تعليق

تنظم هذه السورة، كما هو واضح، في سلك السور السابقة، منذ سورة الشعراء؛ فهي إذ تبتدئ مثلها بالإشارة إلى موضوع السورة، وهو "آيات الكتاب"، تشرع في ذكر أركان العقيدة: التوحيد، والخلق، والبعث، لتفصل القول فيها من خلال الجدل مع قريش والتذكير بقصص الأنبياء كشهادات تاريخية تؤكد ما، فعرضت لقصة نوح وصراعه مع المكذبين من قومه، مبرزة أن قومه قد صمموا على تكذيبه مؤكدة له أن "لَنْ يُؤْمِنَ يَا نُوحُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ". ثم تنتقل السورة إلى صراع النبي هود مع قومه عاد، الصراع الذي انتهى إلى عزمهم على التخلص منهم فتحداهم قائلا: "فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِي إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ"، فأتجاه الله كما أنجى من بعده صالحا والذين معه من المؤمنين، ولوطا وشعبا أتجاهما ومن معهما وأهلك الباقين المكذبين. أما فرعون الذي قاد قومه إلى الغرق وأتجاه الله بمفرده ليبقى عبرة فسيكون في مقدمتهم يوم القيامة يوردهم النار. ثم تعقب السورة على ما تقدم مخاطبة النبي عليه السلام: "ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُ عَلَيْكَ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ"، مؤكدة قوله تعالى: "وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ -التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ- مِنْ شَيْءٍ".

وتأتي الخاتمة لتستعيد مضمون المقدمة مع بيان الهدف مما ذكرته السور. يقول تعالى: "وَكُلًّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ (السورة) الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ".

تنبيت لفؤاد النبي (ص)، وتحد صريح لقريش بتنفيذ ما يقولون في مجالسهم من ضرورة التخلص من محمد عليه السلام، أمران يتكرران خلال السور السابقة، وبصورة خاصة منذ سورة الشعراء التي ورد فيها "وأذّر عشيرتك

الأقربين"، إن ذلك يشير إلى الظروف الصعبة التي كانت الدعوة المحمدية تمر بها. وسنفصل القول في هذه الظروف بعد حين.

52- سورة يوسف

- تقديم

قيل إن اليهود بالمدينة بعثوا إلى زعماء قريش بمكة بسؤال يطلبون طرحه على النبي عليه السلام للتأكد من نبوته. يقول السؤال: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمي؟ قال الراوي: "فأنزل الله عز وجل سورة يوسف" جملة واحدة؛ فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة.

وفي رواية أخرى عن سعد بن أبي وقاص: أن أصحاب النبي (ص) سألوه أن يقص عليهم فنزلت سورة يوسف: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ، إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" الخ (يوسف 1-4). وفي السورة ما يؤكد أنها نزلت جواباً عن سؤال من نوع السؤال الأول، وليس لمجرد القصص.

- نص السورة

1- مقدمة : نحن نقص عليك أحسن القصص...

بسم الله الرحمن الرحيم
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ¹، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ².
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا (بوحينا) إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ³.

2- روي يوسف: ... وتآمر إخوته... وبيعه لمسافر إلى مصر

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا (إخوته) وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ (أبوه وأمه) رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ⁴. قَالَ (أبوه): يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ

عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ⁵. وَكَذَلِكَ (إذا كُتِمَتْ رُؤْيَاكَ) يَجْتَبِيكَ (يُخْتَارُكَ) رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (تعبير الرؤيا) وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ (أبيك) كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ: إِبْرَاهِيمَ (والد جدك) وَإِسْحَاقَ (جدك). إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ⁶. لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ (عبر) لِلْمُسَائِلِينَ⁷ (1)، إِذْ قَالُوا (أي أخوة يوسف) لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ (شقيقه الأصغر بنيامين) أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَتَحَنُّ عَصْبَتُهُ (جماعة قوية)، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ⁸. (قال بعضهم لبعض) أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ⁹! قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ، وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ (ظلام) الْجُبِّ (البئر) يَلْقَظُوهُ بَغْضُ السَّيَّارَةِ (المسافرين)، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ¹⁰. قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ¹¹ (2). أَرْسِلْهُ مَعَا غَدًا يَرْتَعْ (يمرح) وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ¹². قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ¹³، قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَتَحَنُّ عَصْبَتُهُ (جماعة) إِنَّا إِذَا لَخَاسِرُونَ¹⁴! فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ (صنيعهم) هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ¹⁵ (3)، وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ¹⁷، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ، وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ¹⁸. وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ (قميص يوسف ملطخا) بِدَمٍ كَذِبٍ (غير دم يوسف)! قَالَ (أبوهم) بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ¹⁹. وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (مسافرون من مدين إلى مصر) فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ (الذي يسقي لهم الماء) فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ! (فعلم إخوة يوسف بذلك) وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً (اتخذوه بضاعة للتجارة)⁽⁴⁾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ¹⁹. وَشَرَوْهُ (باعوه) بِثَمْنٍ بَخْسٍ، دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ²⁰. وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ (من

1 - "أي لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما أخبروا به.

2- في التوراة أن إخوة يوسف كانوا قد خرجوا يرعون غنما فأرسله أبوه لياتيه بأخبارهم مع مواشيهم، فلما رآه قادمًا نحوهم تأمروا عليه لمحاباة أبيهم له دونهم، إذ اشترى له قميصًا أحمر...

3- المعنى: أوحينا إلى يوسف لتخبرن إخوتك مستقبلًا بقطعهم هذا الذي فعلوه بك، وهم لا يحسبون بذلك ولا يشعرون به.

4- المعنى: ولما علم إخوة يوسف بأخذ التجار له، لحقوهم وقالوا: هذا غلامنا هرب منا، فاشتروه منهم بثمن بخس. وفي التوراة: "قَالَ يَهُوذَا لِإِخْوَتِهِ: «مَا جَدَوِي قَتَل أَخِينَا وَإِخْفَاءَ دَمِهِ؟ تَعَالَوْا نَبِيعْهُ إِلَى الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ (العرب من نرية إسماعيل) وَنَبْرِئْ أَيْدِيَنَا مِنْ دَمِهِ فَوَافَقَهُ إِخْوَتُهُ عَلَى رَأْيِهِ.

أولئك التجار وهو) من مِصرَ لامرأته: أكرمي مثواه، عسى أن يتفعا أو نتخذَه وكذا. وكذلك مَكَّنَا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (الرؤيا) وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ²¹.

3- راودته التي هو في بيتها عن نفسه... وانتشار الخبر...

وَلَمَّا بَلَغَ (يوسف) أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا (حكمة) وَعِلْمًا (نبوة)، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ²². وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا (زوليكها زوجة حاكم مصر)⁽⁵⁾ عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ! قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي (سبيدي، زوجك، الذي اشتراني) أَحْسَنَ مَثْوَايَ (مقامي فلا أخونه) إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ²³، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ! كَذَلِكَ (حدث) لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، (الخيانة والزنا) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ²⁴. وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ (شقت) قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ، قَالَتْ: مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ²⁵. قَالَ (يوسف) هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا (أي طلب الزوج خيرة رجل من عندهم. فقال هذا الأخير) إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ (من أمام) فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ²⁶، وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ²⁷. فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَذِبِكُنْ إِنْ كَذِبَكُنْ عَظِيمٌ²⁸. (قال الزوج عزيز مصر: حاكمها) يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا (لا تحدث به أحدًا، وخطب زوجته) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ²⁹. (ومع ذلك شاع الخبر) وَقَالَتْ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا، إِنَّا لَنَرَاهَا فِي

5- في التوراة: "وَأَخَذَ الْإِسْمَاعِيلِيُّونَ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ مِنْهُمْ مِصْرِيُّ يُدْعَى فُوطِيفَارَ، كَانَ خَصْمِي فِرْعَوْنَ وَرَبِّيسَ الْحَرَسِ. 2وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ، فَأَفْلَحَ فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقَامَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ". 7ثم لم تلبث أن أغرمت به زوجة مولاه فقالت: «اضطجع معي». 8فللبى وقال لها: «هوذا سيدي قد عهد إلي بكل ما يملك في هذا البيت ولم يشغل نفسه بأي شأن فيه... 10ولم يدعني يوسف لها مع أنها كانت تلج عليه يوما بعد آخر. 11وحدث يوما أنه دخل البيت ليقوم بعمله، ولم يكن في المترن أحد، 12فأمسكته من رداءه وقالت: «اضطجع معي». 13فترك رداءه بيدها وهرب خارجا... وعندما رأت أنه قد رفض وهرب... 14نادت أهل بيتها وقالت: «انظروا ما جرى؟ هذا العبراني الذي جاء به زوجي إلى البيت. شرع يرأودني عن نفسي. دخل غرقتي وحاول اغتصابي، فصرخت بأعلى صوتي. 15وعندما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت، ترك رداءه معي وهرب خارجا». 16وألقت رداءه إلى جانبها حتى قدم مولاه إلى بيتي، 17فقصت عليه مثل هذا الحديث. ... 19فلما سمع سيده كلام زوجته وما اتهمت به يوسف أحترم غضبه، 20فقبض على يوسف وزججه في السجن، حيث كان أسرى الملك معتقلين، فمكث هناك...

ضَلَّالٌ مُبِينٌ³⁰. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَيِّمًا (طَعَامًا يَقْطَعُ بِالْإِتِّكَاءِ عَلَيْهِ بِالسَّكِينِ) وَأَتَتْ (أَعْطَتْ) كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ (لِيُوسُفَ) اخْرُجْ عَلَيْنَهُ. فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ (بِالسَّكِينِ دُونَ أَنْ يَشْعُرْنَ لَشِدَّةِ تَأْثِيرِ جَمَالِهِ فِيهِنَّ)، وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ! مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ³¹. قَالَتْ: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ، وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ (امْتَنَعَ). وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِيَسْجُنَ وَلِيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِرِينَ³². قَالَ (يُوسُفَ): رَبِّ! السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَإِلَّا (إِنْ لَا) تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ (أُمِلْ) إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ³³. فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ³⁴. ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ (لِلْعَزِيزِ وَأَهْلِهِ) مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ (الْعَلَامَاتِ الَّتِي تَثْبِتُ بَرَاءَةَ يُوسُفَ، فَفَرَرُوا) لِيَسْجُنَهُ حَتَّى حِينٍ³⁵ (حَتَّى لَا تَشِيعَ الْقِصَّةُ). وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ (غُلَامَانِ لِلْمَلِكِ، ذَاتِ يَوْمٍ) قَالَ أَحَدُهُمَا (وَهُوَ سَاقِي الْمَلِكِ) إِنِّي أَرَانِي (فِي الْمَنَامِ) أُعْصِرُ خَمْرًا، وَقَالَ الْآخَرُ (وَهُوَ الْمَكْلَفُ بِطَعَامِهِ) إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ! نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ (يَا يُوسُفَ)، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ³⁶.

4- يوسف في السجن مع ساقِي الملك والمكلف بطعامه

قَالَ: لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا، ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي. إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ³⁷، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ³⁸! يَا صَاحِبِي (سَاكِنِي) السِّجْنُ! أَرَأَيْتَابِ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ³⁹? مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ. أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ⁴⁰. يَا صَاحِبِي السِّجْنُ (6): أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا (يُخْرِجُ وَيَعُودُ لوظائفه يسقي سيده) وَأَمَّا الْآخَرُ (فَيُصْرِخُ) فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ⁴¹. وَقَالَ (يُوسُفَ) لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا (السَّاقِي) اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ (سَيِّدِكَ)، أَخْبَرَهُ أَنِّي هُنَا مَسْجُونٌ ظَلَمًا فَانْسَاهُ

6- لم ترد في التوراة قصة النساء اللواتي قطعن أيديهم (فقرة 6) ولا دعوة يوسف للتوحيد (فقرة 7). أما ما سيأتي فقد ورد فيها كما في القرآن تقريباً.

الشَّيْطَانُ (الشَّيْطَانُ أَنْسَى السَّاقِي) ذَكَرَ (يُوسُفَ عِنْدَ) رَبِّهِ فَلَبِثَ (يُوسُفَ) فِي السَّجَنِ بَضْعَ سِنِينَ⁴².

5- حلم العزيز وتعبير يوسف له واعتراف امرأته بمرأودة يوسف

وَقَالَ الْمَلِكُ (مَلِكُ مِصْرَ) ⁽⁷⁾ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ! يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ⁴³. قَالُوا أَضْغَاثُ (أَخْلَاطٍ) أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ⁴⁴. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا (مِنَ السَّجِينِينَ وَهُوَ السَّاقِي) وَإِذْكَ بَعْدَ أُمَّةٍ (وَقَدْ تَذَكَرَ) بَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ النَّسْيَانِ طَلَبَ (يُوسُفَ) أَنَا أَنْبِئَكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي⁴⁵ (إِلَى يُوسُفَ، فَأَرْسَلُوهُ فَقَالَ لَهُ: يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّدِيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ⁴⁶! قَالَ: تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا (مُتَابِعَةً) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ (فَلَا تَدْرِسُوهُ كَيْ لَا يَفْسُدَ) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ⁴⁷. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ (مُجْدِبَاتٌ) يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ (مِمَّا كُنْتُمْ خَزَنْتُمْ) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ⁴⁸ (تَدْخِرُونَ)، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ (بِالْمَطَرِ) وَفِيهِ يَفْصِرُونَ⁴⁹ (الْأَعْنَابُ. وَرَجَعَ السَّجِينِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ يُوسُفَ). وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ (بِیُوسُفَ)! فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ (لَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ إِلَى يُوسُفَ) قَالَ: (يُوسُفَ) ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ (سَيِّدِكَ) فَاسْأَلْهُ مَا بَالِ النَّسُوءِ الَّذِي قَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ (لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ)، إِنَّ رَبِّي (سَيِّدِي) بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ⁵⁰. قَالَ (الْمَلِكُ لَهُنَّ) مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟ فَلْنِ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ. قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ: الْآنَ حَصْحَصَ (وَضَح) الْحَقُّ! أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ⁵¹. (أَقُولُ) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يُوسُفَ) أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ (وَهُوَ غَائِبٌ عَنَّا الْآنَ) وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ⁵². (قَالَ يُوسُفَ) وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ⁵³. (8)

7- يستعمل القرآن في هذه القصة لفظ "الملك" ولا يستعمل لفظ "فرعون" كما في التوراة. ويمكن تبرير ذلك بكون "فرعون" في القرآن رمز للطغيان كما هو الحال بالنسبة لفرعون في قصة موسى. أما هنا في قصة يوسف فالملك لم يكن طاغية بل بالعكس لقد تعاطف مع يوسف وولاه خزانته ومنحه كامل ثقلته وأكرم أهله عندما دعاهم إليه كما في آخر القصة.

8- اختلف المفسرون حول من تعود عليه الضمائر ابتداء من ("لم أخنه.. الخ"): هل على يوسف أم على العزيز أم على امرأته؟ معظم المفسرين يرجحون هذه الأخيرة. غير أن بعضهم قال إن الضمير =

6- إخوة يوسف يقدمون للتجارة في مصر ... ويتعرف عليهم!

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي. فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ⁵⁴. قَالَ (يوسف): اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ⁵⁵ (9)، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، نَصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشَاءٍ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ⁵⁶، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَاتُوا يَتَّقُونَ⁵⁷.

7- مجيء إخوة يوسف إلى مصر.. والتحاق أهله به

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ (في تجارة) فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ⁵⁸، وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ (كان يعقوب قد أبقاه عنده) أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ⁵⁹، فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي⁶⁰. قَالُوا سَرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ (سنحاول إقناعه) وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ⁶¹. وَقَالَ (يوسف) لِفَتِيَاتِهِ (لخدمته) اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ (دراهمهم التي أتوا بها لشراء السلعة) فِي رِحَالِهِمْ (أكياسهم) لَعَلَّهُمْ يَغْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ

يرجع إلى يوسف، باعتبار أن يوسف كان قد "هم بها" فحل أزرار سرواله استعداداً لإحيائها، ثم ندم وتوقف. وبالتالي فالتكلم في "لم أخذه" هو يوسف: بمعنى أنه لم يخن الملك. وهذا في نظرهم ما يبرر قوله "وما أبرئ نفسي...". ونحن نرجح هذا ليس نظراً لما ذكره هؤلاء فحسب، بل أيضاً لأن الآية الأخيرة وهي قوله: "إِنَّمَا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" تقتضي أن يكون القائل هو يوسف، والسياق يمنع من أن يعود على الزوجة لأنها اعترفت أنها هي التي راودت يوسف عن نفسه معززة ذلك بقولها "ولمئن وإنه لمن الصادقين". أما ملك مصر فلا شيء يشير إلى أنه كان مؤمناً. يبقى إذن أن يكون يوسف هو القائل "وما أبرئ نفسي"، الخ، وهذا لا يمنعه السياق لأن السورة أكدت من قبل "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا".

9- في التوراة: قال يوسف: "33وَالآنَ لِيَبْنِثَ فِرْعَوْنُ عَنْ رَجُلٍ بِصِيرٍ حَكِيمٍ يُؤَلِّيهِ عَلَى الْبِلَادِ، 34وَلْيُعِمَّ فِرْعَوْنُ نَظَاراً عَلَى أَرْضِ مِصْرَ يَجْبُوتُ خَمِيسَ غَلَّتِهَا فِي سَنَوَاتِ الرِّخَاءِ السَّبْعِ. 35وَلْيَجْمَعُوا كُلَّ طَعَامِ سَنَوَاتِ الْخَيْرِ الْمُقْبِلَةِ، وَيَخْزِنُوا الْقَمْحَ بِتَقْوِيصٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَيَحْفَظُوهُ فِي الْمُدُنِ لِيَكُونَ طَعَاماً، 36وَمَوْنَةً لِأَهْلِ الْأَرْضِ فِي سَنَوَاتِ الْمَجَاعَةِ السَّبْعِ الَّتِي سَتَسُوْدُ أَرْضُ مِصْرَ فَلَا يَهْلِكُونَ جُوعاً". 37فَاسْتَخْصَنَ فِرْعَوْنُ وَرَجَالَهُ جَمِيعاً هَذَا الْكَلَامِ، ... 39ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «مَنْ حَيْثُ أَنْ اللَّهَ قَدْ أَطْلَعَكَ عَلَى كُلِّ هَذَا، فَلَيْسَ هُنَاكَ بِصِيرٍ وَحَكِيمٍ نَظِيرَكَ. 40لَذَلِكَ أُولِيكَ عَلَى بَيْتِي، وَيَذَعْنِ شُعْبِي لِكُلِّ أَمْرٍ تُصَدِّرُهُ، وَكَنْ يَكُونُ أَعْظَمُ مِنْكَ سِوَايَ أَنَا صَاحِبُ الْعَرْشِ»... 42وَنَزَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَوَضَعَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ، وَالْبَسَهُ ثِيَابَ فَاجِرَةٍ وَطَوَّقَ عُنُقَهُ بِطَوْقٍ مِنْ ذَهَبٍ، 43وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ، وَنَادَوْا: «ارْكَبُوا أَمَامَهُ». وَأَقَامَهُ وَإِلَيْهَا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. 44وَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «أَنَا فِرْعَوْنُ، وَلَا أَحَدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُحَرِّكَ سَاكِنًا فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ غَيْرِ إِيَّاكَ»... وَزَوْجَةً مِنْ أَسْنَتِ بَنَاتِ فَوْطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُون، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ."

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ⁶² (إلينا). فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا: يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ⁶³! قَالَ: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، فَلَلَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ⁶⁴. وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ، قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي (أكثر من هذا): هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا (نتسوق لهم) وَتَحْفَظُ أَخَانًا وَتَزِيدُ الْكَيْلَ بِعِيرِ (لأخيها بنيامين) ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ⁶⁵. قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يَخَاطَ بِكُمْ (يحدث حادث لا تطيقونه)، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ: اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ⁶⁶. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا (مصر) مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ (من طريق واحد حتى لا تكشفون) وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ. إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ⁶⁷. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَغْفُوبُ قَضَاهَا، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا! وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ⁶⁸، وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ (يوسف) إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ (لا تحزن) بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ⁶⁹. فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ (الكأس الذهبي الذي يشرب فيه الملك) فِي رَحْلِ أَخِيهِ (بنيامين) ثُمَّ أَثْنُ مُؤَدِّنَ (نادى مناد بعد انفصالهم عن مجلس يوسف) أَيَّتُهَا الْعِيرُ (أهل القافلة) إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ⁷⁰، قَالُوا (وهم مقبلون عليهم) وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ⁷¹، قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ (كأس) الْمَلِكِ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ (جزاء من جاء به) وَأَنَا بِهِ (بالحمل) زَعِيمٌ⁷² (ضامن وكفيل). قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنَفْسِدَ فِيهِ الْأَرْضَ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ⁷³. قَالُوا (المنادي وصحبه) فَمَا جَزَاؤُهُ (السارق) إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ⁷⁴ (إِنْ وَجَدْنَا الْكَاسَ عِنْدَكُمْ)؟ قَالُوا جَزَاؤُهُ: (يسرق) مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ. كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ⁷⁵، فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ (بنفسها) قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ (بنيامين)، ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ (ذاك)، كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (صنعنا حيلة له لأخذ أخيه منهم) مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ (رقيقا بسبب السرقة) فِي دِينِ الْمَلِكِ (في العرف الذي يحكم به الملك لَأَنْ جَزَاءُ السَّارِقِ كَانَ الضَّرْبُ وَالتَّغْرِيمُ لَا الْاسْتِرْقَاقُ) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ⁷⁶. قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرِقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ (أي يوسف، قيل سرق لأمه صنما وكسره)، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْذَرْهَا لَهُمْ. قَالَ (في نفسه) أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا (السرقتم أخاكم من أبيكم) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ⁷⁷. قَالُوا يَا أَيُّهَا

الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخَذَّ أَحَدُنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ⁷⁸. قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ⁷⁹! فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا
(يَنسُوا) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا (اعْتزلوا يَنَاجِي بعضهم بعضاً)، قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتِقًا مِنَ اللَّهِ (أَنْ تَرُدُّوا أَحَاكِمَ) وَمِنْ قَبْلِ مَا فَرَطْتُمْ
(بَسَبَبَ تَفْرِيطِكُمْ) فِي يَوْسُفَ فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ (مِصْرَ) حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ
يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ⁸⁰. ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ
سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ⁸¹، (رَجِعُوا وَقَالُوا ذَلِكَ
لِأَبِيهِمْ وَأَضَافُوا): وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا
لَصَادِقُونَ⁸²، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعًا (بِیُوسُفَ وَأَخُوهِ) إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ⁸³. وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى
عَلَى يَوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ⁸⁴ (مغموم). قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ (لَا
تَزَالُ) تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا (مُشْرِفًا عَلَى الْهَلَاكِ) أَوْ تَكُونَ مِنَ
الْهَالِكِينَ⁸⁵. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي (عَظِيمَ حَزْنِي) وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ⁸⁶. (قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ): يَا بَنِيَّ اهْذَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ
(اطْلُبُوا خَبْرَهُمَا) وَلَا تَنِسُوا مِنْ رُوحِ (رَحْمَتِهِ) اللَّهِ، إِنَّهُ لَا يَنبَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ⁸⁷. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ (عَلَى يَوْسُفَ) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ
(الْقَوِي) مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ (بِمَالٍ) فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ⁸⁸. قَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ⁸⁹. قَالُوا أَتُنْكُ لَأَنْتَ يَوْسُفَ؟ قَالَ: أَنَا يَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي، قَدْ
مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا! إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ⁹⁰. قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ⁹¹. قَالَ: لَا تَتْرِبَ (عِتَابَ) عَلَيْكُمْ
النُّيُومَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ⁹². اهْذَبُوا بِقِمِيصِي هَذَا فَالْقَوُهِ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ⁹³. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ (فَارْقَتِ
مِصْرَ) قَالَ أَبُوهُمْ (لِمَنْ كَانَ مَعَهُ) إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يَوْسُفَ لَوْ أَنَا أَنْ تَفْهَدُونِي⁹⁴
(تَسْهَوْنِي)! قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ (خَطْئِكَ) الْقَدِيمِ⁹⁵. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ
(بِالْقَمِيصِ) أَلْفَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ⁹⁶. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ⁹⁷. قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ⁹⁸. (وَذَهَبُوا إِلَى مِصْرَ) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى
يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوئِهِ وَقَالَ: ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ⁹⁹. فَرَفَعَ أَبُوئِهِ

عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا، وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ مِنَ الْبَدْوِ (البادية) مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ (أفسد) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي. إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ¹⁰⁰، (قال يوسف) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا كُنْتُ لَآتِيهِ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، تَوْفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّالِحِينَ¹⁰¹. (10)

8- خاتمة: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ... والتوجه إلى قریش

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ (يا محمد) وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ (عند إخوة يوسف) إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ¹⁰². ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ¹⁰³، وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ (أهل مكة) وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ، وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ¹⁰⁴. وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ (دالة على وحدانية الله) فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ¹⁰⁵. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ¹⁰⁶ (يعبدون الأصنام ويعتقدون أنها ستقربهم من الله)، أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ (عقاب بغشاهم) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ¹⁰⁷. قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ¹⁰⁸. وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا (وليس ملائكة)، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى! أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ (من خلال ما تبقى من أطلالهم بعد أن دمرنا مدنهم)؟ وَلَكَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ¹⁰⁹! حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ وَكَأَيْدٍ بِأَسْنَانَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ¹¹⁰. لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ. مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالنوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ¹¹¹.

10- تستمر القصة في التوراة لتتحدث عن مقام آل يعقوب في مصر وسياسة يوسف الزراعية ثم وفاة يعقوب تتلوها وفاة يوسف. وبقصة يوسف ينتهي سفر التكوين ليبدأ سفر الخروج، خروج بني إسرائيل من مصر وبالتالي قصة موسى.

- تعليق

تدرّج سورة يوسف في سلك السور الخمس السابقة، سواء على مستوى المنهج أو مستوى المضمون، أو فاتحة السور. فعلى مستوى الفاتحة تشكل هي والسورتان السابقتان مجموعة "الر". أما على مستوى المنهج فهي تبدأ، كالسور السابقة، بمقدمة تشعر بموضوع السورة، فنقرر أن هذه السورة عرض للدلائل والحجج التي في القرآن الذي نزل باللغة العربية لعل أصحاب هذه اللغة يستدلون منها على ما يؤكد صحة وصدق ما يدعو إليه الرسول محمد بن عبد الله من التوحيد والبعث والجزاء الخ: "الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ". والآيات التي ستعرضها تتعلق بقصة يوسف وإخوته التي وقع السؤال عنها مع ما تنطوي عليه من دروس وعبر.

بعد هذا تبدأ السورة في عرض أحداث القصة : إخوة يوسف حسدوه على المكانة التي كان يحظى بها عند أبيهم يعقوب فتأمروا بقتله، ولكن الله يسر له السبيل ليفلت من كيدهم : لقد أَجْمَعُوا أَنْ يَطْلُبُوا مِنْ أَبِيهِمُ السَّامِحَ لَهُمْ بِاصْطِحَابِهِ مَعَهُمْ عند خروجهم إلى البادية فيلقون به في بئر، ثم يعتذرون لأبيهم بكون الذنب أكله في غفلة عنهم. ويمر بعض التجار على البئر فيعثرون على يوسف ويسترونه من أخوته لبييعوه بدورهم في مصر، لينتهي الأمر به إلى قصر والي مصر حيث تقع زوجة هذا الأخير في غرامه فتراوده عن نفسه، ويمتنع إخلاصا للثقة التي وضعها فيه الوالي. وتكذب الزوجة على زوجها متهمة يوسف بأنه هو الذي رآدها وأراد اغتصابها فيلقي به زوجها في السجن... ثم تتضح الحقيقة فيما بعد. كان يوسف عارفا بتأويل الأحلام وعرف عنه ذلك في قصر الـوالي وبلغ الخبر فرعون الذي كان يبحث عن مؤول له حلما ألقاه فيدعى يوسف إلى قصر فرعون ليفسر له حلمه. كانت هذه المقدرة على تأويل الأحلام هي التي أخرجته من السجن، ثم الالتحاق بفرعون الذي قلده شؤون مصر.

ويحدث جفاف في أرض كنعان حيث يقيم يعقوب والده، ويقصد إخوته مصر للتسوق، ويعرف يوسف إخوته ويسترجعهم إلى أن عرف منهم أخبار والده وأهله، فيأمر باستقدامهم إليه في مصر حيث عاشوا معه في سعة وهناء.

وخلال عرض أحداث القصة تقوم السورة بنشر الدعوة، الدعوة إلى دين إبراهيم، دين التوحيد وإبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام، وذلك من خلال عظة يلقها يوسف داخل السجن على مسامع ساقى الملك وخازنه اللذين وجدهما هناك سجينين معه، عظة يشرح فيها دينه ويقول: "إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ

بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ³⁷، وَاتَّبَعَتْ مَلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ، وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ³⁸. يَا صَاحِبِي (سَاكِنِي) السَّجْنَ! أَلَا رَيَابَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ³⁹، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ. وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ⁴⁰.

ثم تأتي الخاتمة لتعرض بهذه المناسبة، وبخطاب مباشر مركز، ما عرضته سور سابقة من أسس الدعوة المحمدية وأهدافها (الآيات 102-110)، ولتؤكد للرسول عليه السلام أن الضائقة التي يعاني منها قد عانى من مثلها الرسل السابقون حتى إنهم كادوا ييأسون. وفي مثل هذه اللحظة، لحظة القرب من اليأس، يأتي النصر فجأة. قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا، نُوحِي إِلَيْهِمْ، مِنْ أَهْلِ الْقُرَى" (فتعرضوا للتكذيب والإعراض) "حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ، وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ"¹¹⁰.

وتختتم السورة بأن تستعيد، على صعيد المنهج، القضية المطروحة في المقدمة، بعد أن أجابت عن السؤال الذي طرح. يقول تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ (في الكتب كالتوراة) وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"¹¹¹.

التوحيد، الأصنام، التصوير

أولا : التوحيد

ابتدأت الدعوة إلى التوحيد من اللحظة الأولى في مسار الدعوة المحمدية، لحظة "اقرأ باسم ربك الذي خلق". فمنذ تلك اللحظة والدعوة المحمدية تطرح تصورا جديدا للألوهية سرعان ما حددته تحديدا لا لبس فيه عندما طلبت قريش من النبي عليه السلام أن ينسب ربه، بمعنى أن يعرف بموقعه في سلسلة الآلهة التي كانوا يعبدونها! فجاء الجواب ليقطع الصلة تماما مع التصورات الوثنية التي كانت للعرب عن الألوهية وليعلن تميزه الجذري عن اليهودية والنصرانية، الديانتين التوحيديتين اللتين تؤمنان بآله واحد وفي نفس الوقت تقيم فرقا نوعا من التعدد في الذات الإلهية عن طريق مفهوم "النسب". فإله اليهودية خاص بهم وحدهم وهم يعتبرونه "أبا" لهم متصلا بهم وحدهم إن لم يكن من حيث الوجود فمن حيث الرعاية الأبوية، مما جعل علاقتهم به تتطور إلى علاقة قبيلة برئيسها ومدير شأنها، بينما ذهبت بعض فروعهم إلى اعتبار أحد قادتهم (عزرا، وفي القرآن عزير) ابنا لله. أما المسيحية فقد تصورت الألوهية "أقانيم"، أو قل "عناصر" أو "مكونات" ثلاثة: الأب والابن وروح القدس: الأب هو الله، وعيسى ابنه، والروح التي جعلت من مريم تلد من دون أن يمسسها بشر وجعلته نبيا يوحى إليه هو الروح القدس (جبريل في الإسلام). فكان الله عندهم "ثالث ثلاثة" حسب تعبير القرآن.

لقد قطعت الدعوة المحمدية عندما سئل النبي عليه السلام أن "ينسب ربه" مع فكرة "النسب"، سواء كان ماديا أو معنويا أو روحيا، فقال تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ". هذا التعريف ينفصل انفصالا

نهائيا مع التصورات الدينية التي كانت في ذلك الوقت، خاصة الوثنية منها. أما اليهودية والمسيحية اللتان قامتا ضد الوثنية وحاربتهما فقد احتفظ القرآن بعلاقة معهما، علاقة "التوحيد"، الشيء الذي يعنى الاعتراف بنفس الإله لجميع البشر هو إله إبراهيم و"رب العالمين"، لا ولد له لا من الملائكة أو من البشر. وبما أنه لم يكن في مكة زمن البعثة المحمدية يهود ولا نصارى (إلا ما قد يكون من أفراد قليلين، مقيمين كعبيد أو زوار تجار أو قسيسين) فلقد بقيت العلاقة بين الإسلام واليهود والنصارى الذين كانوا يتسمون بـ "أهل الكتاب" محصورة على مستوى "الكتاب" - أعني العقيدة كما تقرها التوراة - من دون زيادات ولا تأويلات تخرج بها عن دين إبراهيم. وبالتالي فالعلاقة معهم كانت سلمية، أو على الأقل غير صدامية، إلى أن هاجر رسول الإسلام إلى "يثرب" حيث تسكن قبائل يهودية قديمة؛ حينئذ سيقع الاحتكاك وتبرز الفروق ويبدأ النزاع والصراع كما سنرى في مرحلة قادمة.

وإذن فمسألة التوحيد التي ركز عليها القرآن في هذه المرحلة الثالثة من الدعوة المحمدية (بعد مرحلة إقرار النبوة والربوبية والألوهية، ومرحلة التأكيد على البعث والجزاء)، ستخصص "أم القرى ومن حولها" وهم العرب الذين يدينون بالشرك وعبادة الأصنام. وبما أن القرآن قد نزل على نبي عربي ولسان عربي يوجه الخطاب إلى خصوم هم الماسكون في بلاد العرب بزمam "السيادة"، بالدين والتجارة، فإن المعنيين أولا بالدعوة التوحيدية، قبل غيرهم، هم هؤلاء أنفسهم الذين رأوا في الدعوة المحمدية حركة داخلية تمس مصالحهم، فتجنّدوا لمقاومتها بالسخرية والاستهزاء ثم يصد الناس عنها وإيذاء الملتحقين بها في أنفسهم وأموالهم. وكما يحدث عادة للدفاع عن المصالح المادية والمعنوية من طرف جماعة ماسكة بزمam الأمور في شعب من الشعوب لا يتم بصورة مباشرة إلا في حالة الحروب والصراعات، أما قبل أن تصل الأمور إلى هذا المستوى فأصحاب المصالح يختارون للدفاع عنها ميدانا يقدمون فيه هذا الصراع بوصفه دفاعا عن ما هو مشترك بين الجماعة صاحبة السيادة ومن تقع عليهم هذه السيادة. وفي مكة حيث كان الانفصال تاما أو شبه تام بين المستكبرين (وهم زعماء القبائل الكبرى الممسكون في الوقت نفسه بالاقتصاد الديني - عائدات الحج - والتجاري) وبين المستضعفين (الذين كانت أغلبيتهم من أبناء القبائل الضعيفة والموالي والعبيد)، فإن ما كان يجمع هؤلاء بأولئك هو "الدين" أعني عبادة الأصنام. ومن هنا كان الدفاع عنها ومقاومة من يهاجمها ويهاجم القائمين عليها والمعتقدين فيها أشبه بـ "الواجب الوطني" الذي يقوده في الغالب كبراء الوطن و"أهل الحل والعقد".

من هذا الوصف السريع للواقع الذي قامت فيه الدعوة المحمدية ندرك أي مجهود يتطلبه تغيير هذا الواقع، وأية تضحيات يتحتم القيام بها لتحقيق النصر عليه. والذين يتتبعون السيرة المحمدية ويتعرفون على أصناف الضغط والعسف والطغيان التي مارسها قريش على النبي وصحابته - ولم يبلغوا المائة إلا بعد عشر سنوات جلهم كانوا قد هاجروا إلى الحبشة مما جعل حمل الدعوة يستقر على كتف الرسول (ص) وحده تقريبا، أقول إن الذين يتتبعون السيرة النبوية المحمدية من خلال ذلك، ومن خلال مسار نزول القرآن وبالاتباط معه، لا بد أن يدركوا، مهما كان دينهم أو ميولهم العقديّة والإيديولوجية والسياسية، أنه إذا كان التاريخ هو الذي يصنع الرجال فإن الرجل محمد بن عبد الله نبي الإسلام هو وحده صنع التاريخ.

ربما كان الإعلان عن هذه النتيجة التي سيخرج بها قارئ هذا الكتاب - إن سلك معنا منهج الفهم والتفهم - سابقا للأوان الآن، إلا أن طرحها كمشروع منذ الآن سيفيد بدون شك في فهم وتفهم مقدار الجهد العملي والمعنوي الذي كان لابد منه لشق الطريق نحو الوصول إليها. كانت الدعوة المحمدية في المرحلتين السابقتين (تثبيت النبوة وإقرار البعث) تتحرك على "هامش الوجود" في مكة. أما في هذه المرحلة الثالثة، مرحلة إبطال الشرك وتسفيه عبادة الأصنام فقد رأيناها تتحرك بقوة داخل ذلك الوجود، تخلخله: تهاجم، وترد على الهجوم.

ويبقى أن نختم هذه المرحلة باستطراد يتناول تاريخ هذا الموضوع الذي جرى حوله الصراع، موضوع "الأصنام" : ما حقيقتها وما تاريخها كما نظر إليه الباحثون المسلمون بعد انتصار الإسلام عليها وقيام تاريخ آخر ألقى بها في سلة "أهملة التاريخ". وما "أهملة التاريخ" في هذا المجال كما في غيره، كثيرا ما يساعد النبش فيه على فهم هذا "التاريخ" نفسه.

ثانيا: الأصنام

1- الأصنام، الأوثان، الأنصاب

تقول المعاجم العربية: الصَّم، ما اتَّخَذَ إِلَهًا من دون الله، فإذا كان له جسم وصورة على شكل إنسان فهو صَنَمٌ تحديدا. أما الوَثَنُ فهو ما كان له جُثَّة من خشب أو حجر أو فضة يُنَحَت وَيُعْبَد. أما إذا كان حجرا على غير صورة فهو نُصَب (بالضم والفتح). قالوا "لم يكن حيًّا من أحياء العرب إلا ولها صنم يعبدونها يسمونه أنثى بنى فلان"؛ وكانت الأنصاب حول الكعبة يذبح لها بغير اسم الله. وقيل إن من

لم يقدر على اتخاذ صنم له أو بناء بيت للعبادة نصب حجرا أمام الكعبة، أو في مضاف له قداسة معينة، ثم طاف حوله، ومن هنا تسميتهم الأنصاب. قيل كان الواحد منهم إذا سافر أخذ معه أربعة أحجار يتخذ أحدا ربًّا، ويجعل الثلاثة الباقين قِدرًا، فإذا رحل عن المكان ترك تلك الأحجار وأخذ أخرى وفعل بها مثل ذلك.

ويبدو أن اللفظين "وثن" و"صنم" مشتركان بين اللغة العربية ولغات سامية أخرى كما رأينا في اسمي الجلالة : "الله" و"الرحمان". وبالتالي فهما معربان: الصنم من "سلم" Selem وهذه الكلمة تعني "صورة: باللغة العبرية، و"إله الورد" في الآرامية. هذا بينما التمس اللغويون العرب للفظ "وثن" أصلًا في اللغة فقالوا هو من: "وثن بالمكان" بمعنى أقام فيها⁽¹⁾.

2- الأصنام في الكعبة : صور إبراهيم ومريم

كان بالكعبة عند ظهور الإسلام عدد هائل من الأصنام، ففي صحيح مسلم (كتاب إزالة الأصنام) أن النبي عليه السلام : "دَخَلَ مَكَّةَ (عند فتحها)، وَحَوَّلَ الْكَعْبَةَ ثَلَاثِينَ وَبَسْتُونَ نَصِبًا، فَجَعَلَ يَطْعُمُهَا بِغُودٍ كَانَ بِيَدِهِ. وَيَقُولُ "جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا" (الإسراء: 81). "جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ"» (الآية (سبأ: 49). وروى الأزرقي في كتابه "أخبار مكة" أن النبي (ص) دخل الكعبة يوم الفتح وفيها صور الملائكة وغيرها، فرأى صورة إبراهيم، فقال: "قاتلهم الله، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام" فكسرها. ثم رأى صورة مريم، فوضع يده عليها، وقال: امحوا ما فيها (في الكعبة) من الصور إلا صورة مريم". وفي رواية أخرى: "أن قريشا كانت قد جعلت في الكعبة صورًا، فيها عيسى ابن مريم ومريم عليهما السلام"، وأن امرأة "من غسان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت : بأبي وأمي إنك لعربية. فأمر رسول الله (ص) أن يمحوا تلك الصور، إلا ما كان من صورة عيسى ومريم". وبعد كسر الأصنام وإحراقها بعث الرسول عليه السلام، لهدم أصنام القبائل، سرايا كان على رأسها بعض كبار الصحابة مثل علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والمغيرة بن أبي شعبة الخ.

3- عبادة الأصنام عبادة قديمة

وعبادة الأصنام وما في معناها قديمة قدم الإنسان، ويطلق عليها في مقابل الديانات التوحيدية اسم "الوثنية" paganism، ومن الصعب جدا إرجاع عبادتها التي

1- المصادر حول الأصنام كثيرة: منها ما ورد في التفاسير وفي قصص الأنبياء وفي كتب التاريخ والأدب والأخبار. ومن الكتب كتاب الأصنام للكليبي وكتاب أخبار مكة للأزرقي...

انتشرت في الجزيرة العربية إلى عصر واحد أو مصدر واحد، خصوصا وقد كانت هذه الجزيرة على اتصال مستمر مع الحضارات القديمة: شرقا وغربا وجنوبا وشمالا. وكما رأينا فالقرآن الكريم يتحدث عن عبادة الأصنام منذ نوح، وأن إبراهيم عليه السلام قد شن ثورة على الأصنام داعيا إلى عبادة الله وحده وأنه بمساعدة ابنه إسماعيل - قد بنى الكعبة في مكة وجعل منها مركزا للدين الحنيف دين التوحيد. يقول المؤرخون العرب إن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم، وأن أحد رجال هذه القبيلة وهو مضاض بن عمرو الجرهمي تزوج بنت إسماعيل وبنى الحرم الذي منح مكة مكانتها الدينية، فحدث تحالف بين الإسماعيليين والجرهميين وانتشروا في الحجاز. وكان التحالف من نوع التحالف بين الدين والقبيلة، وشينا فشينا سلم الإسماعيليون السلطة السياسية إلى الجرهميين، الذين استبدوا بالملك مع مرور الزمن و"فسقوا" في مكة.

وبسبب "السيل العرم" الذي عرفته اليمن وخراب سد مأرب (يقال تهدم أول مرة علم 542م ثم انهار نهائيا عام 750م) هاجرت إحدى القبائل اليمنية التي كان على رأسها حارثة بن عمرو الملقب بـ "خزاعة" إلى الشمال. فاستولت على مكة والحرم وأجلت عنها قبيلة جرهم. ثم استولى عمرو بن لحي، حفيد خزاعة، على السيادة في مكة متحالفا مع بني إسماعيل وتولى حجابة البيت، وصار كاهنها، وهو الذي يرجع إليه الإخباريون العرب استقدام الأصنام إلى مكة من جدة والشام واليمن ونشر الوثنية فيها. ويقال هو الذي أتى بـ "هبل" وهو من كبار أصنام الكعبة. وبعد عمرو بن لحي آل أمر مكة إلى قصي بن كلاب الجد الخامس للنبي عليه السلام الذي تزوج من بنت خليل الخزاعي قريب عمرو بن لحي.

يذكر الأثرقي عن ابن إسحاق أن عمرو بن لحي نصب صنم الخلصة بأسفل من مكة، فكانوا يلبسونها القلائد، ويهدون إليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون عليها بيض النعام؛ ونصب على الصفا صنما يقال له نهيك مجاود الرياح، ونصب على المروة صنما يقال له مطعم الطير ... ونصب مناة على ساحل البحر (الأحمر) مما يلي قديدا، وهي التي كانت للأزد وغسان، يحجون إليها ويعظمونها، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى، لم يحلقوا إلا عند مناة، وكانوا يهلون لها، ومن أهل لها لم يطف بين الصفا والمروة؛ لمكان الصنمين اللذين عليهما: نهيك مجاود الرياح، ومطعم الطير. فكان هذا الحي من الأنصار يهلون بمناة، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لم يظل أحدا منهم سقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته، وإن كانت له فيه حاجة تسور من ظهر بيته؛ لأن لا يجن (يستر) رتاج الباب (ما فيه يعلق) رأسه.

فلما جاء الله بالإسلام، وهدم أمر الجاهلية، أنزل الله تعالى في ذلك: "وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى" (البقرة 189). قال: وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأردن ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام، وكانت على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد" (قرب مكة). كما ينقل الأزرقي عن الكلبي: أن "مناة كانت صخرة لهذيل، وكانت بقديد"، وأن "اللات والعزى ومناة كانت في كل واحدة منهن شيطانة تكلمهم وتترأى للسدنة، وهم الحجة". ويبدو أن الاستيلاء على الكعبة كان من طموحات ملوك اليمن، فعلاوة على حملة أبرهة والي الحبشة "عام الفيل"، حاول ملوك اليمن التابعة، الاستيلاء على مكة مرات، على ما يذكر الإخباريون.

4- الأصنام في اليهودية والمسيحية.

لم يكن الإسلام هو وحده من بين الديانات التوحيدية الذي شن حملة على الأصنام والعبادة الوثنية. ففي التوراة والأنجيل مثل ذلك. ففي سفر التثنية من التوراة أن موسى قال لبني إسرائيل بعدما صنعوا لهم صنما "عجلاً" أثناء غيابه لملاقاة ربه لأخذ الألواح: "إياكم أن تنسوا عهد الرب الهكم الذي قطع معكم وتحتوا لأنفسكم تمثالاً لصورة ما مما نهاكم الرب الهكم عنه. 24 لأن الرب الهكم هو نار آكلة وإله غيور. 25 وإذا أنجبتم ببين وأحقاداً ومكتم طويلاً في الأرض، ثم غويتم فحنتم لكم تمثالاً لصورة شيء ما، وارتكبتم الشر في عيني الرب الهكم لإثارة غيظه، 26 فإنني أشهد عليكم اليوم السماء والأرض، أنكم تنقضون سريعا من الأرض التي أنتم عابرون نهر الأردن إليها لتراثوها، ولن تطول بكم الأيام عليها، إذ لا بد أنكم حينئذ هالكون. 27 ويؤسستكم الرب بين الأمم فتصبحون أقلية بين الشعوب التي يسوقكم إليها. 28 وهناك تعبدون إلهة من خشب وحجر من صنعة أيدي الناس، مما لا ينصير ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم... 30 ولا تصاهروهم (عبدة الأصنام) فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبنائكم من بناتهم، 4 إذ يغوون أبنائكم عن عبادتي ليعبدوا إلهة أخرى... أهنيؤا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواربهم وأحرقوا تماثيلهم". (سفر التثنية 1420 - 1220 ق م).

وفي سفر أشعيا (القرن الثامن قبل الميلاد) نقرأ: "6 هذا ما يقوله الرب القدير ملك إسرائيل وقاديه: «أنا هو الأول والآخر، ولا إله غيري... هل هناك إله غيري؟ هل هناك صخرة أخرى لا علم لي بوجودها؟ 9 كل صانعي التماثيل لا جدوى منهم، ومستبهماتهم لا طائل منها... 18 إنهم لا يفقهون ولا يدركون، إذ غشي على عيونهم فلا ينصرون، وأغلق على قلوبهم فلا يفهمون".

أما في النصوص المسيحية فنقرأ في "أعمال الرسل" لـ"لوقا": "تَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّنَمَ لَيْسَ بِإِلَهٍ مَوْجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَأَنَّهُ لَا وُجُودَ إِلَّا لِإِلَهِ وَاحِدٍ. 5 حَتَّى لَوْ كَانَتْ الْإِلَهَةُ الْمَرْغُومَةُ مَوْجُودَةً فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَا أَكْثَرَ تِلْكَ الْإِلَهَةُ وَالْأَرْبَابُ! 6 فَلَيْسَ عِنْدَنَا نَحْنُ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ هُوَ الْآبُ الَّذِي مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَنَحْنُ لَهُ؛ وَرَبُّ وَاحِدٌ هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ كُلُّ شَيْءٍ وَنَحْنُ بِهِ ... 14 لِذَلِكَ، يَا أَجْيَانِي، اهْرُبُوا مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. ... 21 أَيُّهَا الْأَوْلَادُ الصِّغَارُ، احْفَظُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ! ... 8 أَمَّا الْجِنَاءُ وَغَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاسِدُونَ وَالْقَاتِلُونَ وَالزُّنَاةُ، وَالْمُتَصِلُونَ بِالشَّيَاطِينِ وَعَبْدَةُ الْأَصْنَامِ وَجَمِيعُ الدَّجَالِينَ، فَمَصِيرُهُمْ إِلَى الْبُحِيرَةِ الْمُتَقَدَّةِ بِالنَّارِ وَالْكَيْرِيَتِ (جهنم)، الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ الدَّائِي» (أعمال الرسل) (2).

ولا بد من الإشارة هنا إلى الدور الذي كان لانتشار الحضارة اليونانية في المنطقة، وبالأخص دياناتها الشعبية الوثنية التي كانت تستعمل التماثيل (تمثيل آلهتها في السماء على الأرض بواسطة الصور المجسمة والنحت الخ)، فهذه الديانة الشعبية الإغريقية هي التي كانت مستهدفة في "أعمال الرسل" والأنجيل، ولربما كان ذلك الاستهداف مظهرا من مظاهر صراع الإمبراطورية الرومانية مع الحضارة اليونانية، خاصة عند قيام بيزنطة المسيحية واحتوائها للكنيسة. وكما يحدث عادة فالفقهاء على مظهر من مظاهر حضارة مغلوقة كثيرا ما يصحبه انفتاح على مظهر آخر من مظاهرها، يكون بمثابة فتح مضاد للحضارة الغازية. وهكذا، ففي الوقت الذي كان فيه "الرسل" في المسيحية يشنون حملة واسعة ضد "أصنام" الوثنية الإغريقية، كانت الفلسفة اليونانية تقوم بعملية غزو مضاد للمسيحية في قلب عقيدتها ففرضت فيها إشكالياتها الفلسفية المعبر عنها بـ "مشكل صدور الكثرة عن الوحدة" وأعطتها قالباً دينياً فلسفياً تم التعبير عنه بـ "التثليث"، وقد سبق أن بينا كيف حصل ذلك مع "بولس خلال تبشيره في بلاد اليونان والأقاليم المتأثرة بها : "بلاد الوثنيين" (3)

ثالثاً - الأصنام والتصوير في الإسلام ...

شن القرآن -كما تتبعنا في فصول هذه المرحلة وسنرى المزيد في المراحل القادمة- حملة واسعة عنيفة ضد عبادة الأصنام والأوثان، وبشكل عام عبادة غير

2 - تحاول الترجمة الدولية الجديدة التي نعتمدها أن تقترب من ألفاظ القرآن وعباراته بأسلوب يخلو من الركائكة التي تطبع الترجمات القديمة. لكن المعنى يتوافق تماماً مع أسلوب الطبعة التي تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي، بيروت.

3- انظر التعريف بالقرآن: الفصل الأول الفقرة 3

الله - ولكنه لم يعرض في أية آية للمصورين، سواء مصوري الأصنام أو غيرها. مما يؤكد أن قصد الشارع من إزالة الأصنام، سواء من الكعبة أو من غيرها هو الحيلولة دون عبادتها بوصفها شركاء وليس بوصفها مجرد صور. وقد سبق أن أشرنا إلى منعه عليه الصلاة والسلام تمزيق صورة مريم وعيسى أثناء كسر وتمزيق أصنام الكعبة عقب فتح مكة، وأنه (ص) أمر بتكسر وتمزيق الصورة التي كانت تمثل نبي الله إبراهيم لأنهم صوروه وهو يستقسم بالأزلام وهو شيء محرم في الإسلام وبالتالي يتناقض مع دين إبراهيم أصل الأديان السماوية.

وعندما أزيلت الأصنام من مكة وقام المسلمون بتوجيه من النبي (ص) بحملات لكسرها وتمزيقها وإحراقها لدى القبائل في جزيرة العرب كان من الطبيعي أن تستمر الحملة عليها فكريا، حرصا على عدم عودة الناس إلى عبادتها. ودخل المسلمون في مرحلة الفتوحات، وجلها كانت في بلدان كان أهلها إما يعبدون الأصنام ويقيمون لها التماثيل وإما يعبدون الله ويقيمون لأبنائهم صورا رمزية غير مقرونة بالعبادة كما كان الحال في صورتَي مريم وعيسى في الكعبة. وكان من الطبيعي أن تستمر الحملة الفكرية على الأصنام حتى لا تنتشر ويعود المسلمون الجدد إلى عبادتها، فرويت أحاديث تحرم التصوير جملة، أشهرها حديث بلفظ: "إنَّ أشدَّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصوّرون"، وحديث آخر رواه بلفظ: "إنَّ الذين يصنعون هذه الصّور يُعذبون يوم القيامة، يُقال لهم: أحيوا ما خلّقتُم".

وقد علق ابن حجر على لفظ الحديث الأول بقوله: "وقد استشكل كون المصور أشدَّ الناس عذاباً مع قوله تعالى: "ادخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب" (غافر: 46) فإنه يقتضي أن يكون المصور أشدَّ عذاباً من آل فرعون؟ ثم يورد جواب الطبري على هذا الاستشكل، يقول فيه: "إن المراد هنا من يصور ما يعبد من دون الله وهو عارف بذلك، قاصداً له، فإنه يكفر بذلك، فلا يبعد أن يدخل مدخل آل فرعون. وأما من لا يقصد ذلك فإنه يكون عاصياً بتصويره فقط". كما ذكر رأي القرطبي وجاء فيه: "إن الناس الذين أضيف إليهم «أشد» لا يراد بهم كل الناس بل بعضهم، وهم من يشارك في المعنى المتوعد عليه بالعذاب، ففرعون أشدَّ الناس الذي ادعوا الإلهية عذاباً، ومن يقتدي به في ضلالة كفره أشدَّ عذاباً ممن يقتدي به في ضلالة فسقه، ومن صور صورة ذات روح للعبادة أشدَّ عذاباً ممن يصورها لا للعبادة".

واضح أن هذا الاستشكل لا يمس صميم الموضوع وإنما يناقش "لفظ" أشدَّ العذاب وكيف يفهم انطلاقاً من أن وزر التصوير لا يوازن وزر فرعون الذي جاء الوعيد له في القرآن بهذا اللفظ. أما "العذاب"، شديداً كان أو غير شديد، فهو لا يصيب إلا من صدر في تصويره عن قصد له علاقة بالعبادة. وفي عصرنا، وفي بلاد

الإسلام خاصة، لا أعتقد أن هناك من يصور صورة أو تمثالا للعبادة، سواء تعلق الأمر بما له روح أو بما ليس له روح. ولا يقصد المصورون اليوم أي نوع من الشرك مع الله في تصوير الأشياء: فكما أن الحداد يصنع آلات لها أشكال وصور معينة كالفأس والمحراث والمفتاح والأواني الخ، من أجل الاستعمال وتسخير الطبيعة، وكما يصنع الصائغ أدوات الزينة، ويصنع الخياط الثياب المزركشة، والحذاء الأحذية المنمقة، والطهاة الطعام بأشكاله المختلفة، يرسم المصور والنحات صورا ونقوشا وتمائيل لحاجة الإنسان من الناحية الجمالية والفنية دون أن تكون لذلك أية علاقة بالدين والعبادة. والمبدأ الحاكم في هذا الميدان، كما في غيره من الميادين، هو أن "الأعمال بالنيات"، أعني المقاصد. فكل ما يقصد به أي نوع من أنواع الشرك بالله فهو محرم، لا لأنه رسم أو صورة أو تمثال، بل لأن الشرك بالله يمارس بواسطته. أما ما عدا ذلك فهو من الصنائع التي يقوم بها الإنسان إما لإنعاش جسمه أو لإنعاش روحه وتوسيع أفق تفكيره وتنمية إحساساته والتسلية على نفسه. بعضها يدخل في الضروري من المعاش وبعضها يدخل في التحسينات والتكميلات وبعضها للزينة. "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ... قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (الأعراف 32-33)".

وعلى هذا فالحديثان السابقان إنما يشهد لهما القرآن بالصحة إذا كان القصد من التصوير داخلا في مضمون قوله تعالى: "وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ...". أما إن كان التصوير للزينة فهو يدخل في مضمون قوله تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ" خصوصا وقد نزلت هذه الآية في عرب الجاهلية الذين كانوا يحرمون على أنفسهم لبس الثياب في المسجد الحرام عند الطواف بالكعبة. يقول الطبري في شرح هذه الآية: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ يَتَعَرَّوْنَ عِنْدَ طَوَافِهِم بِالْبَيْتِ، وَيَحْرَمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ مِنْ طَيِّبَاتِ الرِّزْقِ: مَنْ حَرَّمَ أَبْهَاقُ الْقَوْمِ عَلَيْكَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ أَنْ تَتَرَبَّصُوا بِهَا وَتَتَجَمَّلُوا بِلِبَاسِهَا، وَالْحَلَالُ مِنَ اللَّهِ الَّذِي رَزَقَ خَلْقَهُ لِمَطَاعِهِمْ وَمُشَارِهِمْ".

فهرس القسم الأول

الصفحة	الموضوع
5	- مقدمة
17	- <u>المرحلة الأولى النبوة والريوية والأوهية</u>
19	- استهلال
21	1- العلق
24	2- المدثر
31	3- المسد
35	4- التكوير
38	5- الأعلى
42	6- الليل
45	7- الفجر
49	8- الضحى
51	9- الشرح
53	10- العصر
56	11- العاديات
58	12- الكوثر
60	13- التكاثر
62	14- الماعون
65	15- الكافرون
67	16- الفيل

69	17- الفلق
73	18- الناس
77	19- الإخلاص
80	20- الفاتحة
83	21- الرحمن
90	22- النجم
96	23- عبس
100	24- الشمس
103	25- البروج
107	26- التين
111	27- قريش
115	- استطراد: الرب، الله، الرحمان
129	- <u>المرحلة الثانية: البعث ومشاهد القيامة</u>
131	- استهلال
133	28- القارعة
135	29- الزلزلة
138	30- القيامة
144	31- الهمزة
146	32- المرسلات
149	33- ق.
154	34- البلد
158	34م1- العلق-بقية
161	34م2- المدثر-بقية

165	35- القتم
173	36- الطارق
177	37- القمر
181	- استطراد : المعاد
195	- المرحلة الثالثة: إبطال الشرك وعبادة الأصنام
197	- استهلال
199	38- ص.
208	39- الأعراف
233	40- الجن
248	41- يس.
255	42- الفرقان
265	43- فاطر
271	44- مريم
178	45- طه
290	46- الواقعة
295	47- الشعراء
305	48- النمل
313	49- القصص
322	50- يونس
334	51- هود
345	52- يوسف
356	- استطراد

كتب المؤلف

حسب تاريخ صدورها

1. العصبية والدولة : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي 1971.
2. أضواء على مشكل التعليم بالمغرب 1973.
3. مدخل إلى فلسفة العلوم : جزآن 1976 (الأول : تطور الفكر الرياضي والعقلانية المعاصرة. الثاني : المنهج التجريبي وتطور الفكر العلمي).
4. من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية 1977.
5. نحن والتراث : قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي 1980 ترجم إلى الإسبانية والتركية.
6. الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية 1982.
7. تكوين العقل العربي : 1984. (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
8. بنية العقل العربي : 1986. (ترجم إلى التركية وتحت الترجمة إلى الفرنسية).
9. السياسات التعليمية في المغرب العربي 1987.
10. إشكاليات الفكر العربي المعاصر 1988.
11. المغرب المعاصر : الخصوصية والهوية : الحداثة والتنمية 1988.
12. العقل السياسي العربي : 1990 (ترجم إلى التركية والفرنسية).
13. حوار المغرب والمشرق : حوار مع د. حسن حنفي 1990.
14. التراث والحداثة : دراسات ومناقشات 1991.
15. مقدمة نقاد العقل العربي نصوص مترجمة إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان : **Introduction à la critique de la Raison arabe** : traduit de l'arabe et présenté par Ahmed Mahfoud et Marc Géooffroy, éd. La Découverte. Paris 1994.
- ترجم إلى الإيطالية والإنجليزية والبرتغالية، والإسبانية واليابانية والهندونيسية.
16. المسألة الثقافية 1994.
17. المثقفون في الحضارة العربية والإسلامية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد 1995.
18. مسألة الهوية : العروبة والإسلام ... والغرب 1995.
19. الدين والدولة وتطبيق الشريعة 1996.
20. المشروع النهضوي العربي 1996.
21. الديمقراطية وحقوق الإنسان 1997.
22. قضايا في الفكر المعاصر 1997.
23. التنمية البشرية والخصوصية السوسيوثقافية 1997 (نشر الأمم المتحدة، الإسكوا، ترجم إلى الإنجليزية).
24. وجهة نظر : نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر 1997.
25. حفريات في الذاكرة، من بعيد! 1997.
26. الإشراف على نشر جديد لأعمال ابن رشد الأصلية مع مداخل ومقدمات تحليلية وشروح إلخ 1997-1998 (فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، تهافت التهافت، كتاب الكليات في الطب، الضروري في السياسة : مختصر سياسة أفلاطون).
27. ابن رشد : سيرة وفكر 1998.
28. العقل الأخلاقي العربي : دراسة تحليلية نقدية لتنظيم القيم في الثقافة العربية، 2001.
29. في نقد الحاجة إلى الإصلاح 2005.
30. سلسلة مواقف.
31. مدخل القرآن الكريم : التعريف بالقرآن، 2007.